سْتيف بْيري

الثَّأرُ البَاريسيّ

رواية

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الثَّأرُ
البَاريسي

سْتيف بيري

الثّـَأرُ البـَاريسيْ

رواية

ترجمة
أنطوان عبدالله

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

الثأر الباريسي

ISBN: 978-9953-27-957-2

Authorized Translation from the English Language: Edition

The Paris Vendetta

الناشر

DAR AL KITAB AL ARABI دار الكتاب العربي

Beirut - Lebanon بيروت - لبنان

Tel (+9611) هاتف
800811 – 862905 – 861178

Fax (+9611) 805478 فاكس

daralkitab@idm.net.ib بريد إلكتروني
academia@dm.net.ib

www.kitabalarabi.com
www.academiainternational.com

المحتويات

تمهيد

سهل الجيزة، مصر

آب (أغسطس) 1799

ترجّل الجنرال نابليون بونابرت عن صهوة جواده وراح يحدّق النظر إلى الهَرَم. كان هناك هرمان آخران قابعان في الجوار بالتعاقب، ولكن هذا الهرم كان الأكبر بين الثلاثة.

يا لها من غنيمةٍ كبيرة تنازل عنها الفاتح السابق.

رحلة ركوبهم البارحة جنوباً من القاهرة مروراً بالحقول التي تجاور قنوات الرّيّ الموحلة، ورحلة عربة الثيران في الرمال التي كانت تذرّيها الريح، كانت هادئةً خالية من الأحداث الهامة. رافقه مئتا جنديّ مسلّح، إذ إنها كانت مجازفة متهوِّرة أن تدخل إلى كل ذلك العمق في مصر لوحدك. كان قد ترك فرقته العسكرية على بعد ميلٍ لكي تنصب مخيَّماً لتلك الليلة. كان النهار حاراً وجافاً جداً خلال رحلتهم، وكان قد انتظر عن عمد إلى أن تغرب الشمس حتى يزور المكان.

كان قد وصل إلى الشاطئ، قرب الإسكندرية، قبل خمسة عشر شهراً ومعه جنديٍّ و1000 بندقيةٍ و700 حصانٍ و100000 طلقة من الذخيرة الحربية. وكان قد تقدّم بسرعةٍ جنوباً واحتل العاصمة، القاهرة، وقد وضع نصب عينيه أن يعطّل أية مقاومة من خلال المفاجأة والسرعة. ثم قاتل المماليك، ليس بعيداً عن هنا، في معركة مجيدةٍ دُعيت معركة الأهرامات. فقد كان أولئك العبيد الأتراك السابقين قد احتلوا مصر لمدة خمس مئة سنة، ويا له من مشهد - فكان هناك آلاف من المحاربين، يرتدون زيّاً ملوَّناً، ويمتطون الفحول الضخمة. كان لا يزال قادراً على أن يشمَّ رائحة فتيل المتفجّرات، ويشعر بهدير المدافع، ويسمع قرقعة البواريد (البنادق)، وصرخات المحتضرين. أما جنوده، المحاربون القدماء المتمرّسون الذين هم من المشاركين في الحملة على إيطاليا، فقد حاربوا ببسالةٍ. ومع أنه خسر مئتي قتيل فرنسي فقط، إلا أنه استولى عملياً على جيش عدوّه بأكمله، محققاً سيطرةً كاملةً على مصر السفلى. لقد كتب أحد المراسلين الصحفيين يقول: "حفنة من الفرنسيين

أخضعوا لسلطتهم ربع الكرة الأرضية".

لم يكن هذا صحيحاً تماماً، ولكن بدا كلاماً رائعاً.

كان المصريون قد أطلقوا عليه لقب السلطان الكبير -لقبُ ينمّ عن احترام، على حدّ قولهم. وخلال الأشهر الأربعة عشر الماضية، ومن خلال حكمه لهذا البلد كقائدٍ أعلى، اكتشف أنه يعشق الصحراء، مثلما يحب الرجال الآخرون البحر، لقد أحبّ أسلوب الحياة المصرية، حيث تُعتبر الممتلكات بلا قيمة أمام الشخصية التي تلاقي الكثير من التقدير.

كانوا أيضاً يؤمنون بالعناية الإلهية.

وهو أيضاً كذلك.

"أهلاً بك، أيها الجنرال. يا لها من أمسية مجيدة أن تزورنا"، نادى غاسبارد مونج بطريقته المبتهجة الاعتيادية.

كان نابليون يستمتع برفقة ذلك الاختصاصي المشاكس في علم الهندسة، وهو ابن فرنسي عجوز كان يعمل كبائع متجول، حباه الله بوجه عريض، وعينين غائرتين، وأنف أفطس. ومع أنه رجل متعلم، إلا أن مونج كان يحمل دائماً بندقية ومصباحاً ويبدو توّاقاً إلى الثورة والمعارك. كان واحداً من بين 1 شخصاً من الدارسين والعلماء والفنانين –"العلماء" كما سَمَّتْهم الصحافة - أولئك الذين قاموا بالرحلة من فرنسا معه، إذ أنه لم يأتِ فقط ليحتل البلاد بل ليتعلم. كان مَثَلُه الأعلى في الحكم هو الإسكندر الكبير، الذي فعل نفس الأمر عندما غزا بلاد فارس. وكان مونج قد سافر مع نابليون من قبل، إلى إيطاليا، كمشرفٍ بشكل مطلق على نهب تلك البلاد، ولذلك فقد كان يثق به.

إلى حدٍ ما.

"أتعلم يا غاسبارد، عندما كنتُ طفلاً كنت أريد أن أدرس العلوم. وخلال الثورة، في باريس، حضرت عدة محاضرات في الكيمياء. ولكن للأسف، جعلَتْني الظروف ضابطاً في الجيش".

قاد أحد العمال المصريين حصانه مبتعداً، ولكن ليس قبل أن يأخذ عنه الحقيبة الجلدية. وقف هو ومونج لوحدهما، والغبار المضيء يتراقص في ظل الهرم الكبير.

قال: "قبل أيام أجريتُ عملية حساب ووجدت أن تلك الأهرامات الثلاثة تحوي من الحجارة ما يكفي لبناء سور عرضه متر وارتفاعه ثلاثة أمتار يحيط بباريس كلها".

بدا مونج وكأنه يتأمّل فيما قاله. "يمكن أن يكون هذا صحيحاً أيها الجنرال".

ابتسم للمواربة. "إنك تتكلم كعالم رياضيّات متشكّك".

"أبداً على الإطلاق. كل ما هنالك أني وجدت نظرتك إلى تلك الصروح الضخمة ممتعة من حيث علاقتها بالفراعنة، أو بأولئك الذين تحتويهم هذه القبور، أو حتى بالهندسة المذهلة المستخدمة لتشييدها. بل إنك تراها فقط من حيث علاقتها بفرنسا".

"يصعب عليّ ألا أفعل ذلك. إلا أني أفكر في شيء آخر".

منذ رحيله من الوطن، كانت فرنسا تعاني من حالة فوضى عارمة. فأسطولها الذي كان عظيماً يوماً ما قد دمره البريطانيون، عازلين إياه هنا في مصر. وبلت حكومة "المديرين" مصمّمة على محاربة كل دولة ذات حكومة مَلَكيّة، فشكّلت عداوة مع إسبانيا، وبروسيا، والنمسا، وهولندا. بدا الصراع، بالنسبة لهم، طريقة لإطالة فترة سلطانهم ولسد النقص في الخزينة الوطنية الآخذة في الاضمحلال.

يا للسخافة.

باءت الجمهورية بالفشل التام.

وكانت إحدى الصحف البريطانية القليلة العدد المنتشرة في أرجاء البحر المتوسط قد تنبأت بأنها مسألة وقت فحسب قبل أن يجلس لويس آخر على عرش فرنسا.

كان عليه أن يعود إلى الديار.

فكل ما كان عزيزاً عليه كان يتقوَّض.

"فرنسا تحتاجك". قال له مونج.

"ها إنك الآن تتكلم كثوري حقيقي".

ضحك صديقه وقال: "تقصد ما أنا عليه حقاً".

كان نابليون قد شاهد كيف اقتحم الثوار "قصر تويلري" وأسقطوا الملك لويس السادس عشر عن العرش. ثم خدم بإخلاص الجمهورية الجديدة وحارب في تولون، وفيما بعد رُقّي إلى رتبة قائد لواء، ثم إلى قائد عام لجيش الشرق، وأخيراً إلى حاكم في إيطاليا. ومن هناك سار شمالاً واستولى على النمسا، عائداً إلى باريس كبطل وطني. وها هو الآن، وقد بلغ الثلاثين بالكاد، قائدُ عام لجيش المشرق، وقد احتل مصر.

ولكنّ قدره أن يحكم فرنسا.

"يا لفيض الأشياء الرائعة"، قال مبدياً إعجابه من جديد بالأهرامات الضخمة.

خلال رحلته من المعسكر رأى عمالاً منهمكين بإزالة الرمال عن تمثال أبي الهول نصف المدفون. كان قد أمرهم شخصياً بالكشف عن ذاك الحارس الصارم، وقد سُرَّ لرؤية مدى تقدّمهم في عملهم.

"هذا الهرم هو الأقرب إلى القاهرة، ولذلك نسميه الأول". قال مونج ذلك. وأشار إلى آخر: "وذاك هو الثاني. والأبعد هو الثالث. لو أمكننا أن نقرأ الأحرف الهيروغليفية وحسب، لأمكننا ربما معرفة رموزهم الحقيقية".

وافقه الرأي. ما من أحد كان ليستطيع أن يفهم الرموز الغريبة التي ظهرت على كل من الصروح العتيقة. وكان قد أمر بنسخها، وحصلوا على رسومات كثيرة استهلك بها فنانوه كلَّ أقلام الرصاص التي كانوا قد جلبوها معهم من فرنسا. لقد كان مونج هو الذي ابتكر هذه الطريقة البارعة لصهر الطلقات الرصاصية محوّلاً إياها إلى قصبات من قصب النيل وأشكال أخرى.

"قد يكون لنا أمل هناك".

ورأى انحناءة الرأس التي أبداها مونج دلالة الموافقة.

لقد كان كلاهما يعرفان بأن برهان المسألة كان يوجد في ذلك الحجر الأسود القبيح الذي وُجِدَ في حجر رشيد، والذي نُقِشتْ عليه ثلاثة نصوص مكتوبة ـ بالهيروغليفية، لغة مصر القديمة، والديموطية، لغة مصر الحالية، واليونانية. وفي الشهر المنصرم كان قد حضر جلسة تعليمية في معهد مصر، الذي أسسه بنفسه لتشجيع "خدّامه"، حيث تم الإعلان عن الاكتشاف.

ولكن كانت هناك حاجة إلى المزيد من الدراسة.

"إننا نقوم بأولى عمليات المسح المنهجية لهذه المواقع". قال مونج واستأنف كلامه: "كل من جاء قبلنا نهب البلاد وحسب. ولكننا سوف نخلِّد ما نجد".

كانت هذه فكرة ثورية أخرى، خطرت لنابليون. واتفق فيها مع مونج.

وأمر قائلاً: "خذني إلى الداخل".

قاده صديقه ليصعد سلّماً من الجانب الشمالي، وصولاً إلى المنصة على ارتفاع 20 متراً. كان قد جاء سابقاً إلى هذا المكان، قبل أشهر، مع بعض ضباطه، حيث عاينوا الأهرامات لأول مرة. ولكنه أبى أن يدخل إلى الصرح لأن ذلك كان يتطلب منه أن يزحف على الأربع أمام أتباعه. أما الآن فانحنى وراح يتلوّى وهو يدخل إلى دهليز لا يتجاوز ارتفاعه متراً وعرضه نفس المسافة، وهذا كان يؤدي إلى طريق مائل عبر الأهرام من الداخل. كانت الحقيبة الجلدية تتأرجح متدلية من عنقه. ثم وصلا إلى دهليز آخر يتجه إلى الأعلى، فدخله مونج. وكان الانحدار يزداد الآن مؤدياً إلى ساحة مُضاءة عند الطرف البعيد.

خرجا من الدهليز وأمكنهما أن يقفا منتصبَيْن، وقد ملأه الموقع المدهش بالوقار. وعلى ضوء وهج مصباح الزيت، رأى سقفاً يرتفع حوالي عشرة أمتار. وكانت الأرض تنحدر بشدة إلى الأعلى فتؤدي إلى مبنىً يحوي المزيد من الغرانيت. كانت الجدران تُبرزُ نتوءات إلى الخارج في سلسلة من الكوابيل[1] المبنية أحدها فوق الآخر لتشكل قنطرة ضيقة.

همس قائلاً: "يا للروعة".

"لقد بدأنا بإطلاق اسم البهو الكبير عليه".

"إنه لاسم ملائم".

في أسفل كل حائط كان هناك طريق مسطح منحدر، عرضه نصف متر، يزيد من طول البهو. وكان يوجد ممرٌّ عرضه متر آخر بين الطرقات. وما من درجات بل فقط صبَبُ ينحدر.

"هل ما زال هنا".

"أجل أيها الجنرال. لقد وصل قبل ساعة وقدته إلى قاعة الملك".

كان لا يزال متشبثاً بالحقيبة. "انتظِر خارجاً في الأسفل".

استدار مونج لكي يغادر، ثم توقف. "هل أنت متأكد من أنك تريد القيام بذلك لوحدك؟"

أبقى عينيه مغمَّضتين وهو ينظر إلى البهو الكبير. كان قد سمع الكثير عن حكايا المصريين. فعلى ما يُظنّ، إن الناس الذين مروا خلال الممرات السرية لهذه الأهرامات من أبناء الطبقة المستنيرة في العصور القديمة كانوا يدخلون بشراً ويخرجون آلهةً. لقد كان هذا مكان "الولادة الثانية"، و"رحم الأسرار"، كما قِيل. لقد كانت الحكمة تقطن هناك، حيث كان الله يسكن في قلوب البشر. وكان علماؤه يتساءلون متعجبين عن السر أو الحاجة الماسة التي أوحت بهذا العمل الهندسي البطولي، ولكن بالنسبة له لم يكن هناك سوى تفسير واحد - وقد فهم الهاجس -الرغبة في مبادلة ضيق الأخلاقية البشرية بأفق تنوير واسع. لقد كان علماؤه يتفاخرون بأن هذا البناء هو الأمثل في العالم، أصل سفينة نوح، ولعله أصل اللغات، والأبجديات، والأوزان، والمقاييس.

ولكن لم يكن هكذا الحال بالنسبة له.

لقد كان هذا هو البوّابة إلى الأبدية.

"وحدي فقط أستطيع القيام بذلك". دمدم قائلاً.

وغادر مونج.

أزال عن بزّته حبّة رمل وخطا نحو الأمام متسلقاً الطريق المنحدر. لقد قدّر طوله بحوالي 120 متراً، وكان يلهث عندما وصل إلى القمة. كانت درجة عالية تقود إلى بهو منخفض السقف، يفضي إلى حجرة الانتظار التي كان ثلاثة من جدرانها من الغرانيت المصقول.

كانت قاعة الملك مفتوحة في الخلف، وفيها المزيد من الجدران ذات الحجارة الحمراء المصقولة، والكتل العملاقة التي لا تفصل بينها سوى فراغات بعرض شعرة. كانت القاعة مستطيلة الشكل وعرضها يساوي نصف طولها ومفرغة داخل قلب الهرم. كان مونج قد أخبره أن هناك علاقة قوية بين قياسات هذه القاعة وثوابت رياضية معترف عليها في كل مكان.

لم يشكّ في صحة هذه الملاحظة.

كانت ألواح عريضة من الغرانيت تشكّل السقف الذي يرتفع عشرة أمتار فوقه. وكان النور يتسلل إلى الداخل من شعاعين يخترقان الهرم من جهتي الشمال والجنوب. كانت الحجرة فارغة سوى من رجل وتابوت حجري غرانيتي صلب وغير مكتملٍ وله غطاء. كان مونج قد ذكر له كيف أن العلامات التي خلّفتها أدوات الحفر الأنبوبية والمناشير لازالت ماثلة تدل على عمل القدماء. وكان مصيباً في ذلك. وكان قد قال له أيضاً إن عرضها أكثر من عرض البهو الصاعد بأقل من سنتيمتر، وهذا يعني أنها قد أُدخلت إلى الحجرة قبل بناء بقية الهرم.

التفت الرجل الذي كان في مواجهة الجدار البعيد.

كانت هيئته غير واضحة وجسمه مكسواً بمعطف فضفاض، وكانت عمامة صوفية تلف رأسه، وقطعة قماش من القطن على إحدى كتفيه. وكان أصله المصري واضحاً، ولكن مع خليط من حضارات أخرى باقية على جبهته العريضة، وعظم وجنتيه المرتفع، وأنفه العريض.

نظر نابليون إلى ذلك الوجه ذي الخطوط المحفورة بعمق.

سأله الرجل: "هل جلبت النبوءة؟"

أشار إلى الحقيبة الجلدية وقال: "إنها معي".

خرج نابليون من الهرم. كان قد مكث في الداخل حوالي الساعة، وكانت العتمة تغمر سهل الجيزة الآن. كان قد طلب من المصري أن ينتظر في الداخل إلى حين مغادرته.

نفض الغبار عن بزّته ووضع الحقيبة الجلدية على كتفه. وجد السلم وجاهد ليضبط أعصابه ومشاعره ولكن الساعة الأخيرة كانت مروّعة.

كان مونج ينتظره وحده في الأسفل ولجام حصان نابليون في يده.

"هل كانت زيارتك مُرْضية أيها الجنرال؟"

نظر إلى رَجُله وجهاً لوجه. "اسمعني يا غاسبارد. لا تتحدث عن هذه الليلة مرة أخرى أبداً. هل تفهمني؟ ما من مخلوق يجب أن يعرف بأنني قد أتيتُ إلى هنا".

ذُهل صديقه من لهجته.

"لا أقصد أي إزعاج ـ"

رفع يده وقال: "إياك أن تتحدَّث عن ذلك البتة. هل تفهمني؟"

أومأ عالم الرياضيات برأسه دلالة الإيجاب، ولكن نابليون لمح نظرة مونج نحوه عندما رمقه بنظره وهو يصعد إلى قمة الدرج، حيث كان المصري ينتظر مغادرة نابليون للمكان.

همس إلى مونج قائلاً: "أطلق النار عليه".

ولمح الصدمة على وجه صديقه، فأدنى فمه إلى قرب أُذن ذلك الأكاديمي قائلاً بإصرار: "أنت تحبّ أن تحمل هذه البندقية. وتريد أن تكون جندياً. هذه فرصتك إذاً. الجنود يطيعون قادتهم. لا أريده أن يغادر هذا المكان. وان لم تكن لديك الجرأة، فلتتحلَّ بها الآن. واعلم أنه إن بقي هذا الرجل على قيد الحياة غداً، فإن بعثتنا المجيدة لأجل عظمة الجمهورية ستخسر أحد علماء الرياضيات لديها".

رأى الخوف في عيني مونج.

فأوضح نابليون قائلاً: "لقد تشاركتُ وإياك في الكثير من الأمور. نحن أصدقاء بالفعل، وأخوة فيما نسميه الجمهورية. ولكن إياك أن تعصى أوامري. إياك".

فَرَدَ نابليون قبضة يده وامتطى الحصان.

"ها أنا ذاهبُ إلى الوطن، يا غاسبارد. إلى فرنسا. إلى قدري. لعلك يجب أن تجد قدرك، أنت أيضاً، وهنا، في هذا المكان الذي طواه النسيان".

الجزء
الأول

1

كوبنهاغن

الأحد، 23 كانون الأول (ديسمبر)، الوقت الحاضر

الساعة 12:40 فجراً

اخترقتِ الرصاصةُ كتفَ كوتون مالون الأيسر.

بذل جهدَه ليتجاهل الألم وراح يركّز انتباهَه على ساحة بلازا. كان الناس يندفعون في كل الاتجاهات. انطلقت أصواتُ أبواق السيارات، وراحت العجلات تزمجر. أبدى المارينز الذين يحرسون السفارة الأمريكية القريبة ردّة فعلٍ تجاه الفوضى العارمة، إلا أنهم كانوا بعيدين جداً لدرجةٍ يعجزون معها عن تقديم النجدة. تناثرت أشلاء الجثث في المكان. كم كان عددها؟ ثمانية؟ عشرة؟ لا، بل أكثر. تمدّد شابٌ وامرأةٌ عند الزوايا المنحرفة على بقعةٍ من الأسفلت الزيتي، وكانت عينا الرجل مركّزتين على كل ما يجري حوله وكله دهشةً وصدمة ــأمّا المرأة، الذي كانت منحنية ووجهها نحو الأرض، فقد كان تنزف. كان مالون قد رأى اثنين من مُطلقي النار وسرعان ما أطلق النار عليهما، ولكنه لم يرَ الثالث، الذي كان قد أصابه برصاصةٍ وحيدة ويحاول الآن أن يلوذ بالفرار، مُستخدماً المارة المذعورين غطاء له.

اللّعنة: بدأ الجرح يؤلم. أصاب الخوفُ وجهه كموجةٍ من نار. وراحت ساقاه ترتخيان وهو يجاهد ليرفع ذراعه اليمنى.

بدا مسدّس البيريتّا وكأنه يزن أطناناً وليس أونصات وحسب.

ضرب الألمُ حواسه. راح يتنشّقُ أنفاساً من الهواء الذي كانت له رائحة الكبريت. وأخيراً أجبرَ إصبعه على الضغط على الزناد، الذي أصدر صوتاً وحسب، ولم يؤدِّ إلى إطلاق نار.

يا للغرابة.

صدرت أصواتُ طقطقاتٍ أخرى، وهو يحاول أن يطلق النار من جديد.

ثمّ استحال العالم أسود اللون.

أفاقَ مالون، وأزالَ الحلم من ذهنه، ذلك الحلم الذي تكرر مراتٍ عديدةٍ خلال السنتين الأخيرتين -ونظر مالون بدقةٍ إلى الساعةِ الموضوعة جانب السرير.

وكانت تشير إلى 12:43 فجراً.

كان مضطجعاً على سريره في غرفة نومه، ومصباح منضدة غرفة النوم ما زال مضيئاً منذ أن ارتمى على سريره قبل ساعتين.

شيءٌ ما أيقظهُ. صوت. جزءٌ من حلمٍ من مدينة مكسيكو، لا يدرك كنههُ بعد.

لقد سمعه مرةً أخرى.

صدرت ثلاثة أصوات صغيرة في تتابعٍ سريع.

كان المبنى الذي يسكن فيه يعود إلى القرن السابع عشر، وقد تمّ تجديد بنائه بالكامل قبل بضعة أشهر. وراحت الدرجات الخشبية الجديدة تصدر أصواتاً من الطابق الثاني إلى الثالثً في ترتيبٍ دقيقٍ كأنها أصواتُ مفاتيح بيانو.

وهذا كان يعني أن أحدهم هناك.

مدّ يده إلى أسفل السرير فوجد حقيبة الظهر التي كان يحتفظ بها دائماً على أهبة الاستعداد منذ أيام مشروع "ماجيلان بيليت". كانت يده اليمنى في داخلها تقبضٍ على البيريتّا، السلاح نفسه الذي من مدينة مكسيكو، والذخيرة فيه جاهزةً وفي حجرة النار.

كانت هذه عادةُ أخرى كان مسروراً بأنه لم يتخلَّ عنها.

انسلَّ من غرفة النوم.

كانت مساحة شقته التي في الطابق الرابع أقل من ألف قدم مربّع. وإضافةً إلى غرفة النوم، كان هناك مختلى، ومطبخ، وحمّام، وعدة غرفٍ صغيرة. وكانت الأنوار مضاءة في المختلى، حيث كان هناك مدخل مفتوح يؤدي إلى الدرج. كانت مكتبته تحتلّ الطابق الأرضي، وأما الطابقان الثاني والثالث فقد كان يستخدمهما حصرياً كمخزن وورشة عمل.

وجد المدخل وأمسك بعضاضة النافذة الداخلية.

لم يصدر عنه أي صوت، إذ إنه حافظ على الهدوء في خطواته الخفيفة على السجاد الذي يفترشُ الأرض. كان لا يزال يرتدي ثياب الأمس. وكان قد عمل

حتى وقتٍ متأخر ليلة البارحة بعد يوم سبتٍ مزدحم قبل عيد الميلاد. لقد كان مسروراً لأن يكون تاجر كتبٍ مرةً أخرى. لقد كانت هذه هي المهنة التي يُفترض أن يمارسها الآن. ولكن لماذا كان يُمسك بمسدسٍ وسط الليل، وكل حواسه تُنبئه بخطرٍ وشيك؟

لقد جازف بإلقاء نظرةٍ عبر المدخل. كان الدرج يؤدي إلى منبسطٍ، ومن ثمّ نظر إلى الأسفل. كان قد أطفأ الأنوار سابقاً قبل أن يصعد لقضاء ليلته، ولم تكن هناك مفاتيح ذات ثلاث وضعيات. وهنا لامَ نفسهُ لأنه لم يطلب تركيب هذا النوع من المفاتيح خلال عملية إعادة تجديد البناء. وكان قد أضاف شيئاً آخر إلى البناء ألا وهو درابزين يُوازي حافة الدرج الخارجية.

خرج من الشقة وانزلقَ نازلاً مُمسِكاً بقضيب النحاس الثقيل إلى المنبسط التالي. ما من حاسةٍ كانت تُنْبئُ بحضورهِ ولم يصدر عنه أي صريرٍ عند الدرجات الخشبيةِ الأخرى.

نظر بحذرٍ شديد إلى الأسفل في الخلاء.

كان الجو معتماً وهادئاً.

انزلق إلى المنبسط التالي وشقّ طريقه إلى حيث كان يمكنه أن يرى الطابق الثالث. كانت أنوارُ كهرمانية تتسلّلُ داخلةً من الساحة عبر واجهة المبنى الأمامية وكانت تُنير المكان وراء المدخل بهالةٍ برتقاليةِ اللون. كان يُبقي مخزن البضائع هناك -كتبُ يشتريها من الناس الذين كانوا يأتونهُ بها بصناديق مُترعة "اشترِ بسنتات، وبعْ بيوروات". كانت هذه هي تجارة الكتب المستعملة. إن قمت بها بشكلٍ جيد فيمكنك أن تُحقق ربحاً. بل وفوق ذلك، فمن حينٍ إلى آخر كان يجد كنزاً حقيقياً يصلهُ داخل أحد الصناديق. تلك الصناديق التي كان يحتفظ بها في الطابق الثاني، في غرفةٍ مقفلةٍ. ولذلك فما لم يقتحم أحدُ ذلك الباب، لما استطاع أن يدخل إلى الطابق الثالث المفتوح.

انزلق إلى الدرابزين الأخير واتّخذ وضعيةً خارج مدخل الطابق الثالث. كانت الغرفة في الوراء، التي يبلغ طولها حوالي أربعين قدماً وعرضها عشرين قدماً ممتلئة بالصناديق والعلب المُكدّسة فوق بعضها البعض بدون ترتيب لارتفاع يبلغ حوالي عدة أقدام.

"ماذا تريد؟" سأل، وقد أسند ظهره إلى الجدار الخارجي.

تساءل ما إذا كان قد استيقظ من جرّاء الحلم وحسب. إن اثنتي عشرةَ سنة أمضاها كوكيل إدارة العدل قد خلقت لديه في شخصيته بالتأكيد عقدة الارتياب، وكان لديه شعور بالخطر خلال الأسبوعين الأخيرين المنصرمين -وذلك بسبب شخص لم يساوم على الكتب بل قَبِلَ بالسعر المعروض دون نقاش.

قال: "دعني أُخبرك، سأصعدُ من جديد إلى الدرج. فكائناً من كنت، إن كنت تريد شيئاً ما، اصعد إلى الأعلى. وإلّا، فاخرج من متجري".

ساد الصمتُ لفترةٍ أخرى.

وثبَ مالون إلى الدرج.

"أتيتُ لرؤيتك". خرج الصوتُ من رجلٍ ذكرٍ في غرفة المخزن.

توقّفَ ولاحظ الفارق الخفيف في الصوت. إنّه شابُ فتيّ. في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات. أمريكيٌّ، بلكنةٍ معيّنة. وهو هادِئُ. وهكذا كانت حاله.

"إذاً فقد اقتحمتَ متجري؟"

"لقد اضطررتُ لذلك".

كان الصوت قريباً الآن، عند الطرف الآخر من المدخل. تراجع عن الجدار وصوّب المسدّس، مُنتظراً المتكلّم ليظهرَ نفسه.

ظهرت هيئةُ ظليلةُ عند المدخل.

رأى مالون شاباً متوسط الطول نحيفاً، يرتدي معطفاً طويلاً. وكان ذا شعرٍ قصير، ويداه إلى جانبيه فارغتين، وقد حجب الليل وجهه.

أبقى المسدّس مسدّداً وقال: "أريدُ اسماً".

فقال: "سام كولنز".

"ماذا تريد؟"

"هنريك ثورفالدسن في ورطة".

"ما الجديد في ذلك؟"

"هناك من أتى ليقتله".

"من تقصد؟"

"علينا أن نصل إلى ثورفالدسن".

أبقى مسدّسه مصوّباً، وإصبعه علىٍ الزناد. لم يكن هناك أيُّ رجفةٍ في صوت سام كولنز وإلّا لكان سيُرديه قتيلاً. ولكن انتابه إحساس نجمَ عن خبرته الطويلة من عملهِ في دائرة العدل، إحساسٌ أنبأه بأن هذا الشاب لم يكن يكذب.

فسأله من جديد: "مَن تقصد بذلك؟"

"علينا أن نذهب إليه".

سمِعا صوت زجاجٍ يتكسّر في الأسفل.

وقال سام كولنز: "أمرٌ آخر عليَّ أن أخبرك به. هؤلاء الناس. إنّهم يطاردونني أنا أيضاً".

2

باستيا، كورسيكا
الساعة 1:05 فجراً

وقف غراهام آشبي في أعلى ساحة "ديجون" وراح يبدي إعجابه بالميناء الهادئ. وكانت المنازل المتداعية الفاتحة الألوان مكدّسة كصناديق الشحن بين الكنائس، تلك الأبنية القديمة التي ألقى البرج الحجري ظلّه عليها والذي كان محطَّ نظره. كان اليخت الذي يمتلكه، واسمه "أرخميدس"، يرسو على بعد نصف كيلومتر من المرفأ القديم. لقد كان معجباً بالصورة الظلّية المميّزة الأنيقة التي تنعكس على المياه الفضية. كانت ليلة الشتاء الثانية قد أحدثت ريحاً جافةً وباردةً آتياً من الشمال واندفعت عبر باستيا. كان صمتُ العيد ثقيلاً، فعيد الميلاد كان آتياً بعد يومين فقط، ولكنه لم يبالِ بالأمر كثيراً.

تيرا نوفا، التي كانت يوماً ما مركز باستيا الإداري والعسكري، قد أصبحت الآن حيّاً يتمتّع ببحبوحةٍ وغنى، وشققٍ شامخةٍ ومحلّاتٍ على الموضة تصطفُ كمتاهةٍ على طول الشوارع المرصوفةِ بالحصى. قبل بضعة سنوات، كان قد استثمر في هذه الفورة الاقتصادية، ولكنه قرّر التراجع عن ذلك. فتجارة العقارات، وخاصةً على طول خط ساحل المتوسط، ما عادت تُؤتي بربحٍ كثير كما في السابق.

حدّق إلى الشمال الشرقي نحو رصيف "دراغون" (أي التنين)، الرصيف الاصطناعي الذي لم يكن له وجود قبل عدة عقود. فلبنائه، اضطُرّ المهندسون إلى قطع الحجارة من ذلك الجرف الصخري الذي كان يسمى صخور "الأسد"، والذي كان يسدّ الميناء، وكانت عليه نقوش تعود إلى ما قبل القرن العشرين. عندما أبحر "أرخميدس" إلى داخل المياه المحمية قبل ساعتين، لاحظ سريعاً تلك القلعة غير المضاءة التي كان يقف عليها الآن -والتي بناها حكّام جنوى في تلك الجزيرة في القرن الرابع عشر -وكان يتساءل ما إذا كانت تلك الليلة هي الليلة الموعودة.

لقد كان يأمل ذلك.

لم تكن كورسيكا أحد الأماكن المفضلة لديه. لم تكن سِوى جبل يبزغ من البحر، طوله 115 ميلاً، وعرضه 52 ميلاً، ومساحته 5500 ميل مربّع، ويمتد على الساحل بطول 600 ميل. كانت معالمه الجغرافية تتنوع بين حواف صردية وممرات ضيقة عميقة، وغابات صنوبر، وبحيرات جليدية، ومراعٍ، ووديان خصيبة، وحتى بعض الصحراء. وكان الإغريق، والقرطاجيونً، والرومان، والأرغونيون، والإيطاليون، والبريطانيون، والفرنسيون يغزونها من وقت لآخر، ولكن ما من أحد أمكنه أن يقهر روح التمرد عند هذه الجزيرة.

وكان هذا سبباً آخرَ دعاهُ لأن يُقلع عن الاستثمار، ألا وهو التقلّبات الشديدة التي حدثت في تلك المقاطعة الفرنسية العصيّة.

أسَّست جنوى الصناعية باستيا في العام 1380 وبنت حصوناً لحمايتها، وكان عمود برجها أحد المعالم الأثرية التي لا تزال ماثلة حتى وقتنا هذا. وكانت البلدة هي عاصمة الجزيرة حتى العام 1791، عندما قرَّر نابليون أن يجعل من أغاسيو، مسقط رأسه في الجنوب، مكاناً أفضل. لقد كان يعرف عن السكان المحليين أنهم لم ينسَوا بعد الخطيئةَ التي ارتكبها ذلك الإمبراطور ولم يسامحوه عليها.

زرّرَ معطفه من ماركة "أرماني" ووقف قرب متراسٍ يعود إلى القرون الوسطى. كان قميصه المخيّط، وبنطاله، وكنزته الملتزَّة إلَى جسده الذي يبلغ الثامنة والخمسين من العمر يعطيه شعوراً بالثقة. لقد اشترى كلَّ بدلاته من محلات "كينكستون ونايت"، كما فعل أبوه وجدّه من قبله. والبارحة أمضى مزيِّنُ لندني نصف ساعةٍ وهو يُشذّب له شعر عنقه، مزيلاً خصلات الشعر الباهتة التي كانت تجعله يبدو كبر سناً. لقد كان فخوراً بمدى احتفاظه بمظهره نشيطاً وأكثر شباباً، فيما هو يحدِّق إلى ما وراء باستيا المظلمة، إلى البحر التيريني، ويتذوّق طعم الرضا لكونه رجلاً وصل إلى النجاح حقاً.

نظر إلى ساعته.

لقد جاء ليحلَّ لغزاً، ذلك اللغز الذي كان يشدُّ صائدي الكنوز لأكثر من ستين عاماً، وكان يمقت التأخّر عن المواعيد.

سمِع وقع خطوات تصدر عن بيت درجٍ قريب كان يتجه صعوداً لحوالي

عشرين متراً. خلال النهار، كان السيّاح يصعدون إلى ذلك الدرج ويحدّقون إلى المناظر الطبيعية ويلتقطون الصور. ولكن في تلك الساعة لم يكن من أحدٍ هناك.

ظهر رجلٌ في ضوء النور الخفيف.

كان صغير الجسم ذا شعرٍ كثيفٍ. وكان ثُلمانِ غائرانِ يصلان بين منخريه وأنفه. كانت بشرته داكنةً كقشرة الجوز، وكان شاربه الأبيض يزيد من اسمرار لون بشرتهِ.

كان يرتدي ثوب رَجُلِ دِين.

وكانت أطراف الثوب الأسود الذي يرتديه تُصدر هسيساً لدى اقترابه.

"لورد آشبي، أعتذرُ عن التأخير، ولكني ما استطعت تجنّب ذلك".

سأل، وهو يشير إلى الرداء: "هل أنت كاهن؟"

"لقد فكرتُ أنه أفضل ثوب تنكر لهذه الليلة. فقليلون يطرحون أسئلة تتعلق بالكاهن". التقط الرجل أنفاسه لبضعة ثوانٍ وهو يريح نفسه من عناء صعود الدرج.

كان آشبي قد اختار هذه الساعة بعنايةٍ شديدة ووقّت وصوله بدقةٍ إنكليزية. ولكن كل شيء كان خارج الانتظام المطلوب لمدة نصف ساعة تقريباً.

"أمقُتُ النفور". قال، ثم أردف: "ولكن أحياناً يكون من الضروري أن نجري نقاشاً صريحاً ووجهاً لوجه". ثم أشار بإصبعه. "أنت، يا سيدي، كاذبٌ".

"أنا كذلك. وأقول ذلك صراحةً".

"إنك تستهلك من وقتي وأموالي، وكلاهما ليسا متوفرين بكثرةٍ لدي".

"لسوء الحظ، يا لورد آشبي، أجد نفسي أنا أيضاً أفتقر إلى كلا الأمرين". قال الرجل ذلك ثم توقف عن الكلام. واستأنف بعد ذلك ليقول: "وكنت أعرف أنك في حاجةٍ إلى مساعدتي".

في المرة الماضية كان قد سمح لهذا الرجل بمعرفة كثير من الأمور.

وقد كانت تلك غلطةً.

وكان قد حدث أمر في كورسيكا في 15 أيلول (سبتمبر) في العام 1943. عندما جُلِبت ستة أقفاص شحن إلى الغرب من إيطاليا بواسطة أحد القوارب. وقال البعض إنها قد أُغرِقت في البحر، قرب باستيا، بينما اعتقد آخرون أنها قد سُحِبَت إلى الشاطئ. وكانت جميع الروايات تتفق على حقيقة أن خمسة ألمان كانوا مشاركين في العملية. أربعةُ منهم صدر بحقهم حُكم واضطروا لترك الكنز في مكان من المفترض أن يقع قريباً بأيدي الحُلفاء، وأُطلِقَت عليهم النِّيران. أما الخامس فقد تمَّت تبرئته. ولسوء الحظ، فإنه يكن مطّلعاً على سّر مكان تخبئة الكنز، ولذلك فقد ظل يبحث عنه طيلة بقية حياته.

وكذلك فعل آخرون كثيرون.

"الأكاذيب هي كل الأسلحة التي أمتلكها"، أوضح الكورسيكي قائلاً. "إنّها هي التي تُبقي رجالاً أقوياء مثلك في خطر".

"أيها العجوز –".

"اسمَح لي أن أقول لك إني لست عجوزاً بمقدارك. ورغم أن سُمعتي ليست سيئة، إلّا أن سمعتك سيئة جداً يا لورد آشبي".

اعترفَ اللورد بصحة الملاحظة بإيماءةٍ من رأسه. لقد فَهِم الصورة الّتي كانت مكوّنةً لدى ذلك الشخص. فعائلتهُ كانت، ولثلاثة قرون، تمتلك مصالح قويةً في إحدى أقدم المؤسسات المالية الإنكليزية. وهو الآن المالك الوحيد لتلك المصلحة. وكانت الصحافة البريطانية قد وصفت عينيه الرماديتين الدّالتين على الذّكاء، وأنفه الروماني، والابتسامة الخفيفة المميّزة له كصورةٍ تمثِّل نموذجاً لشخص أرستقراطي. وكان أحد المراسلين الصحفيين قد وصفه قبل بضعة سنواتٍ بأنه صاحب نفوذ، بينما وصفه آخر بأنه رجلُ سوداويٌّ داكنُ البشرةِ. وما كان ليعترض على إشارتهم إلى مظهره الداكن -هذا الأمر الذي كان قد ورثهُ عن أمه نصف التركية -ولكن الأمر الذي كان يزعجه هو اعتباره متجهِّم الوجه ونكد المزاج.

"أؤكد لك يا سيدي الفاضل أنِّي لست رجلاً عليك أن تخاف منه".

ضحك الكورسيكي وقال: "آمل ألا تكون كذلك. فالعنف لا يفيد شيئاً. وفي نهاية الأمر، إنك تسعى وراء ذهب ثعلب الصحراء "رومل". وهو كنْزُ بكل معنى الكلمة. ويا ليتني أعرف مكان وجوده".

كان هذا الرجل متطفلاً وشديد الملاحظة. ولكنه كان أيضاً كاذباً معروفاً. "لقد وضعتَني في خانة اليَك".

ضحك الشخص ذو الهيئة الداكنة وقال، "لقد كنت تلح عليَّ كثيراً. لا أستطيع أن ألفت انتباه أيّ كان. فهناك آخرون قد يكونون على علم بذلك. وهذه جزيرةُ صغيرة، وإذا ما عثرنا على هذا الكنز، فلن أستطيع أن أُبقي على حصَّتي من الغنيمة".

كان هذا الرجل يعمل لصالح تجمُّع كورسيكي، خارج أغاسيو. كان موظفاً بسيطاً في الحكومة الإقليمية الكورسيكية، وكان يمتلك القدرة على الوصول إلى كمٍّ هائلٍ من المعلومات.

"ومن سيأخذ منَّا ما نجده؟" سأل.

"الناس هنا، في باستيا، الذين يتابعون البحث. وآخرون أيضاً يعيشون في فرنسا وإيطاليا. فقد مات أناسُ كثيرون سعياً وراء هذا الكنز".

كان هذا المجنون اللّعوب يبدو وكأنه يُفضّل أن تسير الدردشات ببطء، وأن يقدّم تلميحات ضئيلةً واشاراتٍ بالغة الصغر في حديثه.

ولكن آشبي لم يكن لديه متّسعُ من الوقت.

أومأ بإشارة وسرعان ما خرج رجلُ آخر من الدَّرج. كان يرتدي معطفاً فاحم اللون يلائم جيداً شعره الرمادي الكثيف. وكانت عيناه ثاقبتين، ووجهه النحيف المستدق الطرف ينتهي بذقنٍ رفيعةٍ. سار مباشرة نحو الكورسيكي ووقف.

قال آشبي: "هذا هو السيد غيلدهول. ولعلك تتذكره من زيارتنا السابقة؟"

مدّ الكورسيكي يده، ولكن غيلدهول أبقى يديه في جيب معطفه.

قال الكورسيكي: "نعم أتذكّر. ألا يبتسم أبداً؟"

هزّ آشبي رأسه. "لقد حدث أمرٌ مريع. كان ذلك قبل سنوات عندما تورّط السيد غيلدهول في مشاجرةٍ عنيفةٍ تلقّى خلالها طعنات بالسكين في وجهه وعنقه. وبعد أن تماثل للشفاء، كما ترى الآن، تبين أن أحد أعصابه قد أُصيب ولم يعد يستطيع أن يحرك عضلات وجهه كما يجب. ومن هنا فإنه لا يبتسم".

"وماذا عن الشخص الذي طعنه؟"

"آه، إنه سؤالُ ممتاز. لقد مات. لقد دُقت عنقه".

رأى أن الأمر الذي يريد أن يوضحه قد اتضح، ولذلك التفت نحو غيلدهول وسأله: "ما الذي وجدته؟"

أخرج هذا الموظّف مغلفاً صغيراً من جيبه وسلّمه إليه. وعلى الضوء الخفيف رأى العنوان الباهت مكتوباً بالفرنسية: نابليون، من قصر تويلري إلى جزيرة القديسة هيلانة. وكانت تلك إحدى الذكريات التي لا تعد ولا تحصى التي ظهرت في الصحافة بعد وفاة نابليون في العام 1821.

"كيف استطعت الحصول عليها؟" سأله الكورسيكي.

فابتسم وقال: "بينما كنتَ تجعلني أنتظر هنا فوق هذا البرج، قام السيد غيلدهول بالبحث في بيتك. فأنا لست أحمق تماماً".

هزّ الكورسيكي بكتفيه وقال: "إنّه مجرد ذكرى باهتة. لقد قرأتُ الكثير عن نابليون".

"هذا ما قاله شريكك في المؤامرةِ أيضاً".

تبين له الآن أنه قد استرعَى انتباه مستمعه التّام. "أنا وهو، والسيد غيلدهول، كان لنا حديث طويل".

"كيف عرفتَ عن غوستاف؟"

هزّ كتفيه لا مبالياً. "لم يكن صعباً أن أعرف عنه. فقد بحثتُ معه عن ذهب رومل لفترةٍ طويلة. ولعلكما على الأرجح، الشخصان الأكثر معرفة بهذا الموضوع".

"هل آذيته؟"

شعر بإنذارٍ بالخطر يتبدّى في هذا السؤال. "وحق السماء، لا، أيها الرّجل الصالح. هل تعتقد أنّي وغد؟ أنا من عائلةٍ أرستقراطية، ولوردُ في نظامٍ ملكي، وخبيرُ ماليٌّ محترم. ولستُ سفّاحاً. وبالطبع، إن صاحبك غوستاف كذَب عليَّ أيضاً".

وبنقرةٍ من رسغه أمسك غيلدهول الرجل من كتفه، وبرزت رِجْلُ بنطالٍ من الرداء الذي كان يرتديه. كان الكورسيكي الضئيل الجسم قد وثَب إلى الأعلى بين المتاريس وسحب غيلدهول خارجاً وأمسك بكاحل قدميه، فصار الجسمُ

بوضعيةٍ عكسيةٍ، رأساً على عقب، خارج الجدار، على ارتفاع عشرين متراً من الرّصيف الحجري.

راحت عباءته ترفرفُ في نسيم الليل.

ضرب آشبي رأسه بمتراسٍ آخر. "لسوء الحظ، السيِّد غيلدهول ليس لديه احتياطات ضد العنف كما هو الحال معي. فأرجو أن تعرف أنك إذا أصدرتَ أي صوت تنبيه، فسوف يلُقي بك من هنا. هل تفهم؟"

رأى رأساً يتمايل إلى الأعلى والأسفل.

"والآن آن الأوان لي أنا وأنت أن نبدأ بحديثٍ جدِّيٍّ".

3

كوبنهاغن

نظر مالون إلى هيئة سام كولنز غير الواضحة المعالم فيما تصاعدت أصوات الزجاج في الأسفل.

"أعتقد أنهم يريدون أن يقتلوني". قال كولنز.

"إن كنت لم تلاحظ بعد، فإن بحوزتي مسدّساً مصوّباً نحوك أيضاً".

"يا سيد مالون، لقد أرسلني هنريك إلى هنا".

كان عليه أن يختار. إما الخطر القائم أمامه، أو ذلك الخطر الذي يقبع تحت طابقين أسفله.

أخفض المسدّس. "هل قدت أولئك الناس في الأسفل إلى هنا؟"

"كنتُ بحاجةٍ إلى مساعدتك. هنريك هو الذي طلب مني المجيء".

سَمِع ثلاث طلقات نارية. طلقات مكتومة الصوتِ. ثم فُتِحَ الباب بقوة. ودوّت أصوات وقعِ الخطوات على الأرضيةِ الخشبية.

أشار بمسدسه: "أُدخل هناك".

تراجعا إلى غرفة المخزن في الطابق الثالث، باحثَين عن ملجأ لهما خلف كومةٍ من العلب والصناديق. أدرك أن المقتحمين سرعان ما سيصلون إلى الطابق الأعلى، إذ ستجتذبهم الأنوار المضاءة هناك. ثم، عندما سيدركون أنه ما من أحدٍ هناك، سيبدؤون بالبحث. كانت المشكلة، هي أنه لم يعرف عدد الذين جاؤوا لزيارته.

اختلس نظرةً ورأى رجلاً ينتقل من الطابق الثالث صعوداً إلى الطابق الرابع. أشار إلى صاحبه أن يلتزم الهدوء ويتبعه. واندفع كالسهمِ نحو المدخل مستخدماً الدرابزين النحاسي لينزلق عليه وصولاً إلى المنبسَط التالي. قلَّده كولنز في الحركة. وكرّرا العملية نزولاً إلى المنبسط الأخير من الدرج في الأسفل الذي يؤدي إلى الطابق الأرضي والمكتبة.

انتقل كولنز نحو الدرابزين الأخير، ولكن مالون أمسك بذراعه وهزّ رأسه. لقد أظهر هذا الرجل أنه سيقوم بعمل أحمق يُظهر إما حماقةً أو ذكاءً خادعاً. ولم يكن متأكداً من ذلك تماماً، ولكن ما كانا يستطيعان أن يبقيا في المكان طويلاً، على اعتبار أن هناك رجلُ مسلَّح فوقهما في الأعلى.

أشار إلى كولنز لينزع عنه المعطف.

بدا صاحب الوجه الداكن متردداً، وغير متيقّنٍ مما طلبه منه، ثم لانَ وخلع معطفه دون أن يصدر صوتاً. أمسك مالون بصرَّة الصوف السميكة، وجلس على الحاجز، وتلوى ببطءٍ نازلاً نصف الطريق. وفيما كانت يده اليمنى مطبقة بإحكامٍ على المسدّس، رمى المعطف نحو الخارج.

فانطلقت عياراتُ نارية اخترقت ذلك الثوب.

انزلق بقية الطريق نزولاً وترك الدرابزين، ووثب إلى ما وراء النضد الأمامي في الوقت الذي سمعا فيه أصوات طلقاتٍ أخرى تخترقُ الخشب حولهما.

حدّد الموقع.

كان مُطلق النار إلى يمينه، قرب الواجهات الأمامية، حيثُ كانت رفوفُ كتبِ التاريخ والموسيقى.

جثا على ركبتيه وأطلق النار في ذلك الاتجاه.

"الآن"، صرخ نحو كولنز، الذي بدا وكأنه صار يفهم ما هو متوقع أن يحدث، فتركا المدخل وقفزا إلى ما وراء النضد.

كان مالون يعرف أنه سرعان ما سيكون في رفقتهما أناسُ آخرون، ولذلك زحف إلى اليسار. ولحسن الحظ، لم يُحاصرا في الداخل. خلال إعادة البناء كان مالون قد أصرّ على أن يكون النضد مفتوحاً من الطرفين. لم تكن طلقته النارية مكتومة الصوت، ولذلك تساءل عما إذا كان أحدهم قد سمِعَ صوت ارتداد الصوت العالي. ولسوء الحظ، كانت ساحة بلادز مهجورةً نوعاً ما من منتصف الليل حتى الفجر.

انطلق بسرعةٍ إلى الطرف، وكولنز إلى جانبه. أبقى عينيه مركزتين على الدرج بينما كان ينتظر ما هو متعذرُ اجتنابه. رأى هيئةً داكنة، يزداد حجمها

فيما كان المهاجم يصعد على الدرج مصوباً مسدسه نحو الزاوية.

أطلق مالون النار فأصاب الرجل في ساعده.

سَمِعَ صوت أنينٍ واختفى المسدّس.

أطلق الرجل الأول النار بكثافةٍ عليهما ليتسنى لذلك الرجل المصاب أن يفرّ هارباً نحوهُ.

استشعر مالون بورطة. لقد كان مُسلَّحاً. وهم أيضاً. ولكن على الأرجح كانوا يحملون ذخيرةً أكثر منه، إذ لم يتسنَّ له أن يجلب مخزن ذخيرة احتياطي لمسدّسه. ولحسن الحظ لم يعرف المهاجمون ذلك.

"يجب أن نثير غضبهم". همس كولنز.

"وكم يبلغ عددهم؟"

"يبدو وكأن هناك اثنان".

"لا نعلم ذلك". كان فكره قد عاد إلى الحلم، عندما ارتكب أولاً الخطأ بعدم التمكن من العدّ إلى الثلاثة.

"لا يمكننا أن نبقى جالسين هنا وحسب".

"كان يمكن أن أُسلِّمك لهم وأعود إلى النوم".

"كان يمكنك أن تفعل ذلك. ولكن ما كنتَ لتفعل ذلك".

"لا تكن واثقاً إلى تلك الدرجة".

كان لا يزال يتذكر ما كان كولنز قد قاله له. هنريك ثورفالدسن في ورطةٍ.

هدَّأَ كولنز روعهُ ووصل إلى مطفأة الحريق خلف النضد. راح مالون يراقب بينما خلع كولنز وتد مسمار الأمان، قبل أن يتمكن من الاعتراض، وتجاوز النضد ونثرَ الضباب الكيميائي في المكتبة، مستخدماً الرفوف غطاءً له.

لم تكن الحركة سيئة لولا -

كان الرد على ذلك أربع طلقاتٍ نارية.

بزغت الطلقاتُ عبر الضباب، واخترقت الخشب، مُصدرةً صوتَ أزيزٍ على الجدران الحجرية.

أطلق مالون رصاصة أخرى في اتجاههم.

ثم سَمِع صوت تحطُّم الزجاج في حركةٍ تصاعدية، ثم وقع خطوات راكضةٍ.

إنَّهم يهربون.

اندفع الهواء البارد نحوه. وأدرك أنهم فرُّوا عبر الواجهةِ الأماميةَ.

خفض كولنز مطفأة الحريق. "لقد ذهبوا".

أومأ برأسه تأكيداً، وأبقى رأسه منخفضاً، وابتعد قليلاً عن النضد، مستخدماً المزيد من الرفوف كغطاء، واندفع عبر الضباب المتبدّد. وجد الصف الأخير وجازف بإلقاء نظرةٍ سريعة. كان الدخان يرتدُّ خارجاً إلى فضاء الليل القارس من خلال نافذةٍ مهشمةٍ من النوافذ الزجاجية.

هزَّ رأسهُ. ها هي فوضى أخرى عارمة تسود المكان.

صعِد كولنز وراءه. "إنهم محترفون".

"كيف أمكنك أن تعرف ذلك؟"

"أعرف من أرسلهم". وضع كولنز مطفأة الحريق على الأرض بشكل مستقيم.

"من؟"

هزَّ كولنز رأسه. "قال هنريك إنه سيخبرك بذلك".

خطا نحو النضد ووجد الهاتف، واتصل بكرستيانغيد، وهي عزبة أسلاف ثورفالدسن التي تقع على بعد تسعة أميال شمال كوبنهاغن. رنّ جرس الهاتف عدة مرات. كان جسبر، حاجب ثورفالدسن، هو الذي يجيب عادة على الهاتف، وفي أي وقت كان.

استمرَّ رنين الهاتف.

لم يكن هذا فألُ خيرٍ.

وضع السمَّاعة وقرّر أن يكون على أهبة الاستعداد.

"اصعد إلى الأعلى"، قال لكولنز. "هناك حقيبة ظهرٍ على سريري. أحضِرها".

هرع كولنز صاعداً قوائم الدرج الخشبية.

استغلَّ مالون هذه اللحظة ليتصل هاتفياً بكرستيانغيد مرة أخرى وراح يصغي إلى صوت الهاتف الذي كان لا يزال يرن.

شقَّ كولنز طريقَهُ نزولاً على الدرج.

كانت سيارة مالون مركونة على مسافة قريبة، خارج البلدة القديمة، قرب كرستيانبرغ سلوت. التقط هاتفه الخلوي من أسفل نضد السيارة.

"هيّا بنا".

4

شعرت إليزا لاروك أنها على وشك النجاح، رغم أن مرافقها في رحلة الطيران كان يجعل المهمة صعبة. لقد كانت ترجو من صميم قلبها لهذه الرحلة إلى ما وراء البحار التي رتّبت على عجالة ألا تكون مضيعة للوقت.

قالت بالفرنسية: "إنها تُدعى النادي الفرنسي".

كانت قد اختارت أن تكون على ارتفاع 15000 متر فوق شمال المحيط الأطلسي داخل حجرة ركاب مترفة في طائرتها الجديدة، لتقوم بآخر محاولة لها. لقد كانت تفتخر بلعبتها الفنية المتطورة كإحدى أولى المنتجات في نظام الإنتاج. وكانت قمرتها المترفة تستضيف ثمانية عشر راكباً يجلسون في مقاعد وثيرة من الجلد الفخم. وكان هناك مطبخ، ومرحاض رحب، ومفروشات من خشب الماهوغاني الأحمر، إضافة إلى إنترنت عالي السرعة مزود بالفيديو يتصل بالعالم عن طريق الأقمار الصناعية. كانت الطائرة تحلق في الأعالي بسرعة في رحلة طويلة وآمنة. سبعة وثلاثون مليون، وتستحق كل يورو.

قال روبرت ماستروياني بنفس لغتها: "إنها منظَّمة مألوفة بالنسبة لي. مجموعة غير رسمية من الموظفين الماليين من أغنى دول العالم. إعادة جدولة للديون، واراحة من ديون، وإلغاء للديون. إنهم يعوِّمون الائتمان ويساعدون الدول المتصارعة على الإيفاء بالتزاماتها. عندما كنتُ في صندوق النقد الدولي، تعاملنا معهم مرات عديدة".

كانت هذه حقيقةً تعرفها.

"ذلك النادي"، كما قالت، "نشأ عن المحادثات التي جرت خلال الأزمة في باريس عام 1956 بين الأرجنتين المُفلسة ودائنيها. إنهم مستمرون في الاجتماعات كل ست أسابيع في وزارات الاقتصاد، والمالية، والصناعة في فرنسا، يرأسها كبير موظفين من الخزينة الفرنسية. ولكني لا أتكلم عن تلك المنظمة".

فسأل والانتقاد واضحُ في لهجتهِ: "أهوَ سرٌّ آخر من أسرارِكِ الغامضة؟"

"لماذا تُصعِّب الأمور هكذا دائماً؟"

"ربما لأنني أعرف أن هذا يثير غضبك".

كانت يوم أمس قد اتصلت بماسترويياني في نيويورك. لم يكن مسروراً لرؤيتها، ولكنهما تناولا طعام العشاء معاً في الخارج ليلة أمس. وعندما عرضت عليه أن توصله بالطائرة عبر الأطلسي قَبل العرض.

وكان هذا أمراً أدهشها.

فهذا الحوار الذي سيجري بينهما سيكون إما الحوار الأخير أو الأول بين مجموعة أحاديثٍ ستليه.

"كملي، يا إليزا. إني أصغي إليك. بالطبع، ما من شيءٍ آخر يمكن أن أفعله سوى أن أصغي إليكِ. وهذا، على ما أعتقد، كان هدفك أصلاً".

"إن كنتَ تشعر هكذا، فلماذا تطير معي اليوم عائداً إلى الديار؟"

"لو رفضتُ، لكنتِ ستجدينني ثانيةً ببساطة. وبهذه الطريقة نحلّ أمور أعمالنا، بشكلٍ أو بآخر، وفي نفس الوقت أحصل على رحلة طيرانٍ مريحةٍ إلى الوطن فكسب الوقت وأوفر النقود. ولذلك أرجو أن تمضي في حديثكِ. تكلمي، فها إني أسمعكِ".

كظمت غيظَها وقالت: "هناك بديهة مسلَّم بها في التاريخ: إن كانت الحكومة غير قادرة على مواجهة تحدِّي الحرب، فإنها تؤول إلى الزوال. إن قدسية القانون، وازدهار المواطن، والإيفائية -كل هذه المبادئ يمكن التضحية بها من قِبَلِ أي حكومة عندما يكون بقاؤها على المحك".

ارتشفَ مُستمِعُها رشفةً من الشراب.

"إليك حقيقة واقعيةً أخرى". قالت، وأردفت: "الحروب كانت تُموَّلُ دائماً بالدَّيْن. وكلما زاد التهديد، تعاظم الدَّيْن".

أشار بيدهِ لكي تسكت: "أعرف ما ستقولينهُ تالياً يا إليزا: لكي تشترك أيةُ أُمَّةٍ في حرب، لا بدَّ من وجود عدوٍّ معقولٍ تواجههُ".

"بالطبع. وماذا لو كان هذا العدو موجوداً، سيكون ذلك عظيماً" (قالت ذلك بالفرنسية).

ابتسمَ لاستخدامها لغتهِ الأم، وكان هذا أول كسرٍ للجليد في سلوكهِ البارد.

أضافت: "إذا وُجِدَ الأعداء، فإن نقص القوة العسكرية والمال يمكن تأمينهُ لبناء تلك القوة. وان لم توجد –"، ابتسمت ابتسامة عريضة وأردفت: "- فيُمكن خلقها دائماً".

ضحِك ماسترويياني: "إن لديكِ طريقةً شيطانية".

"أوَلستَ أنت أيضاً كذلك؟"

حملق بها. "لا، يا إليزا. لستُ كذلك".

ربما كان يكبرها بخمسِ سنوات، ويُساويها في الثراء. ورغم أن حديثها يثيرُ السخط، إلا أنهُ استطَاع أن يحافظ على هدوئه. لقد كانا قد تناولا طعام العشاء معاً من القطع الطريةِ من لحيم البقر الريّان، وبطاطا يوكون غولد، والفاصولياء الخضراء النَّضِرة. لقد عرفت أنه كان من النوع الذي يأكل الطعام البسيط. فما من بهاراتٍ، أو ثوم، أو فلفُل حارّ. الطبق المثالي بالنسبة له هو الطعام الإيطالي، ومع ذلك فقد كان هناك الكثير من الأشياء المميَّزة عند هذا الملياردير. ولكن من كانت هي لتحكُم؟ كانت تُخفي الكثير من خصوصياتِها.

"هناك نادٍ باريسيٍ آخر كبر من هذا بكثير. ويعود تاريخهُ إلى عصر نابليون".

"لم تذكري لي هذه الحقيقة أبداً من قَبْل".

"إنك لم تُظهِر أي اهتمام بالموضوع حتى الآن".

"هل أستطيع أن كون صريحاً؟"

"بالتأكيد".

"إنكِ لا تروقينَ لي. أو بكلامٍ أدقٍّ، لا أحبُ نوع الأعمال التي تهتمين بها أو أولئك الذين تتعاملين معهم. إنّهم قُساةٌ في تعاملهم، ولا يلتزمون بوعودهم. إن بعض سياسات الاستثمار عندكِ هي موضع ارتياب في أفضل حالاتِها، وتَتَّسِمُ بالإجرامِ في أسوأ أحوالها. لقد كنتِ تُطاردينني لحوالي سنة بحكايات عن أرباحٍ لَا حدَّ لها، ولا تقدّمين إلا القليل من المعلومات لدعم وتكيد مزاعمكِ. ربما يكون هذا بسبب نصفك الكورسيكي، وهذا لا تستطيعين أن تسيطري عليه".

كانت أمها كورسيكية، ووالدها فرنسياً. وكانا قد تزوجا وهما شابين وبقيا معاً لأكثر من خمسين سنةً. وكلاهما صار في عِداد الأموات الآن، وكانت إليزا وريثتهما الوحيدة. ولم يكن التحامل على أصلها أمراً جديداً بالنسبة إليها - فلطالما كانت تُلاقي هذا التحامل من الآخرين عليها -ولكن لم يكن هذا يعني أنها كانت تقبل ذلك التحامل ببساطة.

هبَّت واقفةً في مقعدها وأخذت صحون العشاء.

أمسك ماستروياني بذراعها وقال: "لستِ في حاجة إلى أن تقومي بخدمتي".

استاءت من لهجته ومن إمساكه بيدها، ولكنها لم تقاومه. وبدلاً من ذلك ابتسمت له، وانتقلت إلى اللغة الإيطالية لتقول له: "إنك ضيفي. وهذا هو الأمر اللائق الذي يجب أن أقوم به".

أفلت يدها.

لقد وَضَعَتْ في الطائرة طيارَيْن فقط، وكلاهما كانا في قمرة القيادة في الطائرة، التي يفصلها بابُ عنهما، حيث كانت تعدّ الوجبة. وضعت الصحون المتسخة في مطبخ الطائرة ووجدت حلوى ما بعد الطعام في ثلاجة صغيرة. وكانت عبارة عن قطعتين من التورتة بالشوكولا الحلوة المذاق. لقد كانت هذه الحلوى المفضلة عند ماستروياني، على حدّ علمها، وقد أتت بها من مطعم في مانهاتن حيث كانا ليلة أمس.

تبدّلت ملامحه عندما وضعت له الطعام.

وجلست قبالته.

"سواء كنت تحبني أو تحب رفقائي، يا روبرت، هذا أمرُ خارج عن إطار نقاشنا. إنه عرض عمل. عملُ اعتقدت أنك قد تكون مهتماً بالتفكير به. لقد كنت مهتمةً بانتقاء الأشخاص. لقد تم اختيار خمسة أشخاص. وأنا السادسة. وأنت ستكون السابع".

أشار إلى التورتة. "كنت أتساءل عما كنت تتباحثين بشأنه مع النادل قبل أن تغادري ليلة أمس".

كان يتجاهلها، ويلعب لعبةً على ذوقه.

"لقد لاحظتُ مدى استمتاعك بالحلوى بعد الطعام".

أمسك بشوكةٍ مصنوعةٍ من الفضة الخالصة. إن نفوره الشخصي الظاهر منها لم يعطلّ طعامها، أو طائرتها النفاثة، أو إمكانية كسب المال من وراءها.

"هل لي أن أُخبرك بقصة؟" قالت له وتابعت: "قصة عن مصر. عندما غزاها الجنرال نابليون بونابرت في العام 1798".

أومأ برأسهِ إيجاباً وهو يستمتع بطعم الشوكولا اللذيذة. "أشك في أنك ستقبلين رفضي لسماع القصة. فهيَّا أخبريني القصة".

قاد نابليون بنفسه طابور الجنود الفرنسيين في اليوم الثاني من مسيرهم نحو الجنوب. وكانوا قرب البيدا، على بعد بضح ساعات من القرية التالية. كان النهار حاراً ومشمساً، مثل باقي الأيام التي سبقته. في مساء اليوم المنصرم كان الأعراب قد هاجموا بضراوةٍ حرس المقدّمة. وكاد الجنرال "ديزيه" يؤسر، وفي المقابل قُتِل نقيبُ وأُسِر جنرالٌ معاون آخر. وطالب الخاطفون بفدية، ولكنهم تقاتلوا على الغنيمة، وفي نهاية الأمر أطلقوا النار على الأسير في رأسه. إن مصر كانت تُثبت أنها أرض خيانةٍ وغدر –يسهل احتلالها، ويصعب الإمساك بزمام أمورها –وكانت المقاومة تتعاظم على ما يبدو.

نظر نابليون إلى الأمام فرأى على جانب الطريق الترابي امرأةً وجهها دامٍ. كانت تحمل ولداً في المهد بإحدى ذراعيها، وأما الأخرى فكانت تمدُّها في الهواء أمامها كنوعٍ من الدفاع عن النفس، وتستشعر الهواء أمامها. ما الذي كانت تفعله هناك، في تلك الصحراء المحرقة؟

اقترب منها، وعن طريق مترجم، علِمَ بأن زوجها كان قد فقأ عينيها. لقد شعر بالخزي. لماذا؟ لم تجرؤ على ان تشكو بل اكتفت بأن تناشدهم بالاعتناء بطفلها، الذي بدا على وشك الموت. فأمر نابليون بأن الاعتناء به وبطفلها وبأن يُقدَّم لهما الماء والخبز.

وتمَّ ذلك، وإذا برجلٍ يظهرُ فجأةً من وراءِ كَثيبٍ قريب، غاضباً وممتلئاً حقداً وكراهية.

احترس الجنود.

ركض الرجل نحوهم وانتزع الخبز والماء من المرأة.

وصرخ: "ممنوع. لقد فقدت شرفها وطعنت شرفي. ذلك الرضيع هو عارُ عليِّ. إنه ثمرة خطيئتها".

ترجّل نابليون وقال: "إنك مجنون، يا سيّد. إنك مخبول".

"أنا زوجها ولي الحق أن أفعل بها ما أريد".

وقبل أن يستطيع نابليون أن يفعل شيئاً، أخرج الرجل خنجراً من تحت عباءته ووجَّه طعنةً قاتلة إلى امرأته.

حدث اضطرابُ بين الجمع في حين أمسك الرجل بالطفل ورفعه في الهواء وقذف به إلى الأرض.

دوى صوت طلقٍ ناري وتمزَّق صدر الرجل، وسقط جسده على الأرض الجافة.

الكابتن "لو ميرور"، الذي كان يمتطي جواده خلف نابليون، وضح نهايةً لذلك المشهد.

بدا الجنود جميعاً مصدومين لما رأوه.

نابليون نفسه كان يجد صعوبةً في إخفاء الهلع الذي أصابه. وبعد بضعة دقائق عصيبةٍ أمر الطابور بأن يتابع سيره الأمام، ولكن قبل أن يمتطي حصانه، لاحظ شيئاً يسقط من تحت عباءة الرجل الميِّت.

كان رقاً من ورق البردي مربوطاً بخيطٍ بقوة.

استرد نابليون الرقَّ من فوق الرمال.

أخذ نابليون بتنظيم الجنود في أرباع لقضاء الليل في مستراح أحد ألد خصومه، وهو مصريٌّ فرَّ هارباً في الصحراء مع جيشه المملوكي قبل بضعة أشهر، تاركاً كل ممتلكاته ليتمتع بها الفرنسيون. تمدّد الجنرال نابليون على السجّاد الناعم المكسو بوسائد مخملية بينما كان لا يزال مضطرباً من أثر وحشية المنظر المريع الذي شاهده قبل قليل في الطريق الصحراوي.

قيل له فيما بعد بأن ذلك الرجل أخطأ في طعن زوجته، ولكن لو كان الله قد سمح بمغفرة خيانتها، لمكان قد دبَّر لأن يستقبلها أحدُ ما في بيته وأن يُبقي

عليها بدافع الإحسان. وبما أن هذا لم يحدث، فإن الشريعة عند الأعراب كانت تقتضي أن لا يُعاقَب الزوج على كلتا الجريمتين اللتين ارتكبهما.

فقال نابليون: "إذاً فحسنٌ ما فعلنا".

كانت الليلة هادئةً ورتيبة، ولذلك فقد قرَّر أن ينظر بإمعان إلى رقّ البردي الذي وجده على جسد ذلك الرجل. كان علماؤه قد قالوا بأن السكان المحليين كانوا معتادين على أن ينهبوا المواقع المقدسة، فيسرقون ما يجدونه منها إما لبيعه أو لإعادة استخدامه. يا للخسارة. كان قد جاء ليكتشف ماضي هذ البلد، لا ليدمّره.

فكَّ نابليون الخيط وفتح الرزمة ليكتشف وجود أربع صفحات مكتوبة بلغةٍ بدت له على أنها يونانية. لقد كان طليقا باللغة الكورسيكية، وكان يستطيع أن يتكلم وأن يقرأ الفرنسية المتداولة، ولكن لم يكن يعرف أية لغة أخرى غير هاتين اللغتين.

ولذلك أمر أحد مترجميه بأن يأتي إليه.

فقال الرجل له: "إنها باللغة القبطية".

"أيمكنك أن تقرأها؟"

"بالطبع، أيها الجنرال".

قال ماستروياني: "يا له من أمرٍ فظيع، قتلُ ذلك الطفل الرضيع".

أومأت برأسها وقالت: "كان ذلك واقع الحملة المصرية. لقد كان غزواً قاسياً دامياً. ولكني أؤكد لك أن ما حدث هناك هو السبب في أني أنا وأنت الآن نتداول هذا الحديث".

5

جلس سام كولنز في مقعد السيارة وراح يتفرّج على مالون وهو يقود السيارة بهما خارجين من كوبنهاغن، متجهين شمالاً على الطريق السريع للشاطئ الدانماركي.

كان كوتون مالون تماماً كما توقعه سام؛ قوياً، جسوراً، حازماً، يتحمل المسؤولية التي تلقى عليه، ويقوم بتنفيذ ما يجب عليه فعله. بل إنه كان ينطبق تماماً على الوصف الجسدي الذي كان قد أعطي لسام: طويل القامة، ذو شعرٍ أشقر مصقول لامع، وابتسامةٍ جذّابةٍ. لقد كان يعرف عن سنين مالون الإثني عشرة التي قضاها في دائرة العدل، وعن دراسته للحقوق في جامعة جورج تاون، وذاكرته القوية الدقيقة، وعشقه للكتب. ولكنه رأى الآن ولأول مرة شجاعة هذا الرجل تحت النار.

سأله مالون: "من أنت؟"

أدرك سام أنه لن يستطيع أن يتصرف متظاهراً بالحياء. واستشعر شكوك مالون، ولم يلُمْه على ذلك. فأن يأتي غريب إلى متجره في منتصف الليل ويتبعه رجلان مسلحان، فهذا أمرُ غير عادي. فردّ سام قائلاً: "أنا عميلُ في الاستخبارات السرية الأمريكية. أو على الأقل كنت كذلك حتى بضعة أيامٍ فقط. وأعتقد أنني قد طُردت".

"وما السبب؟"

"لأنه ما من أحدٍ هناك كان ليصغي إليّ. حاولتُ أن أخبرهم. ولكن ما من أحدٍ أراد أن يسمع".

"وماذا بشأن هنريك؟"

"كيف لك أن-" ثم تمالك نفسه.

"بعض الناس يسيرون في التيار كقطيعٍ من الحيوانات الضالّة. هنريك يُنقذ الناس. فلماذا أنت بحاجة إلى مساعدته؟"

"من قال إني بحاجة إليه؟"

"لا ترهق نفسك في الشرح، أمِنَ الممكن ذلك؟ لقد كنت يوماً أحد أولئك المضلَّلين".

"في الواقع، كنت لأود القول أن هنريك هو الذي بحاجةٍ إلى المساعدة. لقد اتصل بي لأجل هذه الغاية".

حوَّل مالون ناقل السرعة في سيارته المازدا إلى الوضعية الخامسة وتابع سيره في الطريق السريع المعتم، على بعد مئة ياردة أو نحو ذلك بعيداً عن بحر أورسند المظلم.

كان سام في حاجة إلى أن يوضح شيئاً. "لم أعمل لصالح البيت الأبيض من خلال وكالة الاستخبارات السرية. لقد كنت أعمل في مجال الاحتيال المالي والعملات".

لقد كان دائماً يضحك على النمط الهوليودي من العملاء الذين كانوا يرتدون بزاتٍ سوداء، ويضعون نظارات شمسية، وسماعاتِ أذن ويحيطون بالرئيس. فمعظم العاملين بالاستخبارات، كانوا يعملون في غموض وإبهام، فيعملون على حماية النظام المالي الأمريكي. لقد كان هذا هو الهدف الأساس من تأسيس هذه الوكالة، منذ أن نشأت بعد الحرب الأهلية، فقد خُلقِت هذه الوكالة لمنع التزوير الكونفيدرالي. وفقط بعد اغتيال وليم ماكنلي بحوالي خمس وثلاثين سنة، صارت الوكالة تأخذ على عاتقها مسؤولية حماية الرئيس.

"لماذا أتيت إلى متجر الكتب الخاص بي؟" سأله مالون.

"لقد كنت أمكث في البلدة. أرسلني هنريك إلى فندق البارحة. فأدركت أن هناك شيئاً ما على غير ما يرام. لقد أرادني أن كون بعيداً عن المكان".

"منذ متى أنت في الدانمارك؟"

"منذ أسبوع. لقد ذهبت أنت، وعدت منذ بضعة أيام فقط".

"إنك تعرف الكثير عني".

"ليس تماماً. أعلم أنك كوتون مالون ضابط بحريةٍ سابق. عملتَ في مشروع ماجيلان بيليت. والآن أنت متقاعد".

رمقه مالون بنظرةٍ تدل على نفاد صبره من تملُّصه من السؤال الأصلي.

"إني أدير موقعاً للإنترنت بجانب ذلك". قال سام. "لم يكن من المفترض أن

نفعل أشياء كهذه، ولكني فعلت ذلك. انهيار النظام المالي العالمي. مؤامرة الرأسماليين. هكذا أسميته. إنه موقع Moneywash.net الخاص بتبييض الأموال".

"أستطيع أن أفهم لماذا كنت في مشاكل مع رؤسائك بسبب هواياتك".

"لا أستطيع أن أتفادى ذلك. إني أعيش في أمريكا. ولي الحق في أن أعبِّر عن فكري".

"ولكن ليس لك الحق بأن تحمل شارةً فدرالية في نفس الوقت".

"هذا ما قالوه لي أيضاً". لم يستطع أن يُخفي الإحساس بالانهزام في صوته.

"ما الذي وضعتَه في هذا الموقع الذي قمتَ بتصميمه؟" سأله مالون.

"لقد قلتُ الحقيقة. عن رأسماليين وممّولين، مثل ماير أمشيل روتشايلد.

"لم يكن ذلك سوى تعبير عن حقوق التعديل الأول التي هي من حقك؟"

"ما المهم في المسألة؟ ذلك الرجل لم يكن حتى أمريكياً. إنه مجرد زعيم لديه أموال. أولاده الخمسةُ كانوا أفضل منه. لقد تعلّموا كيف يحوِّلون الدَّيْنً إلى ثروة. لقد كانوا مُقرِضين لعروش أوروبا. يكفي أن تذكر اسماً، فتجد أن أيدٍ سرعان ما تمتد لتقديم المال لك، وأيدٍ أخرى تسترجعه".

"أليست هذه الطريقة الأمريكية في التعامل؟"

"لم يكونا مصرفيين. فالمصارف تعمل بأموال تأخذها إما من ودائع الزبائن أو تبتدعها الحكومة. لقد كانوا يعملون بثرواتٍ شخصية، فيقرضون المال بمعدلات فوائد فاحشة".

"مرة أخرى، ما المشكلة في ذلك؟"

عدَّلَ مجلسه في مقعده. "هذا هو الموقف الذي أعطاهم الفرصة لأن ينجو بفعلتهم. يقول الناس: "وماذا إذاً؟ إن لهم الحق في أن يحقِّقوا الأرباح". لا، ليس الحال هكذا". جاشت النار في داخله. "لقد حقق آل روتشايلد ثروةً من خلال تمويلهم للحرب. أتعرف ذلك؟"

لم يجب مالون.

"وغالباً ما كانوا يُموِّلون كلا الطرفين المتصارعين. وما كانوا لِيُبالون بالمال الذي كانوا يُقرضونه. بالمقابل، كانوا يريدون امتيازاتٍ تتحوَّل إلى أرباح وفوائد. أشياء مثل امتيازات التنقيب، والاحتكارات، واستثناءات الاستيراد. وأحياناً كان لديهم حتى الحق في أن يقتطعوا ضرائب محددةٍ كضمانة".

"كان ذلك قبل مئات السنين. فأين المشكلة؟"

"إنه يحدث من جديد".

أبطأ مالون سرعة السيارة عند منعطفٍ شديد. "أنَّى لك أن تعرف ذلك؟"

"ليس كل من يغتني فاعل خَير مثل بيل غايتس".

"هل لديك أسماء؟ أو دليل؟"

سكت سام.

بدا مالون وكأنه يستشعر ورطته. "لا. ليس لديك ذلك. بل مجرّد مجموعة من الأوهام بالتآمر نشرْتها على الإنترنت تسبّبت في طردك".

"إنها ليست واهية". أجاب سام بسرعة واستأنف: "أولئك الرجال جاؤوا لقتلي".

"تبدو مسروراً لمحاولتهم ذلك".

"إن هذا يُثبت أني كنتُ على حق".

"تلك وثبةٌ كبيرة. أخبرني ما الذي حدث".

"لقد بقيتُ فترةً طويلةً معتكفاً في غرفة الفندق، ولذلك أردتُ أن أخرج للتنزّه. فبدأ رجلان بملاحقتي. غيّرتُ اتجاهي، وظلّوا في إثري. وهنا وجدتُ مكانك. كان هنريك قد أخبرني أن أنتظر في الفندق إلى أن أسمع منه، ثم أتصل بك. ولكن عندما رأيت هذين الرجلين اتصلت بكرستيانغيد. طلب مني جسبر أن أراك على الفور، ولذلك توجهتُ إلى متجرك".

"كيف دخلتَ إلى المتجر؟" "خلعتُ الباب الخلفي بمُخلٍ. الأمر سهلٌ جداً. إنك في حاجة إلى تركيب جهاز إنذار".

"أعتقد أنه إذا دخل أحدُ ما ليسرق الكتب القديمة، فلن أبالي إذا ما أخذها

كلها".

"وماذا بخصوص أولئك الشبان الذين يريدون أن يقتلوك؟"

"في الواقع، لقد كانوا يريدون أن يقتلوك أنت. وبالمناسبة، كانت حماقةً منك أن تقتحم المكان. فقد كدتُ أطلق النار عليك".

"أعرف أنك ما كنت لتفعل ذلك".

"يسرني أنك عرفت ذلك، لأني لم أفعل".

تابعا سيرهما في السيارةِ صامتين لبضعة أميال، وكانوا يقتربون من كرستيانغيد. كان سام قد قام بهذه الرحلة نفسها عدة مراتٍ خلال العام المنصرم.

"إن ثورفالدسن في ورطةٍ كبيرة"، قال سام وتابع: "ولكن الرجل الذي كان يطارده قد تصرف أولاً".

"هنريك ليس بأحمق".

"ربما لا. ولكن الطيور على أشكالها تقع".

"كم عمرك؟"

تعجّب من التغير المفاجئ في موضوع الحديث. "إثنان وثلاثون".

"منذ متى وأنت تعمل مع الوكالة؟"

"أربع سنوات".

لاحظ الاستغراب في ملامح مالون. فلماذا كان هنريك بحاجة إلى أن يتواصل مع عميلٍ استخبارات شاب وليس لديه خبرة، هذا الشاب الذي كان يدير موقعاً للإنترنت؟ "إنها قصةُ طويلة".

فقال مالون: "لديَّ متسع من الوقت".

"في الواقع ليس لديك هكذا وقت. فقد فاقم ثورفالدسن الموقف حتى إنك لن تستطيع أن تتحمل الهيجان الذي نجم عن ذلك أكثر. إنه بحاجةٍ إلى المساعدة".

"أهذا كلام المتآمرين أم كلام العميل؟"

زاد مالون من سرعة سيارته المازدا وحافظ على سيره على الطريق

المستقيم. وكان المحيط الأسود يمتد أمامهم إلى اليمين، وأنوار السويد البعيدة تتبدى في الأفق.

"إنه حديث صديقه".

فقال مالون: "هذا واضح. ليس لديك فكرة عن هنريك. إنه لا يخاف شيئاً".

"كل إنسان يخاف من شيءٍ ما".

"وممَّ تخاف أنت؟"

فكر ملياً في هذا السؤال، هذا السؤال الذي طرحه على نفسه مراتٍ عديدة خلال الأشهر القليلة الماضية، ثم أجاب بصدق: "إني أخاف من ذلك الرجل الذي يطارده ثورفالدسن".

"هل ستخبرني اسماً ما؟"

"اللورد غراهام آشبي".

6

كورسيكا

عاد آشبي إلى المركب أرخميدس ووثب من ظهره إلى الرصيف الخلفي. كان قد أعاد الكورسيكي معه، بعد أن استرعى انتباهه التام فوق ذلك البرج. وكان قد خلع الرداء السخيف، ولم يسبّب لهم الرجل أيَّ إزعاج في رحلة الطريق.

"رافقْه إلى الصالون الرئيسي". قال آشبي لغيلدهول الذي قاد ضيفهم إلى الأمام. "وتأكَّدْ من تأمين الراحة له".

صعِد ثلاثة قوائم من الدرج المصنوع من شجر السّاج وصولاً إلى بركةٍ مضاءة. وكان لا يزال يمسك بالكتاب الذي كان قد استردّه من منزل الكورسيكي.

ظهر قبطان السفينة.

"اتجهوا شمالاً على طول الساحل، بأقصى سرعة". قال آشبي آمراً.

أومأ القبطان برأسه، ثم توارى عن الأنظار.

كان بدن أرخميدس الأسود المصقول يمتد على طول سبعين متراً. وكان مزوَّداً بمحرك ديزل مضاعف تصل سرعته إلى خمسين عقدةٍ، وكان بإمكانه أن يعبر الأطلسي بسرعةٍ معقولةٍ تصل إلى 22 عقدة. أما ظهر المركب فقد كان عليه ثلاثة أجنحة، وشقة المالك، ومكتب، ومطبخ فخم، وحمام على البخار، وحجرة للرياضة، وكل أسباب الراحة والمتعة التي يمكنك أن تتوقعها على متن مركبٍ فخمٍ مترفٍ.

وفي الأسفل كانت المحركات تدور.

فكَّر ثانية بخصوص تلك الليلة في أيلول (سبتمبر) 1943.

فقد ذكرت جميع الروايات أن البحر كان هادئاً والسماء صافيةً. وكان أسطول باستيا لصيد السمك يرسو في أمانٍ في المرفأ. ولم يكن هناك سوى زورقٍ آليٍّ وحيدٍ يشق الموج بعيداً عن الشاطئ. قال البعض إن القارب توجه نحو "كيب سود" ونهر "غولو" الذي يقع إلى جنوب "كاب كورس"، وهو

النتوء الشمالي من كورسيكا الداخل في البحر-هذا المشهد الذي يشبه جبالاً تتجه نحو شمال إيطاليا. وآخرون قالوا إن المركب كان في جهة الساحل الشمالي الشرقي. صعد أربعة جنود ألمان على متن الزورق عندما كانت طائرتان أمريكيتان من طراز P-39 تقصفان ظهر المركب بنيران المدفعية. سقطت قنبلةُ نحو المركب ولكن لم تصبه، والحمد لله، وأنهت الطائرات هجومها دون أن تقضي على المركب. وفي نهاية الأمر، تمت تخبئة ستة أقفاص خشبية في مكانٍ ما، إما في كورسيكا أو قرب كورسيكا، وكان هناك رجلٌ ألمانيٌّ خامس على الشاطئ يساعد الأربعة في الهروب.

سار أرخميدس بيسرٍ إلى الأمام.

يجب أن يكونوا هناك في أقل من ثلاثين دقيقة.

صعد إلى ظهر المركب مرة أخرى إلى الصالون الكبير حيث الأثاث، المكّون من الجلد الأبيض والمعادن التي لا تصدأ، والسجاد البربري ذي اللون الأصفر الشاحب، تُشعر الضيفَ بالارتياح. لقد كانت عزبته الإنكليزية العتيقة العائدة للقرن السادس عشر حافلة بالعراقة. أما هنا فكان يفضل الحداثة.

جلس الكورسيكي إلى إحدى الأرائك يهتم بأمر الشراب.

فسأله آشبي: "أتريد بعضاً من عصير التفاح؟"

أومأ الرجل الأكبر سناً، وهو لا يزال متوتراً بشكلٍ واضح.

"إنه شرابي المفضل".

اندفع المركب إلى الأمام فجأةً بسرعةٍ مفرطة، وراح يشق المياه بسرعةٍ.

فوقع كتاب نابليون على الأريكة بجوار ضيفه.

"منذ أن تحدّثنا آخر مرة، كنت مشغولاً جداً. لن أضجرك بالتفاصيل. ولكني أعرف أن أربعة رجال قد جلبوا ذهب رومِل من إيطاليا. وكان الخامس ينتظرهم هنا. خبّأ الأربعة الكنز، ولم يكشفوا مكانه للغستابو، الذين أطلقوا النار عليهم لتقصيرهم في أداء الواجب. ولسوء الحظ، فإن الخامس لم يكن مهتماً بالاطّلاع على المخبأ الذي أخفوا فيه الكنز. ومنذ ذلك الحين، فإن كورسيكيين من أمثالك يبحثون وينشرون أخباراً زائفةً كاذبةً عما حدث. هناك عشراتُ من الروايات المختلفة عن الأحداث التي جرت وهذه الروايات لم

تسبب إلا التشويش. ربما كان هذا هو السبب في أنك قد كذبت علي في آخر مرة". توقّف عن الكلام لوهلة، ثم تابع ليقول: "وربما كان هذا هو السبب فيما فعله غوستاف".

سكب لنفسه جرعةً من العصير وجلس إلى الأريكة قبالة الكورسيكي. وكانت توجد بينهما طاولةُ مصنوعةُ من الخشب والزجاج. استردَّ الكتاب ووضعه على الطاولة: "لو سمحت، أريد أن أحلّ الأُحجية ".

"لو استطعتُ، لكنتُ قد فعلت ذلك قبل زمنٍ طويل".

ابتسم ابتسامة عريضة وقال: "لقد قرأت مؤخراً أن نابليون عندما صار إمبراطوراً، أقصى جميع الكورسيكيين من الإدارة في جزيرتهم. وقال إنهم غير جديرين بالثقة".

"ولكن نابليون كان كورسيكياً أيضاً".

"صحيح تماماً، ولكنك كاذبُ يا سيدي. أنت تعرف كيف تحلّ اللغز، فأرجو أن تفعل ذلك".

ازدرد الكورسيكي ما بقي من العصير. "ما كان يجب أن أتعامل معك".

هزّ كتفيه بلا مبالاة. "إن نقودي هي التي تجعلك تعمل معي. وأنا أيضاً ما كان يجب أن أتعامل معك".

"لقد حاولت أن تقتلني عند البرج".

ضحك وقال: "لقد أردتُ فقط أن أسترعي انتباهك الشخصي".

لم يَبْدُ على الكورسيكي أنه تأثر بهذا الجواب: "لقد أتيت إليّ لأنك تعلم أني أستطيع أن أقدّم أجوبةً".

"وقد آن الأوان لتفعل ذلك".

كان قد أمضى السنتين الأخيرتين يتفحص كل دليلٍ أو مفتاح لحلّ اللغز ويقابل الشهودَ القليلين الثانويين الذين زالوا على قيد الحياة -إذ إن جميع المشاركين الرئيسيين كانوا موتى منذ زمنٍ بعيد -وقد عرف أنه ما من أحدٍ يعلم حقاً أين كان يوجد ذهب رومِل. ما من قصةٍ متماسكةٍ تحكي عن مصدره وعن الرحلة من أفريقيا إلى ألمانيا. وأكثر قصة قابليةً للتصديق تقول إن المؤونة جُلبَت من قابس، في تونس، على بعد 160 كيلومتراً من الحدود

الليبية. وبعد أن جَعَل قائد القوات الألمانية في أفريقيا البلدة مركزاً لقيادته، قيل للثلاثة آلاف يهودي الذين كانوا هناك إنهم يستطيعون أن يحافظوا على حياتهم مقابل "ستين وزنةٍ من الذهب". فأُعطيت لهم مهلة 48 ساعة ليجلبوا الفدية، وهذه تم حزمها وجمعها في ستة أقفاصٍ خشبيةٍ، وأُخذت إلى الشاطئ، وشُحنت شمالاً إلى إيطاليا. من هنا تولى الغستابو الأمور، فائتمنوا في نهاية الأمر أربعة جنود على نقل الصناديق غرباً إلى كورسيكا. لقد بقيت محتويات تلك الصناديق سرّية. ولكن يهود قابس كانوا أثرياء، وكذلك كل الجماعات اليهودية المحيطة، حيث كانت قابس محجاً شهيراً يتلقى الكثير من الأشياء المرصّعة بالجواهر على مر القرون.

ولكن هل كان الكنز ذهباً؟

يصعب قول ذلك.

ومع ذلك فقد اكتسب الكنز اسم ذهب رومِل -ولعل تلك كانت إحدى المخابئ الكبيرة الأخيرة من مخلفات الحرب العالمية الثانية.

رفع الكورسيكي كوبه الفارغ فنهض آشبي ليُعيد ملأه له. لقد كان يدلِّل الرجل، وهكذا عاد بكوب ممتلئ حتى ثلاثة أرباعه من العصير.

ارتشف الكورسيكي رشفةً كبيرة من الكوب.

"أنا أعرف عن الشيفرة"، قال آشبي. "إنها في الواقع بارعةُ حقاً. طريقةُ ذكية لإخفاء رسالةً. ولكننا في حاجة إلى فهم "عقدة المغربي"، التي أعتقد أنهم يسمّونها هكذا".

وكان باسكال باولي، وهو مقاتلُ كورسيكي من أجل الحرية من القرن الثامن عشر، وقد صار الآن بطلاً قومياً، قد ابتكر هذه التسمية. كان باولي في حاجة إلى طريقة ليتواصل بقوةٍ مع حلفائه، طريقة تضمن له السرية التامة، ولذلك ابتكر طريقةً تعلّمها من المغاربة، الذين كانوا يشنّون غاراتٍ ولقرون عديدة على خط الشاطئ كقراصنة وقطّاع طرق.

أوضح آشبي قائلاً "أنت تحصل على نسختين من كتاب، فتحتفظ بأحدهما. وتعطي الآخر لشخصٍ تريد أن ترسل له رسالة. في داخل الكتاب تجد الكلمات الصحيحة للرسالة، ثم تتواصل معه عن طريق رقم الصفحة ورقم السطر ورقم

الكلمة حسب ورودها في السطر. إن الأرقام بحدِّ ذاتها لا قيمة لها، إلى أن يكون لديك الكتاب الصحيح".

وضع كوب العصير على الطاولة، وأخرج ورقة مطوية من جيبه، ثم ملّسها فوق الطاولة التي كان سطحها من الزجاج. "هذا ما أعطيته لك في آخر مرة تحدثنا فيها". تفحّص أسيرُه الصفحة.

XCVCCXXXVICXXVIIICXCIVXXXII

IV XXXI XXVI XVIII IX

VII VI X II XI

فقال الكورسيكي: "إنها لا تعني لي أي شيء".

هز رأسه غير مصدِّقٍ. "عليك أن تتوقف عن ذلك. إنها تدلُّ على مكان وجود كنز رومِل".

"يا لورد آشبي. لقد عاملْتَني الليلة باحتقارٍ كامل. معلِّقاً إياي عند ذلك البرج. ومخاطباً إيّاي بالكاذب. وقائلاً إن غوستاف كذب عليك. نعم، لقد كان لديّ هذا الكتاب. ولكن هذه الأرقام لا تعني شيئاً دون الرجوع إلى ما تشير إليه. والآن نحن نبحر إلى مكانٍ ما لم تكن لديك اللباقة الكافية لتخبرني عنه. إن العصير الذي قدّمتَه لي لذيذٌ، والمركب فخمُ، ولكن عليك أن توضح لي نواياك وأفكارك".

لقد كان آشبي طوال الحياة التي عاشها بعد بلوغه سن الرشد يبحث عن الكنز. ورغم أن عائلته كانوا من رجال المال ولزمنٍ طويل، إلا أنه تعلّق بالسعي وراء الأشياء الضائعة أكثر من جمع المال ببساطة. وكانت الأجوبة التي يطلبها أحياناً تأتيه بعد عناءٍ طويل. وأحياناً كان رواةُ يقدّمون له، مقابل ثمن، المعلومات التي يحتاج إلى معرفتها. وأحياناً كما هو الحال هنا، كان يرتبك في محاولة الحصول على الحل.

"سأكون أكثر من مسرور بأن أشرح لك".

7

الدانمارك، الساعة 1:50 فجراً.

تفحّص هنريك ثورفالدسن مشط الذخيرة وتأكّد من أن السلاح جاهز تماماً للاستخدام. واذ شعر بالرضى، وضع بلطف بندقية الهجوم إلى طاولة المأدبة. جلس في القاعة الكبيرة لمنزله الريفي الصغير تحت سقفٍ ذي عوارض من خشب السنديان، محاطاً بدرعٍ ورسوماتٍ أعطت انطباعاً وإحساساً بأنه إنسانُ نبيلُ. كان أسلافه قد جلسوا جميعاً على نفس المائدة، يعقدون اجتماعاتٍ منذ أربع مئة سنة تقريباً.

كان عيد الميلاد على وشك أن يأتي خلال أقل من ثلاثة أيام.

منذ ثلاثين سنة صعد ذلك الطفل "كاي" فوق تلك الطاولة.

"عليك أن تنزل"، أَمَرَتْه أمّه. "حالاً يا كاي".

لاذ الولد بالفرار عبر ذلك الامتداد الفسيح، وراحت يداه ترتكزان على رؤوس الكراسي المرتفعة الظهر. وكان ثورفالدسن يتفرج كيف أن ابنه كان يتحاشى قطعة الزينة وسط الطاولة، تلك المطلية بالذهب، ويركض إلى الأمام، فيثب إلى ذراعيه المفتوحتين.

"كلاكما لا تُعقلان"، قالت زوجته، "إنكما مزعجان جداً".

"يا ليزيت، إنه عيد الميلاد. دعي الصبي يلعب". قال وهو يحتضنه. وأردف قائلاً: "إنه في السابعة من العمر فقط. وهذه الطاولة تقبع هنا منذ زمن بعيد".

"بابا، هل ستأتي نيسي هذه السنة أيضاً؟"

كان "كاي" يحب تلك الجنية المزعجة، التي كانت الأسطورة تقول إنها كانت ترتدي ثياباً صوفيةً رمادية، وتعتمر قلنسوةً، وتلبس جوارب حمراء، وقبقاباً أبيض. لقد كانت تسكن في عليّات بيوت المزارعين وتستمتع بإلقاء النكت وصنع الطرائف.

قال الولد: "لكي نكون في أمان، نحتاج إلى بعض العصيدة".

ابتسم ثورفالدسن. كانت أمّه قد أخبرته نفس الحكاية عن كيف أن زبدية من العصيدة كانت تُترك في الخارج ليلة عيد الميلاد لتحدَّ من طرائف نيسي. وبالطبع، كان ذلك قبل أن يذبح النازيون كّل من كان يُدعى ثورفالدسن، بمن فيهم والده.

"يجب أن يكون لدينا عصيدة"، قالت ليزيت، "مع إوزة مشوية، وملفوف أحمر، وبطاطا مشويّة، وحلوى البودينغ المصنوعة من الرزّ مع القرفة".

سأل كاي، والتعجب بادٍ في صوته: "مع اللوز السحري؟"

راحت زوجته تداعب شعر الصبي الرقيق البني اللون. "نعم، يا حبيبي. مع اللوزة السحرية. وإن وجدتها، ستكون لك مكافأة قيِّمة".

لقد كان هو وليزيت يسعيان دائماً لأن يسهّلا على كاي أن يجد بكل تأكيد اللوزة السحرية. ورغم أنه كان يهودياً، إلا أن والد ثورفالدسن وزوجته كانا مسيحيين، ولذلك فإن العيد كان يعني شيئاً مهماً في حياته. فكان في كل عام يقوم مع ليزيت بتزيين شجرة تنّوب عطرية الرائحة بحليّ مقلّدة وزينة خشبية من صنع اليد، واعتادا على تقليدٍ معين وهو ألا يسمحا لكاي برؤية ما يكونا قد فعلاه حتى بعد وليمة عشاء الميلاد، بعد أن يكونوا قد اجتمعوا معاً وأنشدوا أغاني الميلاد.

يا الله، كم كان يستمتع بعيد الميلاد.

وذلك حتى ماتت ليزيت.

وبعدها، عندما اغتيلَ كاي قبل سنتين، فقَدَ العيدُ بالنسبة له كل معنى. لقد ذاق مرارة الحياة خلال الأعوام الثلاثة المنصرمة، وخاصة ذلك العام الأخير. لقد وجد نفسَه كل عامٍ يجلس هنا، إلى طرف هذه الطاولة، ويتساءل عن سبب قسوة الحياة معه.

ولكن كان الحال مختلفاً هذا العام.

مد يده وربّت بلطفٍ على معدن البندقية الأسود. إن البنادق الهجومية كانت مخالفة للقانون في الدانمارك، ولكن ما كانت تهمه القوانين.

العدالة.

هذا ما كان يريده.

جلس صامتاً. ما من نورٍ مضاءٍ في أي مكان في غرف كرستيانغيد التي يبلغ عددها واحداً وأربعينٍ. لقد سُرَّ لفكرة أن العالم خالٍ من الإنارة. ففيه سوف لن يرَ أحد عموده الفقري المشوّه. ولن يرّ أحدُ وجهه المرن كالجلد. وسوف لن يضطر إلى تقليم شعره الرمادي الكث وحاجبيه الخشنين. ففي العتمةِ، حواس المرء هي التي تهم.

وكانت هذه متناغمةً ومضبوطة جداً لديه.

كانت عيناه تجولان في القاعة المظلمة بينما كان ذهنه لا يزال يتذكّر.

لقد كان في مقدوره أن يرى كاي في كل مكان، وليزيت أيضاً. لقد كان رجلاً لا نظير لثروته وسلطته ونفوذه. وقلّةٌ من الرؤساء أو الملوك كانوا يستطيعون أن يرفضوا طلباً له. الخزف الصيني الذي كان يملكه، وصيتُه، كانا معروفين في كل مكانٍ في العالم. لم يمارس الديانة اليهودية أبداً، ولكنه كان صديقاً مخلصاً لليهودٍ. وكان يدعم المؤسسات الخيرية بملايين اليورو من أموال العائلة دون إثارة الانتباه.

ولكنه كان آخر أسرة ثورفالدسن.

فالأقارب الذين بقوا هم فقط أولئك ذوو القربة البعيدة، وعددهم قليل. هذه العائلة، التي تحمّلت الكثير على مدى القرون، كانت على وشك الانقراض.

ولكن ليس قبل أن يقوم العدل.

سمع صوت بابٍ يُفتح، ثم صدى وقع خطوات عبر ردهة القاعة السوداء.

دقت ساعةُ في مكاني ما تُعلن الثانية بعد منتصف الليل.

توقّفت خطوات الأقدام على بعد بضعة أمتار وصدر صوتُ يقول: "لقد تعطلت أجهزة التحسس".

لقد كان جسبر معه منذ زمن طويل، وشهد كل الفرح والألم الذي عرفه ثورفالدسن، فلقد كان صديقه يشعر بهما أيضاً.

سأل: "أين؟"

"ربع الدائرة الجنوب شرقي، قرب الشاطئ. هناك متعديان يتجهان إلى هذه الناحية".

"لا لست مضطراً لفعل ذلك". قال لجسبر.

"علينا أن نستعد".

ابتسم، وكان مسروراً من أن صديقه القديم الحميم لا يستطيع أن يراه. في العامين المنصرمين وقف إلى جانبه خلال ثورات موجات انفعالاته المتصارعة، وقد شغل نفسه بأهدافٍ وقضايا، سمحت له، ولكن مؤقتاً فقط، بأن ينسى ألمه، وكربه، والأسى الذي صار يلازمه في الحياة.

سأل: "ماذا عن سام؟"

"ما من خبرٍ جديد عنه منذ اتصاله الأول. ولكن مالون اتصل مرتين. ولم أردَّ على الهاتفَ بِناءً على طلبك".

هذا يعني أن مالون قد فعل ما كان يجب عليه فعله.

لقد نصب هذا الفخ بعنايةٍ كبيرة. والآن ينوي أن يستفيد من الجهد الذي بذله فيه.

تناول البندقية.

"آن الأوان لنُرحّب بزوّارنا".

8

جلست إليزا في كرسيها وقد أمالت نفسها إلى الأمام. لقد كانت تريد أن تسترعي انتباه روبرت ماستروياني بالكامل.

"خلال الفترة بين عامي 1689 و1815، كانت إنكلترا في حالة حرب دامت ست وثلاثين سنةً. أي معركة كل عامين -وفي السنوات التي ما كان فيها قتال كانت تمضي وقتها في الاستعداد لمعارك أخرى قادمة. هل يمكنك أن تتخيل مدى تكلفة ذلك؟ ولم يكن هذا أمراً شاذاً. لقد كان شائعاً بالفعل خلال تلك الفترة عند الشعوب الأوروبية أن تبقى في حالة حرب".

"هل تقصدين القول إن أناساً كثيرين قد استفادوا من ذلك الواقع؟" سألها ماستروياني.

"تماماً. وما كان الفوز بتلك الحروب مهماً، لأنه في كل مرة كانت تقوم حربٌ كانت الحكومات تجلب على نفسها المزيد من الديون، وكان رجال المال يجمعون ويكدِّسون أرباحاً أخرى إضافية. إن الحال هو كمثل حال شركات الأدوية في هذه الأيام. إنها تعالج أعراض المرض ولكنها لا تُشفي منه، فما يهمها هو أن تحصل على النقود".

أنهى ماستروياني آخر قطعة من تورتة الشوكولا. "أنا أملك أسهماً في ثلاث شركات دوائية كتلك".

"إذاً فأنت تعلم أن ما قلتُه للتوّ صحيح".

حدّقت إليه بعينين حادتين. بادلها النظرة الغاضبة ولكن بدا وكأنه غير راغبٍ في أن يتحدّاها.

"تلك التورتة كانت مذهلة، أقرُّ بأن ذوقك رفيعُ في الأكل".

"أحضرتُ لك واحدةً أخرى".

"ها إنكِ ترشيني الآن".

"أريدك أن تكون جزءاً مما سيحدث".

"لماذا؟"

"رجالٌ مثلك هم سلعة نادرة. إن لديك ثروةً كبيرة، وسلطة، ونفوذ. أنت ذكيٌ، ومبدع. وأنت مثل بقيتنا، متعبٌ بالتأكيد من أن تتشارك بقسمٍ كبير من نتائج عملك مع حكوماتٍ جشعةٍ وغير كفوءة".

"إذاً ما الذي سيحدث يا إليزا؟ أوضحي لي هذا السر".

ما كانت جاهزة الآن لأن تتحدّث كثيراً عن الأمر. ليس بعد. "دعني أجيب بأن أشرح لك أكثر عن نابليون. هل تعرف الكثير عنه؟"

"فقط أنه شخصٌ قصير القامة. يعتمر قبعةً مضحكة. ودائماً يدسُّ يده في معطفه".

"هل تعلم أن الكتب التي كُتبت عنه هي أكثر عدداً من الكتب التي كُتِبت عن أي إنسانٍ في التاريخ، ما عدا ربما يسوع المسيح؟"

"لم أكن أتوقع أن تكوني مهتمةً بالتاريخ إلى هذا الحد".

"ولم أدرك أنك عنيدٌ إلى ذلك الحد".

كانت قد عرفت ماسترويياني قبل عدة سنوات، ليس كصديق، بل كزميل غير نظامي في الأعمال التجارية. لقد كان يملك كبر مصنع للألومنيوم في العالم. وكان لديه أيضاً صناعاتٌ ثقيلة، وتصليح للطائرات، وكان مهتماً أيضاً بالرِّعاية الصحية.

"لقد سئمتُ أن تطاردني بشكل خاص امرأةٌ تريد شيئاً مني ولا تقول لي ما هو أو لماذا".

قرّرت أن تتجاهل ما قاله. واستطردت تقول: "يعجبني ما كتبه يوماً الروائي الفرنسي "فلوبير": التاريخ نبوءة، تنظر إلى الماضي".

ضحك ضحكةً خافتة. "وهذا يوضح على أكمل وجه نظرتك الفرنسية الخاصة. لقد كان يثير السخط دائماً كيف أن الفرنسيين يحلّون كل صراعاتهم على أرض معارك البارحة. وكأن شيئاً من الماضي المجيد سيقدِّم الحلّ الصحيح".

"هذا يثير النصف الكورسيكي مني أحياناً أيضاً. ولكن بين الفينة والأخرى، تكون إحدى تلك المعارك السابقة مليئة بالمعلومات".

"إذاً يا إليزا، أخبريني عن نابليون".

لولا أن هذا الرجل الإيطالي الوقح سيكون مناسباً ليُضاف إلى ناديها لما استمرّت في الحديث. ولولا ذلك لما كانت ستسمح لكبريائها بأن يتدخل في تخطيطها الحريص المرتب بعناية.

"لقد خلق إمبراطورية لم يوجد لها مثيل منذ أيام روما. سبعون مليون شخص كانوا تحت حكمه الشخصي. لقد كان رجلاً معتاداً على دخان بارود البنادق ورائحة ورق الرّق. لقد أعلن نفسه إمبراطوراً حقاً. هل تتخيل ذلك؟ شابُ في الخامسة والثلاثين من عمره فقط، يزدري بالبابا ويضع التاج الإمبراطوري على رأسه بنفسه". سمحَت لكلماتها بأن تُحدِثَ مفعولها، ثم قالت: "ومع ذلك، ومن أجل كل تلك الأنا، بنى نابليون، وخاصةً من أجل نفسه، نصبين تذكاريين فقط، وهما مجرد مسرحين صغيرين ما عادا موجودين".

"وماذا عن كل تلك الأبنية والصروح التي شيّدها؟"

"لم يُبْنَ أيٌّ منها تكريماً له، أو يحمل اسمه. بل إن معظمها تم إكماله حتى بعد موته بزمنٍ طويل. لا بل إنه اعترض على تغيير اسم ساحة كونكورد بساحة نابليون".

وهنا رأت أن ماستروياني قد لفت انتباهه ما تقول. حسنُ. هذا الوقت الملائم.

"وفي روما أمر بأن تخلو السوق والبلاط من الدّبش، كما قام بترميم هيكل البانتيون، ولم يضع أي لوحة تشير إلى أن فضل ذلك يعود إليه. وفي مدن أخرى لا تُحصى في أوروبا أمر بإجراء تحسينات تلو الأخرى، ومع ذلك فما من مبنى منها قد شُيّدَ على اسمه. ليس هذا أمراً غريباً؟"

وراحت تراقب ماستروياني يغسل صحن الشوكولا بماء معبّأ في زجاجة فقالت:

"هناك شيءُ آخر". واستطردت: "لقد كان نابليون يرفض أن يقترض النقود. لقد كان يحتقر المموَّلين، وكان يلومهم على الكثير من العجز في الجمهورية الفرنسية. ولكنه ما كان يعارض مصادرة المال، أو اغتصابه، أو حتى إيداع المال في البنوك، ولكنه كان يرفض أن يستدين. وفي ذلك، كان مختلفاً كلياً عن كل الذين جاؤوا قبله، أو بعده".

"ليست سياسة سيئة"، دمدمَ يقول: "طفيليون، كل أصحاب المصارف".

"أتودّ التخلص منهم؟" رأت أن الصورة صارت تروق له، ولكن ضيفها لزم الصمت. فأردفت قائلة: "نابليون كان يوافقك الرأي. لقد رفض بشكلٍ صريح العرض الأمريكي بشراء نيو أورليانز وأن يبيع لهم مقابل ذلك كل مقاطعة لويزيانا، مستخدماً الملايين المتأتّية من صفقة البيع تلك لبناء جيشه. أيُّ مللكٍ آخر كان سيحتفظ بالأرض ويقترض النقود، من الطفيليين، من أجل الحرب".

"ولكن نابليون كان ميتاً قبل زمنٍ طويل". قال ماستروياني. "والعالم تغير. إن الائتمان المصرفي هو أساس اقتصاد العالم اليوم".

"ليس هذا صحيحاً. أترى يا روبرت، إن ما تعلّمه نابليون من أولئك الطفيليين الذين أخبرتك عنهم لا يزال ينطبق على واقعنا اليوم".

رأت أنها أثارت اهتمامه بشكلٍ واضح ولفتت انتباهه إلى النقطة التي تريدها.

فقال: "ولكن بالطبع، ألا يمكنني أن أتعلّم من ذلك إلى أن أوافق على اقتراحك؟"

أحسَّت بالسيطرة على الموقف. فقالت: "يمكنني أن أشاركك شيئاً آخر. وهذا قد يساعدك على أن تتخذ قراراً".

"بالنسبة لامرأة لا أحبها، وتعرض عليَّ رحلة طيرانٍ مريحة إلى الوطن، وتطعمني أطيب لحم بقر، وتقدِّم لي أفضل أنواع الشراب، وبالطبع، تورتة الشوكولا، أنَّى لي أن أرفض؟"

"دعني أسألك يا روبرت من جديد: إن كنت لا تحبني، فلماذا أنت هنا؟"

نظر إلى عينيها نظرةً ثاقبة وقال: "لأنكِ أثرتِ فضولي. أنت تعلمين من أكون. نعم، أريد أن أتخلص من أصحاب المصارف ومن الحكومات".

هبّت واقفةً وخطت إلى الخلف نحو أريكة جلدية، وفتحت حقيبة يدها من ماركة "لويس فيتون". وكان في داخلها كتابٌ مغلّف بالجلد، نُشر لأول مرة عام 1822، بعنوان: "كتاب القدر، الذي كان نابليون يملكه ويستخدمه".

"لقد أعطتني هذا جدتي الكورسيكية، وهي بدورها كانت قد تلقَّته من جدتها". وضعت المجلد الرفيع على الطاولة. "هل تؤمن بالنبوءات؟"

"بالكاد".

"هذه لا مثيل لها. يُفترض أنها وُجِدت في قبرٍ مَلَكيّ في وادي الملوك، قرب الأُقصر، على يد أحد خدَّام نابليون. وقُدِّمت لنابليون مكتوبةً بالهيروغليفية. استشار كاهناً قبطياً، ترجمها شفهياً إلى سكرتير نابليون، الذي حوَّلها بدوره إلى اللغة الألمانية بهدف السرية، ثم أعطاها لنابليون". توقفت عن الكلام. "كل ذلك أكاذيب، بالطبع".

ضحك ماستروياني في خفوت. "ولماذا لا يدهشني ذلك؟"

"إن المخطوطة الأصلية وُجدت فعلاً في مصر. ولكن خلافاً لورقة البردي التي ذكرتها قبلاً -"

"والتي لم تخبريني عنها قبلاً"، قال.

"هذه تأتي مع وصية".

ابتسم. "يبدو أن ناديك الباريسي فيه الكثير من الأسرار".

"يجب أن كون حريصةً ومنتبهة ومتيقظة". وأشارت إلى نبوءة الوحي التي على الطاولة. "إن النص الأصلي كُتِب باليونانية، وعلى الأرجح أنه كان جزءاً من المكتبة الضائعة في الإسكندرية. مئاتُ الآلاف من لفائف المخطوطات المشابهة لهذه خُزّنت في تلك المكتبة، وكلها ظهرت في القرن الخامس بعد المسيح. لقد نسخ نابليون هذه، ولكن ليس إلى الألمانية. إذ ما كان يستطيع أن يقرأ تلك اللغة. فقد كان ضعيفاً باللغات الأجنبية. وبدلاً من ذلك، حوَّلها إلى اللغة الكورسيكية. فقد أبقى على هذه النبوءة معه، طوال ذلك الوقت، في خزانةٍ خشبية. لا بد أن تلك الخزانة قد رُمِيَتْ بعد معركة لايبزغ الكارثية عام 181، عندما بدأت الإمبراطورية بالانهيار. ويقال إنه خاطر بحياته في محاولة استرجاعها. أخيراً وجدها ضابطُ من روسيا وباعها إلى جنرالٍ فرنسيٍ أسير، وهذا عرف أنها كانت من ممتلكات الإمبراطور. خطط الجنرال لإعادتهاً، ولكنه مات قبل أن يستطيع ذلك. ووصلت في نهاية الأمر إلى زوجة نابليون الثانية، الإمبراطورة ماري لويس، التي لم تنضمَّ إلى زوجها في منفاه في جزيرة القديسة هيلانة. وبعد موت نابليون، عام 1821 جاء رجلٌ يُدعى كيرشنهوفر وادّعى إن الإمبراطورة قد أعطته المخطوطة لكي ينشرها".

فتحت الكتاب وأشارت بإصبعها إلى الصفحات المفتوحة.
"لاحظ الإهداء إلى جلالتها، إمبراطورة فرنسا السابقة".
بدا ماستروياني وكأنه غير مهتم.
"هل تودّ أن تجرّبها؟" سألَتْه.
"وماذا أنتفع من ذلك؟"
"تتنبأ بمستقبلك".

9

لقد كان تقدير مالون الأولي في ما يتعلق بسام كولنز صحيحاً. كان في أوائل الثلاثينيات، وذا وجهٍ قلقٍ يعكس مزيجاً من البراءة والعزم. كان نحيفاً، ذا شعرٍ أشقرٍ محمرٍّ قصيرٍ وقد جُدِّل إلى رأسه كالريش. وكان يتكلم بنفس أسلوب ولكنة مالون - الأسترالية، أو ربما النيوزيلندية - ولكن أسلوب اللفظ وبناء الجملة كانا أمريكيين كليهما. لقد كان عصبياً مزهواً بنفسه، مثل الكثير من الذين يبلغون الثلاثينيات، فمالون نفسه كان هكذا يوماً، وكان يود أن يُعامل وكأنه في الخمسين من العمر.

ولكن هناك مشكلة واحدة.

جميعهم، بمن فيهم هو نفسه، كما كان في يوم من الأيام، أخفقوا في أن يعيشوا تلك السنوات العشرين الإضافية من الأخطاء.

كان سام كولنز قد ترك مهنة الاستخبارات السرية، وكان مالون يعرف أنك إن أخفقت بأحد فروع الأمن، فنادراً ما يقبلك أي فرعٍ آخر أو يمد لك يد المساعدة.

أطلق العنان لسيارة المازدا عند منعطفٍ حادٍّ آخر من الطريق الساحلي السريع يتجه نحو الداخل إلى رقعةٍ فسيحةٍ معتمةٍ وغابيةٍ. إن كل الأراضي التي تقع في بضعة الأميال التالية، بين الطريق والبحر، كان يملكها هنريك ثورفالدسن. أربع أُكَر تخص مالون قُدِّمَت له هديةً من قِبَل صديقه الدانماركي قبل بضعة أشهر خلتْ.

"أنت لن تخبرني لماذا أنت هنا في الدانمارك أليس كذلك؟" سأل كولنز. "دعنا نتكلم إلى ثورفالدسن. أنا متأكِّد بأنه سيجيب على كل أسئلتك".

"وهذه أيضاً تعليمات أخرى من هنريك؟"

تردد للحظة ثم قال: "هذا ما طلبه مني أن أقوله لك إذا ما سألت".

استاء من أسلوب المناورة، ولكنه كان يعرف أن تلك هي طريقة ثورفالدسن. لكي تعرف شيئاً عليك أن تلعب اللعبة.

أبطأ السيارة عند بوابةٍ مفتوحة وتابع سيره بين كوخين بيضاوين كانا يشكلان المدخل إلى كرستيانغيد. كانت العزبةُ تعود إلى أربعة قرون ماضية، وقد بناها في القرن السابع عشر سلف ثورفالدسن الذي حوّل بذكاء أطناناً من الخثّ العديم القيمة إلى وقود ليحصل على خزف صيني جميل. ومع حلول القرن التاسع عشر تم إعلان أديلغايت غلاسفايركر على أنها المزوِّد الإمبراطوري الدانماركي بالزجاج. ولا تزال تحتفظ بهذا اللقب، مع انتشار صناعتها من الزجاجيات الفاخرة في كل أرجاء أوروبا.

تبع طريقاً معشوشبةً تصطف الأشجار على جانبيها وهي تنتظر الشتاء. كان القصر الريفي عيِّنةً مثاليةً عن الطراز الباروكي الدانماركي - فهو مؤلف من ثلاث طبقات من الحجارة الرملية المكسوة بالقرميد، وفي ذروتها سقفٌ نحاسيٌّ منحنٍ. أحد الأجنحة كان نحو الداخل، والآخر كان في مواجهة البحر. ولم يكن من ضوءٍ منار في أي نافذةٍ. وكان هذا الأمر طبيعياً وعادياً بالنسبة إلى ذلك الوقت من منتصف الليل.

ولكن الباب الأمامي كان نصف مفتوح.

هذا كان أمراً غير اعتيادي.

ركن السيارة، وترجل منها، وسار نحو المدخل، ومسدّسه بيده.

تبعه كولنز.

في الداخل، كان دخان الجو الدافئ تتصاعد منه رائحة البطاطا المسلوقة ومخلفات سيجار. وكانت هذه الروائح مألوفة بالنسبة إلى بيتٍ زاره كثيراً خلال العامين الأخيرين المنصرمين.

صاح كولنز منادياً: "هنريك".

حملق إلى الشاب الفتي وهمس له: "أأنت أحمق؟"

"يجب أن يعرفوا أننا هنا".

"من هم؟"

"الباب كان مفتوحاً".

"هذا ما أعنيه. فاصمت وابقَ خلفي".

اتجه عبر حجارةٍ لوحيةٍ مصقولةٍ وصولاً إلى مستودع الخردوات قرب أحد الممرّات وخطا عبر قاعةٍ عريضة واسعة، إلى جانب المستنبت الزجاجي وقاعة البليارد، وصولاً إلى حجرة مطالعةٍ في الطابقِ الأرضي، في حين كان الضوء الوحيد الذي ينير المكان هو قمرٌ شتويٌّ ممتلئٌ شبه بدرٍ ينسلّ ضوؤه عبر النوافذ.

كان بحاجة إلى أن يتحقق من أمر ما.

شق طريقه بين الأثاث نحو خزانة أسلحة أنيقة مصنوعة من نفس خشب القَيْقَب الذي كان يكسو باقي الصالون. لقد كان يعلم علم اليقين أنه دائماً كانت تُعرض في تلك الخزانة دزينة على الأقل من بنادق الصيد، إضافة إلى عدة بنادق يدوية، ونشّابية، وثلاث بنادق هجومية.

لقد كان الباب الزجاجي المشطوب قد أُبقيَ مفتوحاً.

لاحظ اختفاء أحد الأسلحة الأوتوماتيَّة، مع وجود بندقيتي صيد. مدّ يده إلى أحد المسدّسات. وكان مسدساً من نوع ويلبي - بماسورة تبلغ ست بوصات. كان يعلم مدى إعجاب ثورفالدسن بذلك السلاح. ما من شيء صُنِعَ منذ عام 19. تصاعدت رائحة زيت قوية ملأت منخريه. تفحّص ماسورة المسدس. هناك ست طلقات، مذخَّرة تماماً. ما كان ثورفالدسن ليعرض أي سلاح غير محشو.

أعطاه باليد لكولنز وقال له: "أيمكنك أن تستخدمه؟"

فأومأ الشاب برأسه بالإيجاب.

غادرا الغرفة عبر أقرب مدخلٍ.

وإذ كان معتاداً على هندسة البيت، سار عبر رواقٍ آخر إلى أن وصل إلى نقطة تقاطع. كانت الأبواب متأطِّرةً بقوالب متقنة الصنع على كلا جانبي القاعة، وكانت متباعدةً بما فيه الكفاية لتشير إلى أن الغرف كانت فسيحة.

لاح عند الطرف البعيد مدخلٌ ذو قوصرة. كانت هذه غرفة نوم السيد صاحب القصر. كان ثورفالدسن يكره صعود الدرج، ولذلك فقد كان يشغل ومن زمنٍ طويل الطابق الأرضي.

خطا مالون نحو الباب، وأدار أُكرة الباب ببطءٍ، ودفع اللوح المنقوش بالزخارف فاتحاً إياه دون أن يُصدر صوتاً.

حدّقَ إلى الداخل وقام بجرد الصور الظليلية للجدران، والأثاث الثقيل، والستائر المفتوحة على ليلةٍ فضيةٍ. كانت سجادةٌ تملأ المركز، وحافتها على بعد خمس خطواتٍ من المدخل. رأى الدثار على السرير ولاحظ كومةً تشير إلى وجود شخصٍ ما نائمٍ هناك.

ولكن شيئاً ما كان على غير ما يرام.

استرعتْ حركةٌ إلى اليمين انتباهَه.

هيئةٌ بشرية ظهرت في المدخل.

غمر الضوءُ الغرفة فجأةً. رفع يده ليقي عينيه من الأشعة القوية فرأى ثورفالدسن، وفوّهة البندقية في يده مصوبةٌ إليه.

ظهر جسبر من حجرة الملابس وبندقيةٌ أيضاً مسددة إليه.

ثم رأى الجثث.

كان رجلان يرقدان على الأرض عند الطرف البعيد من السرير.

"لقد ظنوا أني غبي". قال ثورفالدسن. لم تُعجِبْه فكرة أن يُوضع في شرك، فالفأرة لا تستمتع كثيراً بهذه الأشياء. "هل من سبب يدعوني لأن أكون هنا؟"، قال مالون.

خفض ثورفالدسن سلاحه. "لقد كنتَ بعيداً ولم نرَك منذ زمنٍ بعيد".

"أشغالٌ شخصية".

"لقد تكلمت إلى ستيفاني. وهي أخبرتني. وأنا آسف يا كوتون. لا بد أن الأمر كان جحيماً بالنسبة لك".

قدّر اهتمام صديقه وقلقه عليه. "لقد انتهى الأمر".

جلس الدانماركي إلى السرير، ونزع الأغطية إلى الخلف، كاشفاً عن وجود وسائد وحسب تحتها. "لسوء الحظ، ذلك النوع من الأمور لا ينتهي المرء منه".

أشار مالون إلى الجثتين. "هل هذان هما نفس الشخصين اللذين هاجماك في المكتبة؟"

هز ثورفالدسن رأسه، ورأى الألم في عيني ثورفالدسن المتعبتين. "لقد

استغرقني الأمر سنتين يا كوتون. ولكني أخيراً وجدث قَتَلَة ابني".

10

"لقد كان نابليون يؤمن بشدّة بالعِرافة والتنبؤ". قالت إليزا لرفيق السفر معها في الطائرة. "وكان هذا هو الجانب الكورسيكي منه. لقد أخبره والدُه مرةً أن القضاء والقدر مكتوب في السماء. وكان على صواب".

لم يَبْدُ التأثر على ماسترورياني.

ولكنّ موقفه هذا لم يردَعْها.

"إن جوزفين، زوجة نابليون الأولى، كانت من أصل كريولي من المارتينيك، ذلك المكان حيث تزدهر الشعوذة وفنون السحر. قبل مغادرة تلك الجزيرة والإبحار إلى فرنسا، سألت عن حظّها. فأكدوا لها أنها ستتزوج وهي شابةً، ولن تكون سعيدة، وستترمّل، ولاحقاً ستصبح أكثر من ملكة فرنسا". وهنا توقفت عن الكلام. "لقد تزوجت وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وكانت فعلاً في منتهى التعاسة، وأصبحت أرملةً، وفيما بعد ارتقت لأن تصير ليس ملكةً فقط وإنما إمبراطورة فرنسا".

ضحك ضحكةً خافتةً من جديد. "ها هنا المزيد من طريقتك الفرنسية في رؤية خلفية ما يحدث".

"ربما. ولكن أمي عاشت حياتَها بهذه النبوءة. لقد كنتُ مثلك يوماً، غير مؤمنةٍ. ولكن الآن لدي رأيٌ مختلف".

فتحت الكتاب الرفيع.

"هناك اثنان وثلاثون سؤالاً، لك أن تختار منها، بعضها أساسي، مثل: هل سأعيش طويلاً؟ هل سيشفى المريض من مرضه؟ هل لدي عدو أو أكثر في الحياة؟ هل سأرث ممتلكات؟ ولكن الأسئلة الأخرى هي أكثر تحديداً. يمكنك أن تمضي بعض الدقائق في أن تفكر بالسؤال، ويُسمح لك حتى بأن تستبدل كلمة أو كلمتين في السؤال". وضعت الكتاب أمامه. "اختر واحداً، شيئاً ربما تعرفه بشكل مؤكد. اختبر قوة هذه النبوءات".

هز كتفيه استهجاناً وطرف بعينه ما يدل على إحساسه بالتسلية.

"هل لديك شيء آخر لتفعله؟ سألَتْه.

استسلم وأمعن النظر إلى قائمة الأسئلة، وأخيراً أشار إلى واحدٍ منها: "هنا. هل سأرزق بطفل أو بطفلة؟"

كانت تعرف أنه تزوج ثانيةً في العام الماضي. وكانت هذه الزوجة رقم ثلاثة. ربما أصغر منه بعشرين سنة. مغربية، إن لم تخُنْها ذاكرتها.

لم يكن لديها فكرة. هل هي حامل؟

"لنَرَ ما تقوله النبوءة".

التقطت إشارة الحذر والارتياب في رمشةٍ سريعةٍ من حاجب عينه.

قدمت له ورقةً. "خذ قلم الرصاص وارسم صفاً من الخطوط العمودية على هذه الصفحة، على الأقل اثني عشر خطاً. وبعد الاثني عشر خطاً، توقّف حيث تشاء".

رمقها بنظرةٍ غريبة.

"هكذا تعمل"، قالت له.

وفعل كما طلَبَتْ منه.

| | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | |

"والآن قم بوضع أربعة صفوف أخرى من الخطوط العمودية، خط تحت الآخر. لا تفكر بالأمر، بل قم به بكل بساطة".

"اثنا عشر خطاً على الأقل؟"

هزت رأسها نفياً وقالت: "لا. ليس بالضرورة. بل أي رقم تريد".

وراحت تراقبه وهو يرسم الخطوط.

| | | | | | | | | | | | | | | | | | | | |

| | | | | | | |

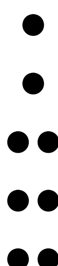
| | | | | | | | | | | |

| | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | |

"والآن قم بعدِّ كل الصفوف الخمسة. إن كان المجموع زوجياً (شفعياً) أضف

نقطتين في الجانب. وإن كان وترياً (مفرداً)، أضف نقطة واحدة".

أمضى دقيقة في إجراء عملية العد، ليحصل في النهاية على عمود مؤلف من خمسة صفوف من النقاط.



نظَرتْ إلى النتيجة: "اثنان مفرد وثلاثة زوجي. ألا يبدو الأمر عشوائياً لك؟"

أومأ برأسه.

فتحت الكتاب على جدولٍ.

"لقد اخترتَ السؤال رقم 32". وأشارت إلى الأسفل إلى الصف ذي الرقم 32. هنا في رأس الصفحة احتمالات النقاط. وفي نتيجة اختيارك، لديك اثنان مفرد وثلاثة زوجي، وبالنسبة للسؤال رقم 32 يكون الجواب في الصفحة "R".

أشارت بإصبعها إلى الصفحة التي في أعلاها إشارة "R".

"في صفحة الإجابة تجد نفس ورود النقاط. وجواب الكتاب على حالتك (اثنان مفرد وثلاثة زوجي) تجده في الأسفل".

أخذ الكتاب وقرأ. وعلت وجهَه نظرةُ دهشة. "هذا أمر لافتٌ حقاً".

وهنا علت ابتسامةٌ شفتيها.

"'سيُولَدَ ولدٌ، إن لم يتمَّ تصحيح الزمن بالنسبة له، فإنه سيسبب لك الكثير من المشاكل". في الواقع سنُرزق بولد. ولم نعلَمْ ذلك سوى منذ بضعة أيام فقط. وبعض الفحوصات السابقة للولادة دلَّت على وجود مشكلة يقول الأطبّاء إنهم يريدون معالجتها بينما الجنين لا يزال في رحم أمه. وفي هذا مجازفة ومخاطرة للأم وللطفل كليهما. لم نخبر أحداً بذلك، ولا نزال نتجادل في أمر المعالجة". وزال عنه الهلع الأولي. وقال: "كيف يمكن ذلك؟"

"إنه القضاء والقدر".

فسأل: "هل لي أن أحاول مرة أخرى؟"

فهزت رأسها. "النبوءة تحذّر من أن يقوم الشخص بطرح سؤالين في يوم واحد. أو أن يستفسر عن نفس الموضوع خلال نفس الشهر القمري. ومن ناحية أخرى، فإن الأسئلة التي يتم طرحها تحت ضوء القمر تكون أكثر دقة. وما الوقت الآن؟ إنه منتصف الليل تقريباً إذ إننا نتجه شرقاً صوب الشمس. أليس كذلك؟"

"إذاً فثمة يوم آخر آتٍ حالاً".

وهنا ابتسمت إليزا.

"يجب أن أقول يا إليزا إني تأثرت. هناك اثنان وثلاثون جواباً محتملاً لسؤالي. نعم لقد اخترتُ عشوائياً وهذا السؤال بالضبط هو الذي كان يهمني". مرَّرتْ رزمة ورقٍ وفتحت صفحةً بيضاء. "لم أستشر النبوءة اليوم. دعني أحاول".

وأشارت إلى السؤال رقم 28.

"هل سأكون ناجحةً في مشروعي الحالي؟"

"هل يشير هذا إلي؟" قال ذلك وبدا أن صوته قد لان.

فأومأت برأسها. "لقد جئتُ إلى نيويورك خصيصاً لأراكَ". سددتْ إليه نظرة مباشرة. "ستشكلُ عنصراً إضافياً رائعاً في فريقنا. إني أختار بدقة وقد اخترتك أنت".

"أنتِ امرأةٌ قاسيةٌ لا ترحم. وأكثر من ذلك، أنت امرأةٌ قاسيةٌ لا ترحم لديها خطة".

ضحكَتْ ضحكةً خافتة. "إن العالم مكانٌ معقَّد. أسعار النفط تتصاعد وتنخفض بدون سببٍ أو تنبّؤ. تتعرض الكرة الأرضية إما لتضخم مالي أو لفترة ركود بشكلٍ مفرط. الحكومات عاجزة. إنهم يطبعون المزيد من العملات، ما يسبب تضخماً مالياً، أو يضبطون الوضع إلى فترة ركود أخرى. التوازن والاستقرار يبدو كأنه أمراً من الماضي. لدي طريقةٌ لأعالج فيها كل هذه المشاكل".

"هل ستنجح؟"

"أعتقد ذلك".

بدا وجهه الداكن اللون قوياً كالحديد، وكشفت عيناه المتلهفتان عن حزمٍ. لقد كان هذا المقاول واقعاً تحت نفس الورطةِ التي تتعرض لها هيَ والآخرون، وهذا كان مفهوماً. لقد كان العالم يتغير حقاً. وكان لا بد من فعل شيء. ولعلها تجد الحلّ.

"هناك رسم دخول" قالت، وأردفت: "عشرون مليون يورو".

ضحك وقال: "ما من مشكلة. ولكن بالتأكيد لديك مصادر دخلٍ أخرى أليس كذلك؟" أومأت برأسها. "مليارات، لا يمكن تتبعها أو لمسها".

أشار إلى النبوءة. "تابعي، احسبي علاماتك ودعينا نعرف جواب سؤالك".

أمسكت قلم الرصاص ورسمت خمسة صفوف من الخطوط العمودية، ثم عدّت كل صف. كل الأعداد كانت زوجية. ورأت الجواب في الجدول المرافق وقرأت أن الجواب موجودٌ في الصفحة Q. ففتحت الكتاب على الصفحة المناسبة ووجدت الرسالة الملائمة لسؤالها.

قاومت رغبتها في الابتسام، إذ رأت أن شغفه قد استُثير بشكلٍ كامل الآن "أتريد أن أقرأ لك الجواب؟"

أومأ برأسه إيجاباً.

"تفحصي بدقةٍ مزاج شريكك المزمع، وإن كنت على توافقٍ معه، فلا تخافي لأن السعادة ستلازمكما معاً".

فقال: "يبدو أن النبوءة تعرف ما سأفعل".

جلست صامتةً وسمحت لمحركات الطائرة النفاثة بأن يتناهى صوتها إلى قمرة القيادة. لقد علم هذا الإيطالي المتشكك كل ما عرفته في حياتها- وكل ما علّمَتْها إياه أمها الكورسيكية - بأن الانتقال المباشر من الأصل هو الشكل الأقوى للمعرفة.

مدَّ ماستروياني يده، وتصافحت اليدان، واستشعرت قبضة يده الخفيفة والمبلَّلة بالعرق.

"يمكنكِ اعتباري مشاركاً بما في فكرك".
ولكنها أرادت أن تعرف: "ألا زلت تكرهني؟"
"لنكن متحفظين على الحكم من هذه الناحية".

11

ارتأى مالون أن يقوم بجولة في البلازا تساعده على تصفية ذهنه.

كانت المحكمة قد بدأت في وقت باكر من ذلك النهار ولم يكن قد أخذ استراحة بعد حتى منتصف ذلك النهار. لم يكن جائعاً، ولكنه كان ظمآناً، ورأى مقهى على الطرف البعيد من الفسحة التي كان واقفاً فيها. كانت هذه مهمة سهلة. شيءٌ مختلف. فأن يراقب ويتأكد من إدانة مهرّب مخدرات تحول فيما بعد إلى قاتل هي قضيةٌ سوف تسير بلا أية عقدة. فالضحية، وهو مراقِبٌ في إدارة مكافحة المخدرات خارج أريزونا، قد أُطلق النار عليه بحسب الأسلوب المتبع في شمال المكسيك. كان ذلك الموظف صديقاً شخصياً لداني دانيلز، رئيس الولايات المتحدة، ولذلك فقد كانت واشنطن تراقب ما يجري بعناية. كانت المحكمة في يومها الرابع وعلى الأرجح أنها كانت ستنتهي في اليوم التالي. وحتى الآن، قام الادعاء بعملٍ جيد. الدليل كان قاطعاً. وقدّموا له تلخيصاً عن حرب التسابق الجارية بين المدّعى عليه والعديد من منافسيه المكسيكيين - وكانت المحكمة طريقة مثالية لبعض أسماك رجال العصابات الخطرين لإزالة مفترس من أعماق المياه.

تناهى إلى سمعه من برج قريب صوت جرسٍ قوي صاخب، بالكاد أمكن تمييزه خلال ضجة أزيز مدينة مكسيكو اليوميِ. وحول البلازا المعشوشبة، كان الناس يجلسون في فيء الأشجار الظليلة التي كانت ألوانها النابضة بالحياة تُلطِّف من صرامة الأبنية القاتمة التي في الجوار. وكان هناك نافورة رخامية زرقاء تطلق أعمدة رفيعةً من المياه المزبدة في الأعالي إلى الجوّ الدافئ.

سمع صوت طلقٍ ناري. ثم تلاه آخر.

راهبةٌ ترتدي ثياباً سوداء سقطت أرضاً على بعد بضعة ياردات منه.

وسمع صوت طلقين ناريين آخرين.

وشخصٌ آخر، امرأةٌ، ارتمت إلى الأرض.

أصوات صرخاتٍ تشقُّ الفضاء.

والناس يهربون في كل اتجاه، وكأن صافرة إنذار بهجوم جوي قد أطلقت.

رأى فتياتٍ صغيراتٍ في بذلاتٍ رماديةٍ رزينةٍ، وراهبات أخريات، ونساء في تنانير ملونةٍ براقة، ورجالاً يرتدون بذلات عملٍ داكنةٍ.

الجميع يهربون.

راحت عيناه تنظران إلى التشويه الذي أصاب الأبدان التي تتساقط على الأرض. وأخيراً، رأى رجلين على بعد خمسين ياردةً يحملان بنادق -أحدهما جاثٍ على ركبته، والآخر يقف، وكلاهما يطلقان النار.

ثم تبعثرت جثث ثلاثة أشخاص آخرين على الأرض.

مَدَّ يده إلى تحت سترة بذلته فوصل إلى مسدس البيريتّا. كان المكسيكيون قد سمحوا له بأن يحتفظ به عندما يكون في البلاد. سدّد السلاح وأطلق رصاصتين، فأردى كلا مطلقي النار.

ورأى جثثاً أخرى تتساقط. ولم يكن هناك من يقدّم المساعدة لها. الجميع كان يهرب.

أخفض سلاحه.

وسمع صوت طلق ناري مرتفع آخر. وأحسَّ بشيءٍ يخزه في كتفه الأيسر. في البداية لم يكن يشعر بشيء، ثم اندفعت شحنةٌ كهربائية في جسده وانفجرت فوصلت إلى دماغه مع شعورٍ بالألم المضني الذي كان قد شعر به قبلاً. لقد أصيب بطلق ناري.

من وراء صفٍّ من الأسيجة، برز رَجُلٌ، لم يرَ مالون الكثير من الرجل سوى شعره الأسود الذي بدا مجعداً تحت قبعته الأنيقة.

كان الألم شديداً. وكان الدم يسيل من كتفه، فيشربه القميص. لقد كان يُفترض أن تكون مهمته في المحكمة سهلة وليس فيها أي مجازفة. اندفع الغضب إلى رأسه، وثبت عزيمته. كانت عينا مهاجمه وقحةً وافترّت شفتاه عن ابتسامةٍ ساخرة، وكان يبدو عليه وكأنه يفكر بين أن يبقى وينهي ما قد بدأه أو أن يهرب.

استدار مطلق النار ليغادر المكان.

انهار توازن مالون، ولكنه استجمع قوته وأطلق النار.

لا يزال يعجز عن أن يتذكر إن كان فعلاً قد سحب زناد المسدس. ولكن قِيلَ له فيما بعد أنه أطلق النار ثلاث مرات، وأن طلقتين قد أصابتا الهدف، وأنه قتل المهاجم الثالث.

الحصيلة النهائية؟ سبعة قتلى، وتسعة جرحى.

وكان من بين القتلى كاي ثورفالدسن، وهو دبلوماسيٌّ شابٌ عُيّن في البعثة الدانماركية، ومدَّعي عام مكسيكي، هي إيلينا راميريز ريكو. وكانا يستمتعان بطعام الغداء تحت إحدى تلك الأشجار.

بعد عشرة أسابيع جاء رجلٌ ذو عمودٍ فقريٍ ملتوٍ لرؤيته في أطلنطا. جلسا في حجرة مطالعة مالون، ولم يُزعج مالون هنريك ثورفالدسن بالسؤال عن كيف وجده.

"لقد أتيتُ لأقابل الرجل الذي أطلق النار على قاتل ولدي"، قال ثورفالدسن.

"لماذا؟"

"لأشكره".

"كان يمكنك أن تتصل وحسب".

"لقد فهمت أنك كنت على وشك أن تُقْتل".

ضحك ضحكةً خافتة.

"وأعلم أنك تستقيل من وظيفتك في الحكومة، ومن منصبك. وتتقاعد من الجيش".

"إنك تعرف الكثير".

"المعرفة هي أعظم ترف".

لم يتأثّر. "شكراً على التربيت على كتفي. ولكن لدي حفرة في كتفي تنبض. ولذلك بما أنك قد ألقيت التحية، فهلا يمكنك أن تغادر؟"

لم يتحرك ثورفالدسن أبداً عن الأريكة، بل اكتفى بالنظر حوله إلى حجرة المطالعة والغرف المحيطة التي رآها عبر مدخلٍ مقنطر. كانت جميع الجدران مغطاة بالكتب. بدا البيت وكأنه ليس سوى ستارةٍ للرفوف.

"إني أحبّها أيضاً" قال ضيفه: "ما برحتُ أجمع الكتب طوال حياتي".

"ماذا تريد؟"

"هل فكرتَ في مستقبلك؟"

راح يتجوَّل في الغرفة. "أظن إني سأفتح محل بيعٍ للكتب القديمة. وسأبيع الكثير".

"فكرةٌ رائعة. لديّ محل للبيع، إن كنتَ تحبّ ذلك".

قرر أن يسير معه في اللعبة. ولكن كان هناك شيءٌ في عيني الرجل العجوز أنبأه بأن زائره لم يكن يمزح. راحت يداه الخشنتان تبحثان داخل جيب معطفه وأخرجهما وأعطى مالون بطاقة عمله واضعاً إياها على الأريكة.

"هذا هو رقمي الشخصي. إن كنت مهتماً اتَّصلْ بي".

كان هذا قبل سنتين. وها هو الآن ينظر إلى هنريك ثورفالدسن. وانقلبت أدوارهما. فصديقه هو الذي كان في ورطةٍ الآن.

بقي ثورفالدسن جاثماً على حافة السرير، وبندقية هجومية موضوعةٌ في حضنه، ووجهه تغمره نظرةٌ تدل على انهزامٍ كاملٍ.

"لقد كنت أحلم حلماً رأيت فيه مدينة مكسيكو قبلاً"، قال مالون: "إني أرى دائماً نفس الحلم. ولكني لا أرى في الحلم أني أطلق النار على الشخص الثالث".

"ولكنك فعلت".

"لسببٍ ما، لا أستطيع أن أرى ذلك في الحلم".

"هل أنت على ما يرام؟" سأل ثورفالدسن سام كولنز.

"لقد اتجهتُ مباشرةً إلى السيد مالون ــ"

فقاطعه قائلاً: "لا داعي للمجاملات. إنه كوتون".

"حسناً. كوتون اهتمَّ بهما".

"وتدمّر محلي أيضاً".

"إنه مُؤمّن عليه" أوضح ثورفالدسن.

نظر مالون إلى صديقه: "لماذا جاء هذان الرجلان وراء سام؟"

"كنت آمل ألا يفعلا ذلك. كانت الفكرة لديهما أن يأتيا ورائي. ولذلك أرسلتُه إلى البلدة. ولكن يبدو أنهم كانوا يسبقونني بخطوةٍ".

"ما الذي ستفعله يا هنريك؟"

"لقد أمضيتُ العامين المنصرمين في البحث. أعرف أن أشياء كثيرة حدثت ذلك اليوم في مدينة مكسيكو. فالمذبحة لم تكن عملاً إرهابياً. لقد كانت حادثة اغتيال".

انتظر ليسمع المزيد.

أشار ثورفالدسن إلى سام: "هذا الشاب الفتي مبدعٌ تماماً. رؤساؤه في العمل لا يدركون كم هو ذكي".

رأى مالون الدموع تتلألأ على طرف عيني صديقه. وكان هذا أمراً لم يَرَهُ من قبل.

"إني أشتاق إليه يا كوتون،" همس ثورفالدسن، وهو لا يزال يحدّق إلى سام.

وضع يداً على كتف العجوز.

"لماذا كان يجب أن يموت؟" همس ثورفالدسن.

فقال مالون: "أنت أخبرني. لماذا مات كاي؟"



"بابا، كيف حالك اليوم؟

نظر ثورفالدسن إلى مكالمات كاي الأسبوعية وسُرَّ بأن ابنه، الذي يبلغ من العمر خمسةً وثلاثين سنةً، والذي هو جزءٌ من نخبة السلك الدبلوماسي في الدانمارك، لا يزال يناديه بابا.

"أشعر بالعزلة في هذ البيت الكبير، ولكن جسبر يحاول أن يجعل الأمور ممتعة شيقة. إنه يشذّب الحديقة، ونتجادل ونختلف حول كيفية تقليمها. إنه عنيد".

"ولكن جسبر دائماً على صواب. لقد عرفنا ذلك منذ زمنٍ طويل".

ضحك. "لن أقول له ذلك أبداً. كيف تسير الأمور عبر المحيط؟"

كان كاي قد طلب أن يتعين في القنصلية الدانماركية في المكسيك وقَبِل طلبه. ومنذ سن باكرة كان ابنه مفتوناً بحضارة الأزتيك، وكان يتمتع بقضاء الوقت وهو يطالع عن تلك الحضارة العريقة.

"إن مكسيكو مدينةٌ رائعة مذهلة. متعبةٌ، وفوضوية، ومشوشة، وهي في نفس الوقت ساحرةٌ، ومثيرةٌ، ورومانسيةٌ يسرني أني جئت".

"وماذا بخصوص الليدي الشابة التي التقيتَ بها؟"

"إيلينا رائعةٌ جداً".

كانت إيلينا راميريز ريكو تعمل في مكتب المدعي الفدرالي في مدينة مكسيكو، وعُيِّنت في وحدة تحقيق خاصة. كان كاي قد أخبره بعض الأشياء عن ذلك، ولكنه أخبر عنها أشياء كثيرة. من الواضح أن ابنه كان مأخوذاً بها.

"يجب أن تأتي معها لزيارتنا".

"لقد تكلَّمْنا عن ذلك. ربما سنفعل ذلك في عيد الميلاد".

"ذلك سيكون أمراً رائعاً. ستحب طريقة احتفال الدانماركيين بالميلاد، رغم أنها قد تجد أن الطقس غير مريح".

"لقد أخذَتْني إلى مواقع أثرية كثيرة. إنها ضليعةٌ بتاريخ هذا البلد".

"يبدو أنها تروق لك".

"نعم يا بابا. إنها تذكّرني بأمي. دفئها. ابتسامتها".

"إذاً فلا بد أنها لطيفة ومحبوبة".

قال ثورفالدسن: "إيلينا راميريز ريكو، كانت المدعي العام في جرائم ثقافية، وخاصةً في سرقات القطع الفنية. إنه عملٌ ضخمٌ في مكسيكو. كانت على وشك أن تتّهم رجلين. أحدهما إسباني، والآخر بريطاني. كلاهما لاعبان أساسيان عملاقان في تجارة التحف الفنية المسروقة. لقد قُتِلت قبل أن يحدث هذا".

"وما الداعي إلى موتها؟ سأله مالون. "فالمدعي العام الآخر الذي سيليها سيكون له نفس الموقف".

"ذاك الذي جاء بعدها رفض تولّي القضية. وتمَّ إسقاط كلّ التّهم".

أمعن ثورفالدسن النظر إلى مالون. رأى أن صديقه قد فهم كلّ شيء تماماً.
"من كان ذينك الرجلين اللذين كانت تقاضيهما؟: سأله مالون.
"الإسباني هو أماندو كابرال. والبريطاني هو اللورد غراهام آشبي".

12

كورسيكا

جلس آشبي إلى الأريكة، يرتشف شرابه، ويراقب الكورسيكي في حين كان القارب "أرخميدس" يبحر نحو الشاطئ متتبعاً شاطئ "كاب كورس" الشرقي الصخري.

"أولئك الرجال الأربعة تركوا شيئاً مع الخامس"، قال آشبي أخيراً. "لقد أُشيعَ ذلك قبل زمنٍ طويل. ولكني اكتشفتُ أن ما قيل كان صحيحاً".

"شكراً للمعلومات التي قدَّمْتَها إليّ، قبل بضعة أشهر".

أطرق برأسه. "هذا صحيح. لقد تحكّمتَ في القطع المفقودة. ولهذا جئتُ وقدمتُ بسخاء ما عرفته، إضافة إلى نسبةٍ مئويةٍ مما سنجد. وأنت وافقتَ على المشاركة."

"ذلك حدث فعلاً ووافقتُ فعلاً. ولكنني لم أجد شيئاً. فلماذا نتحدث الآن؟ ولماذا أنا أسيرٌ؟"

"أسير؟ بالكاد. كل ما هنالك أننا نقوم برحلةٍ بحريةٍ قصيرة على متن قاربي. صديقان. يقومان بزيارة".

"ولكن الأصدقاء لا يهاجمون بعضهم بعضاً".

"ولا يكذبون على بعضهم البعض أيضاً".

لقد تقرّب من هذا الرجل قبل أكثر من سنة، بعد أن عرف بعلاقته مع الألماني الخامس الذي كان هناك في أيلول (سبتمبر) عام 1943. كانت الأسطورة تقول إن أحد الجنود الأربعة الذين أعدمهم هتلر كان قد قام بتشفير معلوماتٍ عن مكان الكنز وحاول أن يستخدم المعلومات التي لديه من أجل المساومة. ولسوء حظه فإن النازيين لم يساوموه، أو على الأقل ما كانوا يثقون به. راح الكورسيكي، الذي كان يجلس قبالته، ويحاول بكل تأكيد أن يحدد كم ستستغرق هذه التمثيلية التحذيرية، يشعر بالتردد بينه وبين نفسه متفكراً بما خلَّفه ذلك الألماني السيئ الحظ خلفه- ألا وهو كتاب، كتابٌ غير

ضارٍ عن نابليون- كان الجندي قد قرأه عندما كان في السجن في إيطاليا.

"ذلك الرجل"، قال آشبي، "عرف عقدة المغربي". وأشار إلى الطاولة. "ولذلك فقد ابتكر هذه الأحرف. لقد اكتشفها في نهاية الأمر الشريك الخامس، بعد الحرب، في الأرشيف الألماني المُصادَر. ولسوء الحظ، لم يكن يعرف عنوان الكتاب. والمذهل في الأمر أنك تدبرت أمر القيام بهذا العمل البطولي. لقد أعدتُ اكتشاف هذه الأحرف وفي آخر مرة التقينا فيها، أعطيتها لك، كدليل على نيتي الحسنة. ولكنك لم تذكر شيئاً عن معرفتك بعنوان الكتاب الأصلي الحقيقي".

"ومن قال إني أعرفه؟"

"غوستاف".

رأى الصدمة على وجه الرجل.

"هل آذيته؟" سأله الكورسيكي ثانيةً.

"لقد دفعتُ له ثمن المعلومات التي قدّمها لي. إن غوستاف شخصٌ ثرثار، ولديه تفاؤلٌ مُعْدٍ. إنه أيضاً ثريٌّ جداً الآن".

راح يراقب سيماء ضيفه وهو يستوعب الخيانة.

دخل السيد غيلدهول الصالون وأومأ برأسه. لقد عرف ما كان يعني ذلك. لقد كانوا قريبين. تباطأت المحركات بينما بدأ القارب يخفّف من سرعته. أعطى إشارةً فغادر مساعده المكان.

"وإذا ما حللتُ عقدة المغربي؟ سأل الكورسيكي، بعد وضع النقاط على الحروف.

"عندها ستصبح أنت أيضاً ثرياً".

"إلى أي درجة من الثراء؟"

"مليون يورو".

ضحك الكورسيكي. "إن الكنز يعادل مئة أضعاف ما تذكر".

نهض آشبي واقفاً من أريكته. "هناك كنزٌ واحد نجده. وأنت نفسك أقرّيت بأن هذه كلها قد تكون مجرد حكاية وهمية".

خطا عبر الصالون واستردّ الحقيبة السوداء. ثم استدار وألقى محتوياتها على الأريكة.

رُزمٌ من عُملة اليورو.

اتسعت عينا البيروقراطي.

"مليون. إنها لك. ولستَ في حاجة إلى المزيد من الصيد بعد الآن".

انحنى الكورسيكي إلى الأمام فوراً وأدنى الكتاب منه. "لا مثيل لك في الإقناع يا لورد آشبي".

"لكل إنسانٍ ثمن".

"هذه الأرقام الرومانية واضحة. الصف الأعلى هو رقم الصفحة. والصف الأوسط هو رقم السطر. وأما الصف الأخير فيُظهر موضع الكلمة في السطر. وكل مجموعةٍ مرتبطةٍ مع بعضها".

XCVCCXXXVICXXVIIICXCIVXXXII

IV XXXI XXVI XVIII IX

VII VI X II XI

راح يراقب بينما كان الكورسيكي يمرّر إصبعه عبر الكتاب القديم، محدداً الصفحة الأولى التي هي الصفحة 95، والسطر 4، والكلمة 7. "سانتا". ليس لهذه معنى. ولكن إذا ما أضفتَ الكلمتين الأخريين إليها، سيصبح لها معنى. "برج سانتا ماريا".

وتكرّرت الخطوات لأربع مرات.

"برج سانتا ماريا، دير، مقبرة، الشاهد، مينيفال".

راقبه آشبي. ثم قال: "نِعْمَ الاختيار هو هذا الكتاب. إن نصّه يصف نفي نابليون على جزيرة القديسة هيلانة، مع سرد لسنيه الأولى في كورسيكا. إن الكلمات الصحيحة ستكون كلها هنا. ذلك الألماني كان ذكياً".

جلس الكورسيكي إلى الخلف. لقد بقي سرّه محتجباً لستين عاماً. وها هو قد انكشف الآن.

سمح لابتسامةٍ ودودة أن تصدر منه لتلطّف الجو.

تفحّص الكورسيكي أوراق اليورو. "أنا فضولي، يا لورد آشبي. إنك رجلٌ ذو ثراءٍ واضح. وبالتأكيد لستَ في حاجةٍ إلى هذا الكنز".

"لماذا تقول ذلك؟"

"إنك تبحث عن الكنز فقط سعياً وراء المتعة، ليس كذلك؟"

فكّر في خططه الحريصة الدقيقة، والمجازفات التي حسبها وتوقعها. "إن الأشياء الضائعة تثير اهتمامي".

تباطأت السفينة إلى أن توقفت.

"إني أبحث"، قال الكورسيكي، وهو يمسك بلفيفةٍ من الأوراق المالية، "إني أبحث عن المال. فأنا لست أملك هكذا قارب كبير".

تقلّصت مخاوف آشبي التي كان يشعر بها منذ وقتٍ مبكر، منذ أن كان على القارب في جنوب فرنسا. لقد كان الهدف نصب عينيه الآن. وتساءل ما إذا كان الثمن يستحق هذا التعب والعناء. كانت هذه هي المشكلة مع الأشياء الضائعة. فأحياناً الغاية لا تبرر الوسيلة. وكان في هذا مثلٌ واضحٌ كافٍ عن ذلك.

ما من أحدٍ كان يعرف ما إذا كانت ست أقفاصٍ خشبيةً تنتظر من يجدها، وإن كان الأمر كذلك، فما الذي سيكون في داخلها. قد لا يكون هناك شيء سوى صناديق فضية وبعض المجوهرات الذهبية. لم يكن النازيون مدقّقين فيما اغتصبوه.

ولكنه لم يكن مهتماً بالأمور التافهة. لقد كان الكورسيكي مخطئاً. فهو في حاجةٍ إلى هذا الكنز.

"أين نحن؟" سأل أخيراً.

"بعيداً عن الشاطئ، شمال ماسيناجيو. في موقع محمية كاباندولا الطبيعية".

كانت كاب كورس، فوق باستيا، تتميز باحتوائها على أبراج مراقبة قديمة، وأديرة فارغة، وكنائس على الطراز الرومانسكي. كان الطرف الشمالي الأقصى يشكّل منطقةً بريةً طبيعيةً بطرقاتها القليلة وأناسها القليلين. فقط

طيور النورس وطيور الغاق كانت تتّخذ من ذلك المكان مسكناً لها. كان آشبي قد درس جغرافية ذلك المكان. كان برج سانتا ماريا عبارة عن برجٍ مؤلفٍ من ثلاث طبقات ومدمّراً، يبرز من البحر على بعد بضعة أمتارٍ من الشّاطئ، وقد بناه أهل جنوى في القرن السادس عشر كنقطة للحراسةً والمراقبة. وعلى مقربةٍ من الشاطئ، إذا ما سرتَ نحو الداخل، تجد كنيسة سانتا ماريا، التي تعود إلى القرن الحادي عشر، وديراً قديماً، صار نقطة جذبٍ للسياح الآن.

برج سانتا ماريا، دير، مقبرة، شاهد، مينيفال.

نظر إلى ساعته ليتأكد من الوقت.

ليس بعد.

بعد قليل.

أشار إلى كأس الكورسيكي. "استمتع بشرابك. وعندما تنهيه هناك سفينة تموينٍ جاهزة لتأخذنا إلى الشاطئ. آن الأوان لنا لكي نجد ذهب رُومل الآن".

13

الدانمارك

راح سام يراقب ثورفالدسن باهتمام وهو يتذكر ما قاله له أحد معلميه في وكالة الاستخبارات السرية: "قم بإثارة المرء فيفكّر، وأغضِبْه فيتوتر انزعاجاً".

كان ثورفالدسن غاضباً.

"لقد قتلتَ رجلين الليلة"، أوضح مالون.

"لقد كنا نعلم أن تلك الليلة ستأتي لا محالة"، قال ثورفالدسن.

"من نحن؟"

"جسبر وأنا".

راح سام يراقب، بينما وقف جسبر مطيعاً، وفي توافقٍ تام على ما يبدو. "لقد كنا ننتظر"، قال ثورفالدسن. "حاولت أن أتصل بك خلال الأسبوع الماضي، ولكنك كنت بعيداً. يسعدني أنك عدت. كنت في حاجة إليك لكي تعتني بسام".

"كيف عرفت بخصوص كابرال وآشبي؟" سأله مالون.

"علمت ذلك عن طريق محقّقين سرّيين خاصين عملوا لصالحي خلال السنتين الماضيتين".

"لم تذكر ذلك لي أبداً".

"لم يكن للموضوع علاقة بك وبي".

"أنت صديقي. وأعتقد أن هذا يجعل للأمر صلة بنا".

"لعلك على حق، ولكني اخترتُ أن أحتفظَ لنفسي بما كنت أقوم بفعله. لقد علمتُ قبل بضعة أشهر أن آشبي حاول أن يرشو إيلينا ريكو. وعندما أخفق في ذلك، فإن كابرال استأجر رجالاً ليقتلوها هي وكاي، وعدداً من الآخرين ليغطوا الجريمة".

"إنها مبالغة نوعاً ما".

"لقد وجّه رسالةً إلى خَلَفَ ريكو. وقد أفلحتْ وكان متعاوناً أكثر بكثير معهم."

أصغى سام، وقد انذهل إلى الدرجة التي تغيرت فيها حياته. فقَبْل أسبوعين كان موظفاً مجهولاً بسيطاً في وكالة الاستخبارات السرّيَّة يلاحق صفقاتٍ ماليةٍ مشبوهةٍ من خلال متاهةٍ من السجلات الإلكترونية المملَّة. وكانت هذه مسألة ثانوية بالنسبة لعمله في الوكالة. لقد كان يريد بصدق أن يعمل في هذا الحقل، ولكن لم تُعطَ له الفرصة. فقد كان يعتقد أنه أهلٌ للتحدي- لقد أبدى ردَّ فعل جيداً في مكتبة مالون - ولكن، إذ نظر إلى الجثث في الغرفة، راح يتساءل ويتعجب. ثورفالدسن وجسبر قتلا أولئك الرجال. ما الذي كان يتطلبه هكذا أمرٍ؟ وهل كان بمقدوره أن يفعل ذلك؟

راح يراقب جسبر وهو يمدّ كيسين للجثث على الأرض. لم يكن قد رأى أحداً أُطلق النار عليه ومات. أحس برائحة الدم الفظيعة. نظر إلى عينين صلبتين. كان جسبر يعالج الجثث ببرودةٍ وتبلّدٍ في الإحساس مقحماً إياها في الأكياس، بدون أن يبدو عليه أي اهتمام.

هل يمكنه أن يفعل ذلك هو نفسه أيضاً؟

"ما قصة غراهام آشبي؟" سأل مالون. "لقد فعل سام حسناً هنا عندما ذكره لي. أفترض أنه كان مساعداً لك".

استطاع سام أن يدرك أن مالون كان مهتاجاً وقلقاً في آنٍ معاً، فقال: "يمكنني أن أجيب على هذا. إنه بريطانيٌّ ثري. لديه نقودٌ كثيرة منذ زمنٍ بعيد، ولكن قيمته الحقيقية غير معروفة. الكثير من مصادر القوة الخفية. لقدْ انشغل بشيءٍ ما قبل بضع سنوات. ألا وهو تجارة التحف الأثرية المفقودة. وإنهم مجموعةٌ من الناس يسرقون التحف الفنية التي تكون قد سرقت ويتاجرون بها بين أنفسهم".

"أذكر ذلك"، قال مالون. "كان ذلك عندما وجدوا غرفة العنبر".

أومأ سام. "إضافةً إلى طنٍّ من الكنوز الضائعة عندما شنّوا غارةً على بيوت المشاركين". كان آشبي متورطاً، ولكن لم يتم إثبات شيء عليه. وعمل أماندو

كابرال لصالح أحد الأعضاء. إنهم المكتسبون، كما دعيوا. إنهم أولئك الذين قاموا فعلاً بالجمع". وتوقف ثم أردف قائلاً: "أو بالسرقة، حسب نظرتك إلى الأمور".

بدا مالون وكأنه فهم الأمر. "إذاً فقد تورَّط آشبي في مشاكل في مدينة مكسيكو بسبب جمع التحف؟"

أومأ ثورفالدسن إيجاباً. "كانوا يعدُّون قضيةً، وكانت إيلينا راميريز ريكو على الطريق الصحيح. وفي النهاية كانت ستضع كابرال وآشبي معاً في السجن، ولذلك قرر آشبي أن يقصيها".

قال سام: "وهناك المزيد".

نظر إليه مالون وجهاً لوجه.

"آشبي متورِّطٌ أيضاً بمجموعةٍ خفيةٍ أخرى تعمل على مؤامرةٍ واسعة الانتشار أكثر من ذلك بكثير".

"من الذي يتحدث الآن، هل هو الموظف في الوكالة أم مصمّم الموقع؟" سأل مالون.

نفض عنه الريبة والشكّ. "إنه أمرٌ حقيقي، إنهم ينوون أن يُنزلوا الدمار بالأنظمة المالية العالمية".

"يبدو أن هذا ما يحدث بدون جهد منهم".

"أعتقد أنك تظن أني أحمق، ولكن الاقتصاد يمكن أن يكون سلاحاً قوياً. يمكن أن يجادل المرء في أنه السلاح الأخير للدمار الشامل".

"من أين لك المعرفة بهذه المجموعة السرية؟"

"بعضٌ منا كان يراقب. وكان لي معارف في باريس قد وجدوا هذه الحقيقة. ها هم قد بدؤوا الآن. لقد عملوا هنا وهناك بأسواق العملات. أشياء بسيطة. أشياء قلةٌ سيلاحظونها، إن لم يكن هناك المزيد من الانتباه".

"وهذا ما كنت تفعله أنت وأصدقاؤك على ما يبدو. على الأرجح أنك أخبرت من هم أعلى منك رتبةً، ولم يصدّقوا ما تقول. وأفترض أن المشكلة هي نقص الدليل".

أومأ برأسه. "إنه هناك. أعرف ذلك، وآشبي هو جزءٌ منهم".

قال ثورفالدسن: "يا كوتون، التقيت بسام قبل حوالي سنة. صادفتُ موقع الإنترنت الخاص به ورأيت نظرياته الخلاّقة، وخصوصاً رأيه فيما يتعلق بآشبي. هناك الكثير مما يقوله منطقي". ابتسم العجوز لسام. "إنه شخص لامع وطموح. ولعلك قد لاحظت هذه الصفات فيه؟"

كشر مالون عن ابتسامه عريضة: "حسناً لقد كنت هكذا يوماً ما أنا أيضاً. ولكن على ما يبدو أن آشبي يعرف أنك وراءه. وهو يعرف عن سام".

هز ثورفالدسن رأسه. "لا أعرف ذلك. الرجال الذين جاؤوا اليوم هم من طرف كابرال. يبدو أني استطعت أن أثيره. لم أكن متأكداً إن كان سام سيصبح هدفاً. وكنت آملُ أن يقع غضب كابرال عليّ أنا فقط، ولذلك فقد قلتُ لسام أن يجدك إذا ما احتاج إلى المساعدة".

سحب جسبر إحدى الجثث المعبّأة في الأكياس من الغرفة.

"لقد جاؤوا بالقارب"، قال ثورفالدسن، "سيجدونه غداً طافياً فوق المياه في الأوريسند، بعيداً جداً من هنا".

سأل مالون: "وما الذي ستفعله الآن؟"

التقط ثورفالدسن عدة أنفاسٍ متتابعة. وتساءل سام ما إذا كان صديقه على ما يرام.

"إن آشبي يحب أن يجمع الفن والكنوز التي تكون غير معروفة، أو ليس لها صاحب، أو مسروقة". قال ثورفالدسن وتابع كلامه: "ما من محامين أو معارك قانونية، أو صحافة تضطره لأن يشعر بالقلق. لقد درستُ جامعي القطع الأثرية المفقودة. إنهم متواجدون منذ فترةٍ طويلة. أذكياء جداً، بالفعل. أن تسرق ما سرقه أحدٌ آخر أمرٌ يتطلب ذكاءً وحنكةً. إن التاجر الذي يتعامل معه آشبي هو رجلٌ يدعى غيلدهول ولا يزال يعمل لصالحه. آشبي وظّف كابرال ليعمل معه، بعد أن انكشف أمر جامعي القطع الأثرية، وذلك لكي يؤدي له بعض المهمات الخاصة. وقد سعى كابرال وراء بعض المواد التي لم تُسترجع عندما اعتُقِل الجامعون، أشياء كان آشبي يعلم أنها كانت موجودة. قائمة الأشياء التي تمت استعادتها عندما كُشِف أمر جامعي القطع كانت مذهلةً.

ولكن آشبي ربما انتقل إلى الأشياء الأخرى، وصار يتعامل بالبحث عن الكنوز على مقياسٍ أكبر". نظر ثورفالدسن وجهاً لوجه إلى سام: "إن معلوماتك ذات قيمة. كل تحليلك عن آشبي، حتى الآن، قد ثبتت صحتهُ".

"ولكنك لا ترى أياً من المؤامرات المالية الجديدة"، قال مالون.

ضحك الدانماركي. "آشبي له أصدقاءٌ كثيرون، وهذا أمرٌ متوقع. ففي نهاية الأمر، إنه يرأس أحد أعظم البنوك في إنكلترا. ولكي أكون صريحاً فإني قد حدّدت تحرياتي فقط فيما يتعلق بارتباطه بكابرال-"

"لماذا لا تقتله وترتاح من كل هذه المسألة؟ لماذا كل هذه الألاعيب؟" سأله مالون.

جواب كلا السؤالين صعق سام في الحال. "لأنك تصدّقني. وتعتقد أن هناك مؤامرة".

كان هدوء ثورفالدسن ورزانته يشعان ببهجةٍ لطيفة، وهي أول علامةٍ من علائم المرح رآها سام على وجه صديقه منذ برهةٍ.

"لم أقل أني لم أفعل".

"ما الذي تعرفه يا هنريك؟ سأله مالون. "إنك لا تنتقل في الظلام. فأخبرني ما الذي يؤخّرك".

"يا سام، عندما يعود جسبر، هلا تساعده في ذلك الكيس الأخير! إن الطريق طويل إلى القارب. ورغم أنه لا يقول ذلك، إلا أن صديقي القديم يكبر في السن. لقد خفّت حركته كثيراً عن قبل".

لم يكن سام ليرغب في أن يكون بعيداً عما يجري من أحداث، ولكنه رأى أن ثورفالدسن يريد أن يتكلم مع مالون لوحده. وأدرك مكانته- فهو كان غريباً، وليس في موضع أن يشارك في الجدال أو النقاش. وما كان هذا الأمر مختلفاً عن حالته عندما كان طفلاً، أو عندما كان في سلك المخابرات عندما كانت مرتبته منخفضة في قائمة الموظفين. لقد فعل ما أراده منه ثورفالدسن واتصل بمالون. ولكنه أيضاً ساعد في إعاقة المهاجمين في مكتبة مالون. وأثبت أن لديه قدرات معينة. فكَّرَ بأن يمتعض أو يُبدي استياءه أو رفضه بالانسحاب، ولكنه قرر أن يلتزم بالصمت. فخلال العام الماضي قال الكثير من الأشياء

للمشرفين عليه ورؤسائه في واشنطن، ولكن ما كان منهم إلا أن طردوه. لقد كان يريد بكل قوةٍ أن يكون جزءاً مما يخطّط له ثورفالدسن.

وكانت لديه بعض القدرة على أن يتمالك مشاعر الكبرياء لديه وأن يفعل ما يُقال له.

ولذلك فعندما عاد جسبر، انحنى وقال له: "دعني أساعدك".

وبينما كان يمسك بقدم جثةٍ مغلفةٍ بالنايلون السميك، وهو يحمل جثةً لأول مرة في حياته، نظر مالون إليه. "هذه المجموعة المالية التي ما برحت تتكلم عنها. أتعرف الكثير عنها؟"

"إن صديقي في فرنسا يعرف أكثر مني بكثير".

"على الأقل أنت تعرف اسمها".

أومأ برأسه إيجاباً وقال: "النادي الباريسي".

14

كورسيكا

خطا آشبي فنزل إلى شاطئ كاب كورس المهجور، برماله المتّسخة والأعشاب التي تغطي بعض الرمال وبعض الصخور. في الأفق الشرقي، قبالة المياه ومن بعيد، رأى أنوار جزيرة إلبا. وكان برج سانتا ماريا المتقوّض يبزغ بين الأمواج المتكسّرةِ على بعد عشرين متراً، وكان ذلك البناء الأثري يعطيك الإحساس بأنه منتفضٌ لكونه محاصَراً تماماً. كانت ليلة الشتاء تلك معتدلة الحرارة، 18 درجة مئوية، وهي درجة الحرارة العادية لمنطقة البحر المتوسط، وهذا هو السبب الرئيسي في إقبال الكثير من السيّاح الذين يتقاطرون إلى الجزيرة في هذا الوقت من السنة.

"هل نحنُ ذاهبون إلى الدير؟ سأل الكورسيكي.

أشار بيده وانطلقت السفينة مبتعدةً. كان يحمل جهاز سلكي وكان سيتصل بالسفينة فيما بعد. استقر المركب أرخميدس في المرساة، في فسحةٍ هادئة، بعيدةٍ عن الشاطئ.

"بالفعل سنفعل ذلك. لقد تحققتُ من الخارطة. المكان ليس بعيداً جداً".

شقَّ وجماعتُه طريقَهم بعنايةٍ عبر الغرانيت، يسيرون خلف ممرٍّ محدد وسط الأعشاب. التقط رائحة شجر قوية هي مزيج من إكليل الجبل، والخزامى، والمريمية، والعرعر، والمَصْطَكَي، والآس. لم تكن هذه الرائحة قوية في هذا الوقت من السنة كما كانت في الربيع والصيف عندما تفجّرت في كورسيكا البراعم الوردية والصفراء، ومع ذلك فقد كانت زكيّة. وتذكّر نابليون، عندما نُفي لأول مرةٍ إلى إلبا القريبة، كيف كان قد حدّد تلك الأيام المعينة برياح غربية، حتى إنه كان يستطيع أن يَشْتَمّ رائحة وطنه. وتخيّل نفسه أحد أولئك القراصنة المغاربة الكثيرين الذين شنوا غاراتٍ على هذا الساحل لقرون، مستخدمين الأعشاب كتغطيةٍ لقوافلهم وملاذاً يستريحون فيه. من أجل التغلّب على تلك الغارات، شيّد أهل جنوى أبراج مراقبة. وكان برج سانتا ماريا أحد هذه الأبراج - فكان كل واحدٍ دائري الشكل، يبلغ ارتفاعه قرابة عشرين متراً،

بجدرانٍ تزيد ثخانتها على المتر، وحوضٍ في الجزء السفلي، وقسمٍ للمعيشة في الوسط، ومنصةٍ للمراقبة والقتال في الأعلى.

إنه إنجازٌ هندسيٌّ مهم.

شيءٌ من التاريخ حرّك مشاعره.

لقد كان يحب السير في إثر خطواته.

في ليلةٍ معتمةٍ من العام 1943 تدبّر خمسة رجال عملاً خارقاً، عملاً أمكنه فقط في الأسابيع الثلاثة الأخيرة أن يفهمه. ولسوء الحظ، فإن الأحمق ذا المنزلة الوضيعة والشخصية الشيطانية، الذي يسير أمامه، قد تدخّل في الأمر وعطّل عليه فرحة النجاح. كان لا بد لهذه المغامرة أن تنتهي. هنا. والليلة. فمغامراتٌ خطرةٌ أخرى ستكون في انتظاره.

تركوا خط الشاطئ الصخري وعبروا قمة تلةٍ تؤدي إلى غابةٍ تحوي أشجار السنديان والكستناء والزيتون. كان الصمت يلفّهم. وأمامهم بزغت كنيسة سانتا ماريا. كان الدير قد صمد منذ القرن الحادي عشر، وكان مبنياً من أحجارٍ طويلةٍ بلوريةٍ مستطيلة الشكل لوَّنَها دخانُ البارود الرمادي، وكان فيه سقفٌ خشبيٌّ وبرجٌ للجرسِ.

توقف الكورسيكي. "إلى أين نذهب؟ لم آتِ إلى هنا من قبل".

"لم تزر أبداً هذه المحمية الوطنية؟ يجب على كل مقيم في هذه الجزيرة أن يفعل ذلك".

"أنا أعيش في الجنوب. ولدينا أعاجيبنا الطبيعية".

أشار إلى اليسار، عبر الأشجار. "قِيْل لي إن هناك مقبرة خلف هذا الدير".

كان يقود الطريق الآن، وكان البدر قد اكتمل تقريباً وأخذ ينير الدرب. ما من ضوءٍ كان مناراً في أي مكان. وأقرب قريةٍ كانت على بعد أميال.

داروا حول المبنى القديم ووجدوا باباً حديدياً يؤدي إلى مقبرةٍ. كانت أبحاثه قد كشفت أن لوردات كاب كورس في القرون الوسطى كانوا قد حصلوا على حرية في العمل من قِبَل معلّميهم من أهل جنوى. وكانت أرضهم إلى الشمال البعيد، وعلى الجبال، عبارة عن شريط قاس يشق البحر، جعل من اللوردات الكورسيكيين يستفيدون من كلٍّ من الفرنسيين والإيطاليين. وكانت هناك

عائلتان تتشاركان السيطرة على الإقليم. عائلة جنتيل وعائلة مار. بعضٌ من عائلة مار دُفنوا هنا، خلف الدير، في قبورٍ ترجع إلى قرونٍ قديمةٍ. وفجأةً ظهرت ثلاث حزمٍ من الضوء خرجت من العتَّمة. مشاعل كهربائيةٍ أُشعلت لدى اقترابهم.

"من هناك؟" نادى الكورسيكي.

كشفت إحدى الحزم عن وجهٍ صلب. إنه غيلدهول.

واجه الكورسيكي آشبي: "ما هذا؟"

أشار آشبي أن يكملوا السير إلى الأمام: "سأريك".

ساروا نحو الأنوار، يشقّون طريقهم عبر شواهد حجريةٍ منهارةٍ، تنمو بينها أعشابٌ ذات رائحةٍ عطرة ترتفع عالياً في السماء. وعندما اقتربوا من الأنوار رأوا حفرةً مستطيلةً في الأرض، ربما بعمق متر ونصف. وكان شابان فتيّان يقفان مع غيلدهول، يحملان رفشاً. أشعل آشبي مشعله الكهربائي الخاص به وألقى حزمة ضوئه على شاهدة قبرٍ، كشفت عن الاسم مينيفال.

"لقد كان من عائلة مار، من القرن السابع عشر. أولئك الجنود الألمان الأربعة استخدموا قبره كمكان اختباء لهم. لقد دفنوا ستة أقفاصٍ هنا، كما كشفت عقدة المغربي من الكتاب. برج سانت ماريا، الدير، المقبرة، الشاهد، مينيفال".

أمال زاوية انحراف الضوء وكشف عما في داخل القبر المحفور حديثاً.

إنه فارغ.

"ما من أقفاص ولا من مينيفال. لا شيء. هل تستطيع أن تفسّر لي ذلك؟"

لم يقدّم الكورسيكي أي جواب.

لم يتوقّع آشبي أي جوابٍ أيضاً. وعلى ضوء مصباحه، أَظْهَرَ وجهَيْ الرجلين الآخرين، ثم قال: "هذان الرجلان عملا لأجلي لفترةٍ طويلة. كما فعل والدهما، وأيضاً أعمامهما. إنهما مخلصان تماماً. يا سومنر"، نادى أحدهما.

ظهرت هيئةٌ بشريةٌ من الظلمة، وحزمة مشعلٍ جديد كشفت رجلين آخرين.

"غوستاف"، قال الكورسيكي وقد عرف أحد الوجوه التي كانت من شركائه

في المؤامرة. "ما الذي تفعله هنا؟"

"هذا الرجل، سومنر، هو الذي أحضرني".

"لقد بِعْتَني يا غوستاف".

هز الرجل الآخر كتفيه بلا مبالاةٍ. "كنت ستفعل نفس الأمر".

ضحك الكورسيكي. "ربما كنت سأفعل ذلك. ولكن كلانا سنصير أثرياء".

لاحظ آشبي أنهما يتكلمان الكورسيكية ولذلك، فقد أضاف بلغتهم، "أعتذر على ذلك. ولكننا كنا في حاجة إلى بعض الخصوصية لتسوية أعمالنا. وكنت في حاجة إلى أن أعرف إن وُجِدَ أي شيءٍ بالفعل".

أشار الكورسيكي إلى الحفرة الفارغة. "كما ترى، يا لورد آشبي ليس هناك من أقفاص. ولا من كنز. تماماً كما كنت تخشى".

"هذا مفهوم تماماً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنك أنت وجدت مؤخراً الأقفاص وخبأتها وقمت بنقلها بعيداً".

قال الكورسيكي: "هذا مُحال. هذا غير صحيح على الإطلاق".

آن الأوان لوضع حدّ لكل ادّعاء وكذب. "لقد أمضيتُ ثلاث سنوات أبحث عن ذهب رومل. لقد كلّفني الكثير من الوقت والمال. منذ ستة أشهر، عرفت موقع عائلة الجندي الخامس. لقد عاش حياةً طويلةً. ومات في بافاريا قبل عقدٍ من الزمن. وقد سمحت لي أرملته، ولقاء بعض المال بالطبع، بأن أدخل إلى منزلهم. ومن بين الأشياء التي وجدتها هناك، وجدت الأعداد الرومانية".

قال الكورسيكي: "يا لورد آشبي، نحن لم نَخُنْكَ".

"سومنر، لو سمحت، أخبر هذين الرجلين المحترمين عما وجدتَه".

أشار الجسم الظليل إلى غوستاف بمصباحه. "وجدنا في الفناء الخلفي لهذا التافه ستة أقفاص مطمورة". توقف صاحب الصوت عن الكلام ثم استأنف قائلاً: "مليئةٌ بالذهب وتحمل إشارة الصليب النازي المعقوف".

استمتع آشبي بكشف الحقيقة. لم يكن يعرف، حتى هذه اللحظة، بما كان قد اكتُشف. بينما كان يستضيف الكورسيكي، عرف سومنر موراي وأبناؤه مكان غوستاف، خارج باستيا، وأرادوا التحقق من شكوكهم. وبينما كانوا يبحرون

شمالاً، كان آل موراي في طريقهم على الطريق الساحلي السريع. ثم جاء السيد غيلدهول إلى الشاطئ وحفر القبر.

"لقد تعاملتُ معكما بثقةٍ"، قال آشبي للكاذبين. "لقد عرضتُ عليكما نسبةً مئوية مما أجد، وكنت سأحترم ذلك الاتفاق. أما أنتما فقد اخترتما خداعي، ولذلك فليس لكما شيء عندي. إني أتراجع عن تقديم المليون يورو التي قدّمتها لكما".

كان قد قرأ عن العداوات الدموية التي كانت تنشب في كورسيكا - التي كانت تحمل اسم "ثأر"- بين عائلتين وتقود إلى مذابح وإلى حروب أهلية وطنية. كانت الأمور تبدأ عادةً بخلاف حول أشياء مبتذلة تتعلق بالشرف، وصراعات قاتلة يمكن أن تستمر لعقود. لقد تقاتل آل جنتيل وآل مار لقرون، مع بعضهما البعض، وبعض ضحايا تلك الضغائن تفسخت جثثهم في الأرض حوله. لم يعد هناك وجود رسمي لما يسمى "معارك الثأر"، ولكن السياسة الكورسيكية كانت مستمرةً في إفساد البقية المتبقية من الناس. وكان الاغتيال والعنف شائعاً. وكان السياسيون يعتمدون تكتيكاً يسمى "تسوية الحسابات".

آن الأوان لتصفية هذا الحساب.

"كنت سأجعل المحامي الخاص بي يتعامل معك".

"محامي؟ أتخطط لمقاضاتنا؟" سأل الكورسيكي.

"بحق السماء، لا".

ضحك الكورسيكي. "كنت قد بدأت أتساءل. ألا يمكننا أن نصل إلى نوع من الاتفاق؟ فقد قمنا ببعض الأعمال التي طلبتها منا على جميع الأحوال. أفلا نستطيع الاحتفاظ بالمال الذي أعطيته لنا مقابل الخدمات التي قدّمناها؟"

"حتى أفعل ذلك، يجب أن أغفر لكما خداعكما لي".

قال الكورسيكي: "إنها طبيعتي. لا أستطيع أن أتجنّبها. ماذا لو قلنا إننا نرضى بنصف المال لقاء العناء الذي تكبّدناه؟"

نظر فرأى غيلدهول ينسحب ببطءٍ إلى خلف الرَّجُلَين. وتراجع سومنر والشابان من عائلة موراي إلى الوراء، وقد استشعرا بما هو وشيكٌ أن يحدث.

قال: "النصف يبدو كثير بالنسبة لي. ما رأيكم في-"

دوى صوت طلقين ناريين يمزّقان سكون الليل.

ترنّح الكورسيكيان بعد أن اخترقت طلقات بندقية غيلدهول جمجمتهما. ارتخى جسداهما، ثم انهار اللحم والعظم إلى الأمام، وسقط جسماهما في القبر المفتوح.

لقد تمّت تسوية المشكلة.

"اردموا هذا القبر وتأكدوا من عدم ملاحظة أحد له". لقد كان يعرف أن آل موراي سيعالجون الأمور.

اقترب السيد غيلدهول، فسأله آشبي: "كم سنستغرق من الوقت لاسترجاع الذهب؟"

"لقد فعلنا ذلك للتو. إنه في الشاحنة".

"ممتاز. حمّلوه على المركب أرخميدس إذاً. يجب أن نغادر. فغداً لدي عمل في مكانٍ آخر".

15

الدانمارك

خرج مالون وثورفالدسن من غرفة النوم وسارا نحو الردهة الرئيسية في كرستيانغيد. صعد ثورفالدسن هناك درجاً إلى الطابق التالي، حيث مشى عبر بهوٍ عريضٍ مزخرفٍ بفنون وتحف أثرية دانماركية وصولاً إلى بابٍ مغلق. لقد كان مالون يعرف إلى أين يذهبون.

إنها غرفة كاي.

في الداخل كانت حجرةٌ خاصة، بأسقف مرتفعة، وجدران مجصصة لطيفة اللون، وسريرٍ إنكليزيٍ ذي أربع قوائم.

"لقد كان يُسمّي هذه الغرفة دائماً فسحة التفكير"، قال ثورفالدسن، وهو ينير ثلاثة مصابيح. "لقد تم تغيير الديكور في هذه الغرفة عدة مرات. فتحولت من غرفة حضانة، إلى غرفة ولدٍ صغير، إلى ملاذ شاب فتي، إلى معتزل رجل ناضج. لقد كانت ليزيت تحب تغييره".

لقد كان يعرف أن كل ما يتعلق بزوجة ثورفالدسن الراحلة كان أمراً محرّماً. فخلال السنتين اللتين كانا فيهما معاً لم يتطرّق إليها سوى مرة واحدة، ثم تلاشى الحديث عنها تماماً وبسرعة. لقد بقيت صورتها في الأسفل وأكثر من صورةٍ فوتوغرافيةٍ كانت مبعثرةً هنا وهناك في البيت. لقد بدا وكأن الذكريات المرئية فقط يُسمح بها للإشارة إلى هذه الذكرى المقدسة.

لم يُسمح له أبداً من قبل بأن يدخل إلى غرفة كاي، ولاحظ هناك أكثر من تذكار مرئي أيضاً - رفوفٌ ممتلئةٌ بحلي.

"غالباً ما آتي إلى هنا"، قال ثورفالدسن.

واضطُرَّ للسؤال: "هل من السليم أن تفعل ذلك؟"

"على الأرجح لا. كنت بحاجة لشيء يساعدني على الاستمرار، وهذه الغرفة هي كل ما بقي لي".

كان يريد أن يعرف ما كان يجري ولذلك أبقى فمه مغلقاً وأذنيه مفتوحتين

وأخذ يدلّل صديقه. انحنى ثورفالدسن أمام خزانة ثيابٍ مزينة بصورٍ فوتوغرافيةٍ للعائلة. ولُجةٌ من الحزن لا يُسبر غورها بدت وكأنها تغمر نفسه.

"لقد قُتل يا كوتون. أطلقوا عليه النار وهو في ريعان الصبا لا لشيء سوى لبرهان نظرية لديهم".

"هل لديك دليل على ما تقول؟"

"لقد استأجر كابرال أربعة قَتَلة مأجورين. ذهب ثلاثةٌ منهم إلى تلك البلازا-"

"وأنا قتلتُهم". إن حماسة الحديث حول هذه الواقعة أثارت انتباهه بشدة.

نظر إليه ثورفالدسن وجهاً لوجه. "هذا ما حدث فعلاً. وأنا وجدت الرابع. وأخبرَني بما حدث. لقد رأى ما الذي فعلتَه أنت. كيف أطلقت النار على الاثنين. وكان عليه أن يغطي الثالث، ذاك الذي أطلق النار عليك، ولكنه هرب إلى البلازا عندما بدأتَ بإطلاق النار عليه. لقد خاف من كابرال ولذلك اختفى".

"إذاً لماذا لم يُحاكم كابرال؟

"ليس بالضرورة. فهو ميت".

وهنا عرف: "أهو أحد الجثث الموجودة في تلك الأكياس؟"

أومأ ثورفالدسن إيجاباً. "لقد جاء ليقضي عليَّ بنفسه".

فأدرك ما قِيلَ له. "إذاً أخبرني بقية القصة".

"لم أُرد أن أتكلم أمام سام. إن لديه لهفةً شديدة. ولعل هذه اللهفة زائدة. إنه يؤمن بأنه على صواب ويريد إثباتاً، أو بالأحرى يريد مصادقةً شرعية. يزعجني أنه كاد يُصاب بأذى".

تحولت نظرة ثورفالدسن نحو خزانة الملابس. وراح مالون ينظر إليه ويرى المشاعر تعتمر في نفس هذا الدانماركي العجوز.

"ما الذي اكتشفته؟ سأل مالون بهدوء.

"شيئاً لم أتوقّعه".



قفز سام إلى ظهر المركب بينما ربط جسبر المركب الآخر بمؤخرة القارب.

سفع هواءٌ اسكندنافيٌّ شتويٌّ باردٌ وجهه. لقد ألقيا كلتا الجثتين، خارج الأكياس، على القارب الآخر وكانا يقطران المركب الآن إلى الفضاء الرحب. كان جسبر قد أخبره لتوه كيف أن التيارات القوية ستجرف القارب نحو السويد، حيث سيُكتشف بعد شروق الشمس.

يا لها من ليلةٍ مضنية.

لقد كانت حافلةً بالأحداث.

قبل ثلاثة أيام تنبأ ثورفالدسن بأن الوضع سيتفاقم، فحدث هذا فعلاً.

"أنت تقوم بأشياء كثيرة من أجل هنريك" قال لجسبر بعيداً عن هدير المركب.

"لا بل السيد هنريك قد فعل الكثير لأجلي".

"قتلُ الناس هو أكثر من المطلوب، ألا توافقني الرأي؟"

"إلا إن كانوا يستحقونه".

كانت الأمواج تتلاطم من جراء نسيم شماليٍ قوي. لحسن الحظ، زوَّده جسبر بمعطفٍ صوفيٍ سميك، وقفازاتٍ عازلةً، ولفاعَ.

"هل سيقتل كابرال وآشبي؟ سأله.

"السنيور كابرال ميت".

لم يفهم. "متى حدث ذلك؟"

أشار جسبر إلى القارب الذي كانا يقطرانه. "لقد قلّل من تقدير شأن السيد ثورفالدسن".

نظر إلى الخلف نحو بدنِ القارب المعتم الذي كانوا يحوي الجثتين. لم يكن يرغب في أن يكون غافلاً عن شيء، وراح يتساءل الآن عما يتباحث به ثورفالدسن ومالون. لم يُجِبْ جسبر على سؤاله حول قتل آشبي، وأدرك سام أنه لن يجيبه على هذا السؤال. لقد كان لهذا الرجل ولاءٌ كاملٌ لسيده، والجواب سيعني نقض التعهد نحو ثورفالدسن.

ولكن صمته قال الكثير.



"آشبي هو في رحلة صيد للكنوز"، قال ثورفالدسن. "كنزٌ ما برح يفلت من أيدي الناس منذ زمن طويل".

"وماذا يعني ذلك؟"

"الأمر مهم. لست متأكداً من كيفية ذلك بعد. ولكن الأمر مهم".

انتظر مالون.

"إن الشاب سام على صواب بخصوص المؤامرة. لم أُخبرك، ولكن الذين تحرّوا لي عن الأمر أثبتوا لي انعقاد اجتماعاتٍ عديدةٍ مؤخراً قام بها خمسة أشخاص، تجمّعوا في باريس".

"هل هو النادي الباريسي؟"

هز ثورفالدسن بكتفيه.

"الناس لها الحق في أن تجتمع".

لاحظ عَرَقاً خفيفاً على جبهة ثورفالدسن، رغم أن الغرفة لم تكن حارةً.

"ليس هؤلاء الناس. أعتقد أنهم يقومون ببعض التجارب. في روسيا العام الماضي، أثّروا على النظام المصرفي الوطني. وفي الأرجنتين، دمَّروا باحتراف سوق البورصة، فاشتروا بسعرٍ رخيص، ثم عكسوا الأمور وباعوا بأرباح طائلة. ونفس الشيء حدث في كولومبيا وأندونيسيا. مناوراتٌ صغيرة في السوق التجارية للتأثير على الأسعار. إن الأمر يبدو وكأنهم يسبرون الأغوار ويروا ما يمكن فعله".

"إلى أي درجة من الضرر يمكنهم أن يُحدثوا؟ فمعظم الدول لديها وسائل حماية أكثر من وافية كافية من أجل أنظمتها المالية".

"ليس تماماً يا كوتون. هذا تبجُّحٌ تدّعيه معظم الحكومات ولكن ليس من دليلٍ على صحته. وخاصةً إذا كان هؤلاء الذين يهاجمون النظام المالي يعرفون ما يفعلون. لاحظ أن البلدان التي يختارونها هي أماكن ذات أنظمة قمعية، وديمقراطية محدودة أو معدومة، دولٌ تزدهر بحكمٍ مركزيٍ ولا تمنح الناس سوى بعض الحقوق المدنية".

"أتعتقد أن الأمر خطير؟"

"نعم. فرجال المال هؤلاء متعلّمون جداً. لقد تحقّقت منهم. ولهم قيادة جيدة".

التقط إحساساً بالسخرية.

"كانت إيلينا ريكو تستهدف آشبي وكابرال. ولقد علمت الكثير عن غراهام آشبي. كان ليعالج مسألة موت ريكو بمزيدٍ من التحفُّظ والحذر. ولكن حليفه أمر بقتلها، وفعل الأمر على هذا النحو. أعتقد أن آشبي لم يكن راضياً عن القتل الذي جرى في البلازا، ولكن ما كان يمكنه أن يتذمَّر أو يشكو، ففي جميع الأحوال تلك الجريمة حققت غايتها".

لم يحبّ مالون شعور الخواء في معدته، الذي صار أسوأ الآن في تلك اللحظة. "هل ستقتله؟ كما فعلت مع كابرال؟"

اكتفى ثورفالدسن بالنظر إلى الصور الفوتوغرافية.

"آشبي ليس مدركاً لهجوم كابرال عليّ هذه الليلة. الأمر الأخير الذي كان كابرال يريده من آشبي أن يعرفه هو أن يصير مكشوفاً أمامي. ولذلك جاء هو بنفسه".

كان ثورفالدسن يتكلم بطريقةٍ آلية، وكأن كل شيءٍ قد تم اتخاذ قرار بشأنه. ولكن كان لا يزال هناك شيءٌ آخر. وقد أمكن لمالون أن يستشعره. "ما الذي يحدث هناك حقاً يا هنريك؟"

"إنها حكايةٌ معقدة يا كوتون. حكايةٌ بدأت يوم مات نابليون بونابرت".

16

أحس آشبي بالإثارة. فذهبُ رومل صار الآن مخزّناً بأمان على متن القارب أرخميدس. وبإجراء عملية حساب سريعة، آخذاً بعين الاعتبار الأسعار الحالية، عرف أن ما كان مخبّأً يساوي حوالي ستين مليون أو سبعين مليون يورو على الأقل، وربما يصل إلى مئة مليون. لقد تبين أن تنبؤ الكورسيكي الكاذب قد ثبتت صحّته. سيُنزل الحِمْلَ من السبائك في إيرلندا حيث يمكن الاحتفاظ به في أحد بنوكه، آمناً من المفتشين البريطانيين. ما من حاجة لتحويل المعدن الصلب إلى عملةٍ نقدية. ليس بعد، على كل حال. إن السعر العالمي كان لا يزال في تصاعد، والمتنبئون بالأسعار يعِدون بمزيدٍ من الارتفاعات، وإضافةً إلى ذلك، فإن الذهب كان دائماً استثماراً جيداً. لقد صار يمتلك الآن أكثر من الضمانة المطلوبة ليضمن تمويلاً عاجلاً مباشراً لأي شيءٍ يحتاج إليه.

وإجمالاً كانت تلك الأمسية رائعة.

دخل إلى صالون أرخميدس الكبير. وكان الشراب الذي كان يحتسيه الكورسيكي لا يزال على الطاولة بين الأرائك. رفع الكوب، وخطا خارجاً إلى ظهر المركب، وقذف الكوب إلى البحر. فكرة الشرب من نفس الكوب مع ذلك المخادع الكذّاب كانت تثير الاشمئزاز في نفسه. لقد كان لدى الكورسيكي كل نيةٍ بمصادرة الذهب رغم أنه حصل على مبلغ مليون يورو. وحتى عندما انكشفت الأمور بشكل واضح لا يقبل الجدل، ظل ذلك البيروقراطي الكاذب مستمراً في تلك التمثيلية التحذيرية.

"سيدي".

اِلتفت. كان غيلدهول قد وقف داخل الصالون.

"إنّها على الهاتف".

لقد كان يتوقع المكالمة، ولذلك سار داخلاً إلى حجرة الجلوس المجاورة، وهي غرفةٌ دافئةٌ مزخرفةٌ مزينةٌ بخشب مصقول لمَّاع، وقماش فاخر، وخشب مُطعَّم يكسو الجدران. جلس في كرسي وثير ذي ذراعين ورفع سماعة

الهاتف.

"مساء الخير يا غراهام"، قالت إليزا لاروك.

"ألا زلتِ في الجو؟" سألها بالفرنسية.

"بلى. ولكن الرحلة كانت موفقة. وقد وافق السنيور ماسترويياني على توقيع الميثاق. وسوف يودع العربون في الحال، فتوقع عملية تحويل".

"إن حدسك كان في محله".

"سيكون عضواً فعّالاً معنا. ولقد دار بيننا حوار رائع".

على جميع الأحوال، كانت إليزا لاروك تتمتع بقدرة على الإقناع. لقد ظهرت في العزبة الإنكليزية وأمضت ثلاثة أيام في محاولةٍ لإقناعه بالإمكانيات المتاحة. كان قد تحرى عنها وعلم أنها كانت تتحدّر من عائلةٍ ثريةٍ عريقة، وعرف عن أسلافها الكورسيكيين الذين كانوا أولاً ثوّاراً ثم تحولوا إلى أرستقراطيين تفادوا بحكمةٍ الثورة الفرنسية، عندما غيَّروا اتجاههم بذكاء في الوقت المناسب. لقد كان الاقتصاد شغفها. كانت تحمل شهاداتٍ جامعيةٍ من ثلاث جامعات أوروبية. وترأست مؤسسات عائلتها مسيطرةً على الإدارة في تلك الشركات التي كانت تُهيمن على الاتصالات اللاسلكية، والصناعات البتروكيميائية، وتجارة العقارات. كانت مجلة "فوربس" قد قدَّرتْ أن ثروتها تعادل حوالي عشرين مليوناً. لقد كان دائماً يعتقد أن ذلك الرقم مبالغٌ فيه، ولكنه لاحظ أن لاروك لم تُصحّح ما قالته تلك المجلة. لقد كانت تعيش بين باريس ومنطقة الجنوب، في عزبةٍ للعائلة في وادي اللوار، ولم تتزوج أبداً، وهذا الأمر الذي لم يستغربه أبداً. لقد كان لديها شغفٌ شديدٌ بالفن الكلاسيكي والموسيقى المعاصرة. يا للغرابة، هكذا كانت تجمع هذه المتناقضات.

وما العيب في شخصها؟

إنها سريعةٌ إلى العنف.

فقد كانت ترى فيه وسيلةً لكل غاية تقريباً.

لم يكن يعترض شخصياً على استخدام العنف - والليلة ظهرت عملياً الحاجة المتأصلة إلى هذا العنف - بل كان يميل إلى ضبط استخدام العنف.

"كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع معك حتى الآن؟ سألَتْه لاروك.

"لقد استمتعتُ برحلةٍ بحريةٍ هادئةٍ هانئةٍ في البحر المتوسط. إني أحب قاربي. إنه متعة قلّما أستمتع بها".

"ولكنه لا يزال بطيئاً جداً بالنسبة لي يا غراهام".

لقد كان كلاهما يحب دميته. كانت لاروك متعلقة بالطائرات - وقد سمع عن طائرة "غلفستريم" الجديدة الخاصة بها.

سألته: "ستكون في الاجتماع يوم الاثنين، ليس كذلك؟"

"إننا نبحر نحو مرسيليا الآن. ومن هناك سأطير إليك".

"أراك هناك عندئذٍ".

أغلق سماعة الهاتف.

لقد صار هو ولاروك في الفريق. لقد انضم إلى مجموعتها قبل أربع سنوات، ودفع عربوناً عشرين مليون يورو كرسم دخولٍ في العضوية. ولسوء الحظ، فقد تدهورت أوضاعه المالية منذ ذلك الحين بشكلٍ رهيب، وهذا ما اضطره ليأخذ مالاً من مُدّخرات عائلته. كان جدّه ليؤنّبه على الإقدام على هكذا مجازفاتٍ حمقاء. أما والده فكان سيقول له: "وما المشكلة في ذلك، خذ المزيد". ذلك الانقسام كان سبب حذره واحتراسه المالي الحالي، بشكلٍ من الأشكال. لقد مات كلا الرجلين منذ زمنٍ بعيد، ومع ذلك فقد ظلَّ على الدوام يحاول أن يرضيهما كليهما.

عندما افتُضِح أمر تجّار القطع الأثرية، أخذ كل ما كان قد جمعه ليُبقي السياسة الأوروبية في وضع حرج. لحسن الحظ، كان الدليل ضعيفاً وارتباطاته السياسية كانت قوية. وكنزه الفني الشخصي المخبوء لم يُكتشف، ولا يزال يحتفظ به الآن. ولسوء الحظ، فإن تلك المدخرات الباهظة لم تكن كافية ليتمالك أموره عندما وصل إلى الحضيض.

الحمد لله، لقد استطاع الآن أن يتحكم بالذهب المخبّأ.

لقد حُلَّت المشكلة. على الأقل على مدى المستقبل المنظور.

لقد لاحظ كتاب الكورسيكي - "نابليون، من قصر التويلري إلى جزيرة القديسة هيلانة" - مركوناً إلى الكرسي بجانبه. كان أحد الخدم قد أتى به من الصالون، مع الحقيبة التي كانت ممتلئة باليوروات.

رفع الكتاب.

أنّى لطفلٍ عادي، وُلِدَ من أبوين كورسيكيين متواضعين، أن يرتفع إلى هكذا مستوى من العظمة؟ وفي أعلى مستويات عظمته صارت الإمبراطورية الفرنسية تشتمل على 130 مقاطعة إدارية، ينتشر فيها 600 ألف جندي، وتحكم 70000000 تابعاً لها، ولها وجود عسكري هائل في ألمانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، وبروسيا، والنمسا. من تلك الأراضي التي فتحها، جمع نابليون أعظم كنزٍ مُدّخر في التاريخ البشري. لقد جمع غنائم إلى مستويات لم يسبقه أحد إلى مثلها، وذلك من كل أُمَّةٍ قد غزاها. معادن ثمينة، ولوحات، وتماثيل، ومجوهرات، وشعاراتٌ ملكية، وقماشٌ مطرز، والعملات - كل شيء وأي شيء كان ذا قيمة وذلك لمجد فرنسا.

الكثير من هذه الكنوز أُعِيدَتْ إلى أصحابها بعد معركة واترلو.

ولكن ليس كل شيء.

وما تبقى تحوَّل إلى أسطورة.

فتح الكتابَ على قسمٍ كان قد قرأه قبل بضعة أيام. كان غوستاف قد قدّم نسخته برحابة صدر، مقابل قيمةٍ ماليةٍ نقداً على أساس الوعد بمليون يورو. مؤلِّفُ الكتاب، لويس إتيان سانت دينيس كان قد خدم نابليون كخادم شخصي من العام 1806 إلى العام 1821. لقد ذهب مع نابليون طواعيةً إلى المنفى، أولاً إلى جزيرة إلبا، ثم إلى جزيرة القديسة هيلانة. لقد حافظ على مكتبة نابليون، وبما أن خط يد الامبراطور كان شنيعاً، فقد كان يُعِدُّ مخطوطاتٍ جيدة واضحة بكل ما يمليه عليه الإمبراطور. وتقريباً كلُّ كتابةٍ تعود إلى تلك الفترة التي قضاها نابليون في جزيرة القديسة هيلانة كانت قد خطّتها يده. لقد كان آشبي مأخوذاً بالسرد التاريخي عند سانت دينيس. أحد الفصول بشكلٍ خاص استرعى انتباهه. وها هو من جديد قد وجد الصفحة.

> لقد كان جلالتُه يكره جزيرة القديسة هيلانة، وهي نقطةٌ بريطانية في خارطة العالم، إلى غرب أفريقيا، تطرُقها الريح والأمطار، وتُطوِّقها الجروف الشديدة الانحدار. كانت أفكار نابليون عند رؤيته لهذه الجزيرة السجن في العام 1815 هي نفسها التي بقيت ترافقه طوال الأيام: "مُخزية. ليست مكاناً جذاباً. كنت لأود أن أبقى في مصر وكنت لأفلح

أكثر لو بقيت هناك".

ولكن رغم المحن التي كان على نابليون أن يتعرّض لها، فإن ذكرى سلطته كانت دائماً حلماً سائغاً. "لقد وضعتُ كل مجدي في جعل الفرنسيين الشعب الأفضل والأول في الكون. كل رغبتي، كل طموحي، كان أن يتفوق على الفرس، والإغريق، والرومان، في القوة العسكرية وفي العلوم وفي الفنون. لقد كانت فرنسا هي البلد الأجمل والأكثر خصوبةً. وبكلمةٍ، لقد كانت تستحق أن تأمر العالم كما كانت تفعل روما القديمة. كنت لأنجز كلَّ غايةٍ لديَّ لولا الفضوليين المُفسدين والمتآمرين ورجال المال عديمي الأخلاق الذين وضعوا العراقيل أمامي الواحدة تلو الأخرى ليمنعوا مسيرتي. لم يكن إنجازاً بسيطاً هو ذاك النجاح في حكم ذلك الجزء الأكبر والأعظم من أوروبا وأن أُخضعه إلى قوانين مُوحَّدة. الأممُ توجهها حكومةٌ عادلةٌ حكيمةٌ مستنيرة، وتميزها عن باقي الشعوب، وكلها تتقارب معاً فتصير عائلةً واحدةً. وعندما يصير كل شيءٍ جاهزاً سأؤسس حكومةً لا يخاف فيها الشعب من سلطةٍ استبدادية. كل إنسانٍ سيكون إنساناً وخاضعاً للقوانين المراعية. لن يكون هناك امتيازات، بل استحقاقات. ولكن سيكون هناك أولئك الذين لن يحبّوا أن يحدث هذا. أولئك المتسلِّطون على الديون، الخاضعون لجشع وحماقة الآخرين. لقد كان هدفي دائماً أن أخلِّص فرنسا من الدَّيْن. أما رغبتهم فكانت أن يغرقوا فرنسا إلى لُجَّة الهاوية. ما من قروضٍ أخرى كانت لتصير لأجل سدِّ الإنفاق الجاري، سواء كان مدنياً أو عسكرياً. على المرء أن يفكر فقط بما يمكن أن تؤدي إليه القروض لكي يدرك مدى خطرها. لقد جاهدتُ ضدهم. الموارد المالية يجب ألا تمتلك القدرة على إخضاع الحكومة لها، لأنه إن كانت هكذا هي الحال فإن أصحاب المصارف، وليس قادة الحكومة، هم الذين يسيطرون على البلاد. إن اليد التي تُعطي هي أعلى من اليد التي تأخذ. ليس للمال وطن. وليس للرأسماليين روح وطنية أو أخلاق: فهدفهم الوحيد هو الربح".

لم يُدرك أبداً قناعات نابليون الراسخة بشأن إقراض الأموال. ملوك فرنسا السابقون واللاحقون كانوا يُخضعون فرنسا بكل سهولةٍ لإغواء الدَّيْن، الذي كان يُسَرّع سقوطَهم. ولكن نابليون قاوم. ولكن يا لسخرية القدر، فإن هذه

المقاومة هي التي أدّت أيضاً إلى نهايته.

هناك أمرٌ آخر في الكتاب اِسترعى اِنتباهه واستوقف نظرَه.

وضع يده على الصفحات الصفراء الهشَّة ووجد الإشارة الحاسمة في المدخل، الذي كُتب في العام 1922، على يد أستاذ في جامعة السوربون.

مات سانت دينيس في العام 1856. ترك لمدينة سينس بعض المقالات التي كان قد حفظها لذكرى الإمبراطور: مجلدان من كتاب "زنبق الملوك" مع ملاحظات كتبها نابليون بخط يده؛ ومصوّران جغرافيان كان نابليون قد وضع عليهما ملاحظات بقلم رصاص؛ والكتاب من القطع الكبير عن الحملات على إيطاليا؛ ونسخة من كتاب "الممالك الميروفنجية 450-751 ميلادية"؛ وتذكارات أثرية شخصية؛ ومعطف ذو أكتاف؛ وعقدة شريط من قبعة؛ وقطعة من كفن القديسة هيلانة؛ وقطعة من شجرة صفصاف كانت تظلل قبر الإمبراطور. كلماته الأخيرة كانت محددة: "بناتي سيتذكَّرْنَ دائماً أن الامبراطور هو المحسن إليَّ، وبالتالي إليهن. جُلّ ما أملكه أدين به للطف جلالته".

* * *

كان آشبي قد عرف بعض المواد التي تركها سانت دينيس في مدينة سينس. مجلدا "زنبق الملوك"، والأطلسان، والمجلد الضخم عن الحملات على إيطاليا. وأما أن يكون بينها نسخة من كتاب "الممالك الميروفنجية 450 - 751 ميلادية"، فهذا لم يكن يعلم به.

لقد عَلِمَ به حديثاً.

لعل الجواب الذي يسعى إليه يكمن في هذا الكتاب؟

17

الدانمارك

كان ثورفالدسن قد جاء إلى غرفة كاي لكي يستمدّ القوة من زيارة المكان. كان أوان اتّخاذ القرار قد حان. لقد رسم معالم طريقه بعناية وخطَّط لكل تفصيل، متوقعاً كل التحركات الممكنة. وشعر بأنه صار مستعداً. كل ما تبقى هو أن يضمن مساعدة كوتون مالون له. كان قد أوشك على أن يطلب مساعدة صديقته كاسيوبيا فيت، ولكنه غيَّر رأيه فيما بعد. فقد تحاول ردعه، وتخبره أن هناك طريقة أخرى، بينما مالون سيتفهّم الأمر، وخاصة بفضل ما حدث خلال الأسبوعين الأخيرين.

"مات نابليون بسلام في 5 أيار (مايو) 1821، عند الساعة السادسة مساءً"، أوضح قائلاً لمالون، ثم استأنف: "قال أحد المراقبين: انطفأ نابليون كما ينطفئ نور المصباح. لقد دُفِن في جزيرة القديسة هيلانة، ولكنَّ رفاتَه نُقِلَت عام 1840 وأُعيد إلى باريس، حيث يرقد الآن في قصر الأنفاليد. يقول البعض أنه قد قُتِلَ، بعد أن سُمِّمَ ببطء. ويقول آخرون إن أسباب الوفاة كانت طبيعية. ما من أحدٍ يعرف. وليس الأمر مهماً".

رأى ذيلاً معقوداً بأنشوطةٍ يمتد على أحد الرفوف. كان هو وكاي قد أطلقا الطائرة الورقية بعد ظهر أحد أيام الصيف، منذ زمنٍ بعيد. غمرته لحظة فرحٍ عامر - شعورٌ نادر، هو في نفس الوقت رائعٌ وغير مريح.

لقد أجبر فكره على أن يُركِّز وقال: "لقد سرق نابليون الكثير، أكثر مما يفوق الاستيعاب. وفي طريقه إلى مصر، احتلّ مالطا واستولى على النقود، والفن، والفضيّات، والمجوهرات، وذهبٍ بقيمة خمسة ملايين فرنك من فرسان مالطا. يقول التاريخ إن هذا ضاع في البحر، خلال معركة خليج أبو قير. أليس لافتاً اللقب الذي أُطلق على المعركة، وكأنها ملحمةٌ دراميةٌ عظيمةٌ؟ عندما دمّر البريطانيون الأسطول الفرنسي في آب (أغسطس) 1798، مات 1700 بحار. ومع ذلك فإننا نعطيها لقباً كأنها روايةٌ ما".

توقّفَ لبرهةٍ.

"زُعِمَ أنَّ كنز مالطا كان على إحدى السفن التي أغرِقَتْ، ولكن ما من أحدٍ يعرف إذا ما كانت هكذا هي الحال. هناك روايات عديدة أخرى مثل هذه. بيوتٌ، وقلاعٌ، وثرواتٌ وطنيةٌ بأكملها قد تم نهبها. وحتى الفاتيكان لم يَسْلَمْ من نابليون. فنابليون هو الشخص الوحيد الذي مرّ في التاريخ والذي سلب بنجاح من ثروة الكنيسة. بعضٌ من تلك الغنيمة أُعيد إلى فرنسا بصفةٍ رسمية، والبعض بقي كما هو. لم يكن هناك أي قائمةٍ دقيقةٍ حقيقية لتلك الثروات. وحتى اليوم، يدافع الفاتيكان عن فكرة أن هناك مواد لا حصر لها تعود إليه ولم تُرَدّ بعد".

وفيما كان يتكلم، راح يصارع أشباحاً تسكن تلك الغرفة المقدسة، والتي كان يُشكل حضورها ما يشبه سلسلة من الفرص الضائعة. لقد كان يريد لكاي من كل قلبه أن يرث حق مولد ثورفالدسن، ولكن ابنه كان يريد أولاً أن يُكرّس نفسه للخدمة العامة. لقد أشبع هو نفسه رغبته عندما كان شاباً فتياً، إذ أرضى فضولَه برحلةٍ حول العالم. كانت الأرض تبدو مختلفةً جداً آنذاك. والناس ما كانوا يُقتَلون ببساطةٍ وهم يستمتعون بطعام غدائهم.

"عندما مات نابليون، ترك وصيةً مفصلة. إنها طويلة، مع بيانات توريث مالية عديدة. تبلغ حوالي 3 ملايين فرنك. ومعظمها لم تُحترم، إذ إنه لم يكن هناك من اعتماد مالي يكفي لدفعها. لقد كان نابليون رجلاً في المنفى. كان قد خُلِعَ عن العرش. كان يملك القليل، وإضافةً إلى ذلك فما الذي جلبه معه إلى جزيرة القديسة هيلانة؟ ولكن إن قرأنا وصيته، سوف نعتقد بأنه كان غنياً. تذكّروا، ما كان هناك نية عند أحد بتركه يغادر جزيرة القديسة هيلانة حياً".

"لم أفهم أبداً لماذا لم يكتفِ البريطانيون بقتله وحسب"، قال مالون. "لقد كان خطراً واضحاً. وحق الجحيم أنه هرب من منفاه الأول، في إلبا، وخلّف فوضى في أوروبا".

"هذا صحيح، وعندما سلَّم نفسه أخيراً إلى البريطانيين، أدهش ذلك الكثيرَ من الناس. لقد كان يريد أن يذهب إلى أمريكا، وكادوا أن يسمحوا له بذلك، ثم غيَّروا رأيهم وكان هذا أفضل. إنك على صواب - لقد كان خطراً حقيقياً. وما من أحدٍ كان يريد حروباً أخرى. ولكن قتله كان سيثير متاعب أخرى. الاستشهاد يسبّب مشكلةً كبيرة. لقد تمَّ تبجيل نابليون حتى عندما هُزم، وذلك

من قِبَل الفرنسيين والبريطانيين. وبالطبع هناك تفسيرٌ آخر".

نظر إلى وجهه في المرآة التي تعلو الخزانة، وكانت عيناه آنذاك مشتعلتين بالطاقة والحيوية.

"قيل إنه أخفى سراً، كان أحد البريطانيين يريد أن يعرفه. وذلك السر هو ثروة طائلة، وغنائم لا حصر لها، وكان الإنكليز يريدونها. لقد كانت الحروب النابليونيةُ مكلفةً جداً. ولذلك فقد أبقوه على قيد الحياة".

"ليُساوموه؟"

ضحِك ضحكةً خافتة. "بل على الأرجح كانوا ينتظرون أن يرتكب نابليون خطأً ما فيعلمون منه مكان الكنز".

"لقد قرأتُ عن الفترة التي قضاها في جزيرة القديسة هيلانة "، قال مالون. "لقد كانت صراع إراداتٍ مستمراً بينه وبين هدسون لوي، القائد البريطاني. وكان السبب الرئيسي فيها هو كيفية مخاطبتهم له. لقد كان لوي يُفَضّل أن يلقّبه بالجنرال. وجميع الآخرين كانوا يلقبونه بـ "صاحب الجلالة". وحتى بعد وفاته، لم يسمح لوي للفرنسيين بأن يضعوا اسم نابليون على شاهد القبر. لقد أراد اسماً محايداً سياسياً، نابليون بونابرت. ولذلك فقد دفنوه في قبرٍ عاديٍّ جداً".

"من الواضح أن نابليون كان شخصيةً مثيرةً للجدل". قال ثورفالدسن. "ولكن وصيته مثيرةٌ ولافتةٌ للانتباه أكثر، سِيما وإنها كُتبت قبل وفاته بثلاثة أسابيع. هناك مالٌ مدّخر مخصص لخادمه الخاص، سانت دينيس، حيث ترك له مئة ألف فرنك ثم طلب منه أن يحتفظ بنسخته من كتاب "الممالك الميروفنجية 450 -751 ميلادية"، وأربع مئةٍ أخرى من كتبه المفضلة من مكتبته الشخصية، وأن يعتني بالكتب إلى أن يبلغ ابن نابليون السادسة عشر من العمر. فعندها سيُسلّم الكتب للابن. عاش ابن نابليون حتى بلغ الحادية والعشرين، ولكنه مات كأسير عملياً في النمسا. ولم يرَ تلك الكتب أبداً".

تصاعدَ الغضب في صوته. ورغم عيوبه، فإن كل رواية قد كُتِبت تُشير إلى أي درجة أحب نابليون ابنه. لقد طلّق زوجته الحبيبة جوزفين وتزوج من ماري لويس النمساوية فقط لأنه كان يريد وريثاً شرعياً ذكراً، ذاك الذي لم تستطع جوزفين أن تقدّمه له. لم يكن عمر الطفل سوى أربع سنوات عندما

نُفي نابليون إلى جزيرة القديسة هيلانة. "يُقال إنه في تلك الكتب يكمن مفتاح إيجاد كنز نابليون المخبّأ - ذلك الكنز الذي احتفظ نابليون بتفاصيله لنفسه. من المفترض أنه أخفى تلك الثروة في مكانٍ بعيد، لا يعرفه أحدٌ غيره. وكانت قيمته كبيرةً هائلةً".

توقّفَ لبرهةٍ من جديد.

"كان لدى نابليون مخطَّط، يا كوتون. كان لديه شيءٌ ما يعتمد عليه. أنت على صواب، لقد لعِب لعبة صراع إرادات مع لوي في جزيرة القديسة هيلانة، ولكن ما من شيءٍ تم الوصول إلى حلّ له. لقد كان سانت دينيس خادمه الأكثر إخلاصاً، وأراهن بأن نابليون كان يأتمنه على أكبر حصة من الميراث".

"ما علاقة هذا بغراهام آشبي؟"

"إنه يسعى وراء ذلك الكنز المفقود".

"أنّى لك أن تعرف ذلك؟"

"يكفي أن أقول لك أني أعرف ذلك. في الواقع، إن آشبي في حاجةٍ ماسةٍ إلى ذلك الكنز. أو، لأكُن أكثر دقةً، هذا النادي الباريسي يحتاج إليه. إن مؤسِّسته هي امرأةٌ تُدعى إليزا لاروك، وهي تمتلك معلومات قد تؤدّي إلى اكتشاف مكان ذلك الكنز".

أبعد نظره عن الخزانة، نحو السرير حيث كان كاي ينام طوال حياته.

"هل من الضروري كل ذلك؟" سأل مالون. "ألا يمكنك تجاهل الأمر؟"

"هل كان ضرورياً لك أن تجد والدك؟"

"لم أفعل ذلك لأقتل أحداً".

"ولكن كان عليك أن تجده".

"كان ذلك قبل زمنٍ بعيد، يا هنريك. على الأشياء أن تنتهي". حملت الكلمات طابعاً كئيباً.

"منذ اليوم الذي دُفِنَ فيه كاي، أقسمتُ أن أكتشف الحقيقة حول ما جرى في ذلك اليوم".

كان كاي قد قال له: "سأذهب إلى مكسيكو، سأكون رئيس البعثة

الدبلوماسية في قنصليتنا هناك".

رأى الإثارة في عيني الشاب، ولكن كان عليه أن يسأله: "ومتى سينتهي كل هذا؟ أريدك أن تعتني بمصالح العائلة". "لكأنك ستسمح لي حقاً بأن أقرر بخصوص أي شيء".

لقد كان معجباً بابنه، الذي كان عريض المَنكِبين كالجنود، ورشيق الحركة كالرياضيين. لقد كان له نفس العينين السَّريعتي الاِنفعال، الصبيانية من النظرة الأولى، وكان يبدو ناضجاً بشكلٍ متميزٍ عن أقرانه الآخرين. ومن نواحٍ عديدة كان يُشبه ليزيت. لقد شعر مراتٍ عديدةً كأنه كان يتحدث إليها ثانيةً.

"سأسمح لك باتخاذ القرارات"، أوضح له الأمر واستأنف: "إني على استعداد لأن أتقاعد".

هزَّ كاي رأسه: "يا بابا، أنت لن تتقاعد أبداً".

لقد علَّم ابنه ما كان أبوه قد علَّمَه إياه سابقاً. يمكن قياس الناس من معيار ما يريدونه في حياتهم. وابنه كان يعرفه جيداً.

"ما رأيك بسنةٍ أخرى من الخدمة العامة"، قال. "ثم أعود إلى الديار. هل هذا مقبول؟"

امتلأ قلبه بشعورٍ بالندم.

سنةٌ أخرى.

واجه مالون.

"يا كوتون، أماندو كابرال قتل ابني الوحيد. وهو الآن ميت. غراهام آشبي على نفس المنوال سيتحمل المسؤولية". "إذاً اقتلْه ولتنتهِ الأمور هكذا".

"ليس هذا كافياً. أولاً أريد أن آخذ منه كل ما هو ثمين. أريده أن يُذَلَّ وأن يُهان. أريده أن يشعر بالألم الذي أش.عر به كل يوم". ثم توقّف. لبرهة وتابع: "ولكني أحتاج لمساعدتك".

"أنا رهن إشارتك".

مدَّ يده وأمسك كتف صديقه.

"ماذا عن سام وناديه الباريسي؟ سأل مالون.

"سنتعامل مع ذلك أيضاً. لا يمكن تجاهل الأمر. علينا أن نرى ما هناك. لقد حصل سام على الكثير من معلوماته من صديق في باريس. أريد منكما أن تزورا ذلك الرجل. واعلما منه ما تستطيعان".

"وماذا سنفعل بعد أن نعرف كل شيء، هل سنقتلهم جميعاً أيضاً؟"

"لا. سوف أنضمّ إليهم".

الجزء
الثاني

18

باريس، فرنسا
الساعة 1:23 بعد الظهر

كان مالون يحب باريس. لقد كان يعتبرها صلة وصلٍ مبهجةٍ بين القديم والجديد، حيث كل ركنٍ فيها مليءٌ بالحياة والإثارة. كان قد زار المدينة مراتٍ عديدة عندما كان يعملُ على مشروع ماجيلان بيليت، وكان يعرف طريقه بين أكواخها التي تعود للقرون الوسطى. ومع ذلك، لم يكن مسروراً بتلك المهمة التي كان يقوم بها.

سأل سام: "كيف تعرفت على هذا الفتى؟"

لقد طاروا من كوبنهاغن في رحلة طيران صباحية مباشرةً إلى مطار شارل ديغول، وأخذوا سيارة أجرة إلى مركز المدينة حيث الحي اللاتيني الصاخب، الذي أُطلق عليه هذا الاسم منذ زمنٍ بعيد لأنها كانت اللغة الوحيدة التي يُسمح باستخدامها في إطار الجامعة. وككلِّ شيءٍ آخر تقريباً، ألغى نابليون استخدام اللغة اللاتينية، ولكن الاسم كان قد أُلصِق بذلك الحي. لقد كان هذا الحي يُعرف إدارياً باسم الدائرة الخامسة، وبقي ذلك الحي ملاذاً للفنّانين وأهل الفكر. وكان التلاميذ من جامعة السوربون القريبة يحتلّون حجارة الشارع المرصوفة، بينما كان السيّاح ينجذبون إلى المحيط وإلى صفوف المحلات المنتظمة، والمقاهي، والمعارض، والمكتبات، والملاهي الليلية.

قال سام: "لقد التقينا على الإنترنت".

أصغى إلى سام الذي راح يكلّمه عن جيمي فودريل، المغترب الأمريكي الذي جاء إلى باريس ليدرس الاقتصاد وقرر البقاء فيها. كان فودريل قد أسس موقع إنترنت قبل ثلاث سنوات – GreedWatch.net - وهذا الموقع انتشر وسط حشد عالم المتآمرين من "الموجة الجديدة". وكان النادي الباريسي من أهم الهواجس الأخيرة لهذا الموقع.

"لا يمكنك أن تعرف أبداً"، كان ثورفالدسن قد قال ذلك قبلاً. "فودريل

يحصل على معلوماته من مكانٍ ما، ولعلّنا نستطيع فعل شيءٍ حيال ذلك".

بما أن مالون لم يجادله في منطقه، فقد وافق على المجيء.

"إن فودريل حائز على شهادة ماجستير في الاقتصاد العالمي من جامعة السوربون"، كان سام قد قال له.

"وماذا يفعل بها؟"

وقفا أمام كنيسةٍ خفيضةٍ عريضة كُتب عليها كنيسة القديس جوليان، والتي يُفترض أن تكون أقدم كنيسة في باريس. وفي الأسفل في شارع غالاند، إلى يمينهم، رأى مالون صفاً من البيوت القديمة وأبراج الكنائس في مشهدٍ جميلٍ على الضفة الشرقية. وإلى يسارهم، ومقابل الجادة المزدحمة ونهر السين الهادئ، برزت كنيسة نوتردام، محتشدةً بزوارها بمناسبة عيد الميلاد.

قال سام: "لا أعرف شيئاً. يبدو أنه يعمل على موقعه الإنترنت - ومهتماً اهتماماً كبيراً بمؤامرات الاقتصاد العالمي". "وهذا ما يجعل من الصعب عليه أن يحصل على وظيفةٍ حقيقية".

تركا الكنيسة وسارا نحو نهر السين، متتبعين ممراً ضيقاً لوّنته أشعة الشمس في الشتاء. هبَّ نسيمٌ باردٌ حرّك الأوراق على طول حجارة الرصيف الجافة. كان سام قد أرسل بريداً إلكترونياً إلى فودريل وطلب منه أن يلتقي به، وهذا ما نتج عنه بريد إلكتروني آخر بالمقابل، أعطى تعليمات بمقابلتهم في 37 شارع بوشري، والذي رآه مالون الآن، من بين كل الأشياء، ولم يكن سوى مكتبة.

شكسبير وشركاه.

لقد كان يعرف المكان. كل كتاب أو دليلٍ سياحي إلى باريس كان يشير إلى هذا المتجر للكتب المستعملة على أنه علامة ثقافية هامة مميزة. لقد تأسس هذا المتجر قبل أكثر من خمسين عاماً، على يد أمريكي جعله على شكل متجر فرنسي شهير اسمه سيلفيا بيتش يعود إلى أوائل القرن العشرين. إنّ لطف بيتش وسياستها في إعارة الكتب بالمجان جعل حجرة المطالعة لديها ملجأ لكثير من الكتّاب اللامعين - من بينهم همنغواي، وباوند، وفيتزجيرالد، وشتاين، وجويس. إعادة التجسيد هذه كانت جزءاً من ذلك، ومع ذلك فقد

تمكّنت من أن تخلق لذاتها بيئة بوهيمية شعبية.

"هل صديقك من هواة الكتب؟" سأله مالون.

"لقد ذكر هذا المكان مرةً. لقد كان يعيش هنا في الواقع لبرهةٍ من الزمن، عندما جاء أولاً إلى باريس. لقد سمح له المالك بذلك. هناك أسرّة خفيفة نقّالة بين الرفوف في الداخل. وبالمقابل، يمكنك أن تعمل في المتجر وأن تقرأ كتاباً ما كل يوم. لقد كان هذا أمراً فيه شيءٌ من الحماقة بالنسبة لي".

ابتسم ابتسامة عريضة.

كان قد قرأ عن التلاميذ الداخليين، الذين كانوا يَدْعون أنفسهم النباتات القطيفة، إذ أن البعض منهم كان يبقى لأشهر دفعةً واحدة. وكان قد زار المتجر في السنين الماضية، ولكنه عملياً كان يُفضل بائعاً آخر للكتب المستعملة، ألا وهو متجر آبي، على بعد شارعين من ذلك المكان، حيث كان يحصل منه على بعض أفضل الطبعات الأولى للكتب.

نظر إلى واجهة المبنى الخشبي المقتبس من أماكن شتّى، المفعم بالألوان، والذي بدا غير ثابتٍ على أساساته الحجرية. فنضدٌ خشبيةٌ فارغةٌ كانت عند المدخل تحت نوافذ بابية مترنحةٍ متقلقلةٍ. وكان عيد الميلاد الذي على وشك أن يبدأ بعد حوالي 48 ساعة فقط هو السر وراء ازدحام رصيف الشارع في ذلك الوقت، والسبب في هذا التدفق الثابت للناس الذين كانوا يحتشدون بكثرةٍ داخلين وخارجين عبر الأبواب الرئيسية للمتجر.

قال سام: "لقد أخبرنا أن نصعد إلى مرآة الحب. فلنفعل ذلك مهما كانت".

دخلا المكان.

وفي الداخل صدرت رائحةٌ قويةٌ عابقةٌ بالعراقة، مع عوارض ملتويةٍ فوق رؤوسهم وقرميد مُصدّع في الأرضية. كانت الكتب مكدّسةً كيفما اتفق على رفوف مرتخية امتدّت على كل جدار. وكانت كتبٌ أخرى مكومة على الأرضية. كان النور يأتي من مصابيح ظاهرة للعيان مثبتة ببراغٍ إلى شمعداناتٍ نحاسيةٍ تعوزها الأناقة. وكان الناس يُلقون بمعاطف، وقفازاتٍ، وأوشحةً على الرفوف ويتركونها هناك.

صعد هو وسام درجاً أحمر اللون يؤدي إلى الطابق التالي. وفي الأعلى وسط

كتبٍ للأطفال، وقع نظره على مرآةٍ جداريةٍ طويلة ألصقت عليها كتاباتٌ بخط اليد وصورٌ. معظمها كان كلمات شكر من أناسٍ أقاموا في المحل عبر السنين. كلٌّ منهم يُعبِّر عن محبته وتقديره، ويعكس إعجابه بهذه الخبرات الحياتية الواضحة التي لن تتكرر أبداً. وعلى إحدى البطاقات، وكانت زهريةً ساطعةً، مثبتةً قرب المركز، رأت عيناه هذه الكلمات:

"يا سام، تذكر حديثنا العام الماضي.

ومن قُلْتُ إنه على صواب.

تفحّص كتابه في قسم كتب الأعمال".

دمدم مالون قائلاً: "لا بد أنك تمزح. هل هذا الشخص مخبول؟"

"على ما أعلم، لديه جنون الارتياب. وهكذا كان الحال دائماً معه. لقد تعامل معي فقط بعد أن أثبتُّ له أني أعمل مع وكالة الاستخبارات السرية. وكان دائماً يستعمل كلمة السرّ، ويغيرها على الدوام".

كان مالون يتساءل فعلاً ما إذا كان الأمر يستحق العناء. ولكنه أراد أن يتأكد من حدسٍ داخلي لديه، ولذلك فقط خطا صاعداً إلى الطابق الأعلى، وأحنى رأسه ماراً عبر مدخلٍ خفيض كان يحمل تحذيراً خطيراً يقول: "لا تكن غير مضيافٍ مع الغرباء لئلا يكونوا ملائكةً متنكّرين"، وكان هذا التحذير مكتوباً على نافذةٍ بابية.

عندما تركا فناء الكنيسة ومشيا نحو المحل، لاحظ الرجلَ أولاً. كان طويلاً، رفيع الذقن، مرتدياً بنطالاً كاكياً فضفاضاً، ومعطفاً للبحرية يصل حتى الخصر، وحذاءً أسود. كان قد حافظ على مسافة مئة قدم خلفهما، وتلكآ أمام الواجهة، وتوقف ذاك الذي كانوا خلفه أيضاً، قرب أحد المقاهي.

وها هو سْكِيني الآن يدخل إلى المحل.

كان مالون بحاجة إلى أن يتأكد، ولذلك فقد ابتعد عن النافذة وسأل: "هل يعرف فودريل كيف هو شكلك؟"

أومأ سام إيجاباً. "لقد أرسلتُ له صورتي".

"أفترض إذاً أنه قد ردّ المجاملة بمثلها؟"

"لم أطلب منه ذلك".

فكر ثانية بمرآة الحب. "أخبرني إذاً، من الذي قال فودريل عنه إنه كان على صواب؟"

19

لندن
الساعة 1:25 ظهراً

تمشى آشبي داخلاً إلى دير وستمنستر وسط حشد كان قد قَدِمَ بعدة حافلات سياحية.

كان يشعر بالوخز في عموده الفقري كلما دخل إلى هذا المقام.

كان هذا مكاناً يعيدُ سرد التاريخ الإنكليزي لأكثر من ألف سنة. فقد كان هذا بالأساس ديراً سابقاً للرهبان البندكتيين، وصار الآن كرسي الحكم وقلب الكنيسة الأنغليكانية. كلّ ملكٍ إنكليزي، ما عدا اثنين، منذ زمن وليام الفاتح كانوا قد تُوِّجوا هنا. ولكن ما كان يزعجه هو التأثيرات الفرنسية فيه، رغم فهمه للأمور، نظراً لأن التصميم قد جاء من وحي الكاتدرائيات الفرنسية العظيمة في ريمس، وآميانس، وسانت شابيل. ولكنه كان يتفق في الرأي دائماً مع ما قاله أحد المراقبين البريطانيين واصفاً وستمنستر.

"فِكْرٌ فرنسي عظيم تعبّر عنه لغةٌ إنكليزية ممتازة".

توقف عند البوّابة ودفع رسم الدخول، ثم تبع حشداً يدخل متجهاً نحو ركن الشعراء، حيث تجمّع الزوار قرب النُّصب التذكارية الجدارية ومجموعة تماثيل تمثّل صوراً لشكسبير، ووردزورث، وميلتون، ولونغفيلو. وإلى جانبهم الكثير من العظماء، من بينهم تنيسون، وديكنز، وكبلينغ، وهاردي، وبراونينغ. قام بمسح بصري على المشهد الفوضوي وأخيراً استقر نظره على رجل يقف أمام قبر تشاوس، يرتدي بذلة ضيقة مع ربطة عنق من الكشمير. وكان يضع قفازات بلون سكّري ويرتدي في قدميه العريضتين حذاءً من ماركة غوتشي.

اقترب آشبي، وإذ أُعجب بالعمل الحجري الذي يمثّل قبراً ويعود إلى خمس مئة سنةٍ، سأل: "هل تعرف الرسام غودفري كنيلر؟"

دقَّق الرجل النظر إليه بعينين متعبتين بلونٍ كهرماني واضح ومزعج. "أعتقد أني أعرفه. إنه فنانٌ عظيمٌ من فنّاني البَلاط في القَرن الثامن عشر.

وأعتقد أنه قُبِرَ في تويكينهام".

كانت الإشارة إلى تويكينهام بمثابة الجواب الصحيح، وكانت اللهجة الإيرلندية المشدودة لافتة للانتباه. ولذلك فقط قال: "قيل لي إن كنيلر كان يضمر كرهاً عظيماً لهذا المكان، على الرغم من أنه يضم نصبّاً تذكاريّاً مخصَّصاً له قرب باب الدير الشرقي".

أومأ الرجل برأسه وقال: "لقد كانت كلماته بالضبط، على ما أعتقد، هي: أقسم بالله ألا أسمح بأن أدفن في وستمنستر. فهم يدفنون الحمقى هناك".

أكّد الاقتباس أن هذا هو الرجل الذي كان قد تكلم إليه على الهاتف. ولكن الصوت كان عندها مختلفاً، إذ كان اللفظ من الحلق أكثر، ومن الأنف أقل، وبدون لكنة.

"أسعد الله صباحك، يا لورد آشبي"، قال الرجل، وقد أضاف ابتسامة إلى شفتيه.

"وبماذا أناديك؟"

"ما رأيك باسم غودفري؟ إكراماً لهذا الرسام العظيم. لقد كان مصيباً تماماً في تقييمه للأرواح الراقدة داخل هذه الجدران. هناك حمقى كثيرون مدفونون هنا".

راح يدقّق في ملامح الرجل الخشنة، ويمعن النظر في أنفه المستدير، الذي يشبه الحقيبة، ولحيته ذات الخصلات الداكنة والفاتحة والقصيرة. ولكن عينيه اللتين بلون الكهرمان، واللتين كان يحيط بهما حاجبان كثيفان، هما ما استرعى انتباهه بشكلٍ كبير.

"أؤكد لك، يا لورد آشبي، أن هذا ليس هو مظهري الحقيقي. ولذلك لا تهدر وقتك في أن تحفظ شكلي".

تساءل ما الذي يدفع شخصاً، مرَّ بكثير من المشاكل جعلته يتنكّر، لأن يبقى محافظاً على الملامح المميزة أكثر له ألاَ وهي عينيه - اللتين تبقيان بارزتين ظاهرتين بشكل مُجفل. ولكنه اكتفى بالقول: "أود أن أعرف عن الناس الذين أتعامل معهم".

"وأنا أُفضّل ألا أعرف شيئاً عن زبائني. ولكنك، يا لورد آشبي، استثناء. فقد

عِلِمتُ أشياء كثيرة عنك".

لم يكن مهتماً بشكلٍ خاص بالألعاب الفكرية الشيطانية هذه.

"أنت صاحب الأسهم الوحيد في مؤسسةٍ مصرفيةٍ بريطانيةٍ عظيمة، رجلٌ ثريٌّ يستمتع بالحياة. وحتى الملكة نفسها تعتبرك مستشاراً".

"وأنت بالتأكيد، لديك وجود مميَّز على نفس المستوى".

ابتسم الرجل، كاشفاً عن ثغرةٍ بين أسنانه الأمامية. "ليس لدي اهتمامات، سوى أن أرضيك يا سيدي".

لم يستسغ التهكم، ولكن تغاضى عنه. "هل أنت مستعدٌّ لتنفيذ ما قد ناقشتُه معك؟"

سار الرجل متمهلاً نحو صفٍّ من النّصب التذكارية، وراح يُحدق إلى النّصب مثله في ذلك مثل الزوار الذين يحيطون بهما. "هذا يعتمد على استعدادك لتقديم ما اتفقنا عليه كما طلبتُ منك".

مدَّ يده إلى جيبه وأخرج مجموعةً من المفاتيح. "هذه تفتح الهنغار. الطائرة هناك، تنتظر وخزان الوقود مليءٌ فيها. إن تسجيلها هو في بلجيكا، ومالكها له اسمٌ مزيف".

قَبِل غودفري المفاتيح. وقال "وماذا؟"

استدعت النظرة من العينين الكهرمانيتين موجةً جديدةً من عدم الارتياح. سلَّم قُصاصة الورق. "الرقم وشيفرة الدخول إلى رقم الحساب السويسري، كما طلبت. نصف الدفعة هناك. والنصف الآخر سيأتي لاحقاً".

"إن جدول المواعيد الذي أردته خلال يومين من الآن. يوم عيد الميلاد. ألا يزال هذا صحيحاً؟"

أومأ آشبي برأسه إيجاباً.

وضع غودفري المفاتيح والورقة في جيبه. "ستتغير الأمور بالتأكيد في ذلك الحين".

"تلك هي كل الفكرة".

أبدى الرجل ضحكةً خفيفةً وتمشيا مبتعدين أكثر ودخلا إلى الكاتدرائية،

وتوقفا أمام لوحة تعريف للذكرى كانت تشير إلى تاريخ موت يعود للعام 1669. أشار غودفري إلى الجدار وقال: "السير روبرت ستابلتون. هل تعرفه؟"

أومأ برأسه. "شاعرٌ مسرحيٌّ، كان فارساً لدى الملك تشارلز الثاني".

"على ما أتذكر، لقد كان راهباً بندكتياً فرنسياً تحول إلى البروتستانتية وصار خادماً للعرش. وأعتقد أنه صار الحاجب الأول الخاص لحجرة الملك تشارلز".

"أنت تعرف تاريخك الإنكليزي".

"لقد كان انتهازياً. رجلاً طموحاً. شخصاً ما كان ليسمح للمبدأ بأن يتدخل بالهدف. وكان في ذلك يشبهك كثيراً يا لورد آشبي".

"وأنت أيضاً".

صدرت ضحكةٌ خافتةٌ أخرى. "بالكاد. كما أوضحت، أنا أُقدم مساعدةً مأجورة".

"وهي مساعدةٌ باهظة".

"ولكنها خدمةٌ جيدة دائماً. إذاً خلال يومين. سكون هناك. وأنت تكد من أن لا تنسى التزامك الأخير".

راح يراقب الرجل الذي يُدعى غودفري وهو يختفي في داخل الممشى المسقوف الجنوبي. لقد تعامل مع الكثير من الناس في حياته ولكن الرجل غير الأخلاقي الذي غادر للتو كان قد جعله حقاً غير مرتاح. لم يكن يعرف منذ متى كان في بريطانيا. الاتصال الأول جاء قبل أسبوع، وتفاصيل علاقتهما تم استكمالها من خلال اتصالات هاتفية أخرى غير متوقعة. كان آشبي قد رتّب بسهولة نهاية هذه الصفقة، وكان ينتظر بفارغ الصبر تأكيد غودفري على أن يفعل المثل.

وها قد عرف الآن.

المهلة يومان.

20

وادي اللوار

الساعة 2:45 بعد الظهر

قادوا السيارة بثورفالدسن إلى الجنوب، انطلاقاً من باريس، إلى غور فرنسي هادئ تقيه تلالٌ حافلة بأشجار الكرمة. كان القصر راسياً كسفينةٍ وسط "شير" المتعرجة، على بعد حوالي 15 كيلومتراً من المكان حيث كان النهر الموحل يدخل إلى منطقة اللوار الساحرة. إنّ وضع جسرٍ فوق المجرى المائي جعل تلك الواجهة من القرميد ساحرةً، وكانت الأبراجٌ والقمم والسقف الأردوازي المخروطي تُشكّل منظراً فائق الجمال. لم يكن كئيباً، ولا مُشيَّداً بشكلٍ كبير لأغراض الدفاع، أو بالياً من الإهمال، بل على العكس كان يبعث انطباعاً بجوٍّ غريب الأطوار وفخامةٍ تعود إلى القرون الوسطى.

جلس في الرُّدهة الرئيسية في القصر تحت روافد خشب شجر الكستناء، والتي كانت مصنوعةً بشكلٍ احترافي رائع يعود إلى تلك القرون. كان هناك شمعدان ذو مصباحين كهربائيين يُؤمِّنان ضوءاً مزعجاً. الجدران ذات اللوحات كانت تُزيِّنها روائع أعمال لوسيور وفان ديك، وأول اللوحات الزيتية التي كانت تُصوِّر من يمثلون سلفه كما يُزعم. جلست مالكةُ القصر قبالته في كرسي جلدي فخم كان من مقتنيات الملك هنري الثاني. لقد كانت تتمتع بصوت جذاب وأسلوب هادئ وملامح لا يمكن أن تُنسى. لقد عرف من كل الجهات أن إليزا لاروك لديها رؤيا واضحة للأمور وحاسمة، ولكنها أيضاً عنيدة واستحواذية.

لقد أمل أن تكون سماتها على هذا المنوال.

"إني متفاجئة نوعاً ما لزيارتك"، قالت له.

رغم صدقها، إلا أن ابتسامتها كانت ذات وهجٍ غير طبيعي.

"لقد عرفتُ عن عائلتك منذ سنين كثيرة"، قال لها.

"وأنا أعرف عن الخزف الصيني الذي اشتهرت به. إن لدينا مجموعة

ظريفة في غرفة الطعام. حلقتان بينهما خطّ من الأسفل - ذلك الرمز الذي يُمثّل قمة الجودة".

أحنى رأسه معبِّراً عن شكره لإطرائها. "لقد عملت عائلتي لقرون لكي تؤسس سمعةً جيدةً كتلك التي أحرزتها".

أظهرت عيناها الداكنتان مزيجاً غريباً من الفضول والاحتراس. لقد كانت مرتبكةً مضطربة، وتحاول جاهدةً أن تخفي ذلك. كان مخبروه قد أعلموه بوصول طائرتها. فقد كانوا تبعوها من مطار أورلي إلى أن تأكدوا من وجهتها. ولذلك فعندما كان مالون وسام يقتفيان أثر المعلومات في باريس، كان هو أيضاً قد اتجه جنوباً ليقوم برحلة صيدٍ خاصةٍ به.

"يجب أن أقول يا سيد ثورفالدسن"، قالت وقد بقيت على اللغة الإنكليزية، "لقد وافقتُ على رؤيتك بدافع الفضول. لقد طرتُ من نيويورك ليلة أمس، ولذلك فإني متعبةٌ قليلاً ولست معتادةً على الزوّار".

نظر إلى وجهها، ورأى ملامحها الجميلة البهجة، وانتبه إلى زاويتي فمها الذي رسم ابتسامةً أخرى.

"هل هذه عزبة عائلتك الريفية؟" سألها محاولاً أن يُزيل مخاوفها، وأمكنه أن يرى ومضةَ انزعاج خافتةً.

أومأت برأسها وقالت: "لقد بُنِيَ في القرن السادس عشر. وجُعِلَ على نمط وأسلوب قصر شينونصو، الذي يقبع قريباً من هنا. وهو أحد الروائي الأخرى من حياة الريف".

لقد أعجبه رف المدفأة المصنوع من خشب السنديان عبر الغرفة. وخلافاً لبقية البيوت الفرنسية التي كان قد زارها، والتي كانت خلواً من الأثاث وتوحي بكآبة القبور، كان هذا المنزل وبشكلٍ واضح خالياً من أية برودةٍ لقبرٍ أو ضريح.

"أنت تدركين، يا سيدة لاروك، أن مواردي المالية فعلياً أكبر من مواردك بكثير. ولعل الفارق هو حوالي عشرة مليارات يورو".

راح يتفحص عظام وجنتها المرتفعة، وعينيها الجديتين، وفمها الحازم. لقد فكّر في التّضاد الصارخ بين مظهرها القشدي اللون وشعرها الأسود، هذا

التضاد الذي كان مقصوداً من قِبَلِها. ونظراً إلى عمرها، فقد شكَّ في أن يكون لون شعرها طبيعياً. لقد كانت، بلا شكٍ، امرأةً جذابةً، واثقةً من نفسها وذكية، أيضاً. معتادةً على أن تشق طريقها بنفسها - وغير معتادةٍ على الضبابية.

"وهل تعتقد أني أهتم بثرائك الواضح؟"

سمح لنفسه بتوقفٍ مؤقتٍ مدروس ليكسر التدفق الطبيعي للحديث الذي كان يدور بينهما، ثم قال: " لقد أهنتني".

أصابتها الحيرة والارتباك وبدا هذا واضحاً في عينيها. "كيف يمكن ذلك؟ ها قد التقينا للتو".

"إني أسيطر على أحد أكبر وأهم الشركات وأكثرها نجاحاً في أوروبا. أعمالي الإضافية، والتي تشتمل على النفط والغاز، والاتصالات، والتصنيع، تمتد على طول الكرة الأرضية. لدي أكثر من ثمانين ألف موظف. ودخلي السنوي يفوق كل إمكانيات جماعتك مجتمعين. ومع ذلك فقد أهنتني".

"يا سيد ثورفالدسن، لا بد أن تشرح لي بنفسك".

لقد تخلّت عن حذرها واحتراسها. ولكن كان هذا هو جمال الهجمات العمياء. والفائدة تكون دائماً من نصيب المهاجم. فما كان صحيحاً في مدينة مكسيكو قبل سنتين هو صحيحٌ هنا الآن أيضاً.

"أريد أن أكون جزءاً مما تخططين له"، قال بشكلٍ واضح.

"وما هو ذاك؟"

"رغم أني لم أكن على متن طائرتك ليلة أمس، إلا أنني أستطيع أن أُخمِّن أن روبرت ماستروياني على الأقل - وهو أحد أصدقائي بالمناسبة - قد تلقى دعوةً. ومع ذلك فإني أنأى بنفسي عن الحديث عن ذلك".

جمدت في مكانها وتوقّفت ملامح وجهها عن التعبير وكأنها شاهدة قبر.

"دعوة إلى ماذا؟"

"النادي الباريسي".

قرر ألا يسمح لها برفاهية الرد. فقال: "إن لك نَسَباً كريماً. فأنت تتحدّرين مباشرة من كارلو أندريا بوزو دي بورغو، الذي وُلدَ في 8 آذار (مارس)

17. لقد صار العدّو اللدود لنابليون بونابرت. وبمهارةٍ فائقة، عمِل بشكلٍ مؤثر في السياسات الدولية إلى أن قضى أخيراً على عدوه الشرس. لقد كانت عملية ثأر كورسيكية كلاسيكية. لم تكن أسلحته بنادق أو قنابل، بل مكائد في الدبلوماسية. لقد كانت الضربة القاضية، مصير الأمم".

توقف لبرهة، بينما راح دماغها يستوعب الحقائق.

"لا تخشي شيئاً"، قال لها. "لستُ عدوك. بل أنا العكس تماماً. إني معجبٌ بما تفعلين، وأريد أن أكون جزءاً من مشاريعك".

"إذا افترضنا أن ما تقوله صحيح ولو جزئياً، لماذا سأقبل مطلباً كهذا منك؟"

كان صوتها دافئاً ومتراخياً، وليس فيه أي إشارة إلى حذر أو تنبّه. ولذلك فقد سمح لوجهه بأن يُبدي مظهر ذكاءٍ واستيعاب. "الجواب هو في منتهى البساطة".

كانت تسمع.

"لديك خرقٌ أمني".

21

باريس

تبع مالون سام راجعَيْن نزولاً إلى الأسفل، حيث وجدا صفاً من الرفوف المتشابكة عليها إشارة تدل على "كُتب تجارية".

"لقد تراسلنا بالبريد الإلكتروني أنا وفودريل كثيراً"، قال سام. "إنه يعارض بشدةٍ النظام الاحتياطي الفيدرالي. ويدعوه مؤامرة كبيرة ستؤدي إلى انهيار أمريكا. بعضٌ مما يقوله معقول، ولكن معظم آرائه هي في الواقع مجرد أوهام".

ابتسم مالون وقال: "حسنٌ أن أرى أن لديك حدوداً".

"خلافاً لما تعتقد، أنا لستُ شخصاً متعصباً. أنا أفكر فقط بأن هناك أناساً يستطيعون أن يقضوا على أنظمتنا المالية. ليس بغاية السيطرة على الكوكب أو بتدمير العالم. بل بسبب الجشع فقط. طريقةٌ سهلة ليصبحوا أو يبقوا أغنياء. ما يفعلونه يمكن أن يؤثر على الأنظمة الاقتصادية الوطنية بطرقٍ كثيرة، وليست أيٌّ منها جيدةً".

لم يخالفه الرأي. ولكن كان لا يزال هناك مسألة الدليل. قبل أن يغادرا كرستيانغيد كان قد تابع الموقعين الإلكترونيين لكلٍّ من سام وجيمي فودريل. ليسا متباينين كثيراً، فيما عدا أن سام كان يلاحظ بينما فودريل كان يتنبأ بقتامة القدر المشؤوم للكون بلهجةٍ أشد تطرفاً.

أمسك بسام من كتفه. "علامَ نبحث بالضبط؟"

"الملاحظة التي قرأناها في الأعلى كانت تتحدث عن كتاب، كتبه مخططٌ ماليٌّ مجاز، من النوع الذي نتكلم عنه أنا وفودريل أيضاً. قبل بضعة أشهر، وجدت نسخةً من الكتاب وقرأته".

أفلت يده وراح يراقب سام يمسح بنظره الرفوف المحتشدة.

راحت عين مالون المدربة تُخمّن قيمة الكتب. رأى أنها كانت خليطاً من العناوين، معظمها ما كان ليشتريها من الناس الذين كانوا يحملونها بمشقة

إلى متجره بالأقفاص. لقد افترض أن قيمة هذه الكتب وبما أنها للبيع في باريس، على الضفة الشرقية، على بعد بضعة مئات من الياردات من السين ونوتردام، يجب أن تكون مرتفعة.

"ها هو".

انتزع سام كتاباً كبير الحجم ذا غلاف ورقي مُذَهّب، بعنوان: "المخلوق القادم من جزيرة جيكل، نظرة معمقة إلى الاحتياطي الفيدرالي".

"كان على فودريل أن يترك هذه هنا"، قال سام. "لا يمكن أن يكون هناك نسخة أخرى هنا. إن الأمر مفهومٌ تماماً. استمر الناس في تصفُّح الكتب. وآخرون كانوا يدخلون إلى المكتبة بسبب البرد. راح مالون يبحث عن سْكيني، ولكنه لم يره. لقد كان متأكداً نوعاً ما مما يجري، ولكن قرر أن يكون الصبر شعار ذلك النهار.

أخذ الكتاب من سام وقلب صفحاته بأصابعه إلى أن وجد قُصاصةً من ورق محشورةً في داخله.

عودةٌ إلى المرآة.

هز رأسه.

عادا أدراجهما إلى الطابق العلوي ورأيا ما كُتب على القصاصة الزهرية اللون التي قادتهما إلى الأسفل:

مقهى أرجانت، 34 شارع دانتي

ثلاثون دقيقة

خطا مالون راجعاً إلى الوراء عبر الباب العلوي نحو النافذة البابية. كانت أشجار الدّلب في الأسفل تقف بلا حياة، أغصانها عارية كالمكانس، وظلالها الطويلة النحيلة تتطاول في شمس بعد ظهر ذلك اليوم. قبل ثلاث سنوات كان هو وغاري قد زارا المتحف الدولي للتجسس في واشنطن العاصمة. كان غاري يريد أن يعرف عن المهنة التي مارسها أبوه طيلة حياته وكان يعتاش منها، وتبين أن المتحف كان رائعاً. لقد استمتعا بالمعروضات واشترى كتاباً لغاري، "دليل التجسس العملي"، وكان هذا الكتاب عبارة عن نظرةٍ مبسطةٍ إلى مهنة التجسس. في أحد الفصول، التي كانت تحمل عنوان "ابقَ محترساً

من الريح"، شرح كيف يمكن مقاربة مصادر الاتصال بشكلٍ آمن.

ولذلك انتظر، وهو عارفٌ بما سيأتي.

خطا سام مقترباً منه.

سَمِعِ الباب يُفتح، ثم يُغلق، ثم رأى سْكيني يغادر المتجر حاملاً ما بدا، باللون والشكل، على أنه كتاب جزيرة جيكل وقد أخذه من الطابق السفلي.

"إنها حيلةٌ قديمة لم يعد أحدٌ يستخدمها" قال. "إنها طريقةٌ للتحقق ممن تريد أن تلتقي به. إن صديقك يتفرج على الكثير من الأفلام الجاسوسية على ما يبدو".

"هل كان هنا؟"

أومأ برأسه. "لقد بدا مهتماً بنا عندما كنا في المقدمة، ثم دخل وأعتقد أنه اختبأ خلف الرفوف في الأسفل إلى أن وجدنا الكتاب. وبما أنك أرسلت له صورتك، فهو يعرف شكلك. وإذ شعر بالرِّضا بأني أبدو على ما يرام، عاد إلى هنا قبلنا، ورجع فنزل قبل دقيقةٍ".

"أتعتقد أن ذاك هو فودريل؟" سأله سام، مشيراً إليه.

"ومن تظن غيره إذن؟"



بدت إليزا حذِرةً. لم يكن هنريك ثورفالدسن يعرف فقط بعملها، بل كان واضحاً أنه يعرف أيضاً نقاط ضعفها. "خرقٌ أمني؟"

"إن أحد الأفراد، أحد عناصر النادي الباريسي، ليس كما يبدو".

"لم أقل بوجود أي نادٍ".

"إذاً إن كان الأمر كذلك فليس لدي وإياكِ ما نتكلم عنه".

هبَّ ثورفالدسن واقفاً.

"لقد استمتعتُ بزيارتي لعزبتك. إذا ما جئتِ إلى الدانمارك، فإنه سيكون من دواعي سروري أن أستضيفك في منزلي، كرستيانغيد. سأتركك الآن لكي تستريحي من عناء رحلتك".

أبدت ضحكة احتراسٍ وحذر. "هل أنت متكلَفٌ هكذا دائماً وسريع الانفعال؟"

ابتسم. "اليوم، وبما أننا قبل عيد الميلاد بيومين، انتهزتُ الفرصة لآتي إلى هنا وأتكلم إليك. ولكن إن كنتِ تصرّين على أنه ما من شيءٍ بيننا لنناقشه، فعندها سأغادرك. إن وجود مشكلتك الأمنية سيغدو واضحاً في نهاية الأمر. ولي رجاءٌ أن يكون الضرر هو بالحد الأدنى".

لقد كانت تتصرف بحذر شديد، فاختارت الأعضاء بعنايةٍ فائقةٍ، وحصرت عددهم الإجمالي ليكون سبعة، بما فيهم هي. كان تجنيد كل عضوٍ جديدٍ يُختم بقبوله بدفع نصيبه البالغ عشرين مليون يورو كرسم دخول. وكان كل واحدٍ منهم أيضاً قد قسم على الحفاظ على سرية المسألة. المحاولات الأولى في جنوب إفريقيا وإفريقيا قد أتت بفوائد وأرباح لم يسبق لها مثيل، وضمنت ولاء وإخلاص الجميع، إذ ما من شيءٍ كان يُشجّع على المؤامرة أكثر من النجاح. ومع ذلك فهذا الدانماركي ذو الثراء والنفوذ الفاحش، هذا الغريب، يبدو أنه يعرف كل شيء.

"أخبرني، يا سيد ثورفالدسن، هل أنت مهتمٌّ جدياً بالانضمام؟"

طرفت عيناه لدقيقةٍ. لقد ضربت على الوتر الحساس.

لقد كان قصيراً وثخيناً، وجعله عموده الفقري المعقوف وركبتاه المحنيتين أكثر قصراً. كان يرتدي كنزةً فضفاضةً، وبنطالاً من القماش القطني المخملي الوبر، وحذاءً خفيفاً، ولعلها كانت طريقة لإخفاء العاهة الجسدية التي لديه. كان شعره الخفيف الفضي اللون متدلياً بشكلٍ أشعث مُهمل. وكان حاجباه كثيفين جداً. وكانت التجاعيد على وجهه قد تحولت إلى شقوق غائرةٍ. كان يُمكن لأي امرئ أن يُسيء الظن به معتقداً بأنه إنسانٌ مشرّد، ولعل هذه هي الفكرة بمجملها.

"هلا أوقفنا الادّعاء؟" سألها. "لقد جئتُ لهدفٍ معينٍ محدد. وآمل أن يكون في هذا مصلحة مشتركة لنا نحن الاثنين".

"إذاً، دعنا نتكلم عن هذا الموضوع -".

راح فراغ صبره يتقلّص إذ استشعر باستعدادها للتنازل للوصول إلى اتفاق.

جلس. "لقد علمتُ عن ناديك الباريسي من خلال تحرٍّ حريصٍ حذرٍ دقيقٍ".

"وما الذي أثار اهتمامك؟"

"لقد انتبهتُ إلى بعض المناورات الماهرة التي تحدث في عملاتٍ أجنبيةٍ معينة. ومن الواضح أنها لم تكن مصادفاتٌ طبيعية. بالطبع، هناك مواقع على الإنترنت تُقر بمعرفة أشياء أكثر من ذلك بكثير عنكِ، وعن نشاطاتك، أكثر مما أنا أعرف".

"لقد قرأتُ بعضاً من هؤلاء. أنت تعلم أن الأشياء التي تنتشر على الإنترنت هي هراء لا معنى لها".

"أوافقك الرأي". ثم توقف. "ولكن أحدها استرعى انتباهي. أعتقد أن اسمه Gree. ذلك الموقع لديه بالتأكيد معلومات ليست بعيدة عن الصحة. ولقد لفتني الاقتباس الذي يوجد على رأس صفحته الرئيسية، والمأخوذ عن شرلوك هولمز: "ما من شيءٍ أكثر خداعاً من الحقيقة الواضحة".

لقد كانت تعرف ذلك الموقع ومصممه وناشره، وأن ثورفالدسن كان على صواب. لقد كان ينشر الكثير من الحقائق. وكان هذا هو السبب في أنها قبل ثلاثة أسابيع قد أمرت بإجراءاتٍ علاجية. لقد كانت تتساءل، هل عرف هذا الرجل عن هؤلاء أيضاً؟ وإلا لماذا يذكر ذلك الموقع بالذات؟

مدَّ ثورفالدسن يده إلى جيب بنطاله، وسحب ورقة مطوية، وسلّمها لها: "لقد طبعتُ هذه من موقع GreedWatch البارحة".

فضّت إليزا الورقة وراحت تقرأ.

هل جاء المسيح الدجّال؟

إذا ما حلّلتم الغزو الحالي الممنهج للدول المستقلة في العالم، فيمكنكم بسهولة أن تكتشفوا أن وراء كل هذه التعدّيات نمطاً من القوة الفريدة التي لا مثيل لها تبزغ، وهي تشمل الاقتصاد والقوة العسكرية ووسائل الإعلام والسياسيين. سأحاول أن أظهر لكم أن هذه القوة تخص الرأسماليين في العالم. أعتقد أن مسيحاً دجالاً هو على رأس هؤلاء الطغاة. واسمه إليزا لاروك. إنها تريد أن تحكم العالم، بشكلٍ غير مرئي كلياً، عن طريق قوة اقتصادية تملكها عائلتها سراً وقد بنتها عبر القرون.

ليس من عملٍ تجاري أكثر أماناً وأكثر ربحاً من إقراض المال للدول. فهكذا يتّحد الرأسماليون معاً، ويأبون تنافس أحدهم مع الآخر، ويُخضِعون الأسواق والعملات لمصلحتهم الجماعية، ما يُشكل تهديداً مرعباً. إن لاروك وزملاءها يمتلكون بنيةً هرميةً منظَّمة تشتري وتحرز حصصاً وأسهماً في كل ما هو قيِّم في الأسواق العالمية. ولربما، على سبيل المثال، يمتلكون شركة كوكا كولا وبيبسي كولا، ومن قمة جبل الأولمب خاصتهم، يراقبون هذه الشركات تتصارع الواحدة ضد الأخرى في الأسواق. ولكن نشكر النظام الرأسمالي وسياسة أعماله التجارية السرية، إذ ما من أحدٍ سواهم يستطيع أن يعرف. فهم عن طريق السيطرة على الحكومات في البلدان الغربية، يسيطرون على كل العالم الغربي. وان تابعتم سياستهم المسكونية يمكنكم بسهولة أن تروا أن القادة المنتخبين ديمقراطياً في البلدان يتغيرون، ولكن السياسة تتبع فوائد وأرباح الأغنياء مهما كان اسم القائد. هناك عناصر عديدة تشير إلى حقيقة أن هناك منظمة غير منظورة تحكم العالم. إن الحقائق التي جمعتُها عن إليزا لاروك تؤكد لي أنها تقود تلك المنظمة. إني أتحدث هنا عن مؤامرة ستطال العالم برمته تقريباً.

ابتسمت وقالت: "المسيح الدجّال؟"

"من المُسلّم به أن استخدام هذه المفردات غير تقليدي، وفيه استنتاجاتٍ ولكنها صحيحة".

"أؤكد لك، يا سيد ثورفالدسن، أن آخر ما يهمني هو أن أحكم العالم. إذ إن في ذلك الكثير من المشاكل".

"أوافقك الرأي. أنت تريدين وحسب أن تُضاربي به لأجل المصالح المشتركة لك ولزملائك. إن كانت هذه المضاربة فيها بعض الذيول السياسية.... فما المشكلة في ذلك؟ ما يهم هو الربح". توقف ثورفالدسن قليلاً عن الكلام ثم تابع يقول: "ولذلك أنا هنا. أريد أن أشارك في هذه الأرباح".

"لا أعتقد أن الدافع لديك هو الحاجة إلى المال".

"ولا أنت أيضاً. ولكن الفكرة ليست هنا، أليس كذلك؟"

فسألت: "وما الذي ستقدمه، مقابل الاشتراك؟"

"أحد الأعضاء لديكِ هو في ضائقة مالية. إن وضعه المالي ينهار وصولاً إلى درجة الإفلاس. إنه مُثقَلٌ بالديون. أسلوب حياته يتطلب كمياتٍ كبيرةٍ من المال الذي لا يملكه ولا يستطيع أن يؤمّنه بسهولة. فقد مرَّ بسلسلةٍ من الاستثمارات السيئة، والتوسّعات المالية، واللامبالاة، أوصلته إلى شفير الهاوية".

"ولماذا يهمك هذا الرجل؟"

"إنه لا يهمني. ولكن لكي ألفت انتباهك، فإني أعرف أن عليَّ أن أقدّم لك معلوماتٍ لا تعلمينها. وهذا مثال يفي بالغرض".

"ولماذا سأهتم بمشاكل هذا الرجل؟"

"لأنه الخرق الأمني الذي لديك".

ارتجف عمودها الفقري. لقد تصوَّرَتْ أن كل شيء يصير في حالة خطر إذا ما خان أحد المختارين الآخرين.

لقد كانت في حاجة إلى أن تعلم. "من هو ذاك الرجل؟"

"إنه اللورد غراهام آشبي".

22

إنكلترا

كان ثمة قارب متأخر في انتظار آشبي عندما عاد إلى سالن هول. لقد كانت ممتلكات عائلته سالفاً هي عبارة عن منزل فخم وسط أرضٍ فيها غابات تبلغ مساحتها 24 هكتاراً تعود ملكيتها لعائلة آشبي منذ العام 1660.

دخل إلى غرفة الطعام الرئيسية واتخذ مجلسه كالمعتاد إلى جهة الشمال من الطاولة حيث كانت صورة جده الكبير، الدوق السادس من عائلة آشبي، المؤتمن المقرَّب للملكة فيكتوريا الأولى، تقبع خلف ظهره. وفي الخارج كان جوٌّ قاسٍ من أيام كانون الأول (ديسمبر) تلتفُّ الريح فيه كالدوامة مع رقائق بيضاء - كمقدمة، على ما كان يُعتقد، لمجيء ثلج وعيد الميلاد، بعد يومين.

"لقد سمعتُ أنك عدت"، قال صوتٌ أنثوي.

رفع بصره عن الطاولة نحو كارولين. كانت ترتدي ثوباً حريرياً طويلاً جذاباً، وكانت ساقاها العاريتان تبرُزان منه من خلال شق طويل مرتفع. لقد كان رداءً يشبه الكيمونو الياباني يغطيها من الكتفين، ومفتوحاً من الأمام، بشكلٍ يتلاءم فيه اللون الذهبي مع شعرها الطويل المجعَّد.

"أرى أنك قد ارتديتِ ثيابكِ كما تفعل الخليلة الجيدة".

فابتسمت وقالت: "أليست هذه هي وظيفتي؟ أن أُرضي سيدي؟"

لقد كان يحب تبادل الأخذ والردّ بينه وبينها. كانت زوجته مفرطة الاحتشامِ دائماً حتى صارت مملَّةً بالنسبة له. كانت تعيش في لندن، وكانت شقتها مليئةً بالأهرامات حيث كانت ترقد تحتها لساعاتٍ كل يوم، على أمل أن تُطَهِّر قوتُها السحرية روحَها. لقد كان يأمل أن تحترق الشقة بما فيها وهي فيها ولكن لم يحالفه الحظ بعد من هذه الناحية. لطالما كان محظوظاً، إذ إنهما لم يحظيا بأولاد، وكانا منفصلين عن بعضهما لسنين وهذا ما كان يُفسر عدد خليلاته الكثيرات، والتي كانت كارولين آخر واحدة وأكثر واحدة بقيت معه.

لقد كانت هناك ثلاثة أشياء تُميز كارولين عن غيرها.

أولاً، كانت فائقة الجمال - مزيج من الصفات الجسدية الذي كانت تتمتع به. وثانياً، كانت متألّقة وذكية. وكانت شهاداتها، واحدة من جامعة أدنبرة، والأخرى من كلية لندن في تاريخ القرون الوسطى والتاريخ القديم التطبيقي. أما أُطروحة الماجستير فكانت قد خصَّصَتْها لعصر نابليون وتأثيره على الفكر السياسي المعاصر، وخاصةً أثره على توحيد أوروبا. وأخيراً، كان يحب هذه المرأة بصدق. لقد كانت طرقها الحسية تُحفّزه بأشكال لم يكن ليعتقد بأنها ممكنة أبداً.

"لقد افتقدتُك ليلة أمس"، قالت له وجلست إلى الطاولة.

"لقد كنتُ على متن القارب".

"بدافع العمل أم التسلية؟"

لقد كانت تعرف مكانتها، وكان قد أعطاها هذه المكانة. ما من مشاعر غيرة. ما من مطالب. والغريب أنه لم يخدعها أبداً. وكان دائماً يتساءل ما إذا كانت تكنُّ له نفس الولاء. ولكنه كان يدرك أن طريق الخصوصية تتشعّبُ إلى فرعين. فكانا كلاهما حرّاً في أن يفعل ما يرضيه.

قال لها: "العمل"، ثم أضاف: "كالعادة".

ظهر خادمٌ ووضع صحناً على الطاولة أمامه. لقد كان يستمتع برؤية قلب نبتة الكرفس تحيط بها قطعة لحم مطهوة على نارٍ خفيفة في صلصة جبن التورتة التي كان يحبها.

فَرَدَ منديلَه ووضعه على حضنه ورفع شوكةً.

"لا، شكراً لك". قالت كارولين له. "لستُ جائعةٌ. لا أريد شيئاً منها".

انتبه إلى لهجة التهكّم ولكنه تابع الأكل. "أنتِ فتاةٌ ناضجة. أفترض أنك ستكونين قد جلبتِ شيئاً إن كنت تريدينه".

لقد كان عليها أن تدير العزبة، وكان طاقم الخدام بأكملهم تحت تصرفها. لم تَزُرْ زوجته ذلك المنزل منذ زمنٍ بعيد. والحمد لله. كانت كارولين، خلافاً لزوجته، تُعامِل الموظفين بمنتهى اللطف. كانت تقوم بعملٍ جيد حقاً إذ تعتني بالأمور، وكان هو يُقدّر كل ذلك.

"لقد كلتُ قبل ساعتين" قالت.

أنهى الكرفس الخاص به وكان مسروراً من طبق الطعام الذي أحضره الخادم. حجل مشوي مع مرق حلو. لقد أقرَّ باستمتاعه بالطعام من خلال إيماءة من رأسه وطلبه لقطعة أخرى من الزبدة.

"هل وجدتَ الذَّهب اللعين؟" سألته أخيراً.

لقد تعمّد أن يبقى صامتاً حول نجاحه في كورسيكا منتظراً أن تسأله. وكان ذلك بدافع رغبته في المزيد من المشاركة منها.

وكان يعلم أنها تحب ذلك أيضاً.

أمسك بشوكةٍ أخرى. "لقد كانت تماماً حيث قلتِ إنها ستكون".

لقد كانت كارولين هي التي اكتشفت الرابط بين غوستاف وكتب الكورسيكي والأعداد الرومانية. وهي التي اكتشفت أيضاً من بعض البحث الذي قامت فيه في برشلونة قبل بضعة أسابيع عقدة المغربي. لقد كان مسروراً لأن تكون كارولين إلى جانبه، وكان يعرف ما يُتَوقّع منه الآن.

"لقد أبقيتُ بضعة سبائك على حدة من أجلك".

أومأت برأسها دلالة التقدير والشكر. "وسأحرص على أن أقدّم لك أمسيةً لطيفةً الليلة".

"إذاً فسأتوقّع المزيد من الراحة والمتعة".

وَمَضَ السحرُ في ردائها إذ اقتربت من حافة الطاولة. "هذا يحل مشاكلك المالية".

"على مدى المستقبل المنظور. في تقديري أن الذّهب يُعادل حوالي مئة مليون يورو".

"وما قيمة بضعة السبائك الخاصة بي؟"

"مليون. ربما أكثر، هذا يعتمد على مدى تمتعي بهذه الأمسية هذه الليلة". ضحكت وقالت: " ما رأيك بتمثيلية؟ فتاة المدرسة التي تُرسَل إلى مكتب مدير المدرسة؟ كنا نتمتع بها دائماً".

لقد كان يشعر الآن بارتياح. فبعد سنتين كارثيتين، بدأت الأمور أخيراً تتحسّن بالنسبة إليه. لقد بدأ الوقت العصيب معه عندما بدأ أماندو كابرال

يهمل الأمور في المكسيك وكاد يجلب عليهما الدمار. لقد حل كابرال تلك المشكلة. ثم جاءت مجموعة من الاستثمارات البائسة، والأسواق المخفقة، وبعض الإهمال وعدم الانتباه كلّفه الملايين. وفي توقيتٍ مناسب نوعاً ما، ظهرت إليزا لاروك في عزبته وعرضت عليه الخلاص. لقد استنفد كل شيء لكي يجمع العشرين مليون يورو التي يحتاج إليها ليشتري العضوية في ذلك النادي، ولكنه تدبر ذلك الأمر.

وأخيراً صار لديه متّسع من الوقت ليلتقط أنفاسه.

أنهى طبق طعامه.

قالت كارولين: "لدي مفاجأة لك".

كانت تلك المرأة تركيبةً عجيبة. مومسٌ في جزءٍ منها، وأكاديمية في جزء آخر، وهي ماهرة في كلا الجانبين.

قال: "أنا في الانتظار".

"أعتقد أني قد اكتشفتُ رابطاً جديداً".

أدرك معنى التعبير الطريف في كلامها وسألها: "أتعتقدين؟"

"في الواقع، أعرف أنه لدي".

23

باريس

لحق سام بمالون عندما خرجا من المكتبة بعد ظهر ذلك اليوم المنعش. كان فودريل قد ابتعد من نهر السين واندس في شوارع الحي اللاتيني الفوضوية المحتشدة بالمحتفلين القاصفين المعربدين.

"لا يمكن أبداً أن تعرف إن كان أحدٌ يطاردك في هذا الحشد". قال مالون. "ولكنه يعرف وجوهنا، لذا دعنا نبقى إلى الوراء".

"إنه لا يبالي إن تبعه أحد على ما يبدو. فهو لم يلتفت إلى الوراء ولو مرة واحدة".

"إنه يعتقد أنه أكثر ذكاء وحنكة من الجميع".

"أهو ذاهب إلى مقهى آرجنت؟"

"وهل من مكان آخر؟"

حافظا على سرعة سير طبيعية، غائصين في حركة المد والجزر الجارفة في الأعمال التجارية السارية. الجبن، والخضروات، والفاكهة، والشوكولاتة، والأطعمة الأخرى، كانت معروضةً في صناديق خشبيةٍ، منثورةً في الشوارع. لاحظ سام سمكاً موضوعاً على ألواح جليدية متلألئة، ولحماً، بعظامه ومغلفاً، بارداً في أقفاصٍ مجلدةٍ. بعد ذلك رأى محل مثلجاتٍ يقدم الجيلاتي الإيطالي في تنوعٍ في النكهات المُغْرية.

بقي فودريل على مسافة مئة قدم أمامهما.

"ما الذي تعرفه حقاً عن هذا الفتى؟" سأله مالون.

"ليس الكثير. لقد تعرّف علي ربما منذ سنةٍ".

"ولعل هذا، بالمناسبة، سبباً آخر في أن وكالة الاستخبارات السرية لا تريدك أن تقوم بما تفعله. فهناك الكثير من المجانين، والكثير من المجازفات".

"إذاً فلماذا نحن هنا؟" سأل.

"لقد أراد هنريك منا أن نتواصل. أخبرني أنت، لماذا تسأل؟"

"هل أنت دائماً مرتابٌ؟"

"إنها عادةٌ صحيةٌ. عادةٌ تطيل حياتك".

تجاوزا مقاهٍ أخرى، ومعارض فنية، ومحلات ألبسة، ومحلات للتذكارات. كان سام منفعلاً. أخيراً ها هو في حقل العمل، يقوم بعمل العملاء.

قال مالون: "لنفترق. فإن فَعَلْنا ذلك تصبح لديه فرصة أقل في التعرف إلينا. هذا إن كان أساساً سيُزعج نفسه بالنظر إلى الوراء".

اندفع سام إلى أحد جوانب الشارع. كان قد درس المحاسبة في الجامعة وهو تقريباً محاسبٌ عامٌ مجاز. ولكن المجنِّد في الحكومة، الذي كان قد زار الحرم الجامعي خلال سنة التخرج، وجّهه نحو وكالة الاستخبارات السرية. وبعد التخرج، تقدّم للعمل في وزارة الخزينة ونجح في الامتحان إضافة إلى فحص كشف الكذب، وأكمل فحصاً جسدياً وفحص عيون وفحص المخدرات.

لقد نجح في كل تلك الفحوص ولكنه رُفِضَ.

بعد خمس سنوات قام بالأمر مرة أخرى، بعد عمله كمحاسب لصالح عدة مؤسسات وطنية، إحداها تعرّضت بشدة لفضيحة مالية كبيرة. خلال التدريب في وكالة الاستخبارات السرية كان قد تعلّم استخدام الأسلحة النارية، والإسعافات الطبية، وحماية الشهود، والكشف عن ملابسات الجرائم، وحتى الغطس في الماء. ثم عُيّن في مكتب فيلادلفيا الميداني، حيث عمل على قضايا إساءة استخدام بطاقات الاعتماد، والتزوير، وسرقة الهويات، والاحتيال المصرفي.

لقد سجّل علامات جيدة.

العملاء الخاصون يمضون أول ست أو ثماني سنين في مكتب ميداني. وبعد ذلك، واعتماداً على إنجازهم، يُنقلون إلى أعمال وقائية، حيث يبقون هناك لمدة ثلاث أو خمس سنوات. وبعد ذلك، يعود معظمهم إلى حقل العمل، أو يُنقلون إلى مركز القيادة، أو مكتب التدريب، أو مراكز أخرى مرتبطة بالعاصمة. كان يمكن أن يعمل في ما وراء البحار في أحد المكاتب الدولية،

لأنه كان طليقاً في استخدام اللغة الفرنسية والإسبانية.

كان الضجر هو السبب في تحوله إلى الإنترنت. لقد سمح له موقع الإنترنت الخاص به بأن يستكشف مجالاتٍ كان يريد أن يعمل عليها كعميل. التحري في جرائم الاحتيال الإلكترونية لم يكن له علاقة كبيرة بحماية الأنظمة المالية العالمية. لقد أمّن له موقع الإنترنت منتدىً يستطيع أن يعبّر فيه عن نفسه. ولكن نشاطاته غير الروتينية قد ضمنت له شيئاً ما كان لعمله كعميل أن يقدّمه له. أن يهتم بنفسه. لقد تم تأنيبه مرتين. وتجاهل رؤساءه مرتين. وفي المرة الثالثة تم استجوابه رسمياً، وذلك قبل أسبوعين، وهذا ما دفعه إلى الهرب، وصولاً إلى كوبنهاغن وثورفالدسن. وها هو الآن، في هذا القسم من باريس، المفعم بالحياة والمزدهي بالحركة، في يومٍ كانونيٍ بارد، يلاحق مشتبهاً به.

اقترب فودريل أمامهم من إحدى الحانات التي لا تُعد ولا تحصى في ذلك الحي حيث كانت هناك لافتة طريفة كُتب عليها مقهى آرجنت. أبطأ سام سرعته وراح يبحث في الحشود عن مالونٍ، فوجده على بعد 50 قدماً. اختفى فودريل عبر الباب الأمامي، ثم ظهر ثانيةً وقد جلس إلى طاولةٍ في الداخل متاخمة للنافذة الزجاجية.

سار مالون داخلاً. "أكلُّ جنون الارتياب ذاك وينتهي به الأمر لأن يجلس بشكلٍ يراه العالم كله فيه".

كان سام لا يزال يرتدي المعطف، والقفّازات، والوشاح الذي كان قد أعطاه إياه جسبر في الليلة الفائتة. أمكنه أيضاً أن يرى الجثتين. لقد ألقاهما جسبر بعيداً في البحر بدون مراسم دفن، وكأن القتل أمر روتيني، وربما كان الأمر كذلك بالنسبة إلى هنريك ثورفالدسن. لقد كان يعرف القليل فعلياً عن الدانماركي، إضافة إلى معرفته بأنه كان مهتماً بما كان سام يُفكر به.

وكان هذا أكثر مما يستطيع أن يقوله لشخصٍ آخر.

قال مالون: "هيا بنا".

دخلا الحانة المضاءة من الداخل بشكلٍ قوي، والمزخرفة منذ العام 1950 برسوم تستخدم الكروم والفينيل والنيون. كان الجو صاخباً ودخانياً. رأى سام فودريل يُحدِّق به، ويبدو واضحاً أنه عرف وجهيهما، وهذا ما كان متبدياً في تستّره.

سار مالون مباشرةً إلى حيث كان فودريل جالساً وسحب إحدى كراسي الفينيل. "هل اكتفيتَ من اللهو؟"

"أنّى لك أن تعرف من كون؟" سأله فودريل.

أشار مالون إلى الكتاب في خُرْج فودريل. "ينبغي عليك أن تخفي هذا. هلا نستغني عن هذه المسرحية وندخل في الموضوع مباشرةً؟"



راح ثورفالدسن يستمع في حين دقّت الساعة على رف المدفأة لتُعلن الثالثة والنصف، وتأكدت صحة هذه الساعة من دقات ساعات أخرى في كل أرجاء القصر. لقد كان يحرز تقدماً، حاشراً إليزا لاروك في زاويةٍ لا يكون لها فيها أي خيار سوى أن تتعاون معه.

قال موضحاً الأمور: "إن اللورد آشبي مفلس".

"هل لديك حقائق تبرهن ذلك؟"

"ما كنت لأتكلم لولاها".

"أخبرني عن الخرق الأمني الذي لديَّ".

"ومن أين تظنين أني عرفت ما أعرفه؟"

ألقت إليه نظرةً قويةً فاحصة. "آشبي؟"

هز رأسه. "ليس بشكلٍ مباشر. فنحن لم نلتقِ ولم نتكلّم أبداً. ولكن هناك آخرون تحدّث هو إليهم، أناسٌ تواصل معهم لأجل طلب المعونة المالية. لقد كانوا يريدون ضمانات بأنه سيُعيد القروض، ولذلك أعطاهم ضمانةً فريدةً من نوعها شرح فيها دوره في عملية سيشارك بها. لقد تكلّم عن أرباح هائلة سيتم تحقيقها".

"أوَلن تخبرني عن أية أسماء؟"

اتخذ وضعيةً صارمة، وقال: "لماذا سأفعل ذلك؟ وما سيكون نفعي عندئذٍ؟" لقد كان يعرف أنه ليس لديها من خيار سوى أن تقبل بعرضه.

"أنتَ مشكلة كبيرة، يا سيد ثورفالدسن".

ضحك وقال: "نعم أنا كذلك".

"ولكني بدأت أميل إليك".

"كنت آمل أن أجد أساساً مشتركاً بيننا". قال ذلك وأشار بيده إليها وهو يستأنف قائلاً: "كما ذكرتُ لك سابقاً، لقد درستُك بالتفصيل. وخاصة سلفك، بوزو دي بورغو. لقد وجدت أنه أمرٌ رائي كيف أن البريطانيين والروس قد استفادوا من معركة ثأره من نابليون. يروق لي ما قاله في العام 1811، عندما علم بولادة وريث للإمبراطور: "نابليون ماردٌ ينحني تحت السنديانة القوية في الغابة البدائية. ولكن يوماً ما أرواح الغابة ستنعتق من عبوديتها المذلة المهينة، وعندها سينهض شجر السنديان من تعثره ويرمي به أرضاً". إن في هذا كلاماً نبوئياً حقاً، وقد تحقق بالضبط فيما بعد".

لقد كان يعلم أن هذه المرأة تستمد قوتها من الإرث الذي لها. لطالما تحدَّثَتْ عنه بكثير من الكبرياء. وبهذه الناحية كانا متشابهين.

قالت: "خلافاً لنابليون، دي بورغو بقي وطنياً كورسيكياً حقيقياً. لقد أحب وطنه وكان دائماً يضع مصالح هذا الوطن أولاً. عندما احتل نابليون كورسيكيا في نهاية الأمر لصالح فرنسا، أُقصي اسم دي بورغو بشكل خاص من قائمة أولئك الذين حصلوا على العفو السياسي. ولذلك فقد لاذ بالفرار. وطارده نابليون في كل أرجاء أوروبا. ولذلك عمل دي بورغو على التفكير والتدبير والتخطيط من أجل التملص من الوقوع في الأسر".

"وفي نفس الوقت، تآمر في دهاءٍ لسقوط الإمبراطور. وكان عملاً بطولياً".

كان ثورفالدسن قد علم كيف مارس بوزو دي بورغو ضغطاً على المحكمة الفرنسية ومجلس الوزراء، مثيراً غيرة أشقاء وشقيقات نابليون العديدين، وكيف أصبح في نهاية الأمر قناةً لكل ولجميع المقاومات الفرنسيةِ. لقد خدم مع البريطانيين في سفارتهم في فيينا، وأصبح شخصيةً مقبولةً في دوائر النمسا السياسية. ثم سنحت له الفرصة المواتية عندما دخل إلى خدمة الدبلوماسية الروسية، كمفوّض للجيش الفرنسي. وفي نهاية الأمر، صار يد القيصر اليمنى في كل المسائل المرتبطة بفرنسا وأقنع ألكساندر بألا يُسالم نابليون. ولاثنتي عشرة سنةً ظلَّ مبقياً بمهارةٍ على فرنسا متورطةً في نزاع، وهو يعلم أن نابليون يمكن أن يحارب ويفوز، وعلى عدة جبهاتٍ. وفي نهاية الأمر نجحت جهوده، ولكن النجاح الذي حققه لم يأخذ ضجة كبيرة. فقلما

يذكره التاريخ. لقد مات في العام 1842 وهو مختل عقلياً ولكن بثروةٍ هائلةٍ جداً. وقد سُلِّمت أصوله بالوراثة إلى أولاد أخته والذي كان سلفُ إليزا لاروك أحدَهم، فهؤلاء ضاعفوا تلك الثروة مئات المرات من خلال تأسيس أحد أعظم الثروات في أوروبا.

"لقد حقّق دي بورغو الثأر حتى النهاية"، قال، "ولكني أتساءل، يا سيدتي، هل كان سلفك الكورسيكي، في كراهيته لنابليون، يُخفي هدفاً ما؟"

أبدت عيناها الباردتان نظرةً تدل على احترام. "لماذا لا تقول لي ما تعرفه لتوك".

"أنت تبحثين عن كنز نابليون المُخَبّأ. ولذلك فإن اللورد آشبي هو جزءٌ من مجموعتك. إنه - لنقل بتهذيب - مجرد هاوي جمع".

ابتسمت للعبارة. "يبدو أني ارتكبتُ خطأً كبيراً في أني لم أتعرّف عليك قبل فترةٍ طويلة".

ضحك ثورفالدسن ضحكةً خفيفة. "الحمد لله، أنا لا أحمل أي شكوى أو تذمر".

24

باريس

كان صبر مالون على جيمي فودريل قد بدأ ينفد. "ليس من داعٍ لكل هذه السرية الكاملة. من الذي يطاردك؟"

"ليس لديك فكرة عن الأشخاص الكثر الذين أغضبتُهم".

أزال مالون مخاوف الشاب. "أخبارٌ لا طعم لها. ما من أحدٍ يهتم. لقد رأيت ما في موقعك الإلكتروني. إنها مجموعةٌ من الترهات. وبالمناسبة، هناك دواءٌ يمكنك أن تأخذه سيريحك من جنون الارتياب".

نظر فودريل إلى سام وجهاً لوجه. "قلت إن لديك شخصاً يريد أن يعرف. شخصاً له فكرٌ منفتح. ولا أظن أنك تقصد هذا الشاب، أليس كذلك؟"

قال مالون: "هات علِّمني".

انفرجت شفتا فودريل فبدت وراءهما سنٌّ ذهبيةٌ. "الآن، أنا جائع".

أشار فودريل إلى نادل. راح مالون يُصغي بينما كان الشاب يطلب كِلى عِجلٍ مقلية بصلصة الخردل. مجرد فكرة ذلك الطعام كادت تقلب معدته. وكان يأمل أن ينهوا كلامهم قبل أن يصل الطعام. ولم يشأ أن يطلب شيئاً لنفسه.

قال سام: "أنا سأتناول لحم بقر مقلي".

مالون: "لماذا؟"

"أنا أيضاً جائع".

فهز رأسه.

انصرف النادل، فسأل فودريل ثانية: "لماذا أنت خائف إلى هذه الدرجة؟"

"هناك بعضٌ من ذوي النفوذ في هذه البلدة يعرفون كل شيءٍ عني".

قال مالون بينه وبين نفسه أنه يحسن به أن يترك هذا المغفل يتكلم. ففي مكانٍ ما، وبشكلٍ ما، سيتعثر بدون قصد بحقيقةٍ أو أكثر.

"إنهم يجعلوننا نتبعهم" قال فودريل. "حتى ولو كنا لا نعرف ذلك. إنهم

يخلقون سياسة، ولا نعرفها. إنهم يخلقون حاجاتٍ ويمتلكون الوسائل لإرضائها، ولا نعرف ذلك. إننا نعمل لصالحهم، ولا نعلم ذلك. إننا نشتري منتجاتهم، و-"

فسأله: "من هم هؤلاء؟"

"أناسٌ مثل الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي. أحد أقوى المجموعات في العالم".

كان يعلم أنه لا ينبغي أن يسأل، ولكنه سأله: "لماذا تقول ذلك؟"

"ظننتُ أنك قلت إن هذا الشاب ذكي"، قال فودريل لسام. "ولكنه لا يعرف أي شيء".

فأجاب مالون: "أُنظر. لقد كنتُ في قسم الجرائم، أموري تتعلق بالمنطقة 51، خلال بضعة السنوات الأخيرة. والتعاملات المالية جديدةٌ بالنسبة إلي".

أشار فودريل بإصبعٍ متوترة. "حسناً. أنت رجلٌ مضحك. أتعتقد أن هذه مزحة كبيرة".

"لماذا لا تُعَبّر لي عما في نفسك؟"

"إن الاحتياطي الفيدرالي يحقق أرباحاً من الهواء. ثم يقرضونه بفائدةٍ إلى أمريكا ويستعيدونه من دافعي الضرائب مع أرباح. أمريكا تدين للاحتياطي الفيدرالي بالتريليونات فوق التريليونات. مجرد فائدة الفائدة السنوية، والتي هي بالمناسبة تخضع لمستثمرين خاصين، تعادل أو تفوق ثروة أغنى إنسانٍ في هذا الكون بثمانية أضعاف. لن أدفع لهم شيئاً أبداً. أُناسٌ كثيرون يصلونَ إلى ثراءٍ فاحشٍ من وراء ذلك الدَّين. وهذه كلها خديعة. إذا طبعتَ أنت أو أنا نقوداً، ثم أقرضناها، فإننا نذهب إلى السجن".

تذكّر مالون شيئاً كان قد قرأه سابقاً على موقع الإنترنت لفودريل. يفترض هذا الموقع أن جون كنيدي كان قد أراد أن يضع حداً للاحتياطي الفيدرالي ووقع مرسوماً حصرياً رقمه 11110، يأمر الحكومة الأمريكية بأن تستعيد زمام السيطرة على مال الأمة من الاحتياطي. وبعد ثلاثة أسابيع، كان كنيدي ميِّتاً.

وعندما استلم ليندون جونسون المنصب، أبطل في الحال ذلك المرسوم. لم

يسمع مالون أبداً مثل هكذا اتهام من قبل، ولذلك فقد تحقق أكثر وقرأ عن المرسوم الحصري رقم **11110**، ليجده أمراً إدارياً غير ضار وبالعكس فإن تأثيره، عندما يُنَفَّذ، سيُقوي فعلياً ولن يُضعف النظام الفيدرالي الاحتياطي. فكل علاقةٍ بين توقيع ذلك المرسوم واغتيال كنيدي كانت مجرد صدفةٍ. وجونسون لم يُبطل المرسوم. بل بالعكس، لقد تم التخلص منه بعد عقودٍ لاحقاً مع جمهرةٍ من القوانين القديمة الأخرى.

وهذا هراءٌ جديد من وحي نظرية المؤامرة.

قرر أن يدخل في الموضوع مباشرةً. "ما الذي تعرفه عن النادي الباريسي؟"

"ما يكفي لأن أعرف أننا يجب أن نخاف".



نظرت إليزا إلى ثورفالدسن وقالت: "هل تساءلت يوماً ماذا يُمكن للمال أن يفعل حقاً؟"

ضحِك ضيفها ضحكةً خافتة. "لقد جمَعَتْ عائلتي ثروةً كبيرة، عبر زمنٍ طويل، ولم أفكّرْ بذلك أبداً. ولكن بالتأكيد يمكن أن يُقدّم القوة، والنفوذ، وحياةً مريحة".

تظاهرت بالهدوء. "أستطيع أن أفعل أيضاً أشياء أكثر بكثير. ويوغوسلافيا هي مثالٌ مناسب ممتاز عن ذلك".

رأت أنه كان مُحبّاً للاطلاع.

"من المفترض، في الثمانينيات، أن دول يوغسلافيا كانت ذات نظام فاشِستي استبدادي ارتكب جرائم ضد الإنسانية. بعد انتخاباتٍ حرةٍ في العام **1990** اختار شعب صربيا الحزب الاشتراكي، بينما اختار الناس من بقية جمهورية يوغسلافيا إيجاد حكوماتٍ مؤيدةٍ للغرب. وفي نهاية الأمر، شنَّت الولايات المتحدة حرباً على صربيا. قبل ذلك، رأيتُ السياسة العالمية تدريجياً تُضعف يوغسلافيا، التي كانت في ذلك الوقت صاحبة أفضل اقتصاد في أوروبا الشرقية. الحرب الأمريكية الصربية، وما تلا ذلك من تفكيك ليوغسلافيا، دمَّر أي فكرة بأن اقتصاداً اشتراكياً كان يُمكن أن يكون أمراً صالحاً".

"لقد كانت صربيا مستبدةً وخطرةً بشكلٍ واضح"، قال ثورفالدسن.

"من يقول ذلك؟ وسائل الإعلام؟ هل كانوا أكثر استبداداً مما يُقال عن كوريا الشمالية، والصين، وإيران؟ مع ذلك فما من أحدٍ يؤيد الحرب ضد هؤلاء. "خذ عود ثقابٍ وأشعل ناراً في الغابة". هذا ما أخبرني به أحد الدبلوماسيين في ذلك الوقت. العدوان على صربيا كانت تؤيده بقوةٍ وسائل الإعلام السائدة، مع القادة النافذين في كل أرجاء العالم. ذلك العدوان استمر لأكثر من عشر سنوات. وهذا ما جعل الأمر أكثر سهولة، ولكن أقل تكلفةً، أن تشتري الاقتصاد اليوغسلافي السابق بأكمله".

"هل هذا ما حدث؟"

"أعرف الكثير من المستثمرين الذين استفادوا بشكلٍ كاملٍ من تلك الكارثة".

"أتقولين إن كل ما حدث في صربيا كان مرسوماً ومُخطَّطاً له؟"

"نوعاً ما. ليس عملياً، ولكن تكتيكياً بالتأكيد. ذلك الوضع برهن أن من المحتمل أو المعقول أن تستفيد من أحوالٍ منهارة أو حالات انهيار. هناك فائدة في النزاعات السياسية والقومية، آخذين بعين الاعتبار، بالطبع، أن النزاع ينتهي في نقطةٍ ما معينة. فعندها فقط تبدأ باسترجاع أي استثمارٍ كنت قد قمت به".

كانت تستمتع بمناقشة نظريتها. نادراً ما كانت تُتاح لها الفرصة لتعبّر عن رأيها هذا. ما كانت تقول ما تدان عليه أو يُعتبر جريمة، بل كانت تُكرر فقط ملاحظاتٍ وتعليقاتٍ قالها الكثيرون مِمَّن لهم علاقة بالاقتصاد والتاريخ قبل زمنٍ طويل.

قالت: "كان آل روتشايلد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ضليعين في هذه التقنيات. لقد تدبّروا أمرهم ليلعبوا على كِلا الطرفين، محقّقين فوائد هائلةً في نفس الوقت عندما تحارَبَ الأوروبيون مع بعضهم البعض كمثل أطفالٍ يتقاتلون على أرض ملعب. كان آل روتشايلد أثرياء، ولهم مكانة دولية، ويتمتعون بالاستقلال. وهذه ميزاتٌ ثلاثٌ خطِرةٌ. فالحكومات الملكية ما كانت تستطيع أن تسيطر عليهم. والحركات المنتشرة كانت تكرههم، لأنهم لم يكونوا مسؤولين أمام الشعب. وأصحاب المؤسسات كانوا يستاؤون منهم لأنهم كانوا يعملون في السر".

"أهذا ما تحاولين أن تفعليه؟"

"السرية أمرٌ أساسي لنجاح أيِّ عصبةٍ. أنا متأكدة، يا سيد ثورفالدسن، أنك تفهم كيف يمكن للأحداث أن تسير بهدوء بمجرد منح أو كبح التمويل، أو التأثير على انتخاب الموظفين الأساسيين، أو مجرد الحفاظ على تواصل يومي مع صُنّاع القرار. أن تكون وراء الكواليس يقيك وطأة الغضب الجماهيري، الموجّه، كما يجب أن يكون، لكشف شخصياتٍ سياسيةٍ بارزة".

"الذين هم مسيطرون بشكلٍ كبير".

"كأنك تعرف الكثير من الأمور". كانت في حاجةٍ لأن توجه مسار الحديث إلى النقطة التي تريد. "أفترض أنك تستطيع أن تقدم دليلاً على خيانة لورد آشبي؟"

"في الوقت الملائم".

"وإلى أن يحين ذلك، سأثق بصدق ما قلته عن تصاريح اللورد آشبي لأولئك المموّلين المجهولين، أليس كذلك؟"

"ما رأيك في ذلك. اسمحي لي أن أنضم إلى مجموعتك وسنكتشف معاً إذا ما كنتُ جديراً بالثقة أو كاذباً. إن كنتُ كاذباً، يمكنكِ أن تحتفظي برسم عضويتي البالغ عشرين مليون يورو".

"ولكن السرية لدينا يجب تسويتها".

"إنها كذلك بالفعل".

كان ظهور ثورفالدسن المفاجئ مُثيراً للأعصاب، ومع ذلك فكأنه كان لُقيةً من السماء. لقد كانت تعني ما قالته لماستروياني - بأنها كانت تؤمن بالقدر.

"لعل هنريك ثورفالدسن كان مُقدَّراً له أن يكون جزءاً من قدرها؟"

سألته: "هل أريك شيئاً؟"



كان مالون يراقب بينما عاد النادل وهو يحمل زجاجات الماء وطعام الإفطار. لم تبهره أبداً المطاعم الفرنسية. فكل المطاعم التي كان قد زارها كانت إما مرتفعة الأسعار أو مُبذخة أو كليهما.

"هل تُحب فعلاً الكِلى المقلية؟" سأل فودريل.

"ما الخطب فيها؟"

ما كان ليريد أن يشرح الأسباب العديدة التي تمنعه من تناول طعام مؤلف من عضو غايته أن يخلّص الجسم من البول. وبدلاً من ذلك فقد قال: "أخبرني عن النادي الباريسي".

"أتعرف من أين جاءت الفكرة؟"

رأى أن فودريل كان يستمتع بحالته الفوقية. "لقد كنتَ مبهماً قليلاً حول هذا الموضوع في موقعك الإلكتروني".

"إنها من نابليون. بعد احتلاله لأوروبا، ما كان يريده فعلاً هو أن يستقر وأن يتمتع بما حققه. ولذلك فقد جمع مجموعةً من الناس وشكّل النادي الباريسي، الذي كان مُصمماً لتسهيل حكمه. ولكن لسوء الحظ، لم يستطع أن يستثمر الفكرة - فقد كان منشغلاً بالحرب تلو الأخرى".

"رغم أنه كما تقول كان يريد أن يوقف الحروب؟"

"لقد فعل، ولكن الآخرين كانت لديهم أفكارٌ أخرى مختلفة. فكان إبقاء نابليون في حالة حرب دائمة هو أفضل طريقة لإبقائه بعيداً عن الأمان والاحتراس. كان هناك أناسٌ يحرصون على إبقاء مجموعة من الأعداء على عتبة بابه. لقد حاول أن يصنع سلاماً مع روسيا، ولكن القيصر أخبره أن ينسى الأمر. ولذلك فقد غزا روسيا عام 1812، هذا الفعل الذي كلّفه كل جيشه تقريباً. وبعد ذلك، كان انهياره برّمته. فبعد ثلاث سنوات، قالوا له: وداعاً. لقد خُلِع".

"لا أفهم شيئاً من ذلك".

ثبَّت فودريل نظره إلى خارج النافذة، وكأن شيئاً استرعى انتباهه فجأةً.

سأله مالون: "هل من مشكلة؟"

"إني أتحقق وحسب".

"لماذا تجلس قرب النافذة حتى يراك الجميع؟"

"أنت لم تفهم ذلك، أليس كذلك؟"

أوضح السؤال انزعاجاً متنامياً من استغفاله، ولكن ما كان مالون يستطيع أن يُقلل من الاهتمام.

" أحاول أن أفهم".

"بما أنك قرأت الموقع الإلكتروني، فلا بد أنك تعرف أن إليزا لاروك قد أنشأت نادياً باريسياً جديداً. نفس الفكرة. ولكن الزمن مختلف، مع أُناسٍ مختلفين. إنهم يجتمعون في مبنى في شارع لارينييه. أعرف ذلك بكل تأكيد. لقد رأيتهم هناك. أعرف شخصاً يعمل لصالح أحد هؤلاء الأعضاء. لقد تواصل معي عبر الموقع الإلكتروني وأخبرني بذلك. هؤلاء الناس يُدبّرون مكيدةً. سيفعلون ما كانت عائلة روتشايلد تفعل قبل مئتي سنة، وما كان نابليون يريد أن يفعل. إنها مؤامرةٌ كبيرة. ها هو نظام العالم الجديد يتنامى. والاقتصاد هو سلاحٌ في يدهم".

كان سام يجلس ساكناً خلال الحوار. أدرك مالون أن عليه أن يفهم أن جيمي فودريل قد أوجد شكلاً بعيداً جداً عن الواقعية. ولكنه لم يستطع أن يقاوم. "بالنسبة لشخصٍ يخاف كثيراً، أنت لم تسألني عن اسمي".

"كوتون مالون. لقد أخبرني سام عن ذلك ببريده الإلكتروني".

"أنت لا تعرف شيئاً عني. ماذا لو كنت هنا لأقتلك؟ كما تقول، إنهم في كل مكان، يراقبون. إنهم يعرفون ما تضع على موقعك الإلكتروني، وأي كتبٍ تقتني من المكتبة، وزمرة دمك، وتاريخك الطبي، وأصدقاءك".

راح فودريل يمعن النظر في الحانة، والطاولات المزدحمة بالزبائن الدائمين، ورأى كأن المكان قفصٌ. "عليَّ أن أذهب".

"وماذا عن طعامك من الكِلى المقلية؟"

"تناوله أنت".

هبَّ فودريل واقفاً عن الطاولة واندفع بسرعةً نحو الباب.

قال سام: "لقد كان يستحق ذلك".

راح مالون يراقب بينما خرج الأبله بسرعةٍ من المطعم، وراح ينظر إلى الرصيف المحتشد، ثم اندفع إلى الأمام. لقد كان عليه أن يغادر أيضاً. وخاصة قبل أن يصل الطعام.

ثم استرعى شيءٌ انتباهه.

كان ذلك عبر الشارع المزدحم المخصص فقط للمشاة، عند أحد الأكشاك الفنية.

رجلان يرتديان معاطف صوفيةٍ داكنة اللون.

اِنتبها مباشرةً عندما ظهر فودريل. ثم تابعاهُ بنظرهما، وسارا خلفه بسرعةٍ، وأيديهما في جيوبهما، منطلقين وراء جيمي فودريل بسرعةٍ كبيرة.

قال سام: "إنهم ليسوا سُيّاحاً".

"لقد حزرت".

25

قصر سالن

قاد آشبي كارولين عبر دهاليز متاهة شبكة الطرق في الطابق الأرضي إلى الجناح الذي يقع في أقصى الشمال من القصر. وهناك دخلا إحدى الردهات العديدة التي تُفضي إلى حجرة مكتب كارولين. وفي الداخل، كانت الكتب والمخطوطات مبعثرةً على عدة طاولاتٍ مصنوعةٍ من خشب السنديان. وكانت معظم المجلدات التي تعود إلى أكثر من مئتي سنة، قد اشتُريت بسعرٍ كبير، وكانت موجودة ضمن مجموعاتٍ شخصية في أماكن مختلفة يصل بعضها إلى أستراليا. والبعض سُرِقَ على يد السيد غيلدهول. وكانت جميع هذه الكتب تتمحور حول نفس الموضوع.

نابليون.

"وجدتُ المرجع البارحة"، قالت كارولين وقد بحثت وسط أكوام الكتب. "في أحد الكتب التي اشتريناها في أورليانز".

خلافاً لآشبي، كانت كارولين طليقةً في الفرنسية القديمة والحديثة كليهما.

"إنها رسالةٌ تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد كتبها جنديٌّ بريطاني خدم في جزيرة القديسة هيلانة. يروق لي هؤلاء الناس الذين كانوا يُعجبون بنابليون. لقد كان الأمر يتجاوز مسألة عبادة البطل، إذ إنهم كانوا يرون أنه لا يمكن أن يرتكب خطأً. وهذه الرسالة قد كتبها بريطاني، وليس سواه".

ناولَتْه الكتاب. كانت قصاصات الورق تنتأ من الصفحات المُعلّمة ذات الأطراف البالية. "هناك الكثير من هذه الروايات لدرجةٍ أنه يَصعب أن نأخذ أياً منها على محمل الجدّ. ولكن هذه الرواية شيِّقة فعلاً".

أرادها أن تعرف أنه هو أيضاً اكتشف شيئاً: "في الكتاب الذي من كورسيكا الذي أفضى إلى معرفة مكان الذهب كانت هناك ذكرٌ لسينس".

أشرق وجهها وقالت: "حقاً؟"

"خلافاً لما يمكن أن تعتقدي، أستطيع أنا أيضاً أن أكتشف أشياء".

اِبتسمت ابتسامة عريضة. "وأنّى لك أن تعرف بماذا أفكر؟"

"ليس من الصعب أن أدرك ذلك".

كان قد أخبرها عن مقدّمة الكتاب وما كان سانت دينيس قد ورَّثه إلى مدينة سينس، وخاصةً ذكره المُعيَّن لأحد الكتب الذي كان اسمه: " الممالك الميروفنجيّة 751-450، ميلادية".

رأى شيئاً مهماً بخصوص ذلك العنوان. وفي الحال، خطت نحو كتابٍ آخر على الطاولة وراحت تُنَقِّب بينٍ أكداس أخرى من الكتب. رؤيتها هكذا، منغمسةً في تفكيرها، ولكن مرتديةً ثياباً مثيرةً، أشعل مشاعره.

"ها هو"، قالت. "كنت أعلم أن ذلك الكتاب مهم. إنه عن وصية نابليون. المادة السادسة تقول: أربع مئة كتاب، المختارة من أولئك الذين في مكتبي والذين اعتدتُ أن أستخدمهم أكثر، بما فيها نسختي من كتاب "الممالك الميروفنجيّة 751-450، ميلادية". أطلب من سانت دينيس أن يُعنى بها وأن يعطيها لاِبني عندما يبلغ السادسة عشر من العمر".

لقد كانا يجمعان ببطءٍ قِطع أحجيةٍ لم تُحلَّ بطريقةٍ ارتجاعية.

"لقد كان سانت دينيس مخلصاً". قالت. "نعلم أنه حفِظ بكل أمانةٍ تلك الكتب الأربع مئة. وبالطبع، لم يكن هناك طريقة لتسليمها. لقد عاش في فرنسا بعد موت نابليون، وكان الابن قد بقي سجيناً في النمسا حتى وفاته في العام 1832".

"لقد مات سانت دينيس عام 1856"، قال، وقد استعاد في ذاكرته ما قد قرأ. "بعد خمسٍ وثلاثين سنةً من تخزينه لتلك الكتب. لقد قدّمهم في وصيته إلى مدينة سينس".

رمقته بنظرةٍ ماكرة. "هذا الشيء يكلّفك، أليس كذلك؟"

"أنتِ تكلّفينني".

أشارت إلى الكتاب الذي كان يحمله. "قبل أن أُنجز لك مسؤولياتي كخليلة، اقرأ ما تجده عند العلامة الأولى. أعتقد أن فيها ما سيزيد من استمتاعك".

فتح الكتاب. رقائق من جلدٍ جافٍ من جلدة الكتاب الهش تبعثرت إلى الأرض.

الأب بونافيتا، الكاهن الأكبر سناً بين كهنة جزيرة القديسة هيلانة، أصابه شلل لبضعة أشهر لدرجة اضطر معها إلى أن يلازم غرفته ولا يغادرها. في أحد الأيام أرسل نابليون في طلبه، وشرح له أنه يُفَضَلُّ بالنسبة له أن يكون أكثر تواصلاً وانتباهاً إلى نفسه لكي يعود إلى أوروبا بدلاً من أن يبقى في جزيرة القديسة هيلانة، التي ما كان الطقس فيها ليناسبه، بينما الجو في إيطاليا كان سيُطيل عمرَه. كان لدى الإمبراطور رسالة كتبها إلى عائلته الإمبراطورية يطلب منها دفع تعويض للكاهن يبلغ ثلاثة آلاف فرنك. عندما شكر الأبُ الإمبراطورَ على طيبته عبَّر له عن أسفه في أنه لن يستطيع أن يُكَرِّس بقية أيام حياته لأجله. وقبل أن يغادر الجزيرة، قام بونافيتا بزيارةٍ سريعةٍ إلى الإمبراطور، الذي أعطاه تعليماتٍ عديدةٍ ورسائل لينقلها إلى عائلة الإمبراطور والى البابا.

"لقد كان نابليون مريضاً لتوه عندما غادر بونافيتا جزيرة القديسة هيلانة"، قالت كارولين. "وقد مات بعد بضعة أشهر. لقد رأيت الرسائل التي أراد نابليون تسليمها لعائلته. إنها في متحف في كورسيكا. لقد قرأ البريطانيون كل شيء كان يأتي إلى أو من جزيرة القديسة هيلانة. تلك الرسائل كانت تُعتبر غير ضارة، وغير مؤذية، ولذلك فقد سمحوا للأب (الكاهن) أن يأخذها".

"وما الخاص جداً بهذه الرسائل الآن؟"

"أتريد أن ترى؟"

"ألديكِ هذه الرسائل؟"

"لديَّ صور. ما كان ليمكن أن أذهب لكورسيكا وأن أعود بدون أن آخذ صوراً لها. لقد أخذتُ عدة لقطاتٍ عندما كنت أقوم ببحثٍ هناك العام الماضي".

أمعن النظر إلى أنفها وذقنها الفاتنين وحاجبيها المرتفعين، ورأى انتفاخ نهديها. شعر برغبةٍ شديدةٍ فيها.

ولكن لكل شيءٍ أهميته وأولويته.

قالت له: " لقد جلبتَ لي سبائك ذهبيةً. والآن لديَّ شيء لك". رفعت صورة رسالةٍ مؤلفةٍ من صفحةٍ واحدة، مكتوبةٍ بالفرنسية. وسألته: "هل تُلاحظ شيئاً؟"

نظر بإمعان إلى المخطوطة المُثلّمة.

قالت: "تذكر. إن خطّ يد نابليون كان شنيعاً. وسانت دنيس أعاد كتابة كل شيء. والجميع في جزيرة القديسة هيلانة كانوا يعلمون بذلك. ولكن هذه الرسالة هي أبعد ما تكون عن الأناقة. لقد قارنتها مع الكتابة التي نعلم أنها بخط قلم سانت دينيس".

لاحظ التوهُّج اللعوب في عينيها.

"هذه كتبها نابليون بنفسه".

"أهي ذات أهمية؟"

"لا شك. لقد كتب هذه الكلمات بدون تدخل سانت دينيس. وهذا ما يجعل الأمر أكثر أهمية، رغم أني لم أُدرك أهمية ذلك من قبل".

تابع النظر إلى الصورة. "ما الذي تقول هذه الرسالة؟ إن لغتي الفرنسية ليست جيدة كلغتك".

"إنها مجرد ملاحظة شخصية. يتحدث في الرسالة عن حبه وإخلاصه وكيف أنه اشتاق لابنه كثيراً. ما من شيءٍ يُثير الريبة لأي بريطانيٍ فضولي".

سمح لنفسه بأن يُبدي ابتسامةً عريضة وأن يضحك بينه وبين نفسه. "لماذا لا تشرحين فكرتك، وهكذا نستطيع أن ننتقل إلى شؤوننا الأخرى".

أخذت منه الصورة وأراحته منها ووضعتها على الطاولة. وأخذت مسطرة ووضعت الجزء المستقيم منها تحت أحد الأسطر في النص:

dESIR PROFOd dE SAVOIR QUE VOUS

وسألته: "هل ترى؟ إنها تصبح أوضح إن وضعت المسطرة تحت السطر".

ورأى ما كان مكتوباً. كانت بضعةٌ من الأحرف مرتفعةً عن الأخرى. وكانت الأحرف مصطفةً هناك.

"إنها شيفرةٌ استخدمها نابليون"، قالت. "البريطانيون في جزيرة القديسة هيلانة لم يلاحظوا شيئاً أبداً. ولكن عندما وجدتُ تلك الرواية عن كيف أرسل نابليون الرسائل عن طريق هذا الكاهن، تلك الرسائل التي كتبها بنفسه، بدأتُ أنظر إلى الموضوع بإمعانٍ أكثر. فهذه هي الرسالة الوحيدة التي فيها أحرفٌ

مرتفعة".

"كيف نقرأ الكلمات الآن إذاً؟"

"psaume trente et un".

واستطاع أن يترجمها إلى "المزمور 31"، رغم أنه لم يفهم المغزى من ذلك.

قالت: "إنه إشارة واضحة لآيات معينة. وها هو النص لدي". ورفعت كتاباً مُقدساً مفتوحاً عن الطاولة. "أَمِلْ إِلَيَّ أُذْنَكَ. سَرِيعاً أَنْقِذْنِي. كُنْ لِي صَخْرَةَ حِصْنٍ بَيْتَ مَلْجَأٍ لِتَخْلِيصِي. لأَنَّ صَخْرَتِي وَمَعْقِلِي أَنْتَ. مِنْ أَجْلِ اسْمِكَ تَهْدِينِي وَتَقُودُنِي. أَخْرِجْنِي مِنَ الشَّبَكَةِ الَّتِي خَبَّؤوهَا لِي لأَنَّكَ أَنْتَ حِصْنِي". هذا يلائم وضع نابليون في المنفى تماماً. والآن أصغِ إلى هذا الجزء: "لأَنَّ حَيَاتِي قَدْ فَنِيَتْ بِالْحُزْنِ وَسِنِينِي بِالتَّنَهُّدِ. ضَعُفَتْ بِشَقَاوَتِي قُوَّتِي وَبَلِيَتْ عِظَامِي. عِنْدَ كُلِّ أَعْدَائِي صِرْتُ عَاراً وَعِنْدَ جِيرَانِي بِالْكُلِّيَّةِ وَرُعْباً لِمَعَارِفِي الَّذِينَ رَؤونِي خَارِجاً هَرَبُوا عَنِّي. نُسِيتُ مِنَ الْقَلبِ مِثْلَ الْمَيْتِ".

قال: "إنها تَفجّعٌ صادرٌ عن شخصٍ مهزوم".

"ولكن في الوقت الذي كتب فيه الرسالة كان يعرف أن نهايته كانت وشيكةً".

وهنا نظر إلى نسخة وصية نابليون، الموضوعة على الطاولة. "واذاً فقد ترك الكتب لسانت دنيس وأخبره أن يحتفظ بها إلى أن يصبح ابنه في السادسة عشر. ثم ذكر الكتاب بالتحديد وأرسل رسالةً مشفّرةً تُعبّر عن تأسفه على نفسه".

"الكتاب عن الممالك الميروفنجية"، قالت، "يمكن أن يكون المفتاح".

وافقها الرأي. "يجب أن نجده".

خطت مقتربةً منه، وأحاطت عنقه بذراعيها، وقبّلته. "آن الأوان لأن تهتم بخليلتك".

بدأ بالتكلم، ولكنها أسكتته بأن وضعت إصبعها على شفتيه.

"فيما بعد. سأخبرك أين يوجد الكتاب".

26

باريس

لم يصدّق سام أن رجلين كانا يطاردان جيمي فودريل بالفعل. لقد كان مالون مُحِقّاً في تهجّمه في تلك الحانة على ذلك الأبله المتحذلق. لقد كان يتساءل إذا ما كان رؤساؤه في وكالة الاستخبارات السرية ينظرون إليه بنفس الطريقة المرتبكة. لم يكن مغالياً جداً أو مرتاباً كثيراً، رغم أنه تحدَّى السلطة ودافع عن آراء مشابهة. ثمَّة شيء عنه وعن القوانين لم يكن متطابقاً.

حافظ هو ومالون على سرعة سيرهما في منطقةٍ من الشوارع المُلتزَّة المكتظّة برؤوسٍ مختبئة في معاطف وكنزاتٍ ثقيلة. كانت المطاعم تُشجّع البرد، وتنادي بلائحة طعامها، محاولةً اجتذاب الآكلين. أحسَّ بنكهة الضوضاء، والروائح والحركات، وراح يقاوم تأثيرها المُنوِّم.

"من تظن هذان الشخصان؟" سأل أخيراً.

"هذه هي مشكلة العمل الميداني، يا سام. لا يمكنك أن تعرف. إنه مجرد ارتجال".

"هل من الممكن أن يكون هناك أشخاص آخرون غيرهما في الجوار؟"

"لسوء الحظ، ما من طريقة يمكن أن نعرف ذلك وسط كل هذه الفوضى".

تذكّر الأفلام والمسلسلات التلفزيونية حيث كان البطل دائماً يبدو وكأنه يستشعر الخطر مهما كان ازدحام الحشود أو مهما كان ذلك الخطر بعيداً. ولكن في الهرج والمرج الذي ينقضّ عليهما من كل زاوية، أدرك أنه ما من وسيلة لإدراك أي شيء إلى أن يصبح التهديد فوقهما مباشرةً.

تابع فودريل سيره.

في الأمام كانت طريق المشاة فقط تؤدي إلى طريقٍ عام مكتظ اسمه بولفار سان جيرمان - تحتشد فيه السيارات والحافلات. توقف فودريل إلى أن أضاءت إشارة مرور قريبة تدل على وجوب وقوف حركة السير، فاندفع عبر الخطوط الأربعة وقد احتشد الناس من حوله.

تبعه الرجلان.

قال مالون: " هيا بنا".

سارعا الخطو إلى الأمام، فوصلا إلى حاجزٍ حجريٍّ عند إشارات المرور إلى يمينهم التي تحولت إلى اللون الأخضر. لمٍ يتوقفا، بل اندفعا كالسهم عبر البولفار، ليجدا أن الجانب الآخر من الطريق كان فيه سيارات تحثّهم على العبور سريعاً، مع أصواتٍ صاخبةٍ.

قال سام: "لنقطع الطريق بسرعة".

"لا يجب أن نفقدهما".

كانت حافة الرصيف الداخلية يحاذيها جدارٌ حجريٌّ مرتفع حتى الخصر يدعمه سياجٌ معدنيٌّ مزخرف. كان الناس يسرعون في كلا الاتجاهين، ووجوههم مفعمةٌ بالحيوية.

أما ولم تكن لديه عائلة، فقد اعتاد سام على أن يُمضي عطلة العيد لوحده. كان قد أمضى أعياد الميلاد الخمسة الماضية على شاطئ فلوريدا، وحده. لم يعرف والديه أبداً. لقد تربّى في مكانٍ يدعى "معهد الطهو" – كاسمٍ ملطَّفٍ لميتم. لقد جاء إلى هذا الميتم وهو طفلٌ رضيع، وكان آخر يوم له فيهٍ هو قبل أسبوع من عيد ميلاده الثامن عشر.

سأل: "ألديَّ خيار؟"

"نعم". قال نورستروم.

"منذ متى؟ ليس هنا أي شيء سوى القوانين".

"تلك كانت من أجل الأطفال. أما أنت فقد صرت رجلاً، وحراً في أن تحيا حياتك كما ترغب".

"أهكذا؟ أيمكنني أن أذهب؟ إذاً وداعاً. أراك لاحقاً".

"إنك لا تدين لي بأي شيء يا سام ".

لقد كان مسروراً لسماع ذلك. فلم يكن لديه شيءٌ ليقدِّمه.

قال نورستروم: "إنه خيارك. الأمر بسيط. يمكنك أن تبقى وتصبح جزءاً أكبر من هذا المكان. أو يمكنك أن تغادر".

ولذلك لم يكن هناك خيار. "أريد أن أذهب".

"كنت أعتقد أنك ستبقى".

"لستُ ناكراً للجميل أو جاحداً. كل ما هنالك هو أني أريد أن أذهب. لقد اكتفيت من..."

"القوانين".

"هذا صحيح. يكفيني قوانين".

لقد كان يعرف أن الكثير من المعلِّمين والمشرفين هناك كانوا أيضاً قد تربُّوا في ذلك المكان كأيتام. وكان هناك قانون آخر يُحظِّر عليهم أن يتكلموا عن ذلك. وبما أنه كان مغادراً فقد قرر أن يسأل: "هل كان لديك خيار؟"

"لقد اخترت العكس".

صُدِم سام بالمعلومات. لم يكن يعرف أن هذ المعجوز كان أيضاً يتيماً.

سأله نورستروم: "هلَّا أسديت لي معروفاً؟"

كانا واقفين على العشب في حرم الميتم، وسط أبنيةٍ يعود تاريخ بنائها لقرنين ماضيين. لقد كان يعرف كل إنش من ذلك المكان، وصولاً إلى أدقّ التفاصيل، لأنه كان مطلوباً من الجميع أن يشاركوا في صيانة الأشياء.

وكان هذا أحد القوانين التي كان يبغضها.

"انتبه يا سام. فكّر قبل أن تتصرف. العالم ليس لطيفاً في التعامل مثلنا".

"أهذا ما تسميه هنا؟ لطفاً؟"

"لقد اعتنينا بك بصدقٍ". وتوقف نورستروم عن الكلام ثم استأنف قائلاً: "لقد اعتنيت بك بصدق".

لم يسمع مثل هكذا عواطف من جهة هذا الرجل ولا مرة خلال الثماني عشرة سنةً المنصرمة.

"إنك روحٌ حرةٌ يا سام. وهذا ليس بالضرورة أن يكون أمراً سيّئاً. انتبه فقط". رأى أن نورستروم، الذي عرفه طوال حياته، كان مخلصاً بالفعل.

"لعلّك ستجد قوانين في الخارج أسهل من قوانيننا هنا لتطيعها. الله يعلم، إنه تحدٍّ بالنسبة لك هنا".

"لعل المشكلة هي في جيناتي".

كان يحاول أن يمزح، ولكن التعليق ذكّره فقط بأنه ليس له أهل، وليس وله ميراث. كل ما كان يعرفه هو ذلك المكان الذي يحيط به. الرجل الوحيد الذي اعتنى به ووقف إلى جانبه هو هذا الرجل. ولذلك، فبدافع الاحترام، مدَّ يده، هذه اليد التي صافحها نورستروم وهزّها بلطف.

"لقد كنتُ آمل أن تبقى". قال الرجل العجوز بصوتٍ هادئٍ.

وبعينين ملؤهما الحزن نظر إليه في الوراء.

"كُنْ على ما يرام يا سام. حاول دائماً أن تكون صالحاً".

وقد كان فعلاً كذلك.

تخرَّج من الكلية بدرجة شرف، وأخيراً وصل إلى وكالة الاستخبارات السرية. كان يتساءل أحياناً ما إذا كان نورستروم لا يزال على قيد الحياة. لقد مضت عليه أربعة عشر عاماً منذ أن كلّمه آخر مرةٍ. لم يتواصل معه أبداً ولسببٍ بسيط هو أنه لم يكن يريد أن يُخيّب الرجل أكثر.

كنت آمل أن تبقى.

ولكنه لم يستطع.

استدارا هو ومالون عند زاويةٍ إلى شارعٍ جانبي خارجين من البولفار الرئيسي. وأمامهما، ارتفع الرصيف عند نقطة التقاطع، وامتدّ جدارٌ آخر ذو سياجٍ معدني إلى يمينهم. تابعا وقع الخطوات المتباطئ المتجه نحو الزاوية وانعطفا هناك. وكان هناك جدارٌ أطول، وفي قمته شُرفات مُفرَّجة، حلَّت محل السياج. والى سقفها الحجري عُلِّقَت راية كُتِبَ عليها: Musée National Du Moyen Age, Thermes De Cluny.

"متحف كلوني لتاريخ القرون الوسطى".

كان المبنى الذي يرتفع خلف السور بناءً قوطياً يعلوه سقف أردوازي مائل، فيه نوافذ ناتئة. اختفى فودريل في أحد المداخل، وتبعه الرجلان.

حافظ مالون على سرعة سيره.

وسأله سام: "ما الذي سنفعله؟"

"نرتجل".



عرف مالون إلى أين يتجهون. متحف كلوني كان يقبع في موقع القصر الروماني، وآثار حمّاماته القديمة كانت لا تزال في الداخل. كان القصر الحالي قد شيّده في القرن الخامس عشر رئيس دير بندكتي. ولم تستولِ الدولة على الأراضي حتى القرن التاسع عشر، حيث ترى فيها مجموعة بارزة من التحف الفنية التي تعود إلى القرون الوسطى. وبقي القصر أحد المعالم التي يجب على كل سائح باريسي أن يزورها. كان قد زار المكان مرّتين، والآن تذكّر محتوى داخله. طبقتان، وغرفة عرض وحيدة مفتوحة على الأخرى، مدخل واحد ومخرج واحد. فسحات ضيّقة. ليس مكاناً جيداً لعدم لفت الانتباه.

سار أمامه في الطريق وهما يدخلان إلى باحةٍ منعزلة، ورأى المطاردين يخطوان خارجين من الباب الرئيسي. وكان هناك حوالي ثلاثين زائراً يحملون كاميراتٍ يضجّ بهم المكان هناك.

تردّد، ثم توجّه إلى نفس المدخل.

وتبعه سام.

كانت الحجرة وراء ذلك حجرة انتظارٍ ذات جدران حجرية وقد تحوّلت إلى مركز استقبال، يشمل حجرة إيداع ودرج يقود نزولاً إلى الحمّامات. اشترى الرجلان بطاقاتٍ من أمين الصندوق، ثم انعطفا وصعِدا درجاتٍ حجريةٍ تؤدي إلى المتحف. وإذ اختفيا عبر مدخلٍ ضيق، اشترى هو وسام بطاقتيهما. صعِدا نفس الدرج ودخلا محلاً مزدحماً للهدايا. ما من علامةٍ تشير إلى وجود فودريل، ولكن المطاردين كانا يجتازان لتوِّهما مدخلاً منخفضاً إلى يسارهما. لمح مالون منشوراتٍ بالإنكليزية تُوزَّع مجاناً وتشرح تفاصيل المتحف وأمسك بواحدةٍ، ونظر بسرعةٍ إلى مخطط المبنى.

أبدى سام ملاحظةً قائلاً: "يقول هنريك إن لك ذاكرة فوتوغرافية. أهذا صحيح؟"

صحَّح له مالون قائلاً: "بل ذاكرة دقيقة. فكرٌ قادرٌ على حفظ التفاصيل".

"هل أنت دائماً دقيقٌ هكذا؟"

دسَّ الكُتيِّب في جيبه الخلفي. "نادراً جداً".

دخلا غرفة المعرض التي كانت تنيرها أشعة الشمس من نافذةٍ ذات أعمدةٍ حجرية وتحوي فيضاً من الأغراض الموضوعة في أمكنة مدروسة، والمكوَّنة من خزفٍ يعود للقرون الوسطى وزجاج ومرمر.

لم يكن أيٌّ من فودريل أو مطارديه هناك.

سارعا بالدخول إلى المكان التالي، الذي يشتمل على المزيد من الخزف، ورأيا الرجلين يخرجان من الطرف البعيد. كلتا الغرفتين، حتى الآن، كانتا ممتلئتين بالزوار الثرثارين والكاميرات التي تتكتك. عرف مالون من الكُتيِّب أن هناك حمّامات رومانية تقبع أمامهم.

عند المخرج رأى الاثنين وهما يمران عبر رِواقٍ ضيق، مطليٍّ بالأزرق وتصطفُّ فيه لوحاتٌ من المرمر، وكان يؤدي إلى رِواقٍ حجري شامخ. وكانت الحمامات الباردة تقع تحت بسطة أدراج حجرية. ولكن إعلاناً مكتوباً كان يقول أن المكان مغلق بسبب التجديدات وكانت قد وضعت سلسلةٌ من البلاستيك عند المدخل. وإلى يمينهم عبر قوسٍ قوطيٍّ متقن، كانت هناك بقايا تماثيل مضاءة بشدة متمركزة في تلك الردهة. وكانت السلاسل قابلة للطي مرتبة أمام منصةٍ وجدارٍ خفيضٍ. كانت نوعاً من مساحة عرض يبدو أنها كانت في الماضي فناءً خارجيّاً.

اتّجها يساراً متوغلين أكثر في المتحف.

انعطف الرجلان نحو تلك الجهة.

اقترب هو وسام وألقيا نظرةً حذرة إلى داخل الغرفة التالية، التي بدت مؤلفةً من طبقتين مضاءتين بشكلٍ طبيعي من سقفٍ أكمد. وارتفعت جدرانٌ حجريةٌ منحوتةٌ لمسافة أربعين قدماً. وعلى الأرجح أنه كانت هناك باحةٌ أخرى بين الأبنية، أما الآن فهناك العاج المعروض وشظايا من تيجان أعمدةٍ، ومجموعة تماثيل أخرى.

لم يعد فودريل ظاهراً في أي مكان، ولكن مطارديه كانا متجهين نحو مكان العرض التالي، الذي كان مفتوحاً في الأعلى إلى المزيد من الدرجات الحجرية.

"هذان الاثنان يطاردانني". صرخ أحدهم، ممزِّقاً الصمت الذي كان يشبه صمت المكتبات.

رفع مالون رأسه إلى الأعلى.

كانت هناك امرأة تقف بجانب درابزين، على ما كان يفترض أن يكون الطابق الأعلى من المبنى التالي، وتشير إلى الأسفل نحو الرجلين اللذين كانا يلاحقانهما. ربما كانت في بداية الثلاثينيات، لها شعرٌ بنيٌّ قصير. كانت ترتدي قميصاً فضفاضاً أزرق اعتاد مالون أن يرى موظفي المتحف يرتدونه.

"هذان يطاردانني" قالت المرأة صارخةً. "إنهما يحاولان قتلي".

27

وادي اللوار

تبع ثورفالدسن لاروك خارِجَين من قاعة الاستقبال وراحا يتمشيان موغلين في القصر أكثر وصولاً إلى نهر "شير" الذي كان يتدفق تحت أساسات البناء. قبل مجيئه، كان قد حصل على معلومات عن تاريخ القصر وعرف أن عمارته مستمدّة من جزء من البلاط الحضاري الفخم للملك فرنسوا الأول. لقد وضعت امرأةٌ التصميم الأولي، وظلّت تلك اللمسة الأنثوية واضحة. فما من إظهار للقوة والسلطة في جدران مدعمة أو أحجام فائقة. بل عوض ذلك نجد جمالاً وتناسقاً لا يُضاهى يثير الإحساس ببحبوحة مريحة.

"كانت عائلتي تملك هذه العزبة لثلاثة قرون"، قالت. "مالكٌ واحدٌ بنى القصر الرئيسي عند الشاطئ الشمالي، حيث كنا نجلس الآن، وبنى جسراً يصل إلى ضفة النهر الجنوبية. ومالكٌ آخر شيَّد رواقاً فوق الجسر".

أشارت بيدها إلى الأمام.

نظر إلى الردهة المربعة الطويلة، التي ربما كانت تبلغ ستين متراً أو أكثر في طولها، وكانت الأرضية بيضاء وسوداء كرقعة الشطرنج، وكانت تدعم السقف دعائم من خشب السنديانِ الثقيلة. حُزمٌ من أشعة الشمس كانت تتدفق داخلةً من خلال نوافذ متموضعةً بشكلٍ متناظر تمتد على كلا الجانبين من الطرف إلى الطرف.

"خلال الحرب، احتل الألمانِ العزبة"، قالت. "الباب الجنوبي الذي في الطرف الأقصى كان فعلياً منطقةً حرّة. والباب في هذا الطرف كان المنطقة المحتلة. يمكنك أن تتخيّل مدى الاضطراب الذي خلقه ذلك".

وهنا قال موضحاً لها: "أنا أكره الألمان".

رمقته بنظرةٍ متفحِّصةٍ.

"لقد دمّروا عائلتي وبلادي، وحاولوا أن يدمّروا ديانتي. لا يمكنني أبداً أن أغفر لهم".

سمح لحقيقة كونه يهودياً أن تظهر. كان بحثه عنها قد كشف له أنها كانت متحاملةً ضد اليهود ولفترةٍ طويلة. ليس من سببٍ معين وراء ذلك، بل ربما بدافع نفور فطري، وحسب. التقصّي الذي قام به كشف له أيضاً هاجساً آخر من هواجسها العديدة. لقد كان يأمل أن ترافقه خلال القصر - وإلى الأمام، إلى جانب المدخل ذي القوصرة المؤدي إلى غرفةٍ أخرى، مُضاءة بضوئي هالوجين صغيرين، حيث كانت الصورة معلقةً هناك.

لقد كانت تماماً حيث قِيل له.

نظر إلى الصورة. أنفٌ طويلٌ قبيحٌ. عينان مائلتان غائرتان في الوجه، ترمي بنظرةٍ ماكرةٍ غير مباشرة. فكّان قويان. ذقنٌ ناتئةٌ. قبعةٌ مخروطيةٌ تعلو جمجمةً تكاد تكون حاسرةً تقريباً مما يجعل الشخص يبدو وكأنه البابا أو كاردينال. ولكن كان هناك أشياء أكثر بكثير من ذلك.

قال وهو يشير إلى الصورة: "لويس الحادي عشر".

توقفت لاروك. "أنت مُعجبٌ به؟"

"ما الذي قيل عنه؟ أحبَّته عامة الشعب، وكرهه العظماء، وكان يخافه الأعداء، وتحترمه أوروبا كلها. لقد كان ملكاً".

"ما من أحدٍ يعرف إن كانت هذه صورته الحقيقية. ولكنه كان يتمتّع بصفاتٍ غريبةٍ، ألا توافقني الرأي؟"

تذكَّر ما قيل له عن السمعة الكريهة التي التصقت بذكرى لويس الحادي عشر. لقد حكم خلال الفترة من 1461 إلى 1483 وتدبّر ليُلَفّق لنفسه أسطورةً عجيبةً من العظمة. وفي الواقع، كان عديم الضمير، وقد تمرّد علانيةً ضد أبيه، وعامل زوجته بشناعةٍ، وكان يثق بالقليلين فقط، ولم يُبدِ رحمةً نحو أحد. كان شغفه هو تجديد فرنسا بعد حرب المئة عام الكارثية. وقد خطط بلا تعبٍ ولا مللٍ، وتآمر، ورشا، وكل ذلك بهدف جمع كل الأراضي المفقودة تحت عرشٍ واحدٍ.

وقد نجح في ذلك.

وهذا ما أعطاه مكانةً محترمةً في التاريخ الفرنسي.

"لقد كان أحد الأوائل الذين فهموا قوة المال"، قال. "لقد كان يحب أن

يشتري الرجال بدلاً من مقاتلتهم".

قالت وقد بدت متأثرةً بشكلٍ واضح: "إنك تلميذ محبٌّ للتعلُّم. لقد أدرك أهمية التجارة كأداةٍ سياسيةٍ، ووضع أساسات الدولة – الأمّة الحديثة. تلك حيث يكون الاقتصاد أكثر أهميةً من الجيش".

أشارت بيدها ودخلا إلى غرفةٍ أخرى، وهذه كان يكسوها جلدٌ دافئٌ ونوافذ مزوَّدة بستائر خمرية اللون. وكان هناك مدفأة لافتة للانتباه تعود إلى عصر النهضة ولم تكن فيها نارٌ. كان هناك بعض الأثاث فقط، لم يكن أكثر من بضعة كراسي مُنجّدة وطاولات خشبية. وفي الوسط كانت هناك خزانة من الزجاج والحديد الذي لا يصدأ، لا تتناسب مع الأثاث القديم في الغرفة.

"لقد كان غزو نابليون لمصر عام 1798 إخفاقاً عسكرياً وسياسياً"، قالت له. "لقد أرسلت الجمهورية الفرنسية أعظم جنرالٍ لديها ليغزو مصر، وقد فعل. ولكنَّ حُكْمَ مصر كان أمراً آخر. وفي ذلك لم ينجح نابليون. ومع ذلك، ما من أحدٍ ينكر أن احتلاله لمصر غيَّر العالم. إذ بسبب هذا الاحتلال عرف العالم لأول مرة روعة تلك الحضارة الغامضة والمنسية. ومن هنا وُلِدِ علم الآثار المصرية. خُدّام نابليون اكتشفوا حرفياً، تحت الرمال التي تراكمت على مرّ آلاف السنين، مصر الفرعونية. لقد كان نابليون مثالاً عن الفشل الكامل المُقنّع بنجاحٍ جزئي".

"إنكِ تتكلمين كسلفٍ حقيقي لبوزو دي بورغو".

ضَحِكت وقالت: "بينما يرقد في مجدٍ في قصر الأنفاليد، أجد سلفي، الذي ربما كان هو من أنقذ أوروبا، منسياً".

لقد كان يعرف أن هذه حقيقة مؤلمة جداً، ولذلك فقد تحاشى الحديث الآن عن هذا الموضوع.

"بينما كان في مصر، تدبَّر نابليون مع ذلك لأن يكتشف بضعة أشياء ذات قيمة هائلة". أشارت بيدها إلى خزانة العرض. "أوراق البردي الأربع هذه. تعرضت لحادثٍ يوماً ما، بعد أن أطلق جنود نابليون النار على قاتلٍ على جانب الطريق. لولا بوزو دي بورغو، لكان نابليون قد استخدم هذه الأوراق ليعزّز القوة والكفاءة في حكمه لمعظم أوروبا. والحمد لله، لم تسنح له الفرصة لذلك أبداً".

كان التحرِّيون الذين استخدمهم لم يذكروا هذا الأمر الشاذ. لم يُفوِّت أي شيء عن آشبي، بل كان يريد أن يعرف كل شيء عنه. أما بالنسبة إلى إليزا لاروك فقد وجَّه تحرياته، ولأجل ذلك كانت محدودةً. لعلّه ارتكب خطأً في ذلك.

"ما الذي تحويه أوراق البردي هذه؟" سألها عَرَضياً.

"إنها السبب وراء النادي الباريسي. إنها توضح هدفنا وسوف تُرشد طريقنا".

"من الذي كتبها؟"

هزت كتفيها وقالت: "لا أحد يعلم. كان نابليون يؤمن بها من الإسكندرية، وقد ضاع عندما اختفت المكتبة من هناك".

كانت لديه بعض الخبرة بذلك النتاج، الذي لم يكن ضائعاً كما كان معظم الناس يعتقدون. "حِصصٌ من الإيمان تضعها في وثيقةٍ، يكتبها ناسخ مخطوطاتٍ مجهول".

"أعتقد أنها تُشبه في ذلك الكتاب المقدس. فنحن نعلم افتراضياً أنه ليس لدينا شيءٌ من أصله، ومع ذلك فإن مليارات من الناس يسلكون في حياتهم وفق ما ورد فيه".

"فكرةٌ ممتازة".

التمعت عيناها بالثقة النابعة من قلبٍ صادقٍ صريح. "لقد أريتك شيئاً عزيزاً عليّ. والآن أريد أن أرى دليلك على ما قلت بخصوص آشبي".

28

باريس

راح مالون يراقب ما حوله بينما كان رجلان يرتديان سترة فضفاضة زرقاء وربطة عنق يندفعان إلى ساحة العرض، وكانا يحملان شارة هوية معلقة إلى عنقهما تدل على أنهما يعملان في المتحف. كان أحد الرجلين اللذين تبِعا فودريل ضخم الجثة وله كتلةٍ كثّة من شعر أشعث، وقد كان رده على الهجوم أن لَكَمَ الموظف الرئيسي على وجهه. أماً الآخر فكان عادي الهيئة، بملامح بليدةٍ باردةٍ، فركل بقدمه الثاني ورمى به أرضاً.

ظهرت المسدسات في أيدي الرجل البارد الوجه وذاك الضخم الجسم.

أما المرأة في الأعلى التي بدأت الشجار فقد هربت نحو الدرابزين.

لاحظ الموظفون الأسلحة وارتفعت الأصوات. واندفع الزائرون مارِّين من حيث كان مالون وسام يهتفان، ويتراجعون إلى الخلف نحو المدخل الرئيسي.

ظهر موظفان آخران على الجانب المقابل.

وتم إطلاق النار.

لم تفعل الجدران الحجرية والأرضية المرصوفة والسقف الزجاجي سوى القليل لكبت الصوت الصادر. وهكذا تردّد صوت الطلقات النارية في أذن مالون بقوةٍ كأنها انفجار.

اِنهار أحد العاملين في المتحف.

وتسابق أُناسٌ آخرون مارّين جنبه.

أما الموظف الآخر فقد توارى عن الأنظار.

وأما صاحب الوجه البليد والجسم الضخم فقد اختفيا.

لمعت جغرافية المتحف في ذهن مالون. "سأذهب لألقي نظرة أخرى في الجوار. هناك طريقٌ واحدٌ فقط للخروج من المبنى. سأقطع الطريق عليهما هناك. أنت ابقَ هنا".

"وماذا أفعل؟"

"حاول ألا تُصاب بطلقٍ ناري".

افترض أن حرس المتحف لا بد أن يكونوا قريبين من المخارج وأن الشرطة لا تلبث أن تحضر. كل ما كان عليه أن يفعل هو أن يُشْغِل مُطلقي النار لأطول فترة ممكنة لأجل ضمان حصول ذلك.

سارع الخُطى عائداً نحو المدخل الرئيسي.



لم يكن لدى سام الكثير من الوقت ليفكّر. كانت الأمور تحدث أمامه بسرعةٍ. فقرر بسرعة أنه لن يقف ساكناً دون حراك - مهما يكن رأي مالون أو موقفه - لذلك اندفع عبر غرفة العرض الشاهقة التي تنيرها الشمس، حيث حدث إطلاق النار، نحو الرجل الذي كان يرتدي رداء أزرق، ويرقد على الأرض ووجهه متجهٌ نحو الأسفل، وهو ينزف، وجسده كان رخواً كالخرقة.

انحنى إلى جانبه.

كانت عينا المصاب ثابتتين لا تتحركان تُبديان نظرةً بعيدةً بعينين نصف مفتوحتين. لم يسبق له أن رأى أحداً تعرَّض لإطلاقٍ نار فعلياً. ميتاً؟ نعم. ليلة أمس. ولكن هذا الرجل كان لا يزال على قيد الحياة.

ألقى نظرةً على المشهد حوله بينما راح يَجْرُد بعينيه المزيد من تيجان الأعمدة والتماثيل والمنحوتات. إضافةً إلى المخرجين - أحدهما باب، مقفل بمشبك حديدي، والآخر مدخل مُقنطر مفتوح كان يُفضي إلى فسحةٍ لا نوافذ فيها. نظر فرأى نسيجاً مُزداناً بالرسوم مُعلّقاً على جدار تلك الغرفة البعيد ورأى بيت درجٍ يقود نحو الأعلى.

كان جميع الزوار قد غادروا، وكان المتحف هادئاً بشكلٍ يُثير الأعصاب. تساءل عن مسؤولي الأمن والموظفين والشرطة. لا بد أن السلطات قد تم استدعاؤها.

أين كان الجميع؟

سمع وقع خطواتٍ. ركضٌ في اتجاهه. وكان ذلك في الخلف من حيث دخل

هو ومالون - حيث كان مالون الآن قد ذهب.

لم يُرِدْ أن يعوقه شيءٌ أو أن يكون بلا فائدةٍ. لقد أراد أن يكون جزءاً مما يحدث.

"النجدة في طريقها". قال للرجل المرمي على الطريق.

ثم ركض إلى الغرفة المجاورة، يثب الدرجات وصولاً إلى الطابق الأعلى.



عاد مالون إلى محل الهدايا وشقّ بمرفقه طريقه وسط الحشود التي كانت تركض بصخبٍ إلى المخرج عبر مدخل المتحف.

دوَّت أصواتٌ مهتاجة تنطق بلغاتٍ عديدة.

ظلَّ يشقّ طريقه عبر الحشد وخرج من غرفة الهدايا، ودخل إلى غرفةٍ مجاورةٍ كان كتيّب المتحف قد عرّفها على أنها موضع خزائن الأمتعة وبيت درجٍ كان الزوار يستخدمونه لينزلوا من الطابق العلوي. وفي الأعلى، كان ينبغي عليه أن يغيّر اتجاهه ويعترض طريق صاحب الجسم الضخم وصاحب الملامح الباردة بينما يتقدمان في المتحف.

اتجه صاعداً نحو بيت الدرج وصعده درجتين درجتين ودخل إلى ردهةٍ فارغة فيها عرضٌ لدرعٍ وخناجر وسيوف. كان هناك نسيجٌ مطرّز يُصوّر مشهد صيدٍ يُزيّن أحد الجدران. كانت الأقفال تختم جميع الخزائن الزجاجية. وكان في حاجةٍ إلى سلاح، ولذلك فقد أمل أن يكون المتحف متفهِّماً.

أمسك بكرسيٍّ متاخمةٍ لجدارٍ آخر وضرب برجلها المعدنية الخزانة. انكسر الزجاج وتبعثر إلى الأرض.

قذف الكرسي جانباً، ووصل إلى الخزانة، وانتزع أحد السيوف القصيرة. كانت حوافه قد شُحِذت، وعلى الأرجح أن ذلك كان بغاية أن يزيد من جمال عرضه. كانت هناك بطاقةٌ داخل الخزانة تُعْلِمُ الزّوار أن هذا السيف هو سلاحٌ يعود إلى القرن السادس عشر. انتزع أيضاً تُرساً يدوياً كُتِب عنه أنه يعود إلى حوالي العام 1500.

كان السيف والترس كلاهما في حالة جيدة.

أمسك بهما، وبدا كأنه مصارع، مستعدٌّ لدخول ميدان المصارعة.
وفكّر في نفسه أن هذا أفضل من لا شيء.



هرع سام صاعداً الدرجات، ويده تنزلق على الدرابزين النحاسي الأملس. أصاخ السمع عند منبسط الدرج، ثم صعد مجموعة الدرجات الأخيرة وصولاً إلى الطابق العلوي من المتحف.

ليس من صوت. ولا حتى من الأسفل.

أبقى على خطواته بدون صوت ويمينه ثابتةً على الدرابزين. كان يتساءل ما الذي يجري. لم يكن مسلَّحاً وكان خائفاً حتى الموت، ولكن مالون ربما يحتاج إلى المساعدة، كما كان الحال في المكتبة ليلة أمس.

ذلك أن على العملاء الميدانيين أن يساعد أحدهم الآخر.

وصل إلى قمة المتحف.

كان هناك مدخلٌ مقنطر إلى يساره يفضي إلى حجرة طويلة ذات جدران حمراء. وكان أمامه مباشرة مدخلٌ كُتِبَ عليه: (La Dame À La Licorne).

"السيدة وأحادي القرن".

توقف وأمعن النظر حول المدخل إلى الغرفة الحمراء.

طقطقت أصوات ثلاث طلقات.

أزَّت الرصاصات على الحجارة، على بعد إنشاتٍ من وجهه، مثيرةً غباراً، فنكص راجعاً على عقبيه.

كانت فكرةً سيئة.

وأتت طلقةٌ أخرى باتجاهه. كانت النوافذ إلى يمينه، مجاورةً لمنبسط بيت الدرج، وتكسَّرَ الزجاج من جراء إطلاق النار.

"إيه". قال صوتٌ يشبه الهمس.

نظرت عيناه إلى اليمين فرأى نفس المرأة التي سبق ورأوها، تلك التي

افتعلت الإشكال بصرختها، تقف داخل تجويف مدخل يؤدي إلى حجرة عرض "السيدة وأحادي القرن". شعرها القصير كانت قد سرَّحَتْه الآن إلى الخلف عن وجهها، وكانت عيناها لامعتين ومحترستين. وراحتا يدها كانتا تمسكان بمسدس.

قذفت إليه بالسلاح، الذي التقطه.

أمسك السلالم بيده اليسرى بإحكام، ووضع إصبعه على الزناد. لم يكن قد أطلق النار منذ زيارته الأخيرة إلى حقل الرمي في وكالة الاستخبارات السرية. متى كان ذلك، منذ أربعة أشهر؟ ولكنه كان مسروراً لأن لديه هذا المسدس الآن.

التقت عيناه بعينيها ذات النظرة القوية، وأشارت عليه أن يطلق النار.

أخذ نَفَساً عميقاً، وقام بتلقيم المسدس على حافة المدخل، وشدَّ الزناد.

تكسّر الزجاج في مكانٍ ما في الغرفة الحمراء.

أطلق النارَ ثانيةً.

"يمكنك على الأقل أن تصيب أحدهما"، قالت من مكان اختبائها.

"إن كنتِ جيدة في ذلك، فافعلي ذلك".

"اقذف لي بالسلاح وأنا أفعل".

29

وادي اللوار

جلست إليزا في قاعة الاستقبال، وقد أقلقتها مضاعفات الأحداث التي جرت خلال بضعة الساعات الماضية. كان ثورفالدسن قد غادر إلى باريس. ويوم غدٍ سيكون لهما لقاء آخر.

أما الآن فهي بحاجة إلى إرشاد.

كانت قد أمرت بإيقاد النار، وها هو الموقد تشتعل فيه نار متّقدة تنير شعاراً كان قد حفره أحد أجدادها ويقول:

S'il Vient À Point, Me Souviendra

"إن انتهى بناء هذه القلعة سيتذكرونني".

جلست في إحدى المقاعد ذات الذراع المنجّدة. خزانة العرض، التي كانت تحوي أوراق البردي الأربعة، كانت إلى يمينها. وما كان شيءٌ غير طقطقة الجمرات يُزعج هدوء الصمت. لقد قيل لها إن الثلج قد يتساقط ذلك المساء. لقد كانت تحب الشتاء، وخاصةً هنا، في الريف، قرب كل ذلك الذي كان عزيزاً عليها.

قبل يومين. كان آشبي في إنكلترا، يقوم ببعض التجهيزات. قبل أشهر، أوكلت إليه بمجموعةٍ من المهمات، متّكلةً على ما يُفترض أن تكون لديه خبرة واسعة فيه. والآن تتساءل ما إذا كانت ثقتها به في محلها. كانت هناك أشياء كثيرة تعتمد على ما يفعله.

بل كل شيء، في الواقع.

لقد تفادت أسئلة ثورفالدسن ولم تسمح له بأن يقرأ اوراق البردي. لم يُبدِ أهليةً لذلك بعد. ما من أحدٍ من أعضاء النادي كان يستحق ذلك حتى الآن. تلك المعرفة كانت مقدّسة في عائلتها، وقد حصلت عليها من بوزو دي بورغو نفسه عندما سرق عملاؤه الوثائق من الشحنات التي كانت ذاهبةً إلى جزيرة القديسة هيلانة، كجزءٍ من ممتلكات نابليون الشخصية التي أُرسلت إلى النفي

معه. كان نابليون قد لاحظ اختفاءها واحتجّ على ذلك رسمياً، ولكن كل أمرٍ غير ملائمٍ كان يُنسب عادةً إلى الآسرين البريطانيين.

إضافةً إلى ذلك، فما من أحدٍ كان ليهتم.

ولكن في ذلك الوقت، كان نابليون ضعيفاً. وكل ما كان يريده قادة أوروبا من ذلك الشخص الذي كان يوماً إمبراطوراً قوياً مقتدراً هو أن يموت ميتة طبيعية سريعة. فما من لعبةٍ مخادعة، ولا من إعدام. ما كانوا ليسمحوا له بأن يصبح شهيداً، ولذلك فإن وضعه في سجنٍ في جزيرةٍ في أقصى الجنوب الأطلسي بدا أنه الطريق الأمثل ليُحققوا النتيجة التي يرجونها.

وقد نجح الأمر.

لقد كان نابليون في الواقع قد تلاشى وذوى.

ومات خلال خمس سنين.

وقفت، واقتربت من الخزانة الزجاجية، ونظرت إلى الكتابات القديمة الأربعة، الآمنة في صندوقها الواقي. كانت قد تُرجمت منذ فترةٍ طويلة وكانت قد حَفِظت كل كلمةٍ في ذاكرتها. كان بوزو دي بورغو سريعاً لإدراك أهمية فحواها، ولكنه عاش في عالمٍ تلا نابليون، خلال عصرٍ كانت فيه فرنسا في ثَوَرانٍ مستمر، لا تثق بالمَلَكيةً، وعاجزةً عن تحقيق الديمقراطية.

ولذلك لم تكن تلك الكتابات بذات فائدةٍ كبيرةٍ.

لقد كانت صادقة عندما قالت لثورفالدسن إنه كان من المستحيل أن تعرف من كتبها. كل ما كانت تعرفه هو الكلمات التي كانت ذات معنى بالنسبة لها.

سحبت دُرجاً من تحت الخزانة. وفي الداخل كانت هناك ترجماتٌ للنص القبطي إلى الفرنسية. فبعد يومين ستُشارك هذه الكلمات مع النادي الباريسي. أما الآن فقد ألقت نظرةً على الصفحات المطبوعة متأثّرةً بالحكمة فيها ومندهشةً من بساطتها.

الحرب قوةٌ مستفحلةٌ، تُولِّد طبيعياً ما كان ليحدث لولاها. التفكير الحرّ والابتكار هما مجرد جانبين إيجابيين من بين عدة جوانب تخلقها الحرب. الحرب قوةٌ فعَّالةٌ للمجتمع، وأداةٌ للاستقرار يمكن الاعتماد عليها. إمكانيات الحرب تُشكّل أقوى أساس لسلطة أي حاكمٍ، وكلما تنامت في

علاقةٍ مباشرة كلما ازداد خطر الحرب. المرؤوسون سيطيعون بكل رحابة صدرٍ كل ما يُطلب منهم على الأقل على أمل التمتع بتلك الحماية التي يعدّ قادتهم بتحقيقها حمايةً لهم من الغزاة. فإن انتهى تهديد الحرب، أو خالفت السلطةُ الوعدَ بالحماية، فإن تلك السلطة كلها تنتهي. الحرب يمكن أن تربط الولاء الاجتماعي بالناس كما لا تفعل أي مؤسسةٍ اجتماعيةٍ أخرى. السلطة المركزية لن توجد ما لم تكن هناك حربٌ، ودرجة قدرة الحاكم على الحكم تعتمد على احتمال أو قابلية شنّ حرب. العدوان على الجماعة قوةٌ إيجابية تضبط المعارضة وتضمن الولاء الاجتماعي. الحرب هي أفضل طريقةٍ لمقاومة العدوان على الجماعة. السلام الدائم ليس هو الاهتمام الأعظم لحفظ سلطةٍ مركزية، ولا هو الحرب الدائمة التي لا نهاية لها. الأفضل هو احتمال الحرب، لأن التهديد المدرك يؤمن إحساساً بالضرورة الخارجية، الذي بدونه لا يصبح للسلطة المركزية وجود. الاستقرار الدائم يمكن أن يأتي ببساطةٍ من انتظام واستعداد أي مجتمعٍ للحرب.

كم هو مذهلٌ كيف أن مفكّرين قدماء كانت لديهم هكذا أفكار معاصرة حديثة.

الخطر الخارجي المخيف أمرٌ أساسيٌّ لأي سلطةٍ مركزية لتبقى. هكذا تهديد يجب أن يكون قابلاً للتصديق وذا أهميةٍ كافية لتغرس خوفاً مطلقاً، ويجب أن يؤثر على المجتمع ككل. بدون هكذا خوف، السلطة المركزية سوف تنهار. التحرّر المجتمعي من حربٍ إلى سلام سيُخفق إن كان الحاكم لا يملأ الفراغ الاجتماعي والسياسي الذي خلقته الحاجة إلى الحرب. البدائل عن حشد العدوان على الجماعة يجب أن يكون موجوداً، ولكن هذه البدائل لابد أن تكون واقعيةً وذات قدرةٍ إجبارية.

وُضِعَت الترجمة فوق الخزانة.

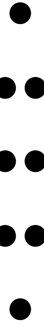
في أيام بوزو دي بورغو، في منتصف القرن التاسع عشر، لم تكن هناك بدائل كافيةً وافيةً، ولذلك فقد سادت الحرب نفسها. كانت في البداية نزاعاتٌ إقليمية، ثم نشبت حربان عالميتان. أما اليوم فالأمر مختلف. هناك الكثير من البدائل المتاحة. وفي الواقع، إنها كثيرةٌ جداً. هل اختارت البديل الصحيح؟

يصعب تحديد ذلك.

عادت للجلوس في كرسيها.

كان هناك شيءٌ آخر لا يزال عليها أن تعرفه.

بعد مغادرة ثورفالدسن، استرجعت كتاب النبوءة من الحقيبة. وفتحته الآن بوقار واستعدّت بأن التقطت نفساً عميقاً. ومن بين سلسلة الأسئلة اختارت السؤال "هل الصديق الذي سأعتمد عليه أكثر شيء سيكون مخلصاً أو خائناً؟" وبدلاً من كلمة صديق اختارت ثورفالدسن ثم طرحت السؤال، بصوتٍ عالٍ، باتجاه النار المتّقدة. أغمضت عينيها وركّزت. ثم أمسكت قلماً ورسمت خطوطاً عمودية في خمسة صفوف، وقامت بعدّ كل مجموعة محددة قائمة النقاط بالضبط.



ورجعت إلى جدول النتائج للاستشارة ورأت أن الجواب على سؤالها يرد في الصفحة H. فهنا ردّت النبوءة أن: "الصديق سيكون لك كالترس الذي يحميكِ من الخطر".

أغلقت عينيها.

لقد وضعت ثقتها بغراهام آشبي، وسمحت بأن تأتمنه على أسرارها، وهي لا تعرف عنه سوى القليل وذلك في أنّه أحد أصحاب الأموال العريقين وصائدُ كنوزٍ حقَّق نجاحاتٍ عديدة. وقدّمت له فرصةً لا مثيل لها، وأمّنت له معلومات لم يعرفها أحدٌ غيره في العالم، وكانت هذه مفاتيح ألغاز مرّت عبر عائلتها بدءاً من بوزو دي بورغو. وكل هذه المعلومات كانت تقُود إلى كنز نابليون الضائع المُخبّأ.

كان دي بورغو قد أمضى آخر عقدين من حياته يبحث، ولكن بدون فائدة.

وإخفاقه قاده في نهاية الأمر إلى الجنون. ولكنه ترك ملاحظاتٍ ومذكّرات، أعطتها جميعها إلى غراهام آشبي. هل كانت حمقاء؟

تذكَّرَتْ ما قاله كتاب النبوءة بخصوص ثورفالدسن.

"الصديق سيكون لك كالترس الذي يحميكِ من الخطر".

ربما لا.

30

باريس

سَمِع مالون صوت الطلقات النارية. خمس؟ ست؟ ثم صوتَ زجاج يتهشَّم ويسقط على جسمٍ صلب.

مرَّ عبر الغرف الثلاث التي كانت تعرض آلاف السنين من التاريخ الفرنسي من خلال فنٍّ متقن، ونقوشٍ مُلوّنة، وأشغالٍ معدنيةٍ معقدةٍ، ونسيجٍ مطرز. انعطف نحو اليمين واقترب من بهوٍ آخر، طوله عشرين قدماً أو نحو ذلك. أرضيته من الخشب الصلب. وسقفه ذو زخارف غائرةٍ. أدوات للكتابة وأدوات نحاسية كانت معروضةً في خزانتين مضاءتين مشيدتين في الجانب الأيمن من الجدار، ومدخلٌ مفتوح بينهما يؤدّي إلى غرفةٍ أخرى منارة. وعلى الجدار الأيسر رأى مدخلاً حجرياً مقنطراً ودرابزين حيث كانت المرأة قد أطلقت أول صرخة إنذارٍ.

ظهر رجلٌ في الطرف البعيد من الرّواق. لقد كان الرجل الضخم الجثة.

لم يكن انتباهه منصباً على مالون ولكن عندما استدار ورأى أحداً يحمل سيفاً وترساً، أعمل مسدسه وأطلق النار.

اندفع مالون إلى الأمام، وقد حافظ على الترس نحو المقدمة. أزَّتْ الطلقة على المعدن في حين حرّر مالون قبضته من الترس الذي ارتطم بقوةٍ على الأرض الصلبة. أصدر الترس صوت قعقعةٍ. تدحرج مالون داخلاً إلى الغرفة المجاورة، وهبَّ واقفاً على قدميه. خطواتٌ صلبةٌ اتجهت نحوه. كان في غرفةٍ تحوي عدة خزائن لامعةً ونقوش. ليس من خيارٍ أمامه.

لم يكن يستطيع أن يعود من حيث أتى، ولذلك فقد دخل إلى الغرفة المجاورة مباشرةً.



راح سام يراقب المرأة وهي تمسك بالمسدس – كانت يداها صغيرتين ولكن سريعتان – ثم اندفعت مباشرةً إلى الأمام. كان المدخل الذي تشغله مفتوحاً

عمودياً على مدخلٍ يؤدي إلى الغرفة الحمراء، حيث كان مطلقا النار قد اتخذا موضِعهما، وهذا ما أمن لها غطاءً. ثبتت قدميها، وسددت، وأطلقت رصاصتين.

تبعثر وتهشم المزيد من الزجاج. وخزانة عرضٍ أخرى تدمرت أيضاً.

جازف بإلقاء نظرة ورأى أحد الرجلين يندفع بسرعةٍ خارجاً نحو الجانب الآخر. انتبهت المرأة إلى هروبه أيضاً، وأطلقت طلقةً أخرى نحوه، محاولةً أن تصيب الهدف الذي ركض بسرعةٍ خلف خزانةٍ زجاجيةٍ أخرى.

مرَّ المشهد أمام ناظريه بسرعةٍ مثل الخيال. أين كان رجال الأمن؟

وأين رجال الشرطة؟



أدرك مالون فجأةً أنه ارتكب خطأً فظيعاً. تذكّر كتيّب المتحف وعرف أنه كان متّجهاً نحو المُصلى العلوي، وهو حيِّزٌ صغيرٌ متضامٌ فيه مدخلٌ واحد للدخول والخروج.

اندفع داخلاً إلى المُصلى ورأى الأسلوب القوطي المزخرف بإسراف فيه، والمتميز بوجود عمود مركزي يرتفع إلى عقد قنطرةٍ رافدةٍ تشبه سعف النخيل. ربما كان حجمها حوالي عشرين إلى ثلاثين قدماً، خاليةً من أي أثاث، وليس من مكانٍ للاختباء فيها.

كان لا يزال يحمل السيف، ولكنه كان بلا فائدةٍ مقارنةً برجلٍ يحمل مسدساً. وراح يفكر.



راح سام يتساءلٍ عما كانت المرأة تقصده. من الواضح أنها بدأت شجاراً والآن بدت عازمةً على إنهائه.

انطلقت رصاصتان أخريتان بصوتٍ مرتفع عبر المتحف، ولكن ليس من مسدسها، وليست متّجهةً نحوها. ولإدراكه التّام بأن الرصاصات تطير في الهواء عبثاً، جازف بإلقاء نظرةٍ بحذر ورأى أحد المهاجمين يتراجع خلف خزانة عرضٍ لا تزال سليمةً ويطلق النار في اتجاهٍ آخر. رأت المرأة ذلك

أيضاً. أحدٌ ما آخر كان يطلق النار على مهاجميهما.

دخلت ثلاث طلقاتٍ أخرى الغرفة الحمراء، وصار مطلق النار في مرمى نيرانٍ متقاطعةٍ، وكان اهتمامه مركّزاً أكثر على الخطر الذي خلفه أكثر منه على الخطر الذي أمامه. وبدت المرأة تنتظر الفرصة المناسبة. وعندما جاءت، أطلقت رصاصةً أخرى.

راح مطلق النار يبحث عن تغطيةٍ، ولكن الطلقة الأخرى أصابته في صدره. فترنّح في مكانه. سَمِع سام صرخةَ ألم، ثم رأى جسد الرجل المنتفض ألماً ينهار إلى الأرض.



استجمع مالون قواه. كان الخوف قد اعتراه. ما كان في استطاعته سوى أن يأمل أن يقترب مهاجمه من المُصلَّى باحتراس، وكان غير متأكدٍ مما وراء ذلك المدخل المفتوح. فمع بعض الحظ قد يكون السيف سلاحاً كافياً يعطيه بضعة ثوان من الوقت لمصلحته، ولكن هذه المحاولة كلها كانت لتتحول إلى كابوس فوق الوصف إن كان ثورفالدسن متورطاً في المسألة.

"قِف". سمع صوتاً رجالياً يصرخ.

مرت لحظة.

"قلتُ قِف".

وانطلق الرصاص من مسدس.

أصدرت الأجسام والعظام صوتاً مكتوماً لارتطامها بسطحٍ صلبٍ. هل تصرّفت الشرطة، أم رجال الأمن في المتحف، في نهاية الأمر؟ انتظَر، وهو غير واثقٍ مما يجري.

"سيد مالون، يمكنك أن تخرج. لقد سقط مطلق النار".

لم يكن بتلك الحماقة. شقّ طريقه بحذرٍ نحو طرف المدخل واختلس نظرةً. كان الرجل ذو الجسم الضخم راقداً على الأرض، ووجهه للأسفل، وينزف دمه في مستنقعٍ كأنه سيلٌ ثابتٌ ينبع من تحته. وعلى بعد بضعة أقدام كان هناك رجلٌ آخر في بذلةٍ داكنةٍ يقف وقدماه راسختان في الأرض، ويداه تمسكان

بمسدس سيغ سور 357 نصف أوتوماتيكي، وهو يشير إلى الجثة. لاحظ مالون ذلك الشعر المسرّح جيداً والنظرات الصارمة، والبنية القوية المتَّزنة. وانتبه أيضاً إلى اللغة الإنكليزية الواضحة المطعّمة بلهجةٍ جنوبية.

ولكن المسدس كان إفشاء غير مقصود.

طراز P229 نسخة معيارية.

وكالة الاستخبارات السرية.

تأرجحت فوهة المسدس نحو الأعلى إلى أن اتجهت مباشرةً نحو صدر مالون.

"ألقِ السيف".



ارتاح سام إذ شعر أن التهديد بالخطر قد زال على ما يبدو.

فنادى قائلاً: "مالون ". وكان يرجو أن يكون مالون هو الذي أسقط الرجل صريعاً على الأرض.



سمِع مالون سام ينادي باسمه. وكان لا يزال يحمل السيف، ولكن بقي مسدس السيغ مصوباً نحوه.

قال الرجل بصوتٍ هادئ: "كُنْ هادئاً. وأسقط هذا السيف اللعين ".



لم يسمع سام أي شيء رداً على صراخه.

نظر إلى المرأة وجهاً لوجه، ليرى أن مسدسها مصوّبٌ نحوه الآَن.

"آن الأوان لي ولك أن نذهب ". قالت له.

31

اقتيدَ مالون أمام فوهة مسدس عبر المتحف المهجور. كان كل الموظفين والزوّار قد ذهبوا، ومن الواضح أن الداخل كان قد أُغلق. كان هناك الكثير من إطلاق النار، ما جعله يتساءل عن السر في عدم وجود الشرطة أو رجال أمن المتحف.

"ما الذي تفعله وكالة الاستخبارات السرية هنا؟" وكأنه كان عليه أن يسأل. "هل حدث أن رأيت أحداً من الذين معكم؟ شاب. حسن المظهر. طموح قليلاً. اسمه سام كولنز".

ولكن لم يجد مقابل ذلك سوى المزيد من الصمت.

مرّوا عبر ردهة المعرض بجدرانه الحمراء الداكنة، والمزيد من النقوش، وثلاث خزائن للعرض في ذلك المكان المُخضّب بالدماء. أحدهم من ذوي الصفة الرسمية سوف يغضب حقاً.

رأى جثةً أخرى دامية ترقد على الأرض.

كان ذلك هو الرجل ذو الوجه البليد.

عند مدخل الغرفة الآخر كان هناك درجٌ يؤدي نزولاً إلى يمينه وبابٌ ذو فتحةٍ مزدوجة يفصل عند الجدار إلى يساره. إعلان مؤلف من صفائح كان هناك وقد كتب عليه : "معرض السيدة وأحادي القرن".

أشار مالون: "مِن هنا؟"

أومأ الرجل برأسه إيجاباً، ثم أخفض مسدسه وانسحب متراجعاً إلى الغرفة الحمراء. استغرب طريقة هذا الموظف.

خطا إلى داخل فسحة داكنة كانت تعرض ستةً من الأنسجة المطرّزة الملوَّنة، كل واحدٍ منها كان مضاءً بنورٍ غير مباشر. في الحالة العادية كان ليتأثر ويُعجب بهذا المشهد، إذ تذكر أن هذه كانت من بين أكثر ممتلكات المتحف ثمناً، وتعود إلى القرن الخامس عشر، ولكن كان هناك تمثال وحيد يقبع على أحد المنصات الثلاثة في وسط الغرفة.

ستيفاني نيلي
ربّة عمله السابقة.
"لقد تدبرت لتدمير كنز وطني آخر"، قالت وهي تنهض وتقف فـي مواجهته.
"لم يكن أنا هذه المرة". "
ومن الذي رمى بكرسي إلى الخزانة الزجاجية ليأخذ سيفاً وترساً؟
"أرى أنك كنت تتفرجين".
أوضحت قائلةً: "إن الفرنسيين يريدونك ".
"وهذا يعني أني مدينٌ لك -" ثم تمالك نفسه. "لا. على الأرجـح أني أدين للرئيس دانيلز. أليس كذلك؟
"لقد تدخّل شخصياً، عندما أخبرتُه بأن ألسنة الجحيم قد انطلقت".
"وماذا عن حارس المتحف الذي أطلقت النيران عليه؟"
"إنه في طريقه إلى المستشفى. سوف ينجو".
"والشاب في الخارج. أهو من وكالة الاستخبارات السرية؟"
أومأت برأسها وقالت : "إنّه قيد الإعارة".
لقد عرف ستيفاني منذ زمنٍ طويل، إذ عَمِل معها لأكثر من عشر سنوات في دائرة العدل في مشروع ماجيِّلان بيليت. لقد مرَّا بأشياء كثيرة معاً، وخاصةً خلال السنتين الأخيرتين، منذ تقاعده المفترض.
"أنا آسف بخصوص والدك "، قالت له.
لم يفكر بالأسبوعين الأخيرين خلال بضعة الساعات السابقة. "شكراً لما فعلته من طرفك".
"كان لا بد من فعل ذلك".
"لماذا أنت هنا؟
"سام كولنز. أعرف أنكما قد التقيتما".
جلس إلى إحدى المنصات وسمح لنفسه بأن يلقي نظرةً إلى الأنسجة

المطرزة. كانت كل واحدةٍ منها تُشكِّل قطعة مستديرة زرقاء داكنة، تناثرت عليها نباتاتٌ ذات ورودٍ، بألوانٍ نابضةٍ بالحياة تراوحت من الأحمر الغامق إلى الوردي الساطع. كان المشهد على القطع الستة عبارة عن سيدةٍ نبيلة مع أحادي القرن وأسد في مناظر متنوعةٍ. لقد كان يعرف القصة الرمزية، تمثيلاً للحواس الخمسة، والسحر الأسطوري. رسائل مصقولة منذ زمنٍ بعيد، كان قد احتفظ منها بأكثر من نصيبه في الآونة الأخيرة.

سأل: "هل سام في ورطة؟"

"لقد صار في ورطةٍ في اللحظة التي اتصل فيها بثورفالدسن".

أخبرته عن اجتماع مع داني دانيلز البارحة، في المكتب البيضاوي، حيث أوضح رئيس الولايات المتحدة أن شيئاً مهماً كان على وشك أن يحدث في كوبنهاغن.

"لقد كان دانيلز يعرف عن سام. لقد أُرسل إليه تقرير من وكالة الاستخبارات السرية".

"يبدو أنها مسألة ليس بذات أهمية بالنسبة لرئيس لكي يهتم بها".

"نعم ولكن ليس عندما قيل له إن ثورفالدسن متورطٌ ".

سببٌ معقول.

"يا كوتون، هذا النادي الباريسي هو أمرٌ واقع حقيقي. جماعتنا كانت تراقبه لأكثر من سنة. ما من شيءٍ كان يستدعي الخوف، إلا ما جرى في الآونة الأخيرة. ولكنني في حاجة لأن أعرف ما يفعله ثورفالدسن".

"هل الأمر يتعلق بسام؟ أم بهنريك؟

"كلاهما".

"كيف نقفز من النادي الباريسي إلى هنريك؟

"وكأني بلهاء. أنت تجلس هنا كأنك مكنسة كهربائية تشفط مني كل المعلومات التي تريدها دون أن تقدّم شيئاً. لست هنا لأجل ذلك. أريد أن أعرف ما الذي يفعله هذا المجنون الدانماركي".

كان يعرف أن هنريك وستيفاني تربطهما علاقة تتميز بارتيابٍ متبادل، رغم

أنهما كانا يُضطران، في بعض المناسبات، لأن يعتمد أحدهما على الآخر. لقد قرّر، وبما أنه ليس له ناقة ولا جمل فـي هذا الصراع، أن يكتفي بمساعدة صديقه المقرَّب، لأنه أخبره الحقيقة يوماً. "إنه يطارد قاتل كاي".

هزَّت ستيفان-ي رأسها. "أعلم أنه كان أمراً مُرجَّحاً. إنه على وشك أن يخرّب عمليةًاستخباراتيةً ضخمةً، مُعرِّضاً للشبهة مصدراً مهماً للغاية".

في الحال ترابطت نقاطٌ أخرى مع بعضها في ذهن مالون. توترت ملامح وجهه وهو يفكر. "هل غراهام آشبي يعمل إلى جانبنا؟"

أومأت برأسها أن نعم. "لقد كان يزوّدنا بمعلوماتٍ استخباراتيةٍ حيويةٍ ".

انتابته موجةٌ من عدم الارتياح. "هنريك سيقتله".

"عليك أن تمنع ذلك".

"ليس هذا ممكناً".

"يا كوتون، هناك المزيد من الأمور التي تحدث هنا. إن النادي الباريسي يُخطّط لشيءٍ خطير. ما هو؟ لا نعلم. على الأقل لا نعلم بعد. امرأةٌ تدعى إليزا لاروك ترأس هذه المجموعة. إنها الدماغ المفكِّر. آشبي هو جزءٌ من الهيئة الإدارية. إنه يفعل ما تطلبه منه، ولكنه يعلمنا بكل شيء. هذا النادي مكوَّن من سبعةٍ من أغنى الأغنياء في العالم. وبالطبع، لسنا متكدين من أن الأعضاء جميعاً يعرفون ما تُخطّط له لاروك".

"ولماذا لا تخبرهم؟

"لأن القرار قد اتُّخِذ بأن نقضي عليهم جميعاً في آنٍ معاً. إنهم منغمسون في الفساد، والرشاوى، والابتزاز، وعدد هائل جداً من عمليات الاحتيال المالية والأمنية. لقد عطلوا البورصة المالية وقد يكونون المسؤولين عن إضعاف الدولار دولياً. سنرسل رسالةً بإمساكنا بهم بانقضاضةٍ واحدة ".

لقد كان يعلم النتيجة. "سيُقضى عليهم، بينما ينجو آشبي بفعلته ".

"إنه الثمن الذي يجب أن يُدفع. ما كنا لنعرف شيئاً عن هذا لولاه ".

ركّز بصره من جديد إلى إحدى تلك الأنسجة المطرزة. امرأة فتيّة، يحيط بها أسد وأحادي قرن، تختار قطعة حلوى من صحن بينما الببغاء يمسك واحدة أخرى بمخلبه.

"هل لديكِ أية فكرةٍ عن الفوضى ههنا؟" سألها.

"الآن أعرف. جماعتنا عرفت مؤخراً أن ثورفالدسن قد وضع آشبي تحت مراقبته. إنه يراقب عزبة الرجل ويتنصَّت عليه. وهذا على الأرجح ممكن لأن احتراس آشبي هو في الحضيض. إنه يعتقد أن الأمور على ما يرام معنا ومع إليزا لاروك. وليس لديه دليل أو إشارة إلى أن ثورفالدسن يراقبه. ولكن الرئيس يريد ثورفالدسن خارج الصورة".

"لقد قتل هنريك رجلين ليلة أمس. أحدهما كان متورطاً في موت كاي".

"لا يمكنني أن ألومه هنا. ولن أتدخل، إلا عندما يُشكّل خطراً على آشبي".

لقد كان يريد أن يعرف، "ما الذي يخطط له النادي الباريسي؟

"هنا تكمن المسألة. لم يخبرنا آشبي بعد. ولكن هذا سيحدث قريباً. خلال أيام. أعتقد أن هذه هي طريقته ليضمن أن تبقى له قيمة مستمرة دائمة لدينا".

"ومن هذان الرجلان الميتان هناك في المتحف؟

" إنهما يعملان لصالح إليزا لاروك. المرأة ذات الرداء الأزرق، أجفلتهما وهما أبديا رد فعلٍ مبالغاً".

"يا لجنون الفرنسيين!"

"ليس هذا أمراً حسناً".

"ليس هذا غلطي".

"إن وكالة الاستخبارات السرية تُخضِع هذا المتحف لرقابتها منذ أكثر من شهر". قالت وترددت ثم استأنفت "بدون مشاكل ".

"الفتاة ذات الرداء الأزرق هي التي بدأت المشكلة ".

"لقد علمتُ بخصوص رحلة طيران إليزا لاروك التي كان يتحرّى عنها موقع Gree. أفترض أن هذا هو ما كان هذان الرجـلان يفعلانه من خلال مطاردتهما لرجلك، فودريل".

"أين سام؟"

"لقد أُخِذ. لقد راقبتُ ما حدث على كاميرات الأمن".

"الشريط هل أخذَتْه الشرطة؟

هزّت رأسها. "بل الفتاة ذات القميص الأزرق".

"أنت تعتقدين أنه كان لا بد لك من مساعدته ".

"ليست مشكلة".

لقد كان يعرف ستيفاني جيداً. عملا معاً لزمنٍ طويل. كان أحد الوكلاء المحامين الاثني عشر الأصليين في مشروع ماجيلان بيليت، وقد استخدمته هي شخصياً. ولذلك فقد سهُل عليه أن يطرح عليها سؤاله التالي : "أنت تعرفين كل شيء عنها، أليس كذلك؟

"ليس تماماً. ليس لديّ أدنى فكرة عما كانت ستفعله، ولكني مسرورةٌ مما فعلته".

32

اقتيد سام من الطابق العلوي في المتحف نزولاً على نفس الدرج الذي كان قد صعده بالأصل، وصولاً إلى الطابق الأرضي. وهناك نزل مع المرأة عبر درج آخر إلى الحمّامات الباردة المغلقة، حيث كان جيمي فودريل في الانتظار. ومرّوا جميعاً معاً عبر مدخل مقنطر حجري، فيه بوابة حديدية فتحتها المرأة بمفتاح.

كان متوتر الأعصاب قليلاً بسبب المسدس. لم يحدث أبداً أن سدّد أحدهم سلاحاً نحوه بشكلٍ مباشر، أو على مسافةٍ قريبةٍ، فخطر الضرر كان وشيكاً مباشراً. ومع ذلك فقد استشعر أنه لم يكن في خطر. بل بالعكس، شعر أنه كان مع الفريق الصديق.

لقد قرر أن يتبعه. أراد أن يكون موظفاً ميدانياً. ولذلك، فقد قال في نفسه: "كن هكذا إذاً وارتجل. وهذا ما كان مالون ليفعله أيضاً".

أعاد فودريل إقفال البوابة خلفه.

كانت الجدران الجرداء من الآَجر والحجارة الزهرية اللون ترتفع خمسين قدماً حوله. وكان النور يتدفق داخلاً من النوافذ العالية، قرب سقفٍ مقنطر، وكانت الفُسحة باردةً يقشعر لها البدن، مع منظرٍ واحساسٍ يوحـِي بزنزانةٍ. كانت تجري فيه بعض أعمال الإصلاح والتجديد، وكانت ثقّالةٌ قد شُيِّدت إزاء أحد الجدران المنحوتة القاسية.

"يمكنك أن تذهب أو أن تبقى معي ". قالت له المرأة."ولكني بحاجة لأن تبقى معي".

"من أنتِ؟"

ميغان موريسون. موقع Greed Watch هو الموقع الخاص بي".

"لا أظن أنك تعنين الموقع الخاص به؟" سألها، وهو يشير إلى فودريل.

هزّت رأسها. "لا بل كله يخصني".

"وما الذي يفعله هنا؟

بدت وكأنها تقرر ما تقول وكم يجب أن تقول : "لقد أردتُك أن ترى أني لست مجنونةً. وأن هناك أناسٌ يطاردونني. لقد كانوا يراقبونني منذ أسابيع. ومايكل يعمل معي على الموقع. لقد اخترعتُ اسم فودريل واستخدمتُه كشِرك".

"وهكذا أتيتِ بي أنا ومالون إلى هنا؟" سأل الرجلَ الذي كانت قد دعَتْه مايكل.

"في الواقع لقد كان ذلك أمراً سهلاً للغاية".

نعم، لقد كان كذلك.

"أنا أعمل هنا، في المتحف "، قالت. "عندما أرسلتَ لي بريداً إلكترونياً وقلتَ إنك تريد أن نلتقي، سررتُ بذلك. هذان الرجلان اللّذان أُطْلِقَت النار عليهما كانا يتبعان مايكل منذ أسبوعين. لو قلتُ لك ذلك، لما كنتَ تصدقني. ولذلك أريتك الأمر بأمِّ عينك. هناك بضعة رجالٍ آخرون يأتون تقريباً كل يوم ويتحققون من شخصي، ولكنهم يعتقدون أني لا ألاحظ ".

"أعرف أناساً يستطيعون تقديم المساعدة ".

التمعت عيناها بالغضب. "لا أريد أناساً. في الواقع، من المرجح أن بعضاً من أُناسِكَ هم الذين يقومون بتلك المراقبات". الأف. بي. آي. وكالة الاستخبارات السرية. ومن يعلم؟ أريد أن أتعامل معك ". توقفت عن الكلام ثم استأنفت وقالت: "أنت وأنا" - خفّت حدة الغضب في صوتها – "أراك عيناً بعين".

لقد شلّته نظرة الجدّية التي رآها عليها، مع نظرةٍ جذّابةٍ مجروحةٍ على وجهها. ولكن كان لا بد له من أن يقول : "لقد مات الناس بالرصاص هناك. وأحد الحرس أُصيب إصابةً بالغةً".

"وأنا أكره ذلك، ولكني لم أبدأ بهذا".

"في الواقع، أنتِ بدأتِ بذلك. إذ إنكِ صرختِ على هذين الرجلين".

كانت صغيرة الحجم، مكتملة الأنوثة، نحيلة الخصر، وسريعة الانفعال. عيناها الزرقاوان المتّقدتان كانتا تلتمعان بلمعانٍ أخاذٍ - فكانت آمرةً وواثقةً من نفسها. والواقع أنه هو الذي كان متوتراً، وكانت راحتا يديه رطبتين،

فحاول كل جهده ألاّ يظهر قلقه. ولذلك فقد تظاهر بضبط النفس وهو يدرس خياراته.

قالت له بصوت أرقّ: "يا سام، أريد أن أتحدث إليك. وبشكلٍ شخصي وسرّي. هذان الرجلان كانا في إثر مايكل. ولم يكونا ورائي. أما الآخرون، الأمريكيون الذين كانوا يراقبونني، فقد تخلصتُ منهم للتو بخروجي من هناك ".

"هل كانوا هم الذين أطلقوا النار على هذين الرجلين؟

هزّت كتفيها. "ومن غيرهم؟

"أريد أن أعرف من أرسل هذين الرجلين اللذين تبِعْناهُما إلى هنا. لصالح من يعملان؟

نظرَت إلى الخلف بتعبير يدل على جرأة واضحة. شعر بأنه موضع تخمين. وكان جزءٌ من ذاته يتمرّد على ذلك، وجزء آخر كان يرجو أن يكون قد أحدث لديها انطباعاً جيداً نوعاً ما.

"تعال معي وسوف أريك ".



راح مالون يصغي، بينما كانت ستيفاني تشرح عن GreedWatch.

"تديره امرأةٌ افتعلت هذا العراك. ميغان موريسون. إنها أمريكية، تعلّمت هنا، في السوربون، ودرست الاقتصاد. لقد أوقعت بك في الفخ مرسلةً ذلك الشاب - فودريل. إنه اسم مزيَّف تستخدمه موريسون لتشغيل الموقع الإلكتروني"

هز رأسه. "تلاعب بي أبلهٌ يأكل الكلى على الغداء. يا لها من مأساة في حياتي"

ضحكت بينها وبين نفسها. "يسرّني أنك وقعتَ في هذا الفخ. فقد سهّل هذا التواصل بيننا. قال لي دانيلز إنّ سام كان على تواصل مع موقع Gree لأكثر من سنة. وقيل له أن يتوقف. ولكنه لم يُصْغِ. وكالة الاستخبارات السرية، ومن خلال مكتب باريس الميداني، كانت تراقبُ الموقع، وموريسون

نفسها للأشهر الخمس الماضية. إنها بارعة وكتومة. والشاب الذي قادك إلى هنا هو في الظاهر مصمِّم الموقع الرسمي. وفي الأسبوعين الأخيرين، كانت تحت إشرافٍ ومراقبةٍ دائمةٍ مستمرةٍ، إذ إن وكالة الاستخبارات السرية كانت تتعقب إليزا لاروك ".

"ولكنك لم تقولي لي أي شيء عن سبب وجودك هنا وما السر فـي معرفتك لكل هذه الأشياء".

"إننا نعتقد أن الموقع الإلكتروني مهتمّ بالاطّلاع على بعض المعلومات الداخلية، ومن الواضح أن لاروك مهتمة بذلك أيضاً".

"أنت لم تَأْتِ إلى هنا فقط لكي تخبرينني عن الموقع الإلكتروني. ما الذي يجري حقاً؟"

"بيتر لايون".

لقد كان يعرف عن هذا الرجل الذي من جنوب افريقيا. لقد كان أحد أكثر المطلوبين فـي العالم. لقد كان يتعامل بالأسلحة غير المشروعة، والاغتيال السياسي، والإرهاب، وكل ما يريده الزبون. إنه يعلن عن نفسه كسمسار للفوضى. عندما تقاعد مالون قبل سنتين، ارتبطت عشرات من عمليات التفجير على الأقل ومئات القتلى بلايون.

سأل: "ألا يزال يقوم بعمله؟

"أكثر من ذي قبل. لقد كان آشبي يلتقي به. ولاروك تخطّط شيئاً يتطلب مشاركة لايون. أناس مثله لا يظهرون في العلن غالباً. ولعل هذه أفضل فرصةٍ لنا لنعتقله ".

"وآشبي يملك معلومات عن تلك الفرصة المحتملة الممكنة. أليست هذه مشكلة؟"

"أعلم. لم أكن أنا من يدير هذه العملية. والا ما كنت سمحت له بأن يستدعي كل أولئك القتلة".

"من الواضح أنه يلعب على الحبلين. وهم لن يسمحوا له بأن يتراجع إلى الوراء.

"لن يفعل ذلك. ليس بعد. إن هذه العملية الآَن هي عملية على منوال بيليت.

لقد توليتُ مسؤولية هذه العملية منذ اثتني عشرة ساعة فقط. ولذلك فإني أريد القضاء على هذا المجرم".

"قبل أو بعد أن يقتله هنريك؟"

"على الأرج-ح قبل ذلك. لقد التقى آشبي بلايون ف-ي وستمنستر قبل بضعة ساعات. ولدينا تسجيلات صوتية عن الحوار الذي جرى بينهما".

"أرى أن أحدهم كان يفكّر. وماذا عن لايون؟"

"لقد سمحوا لهذا بأن يحدث. بدون أن يُلفتوا انتباهه. وقد وافقتهم على العملية. لأنه إذا شعر بالخوف، فسيختفي. إنه الآن مرتاحٌ إلى مجيئه إلى آشبي".

ابتسم إذ استشعر غرور لايون. "يسرني أن أعرف أن الجميع سيذهبون إلى السجن".

"بعض المفاتيح تمَّ تمريرها من آشبي إلى لايون وتمَّ ذكر عمل سيجري خلال يومين، ولكن ليس لدينا معلومات أكثر من ذلك. لديّ تسجيل للمحادثة".

توقفت لوهلة ثم تابعت. "والآن أين ذلك الدانمارك-ي الظريف؟ يجب أن أتكلم إليه".

"لقد ذهب لرؤية إليزا لاروك ".

لقد عرف أن هذا الكشف سيجتذب انتباهها.

"أرجو أن تقول لي إن ثورفالدسن لن يخيفها أيضاً؟

لمح لمعة غضبٍ في عينيها. لقد كانت ستيفاني تحب أن تدير عملياتها بطريقتها الخاصة.

"سيحقق انتقامه ". قال موضحاً لها.

"ليس هذا ممكناً طالما أنا هنا. إن آشبي هو كل ما لدينا، في هذا الوقت، لنعرف منه ما سيفعله لايون".

"ليس بالضرورة. فحتّى الآن، قطع هنريك شوطاً في الطريق إلى النادي الباريسي. ولقد برهن على أنه يمكن أن يكون مفيداً بالفعل".

جلسا صامتين بينما راحت ستيفاني تتأمل في الوضع.

قالت : "ميغان موريسون أخذت سام بقوة السلاح. لقد كنت أراقب المشهد على شاشة المراقبة في المتحف. لقد سمحتُ لهذا أن يحدث لغاية معيّنة ".

"ذلك الفتى ليس عاملاً ميدانياً".

"إنه موظفٌ متمرِّنٌ في وكالة الاستخبارات السرية. واني أتوقع منه أن يقوم بهذا الدور".

"ما قصته؟"

هزّت رأسها وقالت : "أنت سيّئ مثل ثورفالدسن. هو فتى كبير. ويستطيع أن يعالج أموره بنفسه ".

"ليس في هذا جواب على سؤالي".

"إنها قصة أخرى حزينة ومؤسفة. فقد وُجِدَ مهجوراً متروكاً وهو طفل رضيع وتربَّى في ميتم ".

ألم يتبناه أحد؟"

هزّت كتفيها. "ليس لدي فكرة عن السبب في عدم حصول ذلك".

"أين؟"

"نيوزيلندا، دون سائر الأماكن. لقد جاء إلى أمريكا عندما كان في الثامنة عشر بناء على تأشيرة دخول للدراسة وصار في النهاية مواطناً أمريكياً. درس في جـامعة كولومبيا، وتخرَّج الثالث في دفعته. وعمل باجتهاد لعدة سنوات كمحاسب، ثم شقّ طريقه نحو وكالة الاستخبارات السرية. إنه بشكل عام فتى جيد

"ما عدا أنه لا يسمع لمرؤوسيه ".

"نعم، أنا وأنت أيضاً نصنَّف ضمن هذه الزمرة من الناس ".

ابتسم. "أفترض أن ميغان موريسون مسالمة وليست مؤذية ".

"لا خطر فيها. ثورفالدسن هو المشكلة. لقد ترك سام كولنز واشنطن قبل أسبوعين فقط بعد أن استُجْوِبَ من جديد حول موقعه الإلكترون-ي. وكالة الاستخبارات السرية تعقّبته مباشرة إلى كوبنهاغن. قرروا أن يتركوه وشأنه، ولكن عندما علموا أن ثورفالدسن كان قد وضع آشبي تحت رقابة لصيقة،

ذهبوا إلى الرئيس. وكان ذلك عندما أدخلني دانيلز في الموضوع. لقد ظنّ أن شيئاً كبيراً سيحدث، وكان على صواب. وقرر، وبناءً على علاقتي الشخصية الوثيقة بثورفالدسن، أني أفضل شخص يمكن أن يعالج المسألة ".

ابتسم لروح التهكُّم لديها. "هل تعرف إليزا لاروك أن ميغان موريسون مسالمة؟"

التوتر الذي نشأ عن صمتها شحن الغرفة.

وأخيراً قالت : "لا أعلم ".

"إنها لم ترسل هؤلاء الرجال لأجل التسلية. ومن الأفضل لنا أن نعرف. قد يكون في هذا مشكلة لموريسون وسام، نظراً إلى ما حدث هنا للتو".

"سأتعامل مع سام. أريدك أن تركز على غراهام آشبي".

"كيف حدث أن أقحمت نفسي وسط هذه الفوضى؟

"أنت أخبرني ".

ولكن كان كلاهما يعرف الجواب، ولذلك فقد سألها ببساطة : "ما الذي تريدين مني أن أفعله؟"

33

الساعة 5:15 بعد الظهر

أنزلت السيارة الخاصة ثورفالدسن في فندق ريتز، تلك السيارة التي أتت شمالاً من وادي اللوار إلى قلب باريس. وخلال رحلة الطريق أجرى مكالمات هاتفية مرتِّباً لخطوته التالية.

هرب من جوّ بعد الظهر البارد ودخل إلى حجرة الانتظار الشهيرة في الفندق، المزينة بمجموعةٍ من المنحوتات الأثرية من المتحف. لقد كان يحب تلك الحكاية التي تتحدث عن همنغواي وكيف أنه حرر فندق ريتز عام 1944. فقد كان مسلَّحاً بمسدسات أوتوماتيَّة، فدخل ومجموعةٌ من جنود الحلفاء وهجموا على الفندق وبحثوا في كل زاوية وركن منه. وبعد اكتشافهم بأن النازيين قد لاذوا جميعاً بالفرار جاؤوا إلى البار وشربوا مارتيني. واحياءً لهذه الذكرى، فإن الإدارة أسمَتْ المكان "بار همنغواي "، الذي دخل إليه ثورفالدسن الآن، هذا المكان الذي لا يزال دافئاً بجدرانه الخشبية، وكراسيه الجلدية، وجوِّه الذي يذكّر بعهدٍ مختلفٍ. كانت هناك صور أخذها همنغواي لنفسه تزيّن الكسوة في القاعة وبعض موسيقى البيانو الرقيقة تخلق جواً من الخصوصية في المكان.

رأى ضالته جالساً إلى إحدى الطاولات فسار نحوه وجلس.

كان الدكتور جوزيف مراد يعلّم في السوربون - وهو خبير شهير بما يختص بتاريخ نابليون. كان ثورفالدسن قد أبقى مراداً على تواصل معه خلال العام المنصرم، وذلك منذ أن عرف باهتمام آشبي الذي وصل به إلى حدِّ الشغف.

"ماذا تشرب؟" سأله بالفرنسية.

"أردتُ أن أرى كيف يكون مذاق شرابٍ يبلغ سعره اثنين وعشرين يورو".

وابتسم.

"وإضافة إلى ذلك، فهو على حسابك".

"أهلاً وسهلاً بك ".

كان التحريون الذين يعملون لحسابه في بريطانيا قد اتصلوا به وهو في السيارة وأخبروه بما عرفوه عن وسائل التنصُّت الموضوعة في حجرة دراسة كارولين دود. وبما أن الأمر كان يعني القليل بالنسبة له، فإن ثورفالدسن قد أخبر هذا النبأ لمراد على الهاتف. وكان العالِم قد ردَّ على اتصاله قبل نصف ساعة واقترح أن يلتقيا وجهاً لوجه.

"إن وصية نابليون الأخيرة تذكر ذلك الكتاب بالتحديد"، قال مراد. "ولطالما كنت أشعر أن هذا المرجـع غريب. فنابليون كان لديه حوالي ألف وست مئة كتاب في متناول يده وهو في جزيرة القديسة هيلانة. ومع ذلك، فقد خرج عن المألوف وترك أربع مئة كتاب منها لسانت دينيس وتحديداً كتاب "الممالك الميروفنجية 450 -751 ميلادية ". وهذا يدل على أمر في غاية الأهمية بالتأكيد".

انتظر حتى يكمل الأكاديمي تفسيره للأمر.

"هناك نظرية في علم الآثار تقول : "النقاط الغامضة هي الأهم ". فعلى سبيل المثال، إن كان هناك ثلاثة تماثيل مربعة القاعدة بينما الرابع مستدير القاعدة، فإن التمثال الرابع هو الذي يكون مهمّاً فـي العادة. لقد تبين مراراً وتكراراً أن هذا المبدأ صحيح وخاصة عند دراسة مصنوعات فنية ذات طبيعة شعائرية أو دينية. فلنرجـع في الوصية إلى كتاب معين، قد يكون له نفس هذه الأهمية.

أخذ يصغي إلى مراد وهو يشرح له عن الملوك الميروفنجيين.

"قادتُهم، بدءاً من ميروفيش، الذي منه استمدوا هذا الاسم، وحَّدوا الفرنجةَ أولا ثم اكتسحوا الشرق وقهروا أبناء عمومهم الجرمانيين. وفي القرن الخامس، أقصى كلوفيس الرومان، وطالب بكويتانيا، وقاد القوطيين الغربيين إلى إسبانيا. واعتنق المسيحية وأعلن بلدةً صغيرة في منطقة السين، باريس، عاصمةً له. أما المنطقة المؤلفة من باريس وما حولها، التي تم اختيارها لأهميتها استراتيجياً، ولأنها محصَّنة يسهل الدفاع عنها، وخصبة، فقد دُعيت فرانسيا. لقد كان الميروفنجيون أنفسهم أشخاصاً غريبي الأطوار- يمارسون عادات غريبة، ويطلقون شَعْرَهم، ويطيلون لحاهم، ويدفنون موتاهم مع نحل ذهبي. تطوَّرت العائلة الحاكمة فتحولت إلى سلالة حاكمة، ثم انهارت بشكل

سريع مذهل. وفي القرن السابع أمسكت بزمام السلطة وبقوة في العالم الميروفنجي مجموعة من مديري البلاط، "محافظو القصر "، وكانوا كارولنجيين، استولوا في نهاية المطاف على الحكم وأبادوا الميروفنجيين".

قال مراد: "حكايا الميروفنجيين مليئة بالقصحر الخرافية وتندر فيها الحقائق التاريخية. ومع ذلك فقد كان نابليون مفتوناً بهم. النحل الذهبي الذي في عباءة تتويجه كان قد أُخذ منهم. كان الميروفنجيون أيضاً يؤمنون بقوةٍ بادّخار الغنيمة. فالغنائم التي كانوا يسرقونها عن عمد من الأراضي المحتلة، كان ملكهم هو المسؤول فيها عن توزيع الثروة بين أتباعه. وكقائد، كان يُتوقع منه أن يدعم ذاته كلياً بثمار غزواته. هذا المفهوم من الاكتفاء الذاتي الملكي دام من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر. وأعاد نابليون إحياء هذا المبدأ في القرن التاسع عشر".

"وبالنسبة إلى الكنز الذي يسعى آشبي وراءه، أتعتقد أن هذا الكتاب الميروفنجي هو معلَمٌ في الطريق إليه؟"

"لا نستطيع أن نعرف ذلك إلى أن نراه ".

"ألا يزال موجوداً؟"

لم تخبر كارولين دود آشبي عن موضع الكتاب بينما كانا فـي حجرة درسها. بل راحت تثيره وهي تقدّم له المعلومات، جـاعلةً إياه ينتظر بقية المعلومات بعد أن يتطارحا الغرام. ولسوء الحظ، لم يستطع تحريو ثورفالدسن الاستماع بنجاح إلى الأحاديث التي جرت في غرفة نوم آشبي.

ابتسم مراد وقال : "الكتاب موجود. لقد تحققتُ من ذلك منذ فترة. إنه معروض في قصر الأنفاليد حيث دُفِنَ نابليون. في واجهة عرض. وكان جزءاً مما تركه سانت دينيس إلى مدينة سينس عام **1856**. وهذه الكتب أعطتها مدينة سينس في نهاية المطاف للحكومة الفرنسية. معظم المجلدات احترقت في نار قصر التويلري عام **1871**. وما تبقى منها أخذ طريقه إلى الأنفاليد بعد الحرب العالمية الثانية. ولحسن الحظ بقي هذا الكتاب قيد الوجود".

"هل يمكننا أن نلقي نظرة عليه؟"

"ليس قبل أن تُجيبني على العديد من الأسئلة الذي أنا على يقين من أنك لا

تريد أن تجيب عليها. إن الفرنسيين لديهم نزعة استحواذ مفرطة لكنوزهم الوطنية. سألتُ زميلاً لي، وقال لي إن الكتب معروضة في قسم من المتحف في الأنفاليد. ولكن ذلك الجناح مغلقٌ حالياً وهو قيد الترميم".

فَهِمَ العقبات - كاميرات، بوابات، موظفو أمن. ولكنه كان يعرف أن غراهام آشبي يريد الكتاب.

"أريدك أن تكون موجوداً"، قال لمراد.

ارتشف البروفسور شرابه وقال : "من هذا أستنتج شيئاً فائق العادة. لقد كان نابليون يريد بلا ريب لابنه أن يحصل على هذا الكنز المخبّأ. لقد حرص كثيراً على جمع تلك الثروة، تماماً كأي ملك ميروفنجي. ولكن عندئذٍ، وخلافاً لأي ملكٍ ميروفنجي وأشبه ما يكون بطغاة هذه الأيام، فقد خبّأه في مكانٍ لا يعرفه أحد سواه"

كان باستطاعة ثورفالدسن أن يفهم إلى أي درجة كان هذا الكنز يغوي الناس

"بعد أن وقع نابليون فـي شرك جزيرة القديسة هيلانة بأمان، زعمت صحف إنكليزية أنه كان قد احتفظ بثروة طائلة فـي مكان ما". ابتسم مراد ابتسامة عريضة. "لأنه نابليون، فقد انتقم من نفيه بلائحة أسماها "الكنز الحقيقي " في عهده. ألا وهي متحف اللوفر والإجراءات العامة، وبنك فرنسا، ومؤسسة مياه باريس، والصرف الصحي للمدينة، والتحسينات المتعددة الأخرى التي حققها. لقد كان مِقداماً، أشهد له بذلك ".

وكان كذلك فعلاً.

"هل يمكنك أن تتخيل ما يمكن أن يوجد في ذلك المخزن الضائع؟" سأل مراد. "هناك آلاف من المواد الفنية كان نابليون قد نهبها ولم تُرَ منذ ذلك الحين. هذا إن لم نذكر أيضاً خزائن الدول والثروات الشخصية المسلوبة. إن الذهب والفضة يمكن أن يكون هائلاً في كميته. لقد أخذ سر كنزه المخبأ إلى قبره، وعهد بأربع مئة كتاب، بما فيهم ذلك الذي ذكر اسمه تحديداً، إلى أكثر خُدامه إخلاصاً، ألا وهو لويس إتيان سانت دينيس، رغم أني أشك في أن يكون لدى سانت دينيس أية معرفة بالمغزى. لقد كان يفعل ببساطة ما طلبه منه الامبراطور. وعندما مات ابن نابليون، في العام 1832، صارت الكتب بلا

معنى".

"ليس بالنسبة إلى بوزو دي بورغو "، قال ثورفالدسن.

كان مراد قد أخبره عن كل ما يتعلق بسلف إليزا لاروك المحترم ومعركة ثأره ضد نابليون التي استغرقت كل حياته.

"ولكنه لم يحلَّ اللغز"، قال مراد.

لا، لم يفعل ذلك دي بورغو. ولكن وريثاً جاء بعده كان يعمل بجهد ليقلب المعادلة محولاً الفشل إلى نجاح.

وكان آشبي قادماً إلى باريس.

وهكذا عرف ثورفالدسن ما ينبغي عليه أن يفعله.

"سأحصل على الكتاب".



رافق سام ميغان خـارجَين من مدخل جـانبي من كلونـي يؤدي إلى رصيف مفروش بالحصى تحدُّه أشجار باسقة طويلة. وكانت هناك فتحة في السياج المعدني والسور الذي كان يحيط بالمتحف تؤدي إلى الرصيف الذي سار فيه هو ومالون من قَبْل. عبرا الشارع، ووجدا محطة المترو، ثم استقلا عدة قطارات حتى وصلا إلى ساحة الجمهورية.

"هذه هي منطقة ماريه "، قالت ميغان وهما يخطوان إلى ذلك الجو البارد. كانت قد ألقت عنها القميص الفضفاض الأزرق، ليتبين أنها كانت ترتدي معطفاً قماشياً، تحته بنطال جينز، وحذاء عالي الساق. "لقد كانت يوماً ساحة للعرض العسكري، ولكنها صارت منطقة عقارات فخمة خلال القرون الخامس عشر إلى الثامن عشر، ثم صارت بحاجة إلى ترميم. وستعود إلى سابق عهدها".

تبِعها مروراً بمنظر مزدحم ببيوتٍ مصطفةٍ مرتفعةٍ أنيقة يزيد عمقها على عرضها. بيوتٌ من القَرميد الزهري، والحجارة البيضاء، والأردواز الرَّمادي، وذات درابزين بقضبان معدنية. وكانت محلات الألبسة على الموضة، ومحـلات العطور، والمقاهي، والمعارض الفنية تنبض بحيوية العيد.

"الكثير من القصور تمّ تجديدها"، قالت. "لقد صار هذا المكان جديراً بأن يُعاش فيه مرة أخرى ".

كان يحاول أن يقدِّر هذه المرأة. جزءٌ منها كان مستعداً للمجازفة بأي شيء لإثبات فكرة، ولكنها أظهرت رباطة جـأش في المتحف. وكانت هذه أكبر بكثير مما أبداه هو.

وهذا ما أزعجه.

"هنا كان المركز الرئيسي للهيكل في باريس، وقد وجد الفيلسوف روسو لنفسه ملاذاً في بعض هذه البيوت. وعاش فيكتور هيغو في الجوار. وفي هذا المكان سُجِنَ لويس السادس عشر وماري أنطوانيت".

توقّف. "لماذا نحن هنا؟"

وتوقّفت بدورها، وكان أعلى قمة رأسها بمستوى رقبته. "أنت فتى ذكـي، يا سام. استطعت أن أدرك ذلك من خلال موقعك وبريدك الإلكتروني. لقد تواصلت مع الكثير من الناس الذي يفكرون معالنا، ومعظمهم كانوا معتوهين، أما أنت فلا".

"وماذا عنكِ؟"

أبدت ابتسامةً عريضة. "أنت من يقرّر".

كان يعرف أن المسدس مستكيناً في أسفل ظهرها تحت الجاكيت الذي كانت ترتديه، حيث دسّته قبل أن يغادرا المتحف. وكان يتساءل ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما سار مبتعداً الآن. لقد أطلقت النار على ذينك الرجلين في المتحف بمهارة عملية واضحة.

وقال : "لنتابع السير ".

انعطفا عند زاوية أخرى وتجـاوزا أبنية أخرى ذات مداخـل تؤدي مباشرة إلى الرصيف. لم يكن هناك الكثير من الناس أو الكثير من الضجة في ذلك المكان الآن. فازدحام السير وضجته يقبعان خلف تلك المنطقة المكتظة بالأبنية.

"لنقل : قديمة كالتلال " قالت وهي تفكر. "الباريسيون يقولون : قديمة كالشوارع"

كان قد لاحظ لتوه كيف أن أسماء الشوارع كان يتم الإعلان عنها على علامات زرقاء مصقولة السطح مثبتة إلى زاوية المباني.

قالت : "جميع الأسماء لها معانٍ. إنها تكرّم شخصاً ماً أو شيئاً محدّداً، وتدلّ إلى أين يؤدي الشارع. وتحدّد الساكن المشهور فيه أو ما يجري فيه. هناك دائماً شيءٌ تدل عليه هذه الأسماء".

توقفا عند أحد نوايا الشارع. ورأيا لوحة مصقولة بلون أزدق وأبيض كُتِبَ عليها: شارع أرينييه.

"شارع العنكبوت "، قال مترجماً المعنى.

"إذاً فأنت تتكلم الفرنسية ".

"أستطيع أن أتدبّر أموري ".

لمعت نظرة انتصار تعبر وجهها. "أنا متأكدة من أنك تستطيع ذلك ". وإنك على وشك أن ترى شيئاً تعرف القليل عنه ". وأشارت إلى طريقٍ ضيق وقالت: "انظر ذاك البيت الرابع ".

نظر إلى حيث أشارت. كان هناك بيتٌ ذو واجهات من الآَجر الأحمر مع سطوح مائلة مطلية بالأسود، ونوافذ ذات أعمدة حجرية، ودرابزين معدني. كان هناك مدخل مقنطر عريض، متوّج بقوصرة منحوتة، ذات قضبان وبوابة مزخرفة.

"بُني عام 1395"، قالت. "وأُعيد بناؤه عام 1660. وفي العام 1777 سكن فيه حشد من المحامين. كانوا واجهة لغسيل الأموال الإسبانية والفرنسية للثوار الأمريكيين. هؤلاء المحامون أنفسهم باعوا أسلحة للجيش الأمريكي لقاء فواتير وتعهُّدات بتسليمٍ للتبغ وحاجات سكان المستعمرات في المستقبل. والأمريكيون المعتصمون خدًعوهم عند التسليم. ألسنا شعباً عظيماً؟"

لم يُجِبْها إذ شعر بأنها على وشك أن توضح نقطة ما.

"أولئك المحامون رفعوا دعوة ضد الأمة الجديدة وفي النهاية حصلوا على تعويض في العام 1835. حقراءُ أنذالٌ، أليسوا كذلك؟"

"كان لا يزال ملازماً للصمت.

"في القرن الثالث عشر، استقرّ مقرضو المال اللومبارديون هنا في مكان

ما. مجموعة جشعة، كانوا يقرضون المال بفوائد عالية ويستردّونه بشروط صعبة"

أشارت من جديد إلى البيت الرابع ونظرت باتجاهه.

"هناك يجتمع النادي الباريسي ".

34

الساعة 6:10 مساءً

قرع مالون برفق على الباب ذي الألواح الزجاجية. كان قد ترك المتحف واستقلّ سيارة أجرة عبرت به المدينة حتى فندق ريتز. وكان يأمل أن يكون صديقه ثورفالدسن قد عاد من وادي اللوار، وشعر بارتياح كبير عندما فتح له صديقُه الباب بنفسه.

سأله ثورفالدسن وهو يدخل إلى الجناح : هل كان لك علاقة بما حدث في كلوني؟ لقد سمعنا عنه في التلفزيون ".

"نعم. لقد كنتُ هناك، ولكني تدبَّرت أمري لأخرج سريعاً قبل أن أُمسَك".

"أين سام؟"

لخّص له كل ما حدث، بما في ذلك خطف سام، وحَبك الحقائق بينما كان يوضح الأمور حول أن جيمي فودريل هو نفسه ميغان موريسون، متجاهلاً أية إشارة إلى ظهور ستيفاني. كان قد قرر أن يُبقي ذلك الأمر طي الكتمان. إن كانت لديه أية فرصة لإيقاف ثورفالدسن، أو على الأقل إعاقته، فلا يجدر به إذاً أن يذكر تورّط واشنطن في المسألة.

غريبٌ كيف انقلبت الأدوار. فثورفالدسن هو عادة من يخفي الحقائق ويحجبها عن مالون.

"هل سام على ما يرام؟" سأل ثورفالدسن.

قرر أن يكذب. "لا أعلم. ولكن لا أستطيع أن أعرف الكثير عن ذلك الآن ".

راح يصغي بينما لخّص ثورفالدسن زيارته التي قام بها لإليزا لاروك، وختم حديثه بقوله : "إنها امرأة خسيسة. كنتُ مضطراً أن أجلس هناك، ومهذباً جداً، بينما أفكر طوال الوقت بكاي".

"ليست هي التي قتلته".

"لا أعفيها من مسؤولية ذلك بسهولة. آشبي يعمل معها. هناك ارتباط وثيق

بينهما، وهذا كافٍ بالنسبة لي".

كان صديقه متعباً، وعيناه المتعبتان كانتا دليلاً واضحاً على أنه منهك.

"يا كوتون، آشبي يسعى وراء كتاب ".

أصغى إلى مزيد من المعلومات عن وصية نابليون وعن كتاب "الممالك الميروفنجية 450 -751م"، هذا الكتاب الذي يفترض أن يكون معروضاً فـي قصر الأنفاليد.

"أريد أن أحصل على ذلك الكتاب أولاً"، قال ثورفالدسن.

أفكارٌ ضبابية طغت على فكره. كانت ستيفاني تريد أن توقف ثورفالدسن. ولكي تفعل ذلك، على مالون أن يمسك بزمام الأمور، ولكن ذلك كان أمراً طويلاً نظراً إلى من يقود الأمور في هذه اللحظات.

"أتريدني أن أسرقه؟" سأله.

"لن يكون الأمر سهلاً. فالأنفاليد كان يوماً مستودع أسلحة، قلعة ".

"ليس هذا بجواب ".

"نعم أريد".

"سأحصل على الكتاب. وبعد ذلك ما الذي ستفعله؟ هل ستجد الكنز المخبّأ؟ وتُذلّ آشبي؟ تقتله؟ فتشعر بتحسن؟"

"كلّ ما ذكرت".

"عندما اغتيل ابني في العام الماضي، كنتَ إلى جانبي. لقد كنتُ في حاجة إليك، و أتيتَ إليّ. أنا هنا الآن. ولكن علينا أن نستخدم عقولنا. لا يمكنك أن تقتل رجلاً بكل بساطة ".

بدا تعبيرٌ بالتعاطف العميق يَعْبُر على وجه الرجل العجوز. "لقد فعلتُ ذلك ليلة أمس".

"ألا يزعجك هذا؟"

"أبداً على الإطلاق. كابرال قتل ابني. وقد استحق الموت. آشبي مسؤول مثل كابرال. وليس هذا هو الأمر المهم، فقد لا أقتله. لاروك يمكن أن تؤدي هذا العمل بالنيابة عني".

"وهل يسهّل هذا الأمرَ عليك؟"

كانت ستيفاني قد أخبرته أن آشبي كان آتياً إلى باريس، وأكدت أن لاعبه الأمريكي سيحصل في يوم الغد على تفاصيل كاملة عما سيجري. كان مالون يحتقر البريطان-ي لأجل ما فعله لثورفالدسن- ولكنه كان يدرك أهمية وقيمة المعلومات الاستخباراتية التي كان آشبي يستطيع تقديمها والمغزى من النيل من رجلٍ مثل بيتر لايون.

"يا هنريك، عليك أن تسمح لي بأن أعالج هذه النقطة. أستطيع القيام بذلك. ولكن يجب أن تكون بطريقتي أنا".

"أستطيع أن أحصل على الكتاب بنفسي".

"إذاً فما الذي أفعله هنا أنا؟"

شقّت ابتسامةٌ حرون طريقَها إلى شفتي العجوز. "آمل أنك هنا للمساعدة ".

أبقى عينيه على ثورفالدسن. "بطريقتي".

"أريد آشبي، يا كوتون. هل تفهم ذلك؟"

"أفهم. ولكن دعنا نكتشف ما الذي يجري قبل أن تقتله. بهذه الطريقة تكلمتَ أنت البارحة. هل نستطيع الالتزام بذلك؟"

"لقد بدأت أفقد الاهتمام بما يجري يا كوتون".

"إذاً فلماذا ارتباطك بلاروك والنادي الباريسي؟ اقتل آشبي وأنهِ المسألة". التزم صديقه بالصمت.

"وماذا عن سام؟" سأل ثورفالدسن أخيراً. "إني قلق عليه ".

"سأعالج هذا أيضاً". وتذكّر ما كانت ستيفاني قد قالته له. "لكنه فتى كبير، ولذلك سيتعلم أن يهتمّ بنفسه. على الأقل لفترة ".



دخل سام الشقة، في ذلك القسم من البلدة الذي أسمته موريسون مونبارناس، ليس بعيداً عن متحف كلوني وقصر اللوكسمبورغ، في مبنى كان يتمتع بسحر خارق في غابر الأزمان. وكانت العتمة قد لفّتهما في طريقهما من محطة المترو.

"لقد عاش لينين هنا مرةً على بُعْد بضعة أبنية "، قالت. "وقد صار الآن متحفاً، رغم أني لا أرى أن هناك من يمكن أن يزوره ".

"ألستِ مؤيدة للشيوعية؟" سألها.

"أبداً. إنها أسوأ من الرأسمالية، من نواحٍ كثيرة ".

كانت الشقة عبارة عن استديو رحب فسيح في الطابق السادس مع مطبخ صغير وحمّام، وما يوح-ي بأن المستأجر هو طالب. مطبوعاتٌ بدون إطارات وبوسترات تزدهي بها الجدران. وكانت هناك رفوف مرتجلة مكتظة تنوء تحت ثِقل الكتب التي تحملها. لاحظ زوجاً من الأحذية الرجالية إلى جانب كرسي وبنطال جينز ملفوف على الأرض، هو أكبر بكعير من أن يكون لموريسون.

"هذا ليس مكان سكني"، قالت، وقد رأت اهتمامه. "إنه لِصديق ".

"خلعتْ معطفَها، وحررت المسدس، ووضعته ببساطة على الطاولة.

لاحظ ثلاثة أجهزة كمبيوتر ومخدّم في إحدى الزوايا.

أشارت وقالت : "هذا هو GreedWatch. أنا أدير الموقع من هنا، ولكني أجعل الجميع يعتقدون أن جيمي فودريل هو من يفعل ذلك ".

"لقد تأذّى الناس في المتحف "، قال لها من جديد. "وهذه ليست لعبة ".

"لا بل إنها كذلك، يا سام. إنها لعبة كبيرة رهيبة. ولكنها ليست لعبتي. إنها لعبتهم، وان كانوا الناس يتأذون فهذه ليست غلطتي ".

"لقد بدأتِ بذلك عندما صرختِ على ذينك الرجلين ".

"كان يجب عليك أن ترى الواقع ".

قرر بدلاً من أن يجادلها مرة أخرى حول ما هو واضح أن يفعل ما تعلّمه من وكالة الاستخبارات السرية - أي أن يبقيها تتكلم. "أخبريني عن النادي الباريسي".

"يهمّك الأمر؟"

"نعم وأنت تعرفين ذلك ".

"اعتقدتُ أنك ستكون مهتماً. كما قلتُ لك، أنت وأنا نفكر بنفس الطريقة ". لم يكن متأكداً جداً مما تقوله، ولكنه حافظ على صمته.

"بحسب معلوماتي يمكنني أن أخبرك أن النادي مؤلّف من ستة أشخاص. كلّهم من ذوي الثراء الفاحش. إنهم أنذال جشعون نموذجيون. خمس مليارات من الأصول لا تكفي. إنهم يريدون ستة أو سبعة. أعرف شخصاً يعمل لصالح أحد هؤلاء الأعضاء..."

أشار وقال : "نفس الشخص الذي يرتدي هذا الحذاء العالي؟"

اتسعت ابتسامتها إلى شكل هلالي. "لا. بل فتى آخر".

"إنك فتاة كثيرة المشاغل ".

"عليك أن تكون كذلك لكي تبقى في هذا العالم ".

"من أنتِ بحق السماء؟"

"أنا الفتاة التي ستنقذك يا سام كولنز".

"لستُ في حاجة إلى إنقاذك لي ".

"بل أظن أنك في حاجة إلى ذلك. فما الذي تفعله هنا؟ أنت أخبرتني قبل قليل أن رؤساءك قد منعوك من الحفاظ على موقعك الإلكتروني ومن التحدث إلي. ومع ذلك فإنه لا يزال موجوداً هناك وأنت لا تزال هنا، وتريد أن تجدني. هل هذه الزيارة رسمية؟

لم يستطع أن يخبرها الحقيقة. "أنتِ لم تخبريني شيئاً عن النادي الباريسي ".

جَلست بشكل جانبي إلى أحد كراسي الفينيل، ووضعت ساقيها الواحدة فوق الأخرى، وأمالت عمودها الفقري إلى الجانب الآخر. "سام، سام، يا سام. أنت لم تفهم، أليس كذلك؟ هؤلاء الناس يخططون لأشياء. إنهم خبراء في المضاربة في الأسواق المالية، وينوون أن يفعلوا كل ما تكلّمنا عنه فعلياً. سوف يتحكمون بالأنظمة الاقتصادية، ويغشّون الأسواق، وينقصون قيمة العملات. أتتذكر كيف أن أسعار النفط قد تلأذرت العام الماضي؟ المشتغلون في المضاربات التجارية، الذين يقودون السوق باحتراف هم أناس مخبولون أعمى الجشَعُ عيونَهم، هم الذين فعلوا ذلك. وهؤلاء الناس ليسوا مختلفين عنهم ".

"لا أفهم شيئاً من ذلك ".

سمعا صوت طرق على الباب أجفلهما، وكانت هذه أول مرة يرى تصدعاً في مظهرها الجليدي. نظرت إلى المسدس الذي كان موضوعاً على الطاولة.

سأل: "لماذا لا تجيبي على الباب وحسب؟"

سُمع صوت نقرة أخرى. خفيفة. لطيفة.

"أتعتقدين أن الأشرار يقرعون الباب؟" سألها، وهو يحاول أن يستعيد رباطة جأشه. "وحتى أن هذا المسكن ليس لك، صحيح؟"

ألقت إليه نظرة متفحصة. "إنك تتعلّم بسرعة ".

"لقد تخرجت من الجامعة ".

وقفت وسارت باتجاه الباب.

عندما فتحت الباب ظهرت امراةٌ ضئيلة الجسم ترتدي معطفاً بلون كاك-ي. ربما كانت في بداية الستينيات، بشعرٍ فيه خصلات فضية اللون، وحاجبين بنيين كثيفين. وكان وشاحٌ من الحريرً يلفّ عنقها. رفعت يداً تحمل محفظة جلدية عليها شارة وهوية ذات صورة.

واليد الأخرى كانت تحمل بيريتّا.

قالت المرأة : "آنسة ماريسون، أنا ستيفان-ي نيلي، من وزارة العدل الأمريكية ".

35

وادي اللوار
الساعة 7 مساء

قطعت إليزا المسافة في الردهة الطويلة بسرعة وأصاخت السمع إلى الريح الشتوية التي راحت ترتطم بنوافذ القصر. استرجعت في ذاكرتها كل ما كان قد أخبرها به آشبي خلال العام المنصرم، وهي تشعر بالانزعاج من إمكانية أن تكون قد ارتكبت خطأً فادحاً.

لقد سجّل التاريخ كيف أن نابليون بونابرت كان قد سلب أوروبا، واستولى على كمياتٍ هائلةٍ من المعادن الثمينة، والمجوهرات، والقطع الأثرية، واللوحات الفنية، والكتب، والتماثيل والمنحوتات - كل ما كان له قيمة. توجد قوائم جرد بالغنائم، ولكن ما من واحدةٍ منها يمكن الاعتماد عليها بدقة. علِمَ بوزو د ي بورغو أن نابليون كان قد وضع في مكانٍ سري أجزاء من الغنائم لم يكن أحد يعرف مكانها سواه. وأشارت الشائعات فَي أيام نابليون إلى كنوز خرافية، ولكن ما من شيءٍ كان يدل على مكان وجودها.

لقد بحث سلفُها عشرين سنةً عن تلك الكنوز.

توقّفَتْ أمام إحدى النوافذ وحدّقت بنظرها إلى العتمة. هناك في الأسفل كان يتدفق نهر الشير في الماضي. تنعّمَتْ بدفء الغرفة واستمتعت بعطرها المنزلي. كانت ترتدي رداء خفيفاً فوق ثياب نومها وكانت تشعر بالارتياح في هذه الثياب. كانت تجد أن الكنز الضائي سيكون طريقها للانتقام لبوزو د ي بورغو وبذلك تحقِّقُ الثأر لميراثها، وتجعل عائلتها ذات أهمية من جديد.

ثأرٌ كاملٌ.

كانت عائلة دي بورغو إحدى أعرق العائلات في كورسيكا. عندما كان بوزو صغيراً كانت له علاقة حميمة مع نابليون. ولكن الثائر الأسطوري باسكال باولي دكَّ إسفيناً بينهما عندما آثرَ عائلة دي بورغو على عائلة بونابرت، الذين وجدهم طموحين جداً في ميولهم.

بدأت عداوةٌ رسمية بين العائلتين عندما قام نابليون بانتخابات، وهو شاب، كملازم وسط المتطوعين الكورسيكيين مع أخ لبوزو دي بورغو كخصم له. الطرق الفوقية التي اعتمدها نابليون وحزبه لضمان نتائج جيدة في الانتخابات أثارت ضغينة عائلة دي بورغو. وصار الصّدْع كاملاً بعد العام 1792، عندما وقف آل بورغو إلى جانب استقلال كورسيكا بينما عائلة بونابرت كانت تميل إلى فرنسا. ودُعي بوزو دي بورغو في نهاية الأمر رئيساً للحكومة المدنية الكورسيكية. وعندما احتلت فرنسا، بقيادة نابليون، كورسيكا، هرب دي بورغو وظل لثلاثة وعشرين سنةً يعمل بمهارةٍ لتدمير عدوه اللدود.

"جميع المحاولات لمحصري، ووضح حدّ لـي، وإضعافي، سيكون من الصعب عليها أن تجعلني أختفي من ذاكرة العامة بشكلٍ كامل. إن المورخين الفرنسيين سيتعاملون مع الأمبراطور وسيعطونني ما أستحق من إكرام وتوجيب ".

لقد كانت تلك غطرسة نابليون. وهذه كانت تحرقها فـي ذاكرتها. من الواضح، بالنسبة لها، أن الطاغية قد نسي مئات القرى التي كان قد أحرقها حتى الأرض من روسيا، إلى بولندا، إلى بروسيا، إلى إيطاليا، وعبر سهول وجبال إيبيريا. آلافٌ من السجناءِ تمَّ إعدامهم، مئات آلافٍ من اللاجئين صاروا مشرّدين، نساءٌ لا يُحصى عددهنَّ اغتصبهنَّ جيشه الكبير. وحوالي ثلاثة ملايين جندي تركهم أمواتاً لتَنْتُن جثثهم عبر أوروبا. وملايين آخرين جُرحوا أو أصيبوا بإعاقةٍ دائمة. والمؤسسات السياسية تدمرت في عدة مئات من الدول والإمارات. أنظمةٌ اقتصاديةٌ تحطّمت. خوفٌ ورعبٌ كانا في كل مكان، بما فيها فرنسا. لقد كانت توافق الرأي على ما قاله الكاتب الفرنسي العظيم إميل زولا في ملاحظةٍ كتبها في نهاية القرن التاسع عشر: "إنه لجنونٌ كاملٌ أن يعتقد المرء أنه يستطيع منع حقيقة التاريخ من أن تكتب في نهاية الأمر".

وماذا عن حقيقة نابليون؟

إن تدميره للدول الجرمانية، واعادة توحيده لها، مع بروسيا، وبافاريا، وسكسونيا، وتسهيل القومية الجرمانية، التي أدّت إلى اندماجها بعد مئات السنين، قد حثَّ على بروز بسمارك، وهتلر، ونشوء حربين عالميتين.

"إن المؤرخين الفرنسيين سيتعاملون مع الإمبراطور وسيعطونني ما

أستحق من إكرام وتوجيب".

آهٍ، نعم.

وهذا ما ستفعله.

طرقت أعقاب أقدامٍ من حذاءٍ جلدي أرضية الرواق. التفتت ونظرت إلى خادمتها فرأتها تدخلُ إلى الغرفة. لقد كانت تتوقع الاتصال وكانت تعرف من كان على الخط الآخر.

سلّمتها مساعدتها الهاتف، ثم انسحبت.

"مساء الخير، غراهام ". قالت للمتحدث على الهاتف.

قال آشبي: "لدي خبرٌ رائع. البحث والتحري قد حققا نتائجهما. أعتقد أني وجدت رابطاً يمكن أن يقودنا مباشرةً إلى مكان الكنز المخبّأ".

أثار كلامه انتباهها.

وقال : "وسأحتاج إلى بعض المساعدة ".

راحت تصغي إليه، وفكرها محترسٌ ومرتاب، ولكن الاحتمالات التي كان حماسه يَعِدُ بها قد حفزتها.

وأخيراً قال: "بعض المعلومات عن الأنفاليد ستكون مفيدةً. ألديك طريقةً للقيام بذلك؟"

تسارعت أفكارها حول الاحتمالات. "نعم ".

"كنت أعتقد أنك تستطيعين فعل ذلك. سآتي في الصباح ".

استفسرت عن المزيد من التفاصيل، ثم قالت : "أحسنت صنعاً، يا غراهام"

"ليكن كذلك ".

"وماذا عن عرضنا في عيد الميلاد؟" سألته.

"تماماً كما في جدول أعمالنا، كما طلبتِ ".

كان هذا هو ما أرادت أن تسمعه بالضبط. "إذاً سأراك يوم الاثنين ".

"لن أُفوّت الموعد".

ووَّدعا بعضهما.

كان ثورفالدسن قد ضايقها من احتمال أن يكون آشبي خـائناً. ولكن البريطاني كان يفعل كل ما كانت تطلبه منه، وكان يقوم به على أكمل وجه.

ومع ذلك، فإن الشكّ كان يُخيِّم على أفكارها.

بعد يومين.

ستُضطر للمعاناة من هذه الأفكار خلال هذين اليومين، على الأقل إلى أن يحين ذلك الموعد.



وقف سام على قدميه عندما دخلت ستيفاني نيلي الشقة وأغلقت ميغان الباب. وكان تعرُّقٌ باردٌ جامد كالجليد يتصبَّب من جبهته.

قالت ميغان، وقد شعرت بالانفعال بشكلٍ واضح:

"هذه ليست الولايات المتحدة. ليس لديك سلطة هنا".

"هذا صحيح. ولكن فـي هذه اللحظة، الأمر الوحيد الذي يمنع شرطة باريس من اعتقالك هو أنا. أتفضلين أن أغادر، وأسمح لهم بأن يأخذوكِ، وهكذا نستطيع أن نتكلم معاً وأنت في الحجز؟"

"وما الذي فعلتُه؟"

"حمل سلاح، وإطلاق النار بسلاحٍ ناري ضمن بناءٍ حكومـي، واثارة الشغب، وتدمير ممتلكات الدولة، والخطف، والاعتداء. هل أُضيف إلى ذلك؟"

هزّت ميغان رأسها وقالت : "إنكم جميعكم على نفس المنوال ".

ابتسمت ستيفاني. "سأعتبر هذه مجاملة منك ". نظرت إلى سام وجهاً إلى وجه. "لا حاجة لأن أقول إنك عالَمٌ من الإزعاج. ولكني أفهم جزءاً من المشكلة. أنا أعرف هنريك ثورفالدسن. وأفترض أنه جزئياً على الأقل يحمل الملامة على وجودك هنا".

لم يكن يعرف هذه المرأة، ولذلك ما كان ليخون الشخص الوحيد الذي عامله بمقدارٍ كبير من الاحترام. "ما الذي تريدينه؟"

"أريدكما كليكما أن تتعاونا معي. إن فعلتِ ذلك، يا آنسة موريسون، فستبقين خارج السجن. وأنتَ، يا سيد كولنز، قد نُبقيك في مهنتك ".

لم يحب موقفها المتملَق. "وماذا إن قلت لك لا أريد مهنة؟"

رمته بنظرة كان قد رآها من رؤسائه قبلاً - أناسٌ يضعون قوانين صارمةٍ ويضعون حواجز تجعل الأمور شبه مستحيلة على أي شخص لأن يتجاوزها.

"كنتُ أعتقد أنكَ تريد أن تكون موظفاً ميدانياً. هذا ما أخبرتني به وكالة الاستخبارات السرية. وأنا أقدِّم لك هذه الفرصة بكل بساطة ".

فسألها: "وما الذي تريدين مني أن أفعله؟"

"هذا كله يعتمد على الآنسة موريسون هنا". نظرت المرأة المسنَّة إلى ميغان. "إن كنتِ تصدقين ذلك أم لا، أنا هنا لأقدم المساعدة. ولذلك أخبريني، إضافة إلى كلامك الذي نشرته على موقعك الإلكتروني عن مؤامراتٍ عالمية قد تكون موجودة أو غير موجودة، هل هناك دليل ملموس لديك يمكن أن أستخدمه في تحرياتي؟"

"يا لكِ من امرأةٍ مغرورة ومزهوَّة بنفسك!"

"ليس لديك فكرة ".

ابتسمت ميغان. "إنك تذكّرينني بأمي. لقد كانت قاسية أيضاً".

"أفهم من كلامك أنك تقولين إني طاعنة في السن. إنك لا تحبِّبين نفسك إليّ.

"لا زلتِ الطرف الذي يحمل مسدساً".

خطت ستيفاني نحوهما واقتربت من طاولة المطبخ، حيث كان مسدس ميغان موضوعاً. رفعت السلاح. "لقد مات رجلان في كلوني. وثمة رجل آخر في المستشفى"

سأل سام: "الحارس؟"

أومأت ستيفاني برأسها. "سينجو".

سُرَّ لسماع ذلك.

"وماذا عنكِ، يا آنسة موريسون؟ أيسرّك أن تسمعي ذلك أيضاً؟"

"إنها ليست مشكلتي". قالت ميغان.

"لقد بدأتِ بالقصة ".

"لا. لقد كشفتُ الأمور".

"ألديك أدنى فكرة عمّن يعمل لصالحه هذان الرجلان الميتان؟"

أومأت ميغان برأسها وقالت : "النادي الباريسي ".

"هذا ليس جواباً صحيحاً مئة بالمئة. في الواقع، إليزا لاروك قد استخدمتهما ليتعقّبا الطّعم الذي كنتِ تضعينه ".

"لست بعيدةً عن الصواب ".

"إذاً أخبريني شيئاً لا أعرفه ".

"حسناً، أيتها السيدة الذكية. ما رأيك في ذلك؟ أعرف ما سيحدث خلال يومين"



جلس ثورفالدسن لوحده في جناحه في فندق ريتز، وقد أسند رأسه إلى ظهر الكرسي. كان مالون قد ذهب بعد أن أكّد له أنه سيحصل في يوم غدٍ على الكتاب من قصر الأنفاليد. لقد كان يثق بصديقه، أكثر مما يثق بنفسه الآن.

سكب لنفسه شراباً وأخذ يرتشفه من قدحٍ من الكريستال محاولاً أن يُهدّئ أعصابه. والحمد لله، فكل أرواح المزاح الصاخبة في داخله قد استعادها في تلك الليلة. لقد كانت لديه أفكار مزعجة كثيرة، ولكن هذه الفكرة كانت مختلفة - أكثر من شخصية، كانت واضحة فوق العادة - وهذا ما أخافه. سوف يكون على احتكاكٍ مع غراهام آشبي يوم غدٍ، ويعرف أن تلك اللحظة ستكون صعبة جداً. فهو يجب أن يُبدي الودّ واللطف، وأن يصافح يد الرجل الذي قتل ابنه، متعاملاً معه بكل لباقةٍ ممكنة. ويجب ألا يُظهر له أي دليل على أنه يعرف الحقيقة إلى أن تأتي اللحظة المناسبة.

شَرِب المزيد.

اِلتمعت ذكرى جنازة ابنه كاي في فكره.

كان التابوت مغلقاً بسبب الضرر المتعذر إصلاحه الذي أحدثته الرصاصات في جثة ابنه، ولكنه رأى ما تبقى من وجه ابنه. لقد كان مُصِرّاً على أن يرى وجهه. كان في حاجةٍ إلى تلك الصورة المخيفة لتبقى متّقدةً في ذاكرته لأنه كان يعرف أنه لن يرتاح إلى أن يعرف سبب ذلك الموت بشكل كامل.

والآن، وبعد سنتين، عرف كامل الحقيقة.

وكان على وشك أن يحقِّقَ انتقامه خلال بضع ساعات.

لقد كذب على مالون. فحتى لو رتّب لأن يُحرّض إليزا لاروك ضد آشبي، فإنه لا يزال ينوي أن يقتل ذلك النذل بنفسه.

ما من أحدٍ آخر سيفعل ذلك.

هو وحده فقط.

سيجري الأمر على نفس المنوال كما الليلة الفائتة عندما أوقف جسبر وأطلق النار على أماندو كابرال وجماعته. ما الذي صار إليه؟ أقاتل؟ لا. بل منتقم. ولكن هل ثمة فارق بين الأمرين؟

حمل كأسه إزاء النور وشعر بالإعجاب بلون الشراب الغني. ارتشف جرعةً أخرى، أطول من الأولى، هذه المرة، وشعر بمزيدٍ من الرضى.

أغلق عينيه.

ذكرياتٌ متناثرةٌ تردّدت في فكره، تذوي لفترةٍ، ثم تعود للظهور. كل شيءٍ عاد إلى ذاكرته من خلال عمليةٍ هادئةٍ صامتةٍ، كما الحال عند عرض صورٍ متنقلة متبدّلة بجهاز عرض.

ارتعشت شفتاه.

الذكريات التي كاد ينساها - من حياةٍ لم يعرفها منذ عدة سنوات - راحت تحوم أمام ناظريه، وتصبح ضباباً، ثم تتلاشى.

كان قد دفن كاي في العزبة، في مقبرة العائلة، إلى جانب ليزيت، وسط عدة أشخاص من عائلة ثورفالدسن كانوا قد رقدوا هناك منذ قرون، وكان ابنه يرتدي بذلةً رماديةً بسيطةً ويضع وردةً صفراء. لطالما أحبّ كاي الورود الصفراء، كما كانت ليزيت أيضاً.

تذكّر الرائحة الخاصة التي صدرت من التابوت - رائحة حمضية، شديدة الرطوبة، رائحة الموت.

عاد إليه الشعور بالعزلة في موجةٍ جديدة.

أفرغ القدح بأكمله.

موجة من الحزن انتابته بقوةٍ لا تُقاوم.
ما من شكوكٍ أخرى تزعجه. نعم، عليه أن يقتل غراهام آشبي بنفسه.

36

باريس
الاثنين، 24 كانون الأول (ديسمبر)
الساعة 11 قبل الظهر

دخل مالون كنيسة القبة، وكان مشدوداً إلى الطرف الجنوبي من فندق الأنفاليد المهيب. الصرح المزخرف مع الواجهة ذات الأعمدة على النمط الدوري الإغريقي، والقوصرة الوحيدة، كانت تعلوه قبة مذهَّبة مهيبة - ثاني أعلى بناء في باريس - تتوّجه منارة وبرج. كان في الأصل مكاناً ملكياً للعبادة، شيَّده الملك لويس الرابع عشر ليطري على مجد الملكية الفرنسية، وقد حوّله نابليون إلى مقبرة للمحاربين. كان يرقد هنا ثلاثةٌ من أعظم الأشخاص الذين مروا في تاريخ فرنسا العسكري - تورين، وفوبون، وفوش. في العام 1861 دُفِنَ نابليون نفسُه تحت تلك القبة، ثم انضم إليه أخواه وابنُه.

لم تُقلل ليلة عيد الميلاد من عدد المحتشدين المتوافدين إلى المكان. لقد تم فتح الكنيسة قبل ساعةٍ فقط، وسرعان ما اكتظَّ المكان بالناس. رغم أن المكان ما عاد يُستخدم للخدمات الدينية، إلا أن إعلاناً كان لا يزال هناك يطلب من الجميع أن ينزعوا قبعاتهم وأن يتكلموا بصوتٍ منخفض.

آخر ليلة أمضاها في فندق ريتز كان قد مكث فيها في غرفةٍ رتّب لها ثورفالدسن، وأمضاها ملتمساً النوم، ولكنه عانى من أفكارٍ كثيرةٍ مزعجةٍ أقلقت راحته. لقد كان قلقاً بشأن سام، ولكنه كان يثق بأن ستيفاني مسيطرة على الوضع. وكان قلقاً أكثر على ثورفالدسن. معارك الثأر يمكن أن تكون مكلفةً جداً، بمجالاتٍ كثيرة - وهذا شيءٌ علِمه من خبرات شخصية. كان لا يزال غير متيقنٍ من كيفية تمكّنه من كبح ثورفالدسن، ولكنه كان يعرف أن هذا هو ما عليه أن يفعله في نهاية الأمر.

وبسرعة.

سار بتمهل نحو درابزين من الرخام بارتفاع الخصر، ونظر إلى الأعلى نحو القبة التي تعلو المكان. كانت هناك صور الإنجيليين، وملوك فرنسا، والرسل

يحدّقون إليه. نظر إلى ما تحت القبة في الأسفل، فرأى وراء عمود الدرابزين ناووس نابليون.

لقد كان يعرف التفاصيل. سبعة توابيتٍ كانت تحفظ بقايا الإمبراطور، وكلٌّ منها داخل الآخر، واثنان من الرصاص، والبقية من خشب الماهوغاني، والحديد، والأبنوس، والسنديان، والتابوت الظاهر الخارجي- من الرخام السمّاقي - تلك المواد التي كانت تحفل بها القبور الرومانية. كان حجم التابوت يبلغ 12 قدماً طولاً و 6 أقدام ارتفاعاً، وكان مزيناً بإكليلِ الغار، وقد استقر على قاعدةٍ من الغرانيت الرمادية اللون. اثنتا عشرة صورةً ضخمةً من صور النصر وأسماء معارك نابليون الرئيسية كانت محفورةً على الأرضية المحيطة بالقبر.

نظر عبر الكنيسة المحتشِدة نحو غراهام آشبي.

كان البريطاني يطابق المواصفات التي كانت ستيفاني قد زوَّدته بها وكان يقف في الجانب البعيد من المكان، قرب درابزين مستدير.

كان ثورفالدسن قد أخبره قبل ساعةٍ أن رجاله قد تبعوا أثر آشبي من لندن إلى باريس إلى هنا. وإلى جانبه كانت تقف امرأةٌ جذابةٌ ذات شعرٍ مسترسلٍ طويل. أعادت إليه ذكرى امرأةٍ شقراء لفتت انتباهه خلالَ الأسبوعين الماضيين. إحدى تلك الأخطاء في الحُكْم التي كادت تودي بحياته.

وقفت الشقراء وقد أسندت وركيها إلى الدرابزين، وكان ظهرها محنياً إلى الأمام، وكانت تشير إلى الأعلى نحو السطح ذي الأعمدة المثيرة للإعجاب الذي كان يحيط بالكنيسة، وعلى ما يبدو فإنها كانت تشرح شيئاً وجده آشبي ممتعاً شيقاً. لا بد أنها كانت كارولين دود. كان ثورفالدسن قد أعطاه ملخصاً وصفياً عنها. إنها خليلة آشبي، ولكنها أيضاً الحائزة على درجاتٍ وشهاداتٍ جامعية في تاريخ القرون الوسطى والأدب. كونها موجودة هناك له مغزى ويدل على أن آشبي كان يعتقد بوجود شيءٍ ما هام هناك.

ارتفع مستوى الضجة المحيطة به والتفت حوله. اندفع بحرٌ من الناس داخلين إلى المكان عبر الأبواب الرئيسية. راح يراقب بينما كان كلّ زائرٍ يدفع رسم الدخول.

نظر حوله وأُعجب بمجموعةٍ من الرخام ترتفع حوله، وبالقبة التي كانت

ترفعها عالياً أعمدةٌ كورنثية الطراز. رموزٌ للملكية بزغت من الديكور المنحوت، مذكرةً الزائر بأن هذه كانت يوماً كنيسة الملوك، والآن هي موطن الإمبراطور.

"مات نابليون عام 1821 في جزيرة القديسة هيلانة "، سمِع أحد الأدلة السياحيين يشرح بالألمانية لمجموعةٍ قريبة. "دفنه البريطانيون هناك، مع بعض التكريم، بهدوءٍ وبدون ضجة. ولكن في وصيته الأخيرة كان نابليون قد كتب أنه يريد أن يُلقى رماد جسده على ضفاف نهر السين وسط الشعب الفرنسي الذي أحبه جداً. لذلك وفي العام 1840، قرر الملك لويس فيليب أنٍ يكرّمَ ويُجلَّ تلك الرغبة وأن يأتي بالإمبراطور إلى الديار. لقد كانت حركةً يُقصد بها في آنٍ معاً إرضاء العامة ومصالحة الفرنسيين مع تاريخهم. ففي ذلك الحين، كان نابليون قد تحول إلى أسطورة. ولذلك ففي 15 كانون الأول (ديسمبر) 1840، وفي مراسم فخمة، استقبل الملك بقايا الإمبراطور في قصر الأنفاليد. استغرق الأمر عشرين سنةً حتى تم تعديل هذه الكنيسة وحفر السرداب الذي ترونه أمامكم هنا".

خطا جانباً مبتعداً عن الدرابزين الرخامي بينما كان الألمان يعبرون مقتربين، وحدّق بنظره نحو الناووس اللافت للإعجاب. في جماعاتٍ أخرى تدفّقت إلى المكان. لاحظ رجلاً آخر انضم إلى آشبي. رجلٌ متوسّط الطول، شاحب الوجه، ذو شعرٍ رماديٍ خفيف. كان يرتدي معطفاً يلفّ جسداً نحيلاً.

غيلدهول.

كان ثورفالدسن قد وصف له هذا الرجل أيضاً.

ابتعد الثلاثة عن الدرابزين ليغادروا.

"ارتجلْ".

كان هذا ما قاله لسام عما يجب على الوكلاء أن يفعلوه.

هزَّ رأسه.

نعم، صحيح.



خرج آشبي من كنيسة القبّة ودار حول الجزء الخارجـي ليجد ممراً مقنطراً إلى جانبه مدفع، يقود إلى الأنفاليد. كان المجمّع الضخم مؤلف من كنيستين، وقصر الشرف، ومتحف عسكري، وحديقة، وأرضٍ مستوية تمتد من الواجهة الشمالية إلى نهر السين، على مسافة حوالي كيلومتر. كان هذا المكان قد تأسس في العام 1670 على يد لويس الرابع عشر ليكون منزلاً ومكان عنايةٍ للجنود العاجزين، وكانٍ هذا المكان، الذي هو عبارة عن مبانٍ متعددة الطوابق ومرتبطة معاً، يُعدُّ تحفةً فنيةً في الكلاسيكية الفرنسية.

على مثال وستمنستر، كان التاريخ قد أعاد نفسه هنا. تخيّل يوم 14 تموز (يوليو)، 1789، عندما اندفع الغوغائيون مهاجمين الحرس المتمركزين فـي موقعهم، فشنّوا غارةً على مستودع أسلحة تحت الأرض، وصادروا أسلحةً استخدموها فيما بعد لينقضّوا على الباستيل ويبدؤوا الثورة الفرنسية. سبعة آلاف محارب من العسكر عاشوا يوماً هناك، والآن صار مرتعاً للسياح.

"هل لديك طريقة للدخول إلى المتحف؟" سألته كارولين.

كان قد تكلم مع إليزا لاروك مرات ثلاثة أخرى منذ ليلة أمس. والحمد لله، فقد كانت قد رتبت لتحصل على معلوماتٍ كثيرة وافية ذات صلة.

"لا أعتقد أنها ستكون مشكلة".

دخلا قصر الشرف، الذي يحيط به امتدادٌ مرصوفٌ بالحصى من أربع جوانب مع صالتي عرض طويلتين في كلٍّ منهما طابقان. ربما يطول مئة متر وعرض ستين متراً. وكان هناك تمثالٌ برونزي لنابليون يحرس الساحة الضخمة، يجثم فوق المدخل ذي القوصرة لكنيسة الجنود. لقد كان يعرف أن هذا هو المكان الذي قبَّل فيه ديغول تشرشل تعبيراً عن شكره له بعد الحرب العالمية الثانية.

أشار يساراً إلى إحدى الواجهات الكلاسيكية الكالحة، المثيرة للدهشة أكثر مما هي جذابةً.

"حجرات طعام سابقة. حيث كان المتقاعدون يتناولون وجباتهم. يبدأ متحف الجيش من هنا". وأشار يميناً إلى حجرة طعام أخرى. "وينتهي هناك. حيث وجهتنا".

كان هناك سقالةٌ تحيط بالمبنى الذي على اليسار. وكانت لاروك قد أخبرته

أن نصف المتحف يخضع للتجديد. وبشكلٍ رئيسي المعارض التاريخية، وطابقان بأكملهما كانا مغلقين حتى الربيع القادم. كان العمل يشتمل على تجديداتٍ خارجية وبعض التصليحات المهمة على المدخل الرئيسي.

ولكن ليس اليوم. في ليلة عيد الميلاد.

إنه يوم عطلة.



سار مالون داخلاً إلى أحد الأروقة المقنطرة الطويلة فـي الأنفاليد، ماراً ببابٍ خشبيٍ مغلق كل عشرة أقدام، وإلى جانبه مدفع يجثم في وضع استعداد. شقّ طريقةً من الجنوب إلى الرواق الشرقي، ماراً بكنيسة الجنوب، ومنعطفاً عند زاويةٍ ومستعجلاً في السير نحو مدخل مؤقت يؤدي إلى المبنى الشرقي. كان آشبي وفريقه قد وقفوا هناك في الجهة المقابلة من قصر الشرف، في مواجهة الجزء المغلق من المتحف الشرقي، الذي كان يحتوي على أشياء تاريخية تعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وإضافةً إلى أعمالٍ فنية يعود تاريخها إلى الفترة بين لويس الرابع عشر ونابليون.

كان هناك موظف يرتدي معطفاً رمادياً ويسير بخطى متباطئة وعين متفحّصة يقف في المدخل المؤقت البديل الذي كان يؤدي إلى درج يصعد إلى الطابق الثالث، حيث كان متحف قسم الإسعاف لا يزال مفتوحاً، على امتداد مكان لبيع الكتب.

صعد الدرجات، مُمسكاً بعمود درابزين خشبي سميك.

في الطابق الثاني كانت أبواب المصعد مغلقةً بلوحين خشبيين مُسمّرين على شكل علامة X. وكانت المنصة تحمل المزيد من السقالات المفككة.

كان هناك أبواب معدنية بيضاء، من الواضح أنها مؤقتة، مغلقة وعليها

لافتة تقول، "ممنوع الدخول". وكانت ثمة لافتة أخرى على الجدار تدل على ما وراء الجدران تقول، "قاعات نابليون الأول ".

اقترب وخلع قبضة الأبواب المعدنية.

فانفتحت.

لم يكن هناك حاجة لإغلاقها، فقد قيل له بأن المبنى نفسه كان يُغْلَق بإحكام كل ليلةٍ ولم يكن هناك في المعرض إلا القليل من المواد التي ليست بذات قيمة كبيرة.

خطا داخلاً إلى فسحةٍ معتمة، وخافتة الضجة، وسمح للباب بأن يغلق خلفه، وكان يأمل أن لا يندم في الدقائق القليلة التالية.

37

رقد نابليون ووجهه منقلب إلي الأسفل في السرير وراح يحدقّ إلى الموقد. كانت الإنارة ساطعة، وتلقي ببريق أحمر اللون على وجهه، وسمح للحرارة والسكون أن يهداه حتى يغفو.

"أيها العرّاف العجوز. هل أتيتَ أخيراً من أجلي؟" سأل بصوتٍ مرتفع، وبصوت حانٍ وعلت تعابير ابتهاج على محياّ نابليون، وسرعان ما تبدلت المظهر غضَب. "لا"، صرخ، "أنت مخطئ. إن عائلتي ستتركني وتخونني؟ هذا لا يمكن أن يحدث. لقد قدمّت لهم اللطف بكل سخاء – "وتوقف عن الكلام، واتخذ وجهه تعبيراً يدل على إصغاء باهتمام. "آه، ولكن هذا كثير جداً. هذا غير ممكن، كل أوروبا غير قادرة على أن تغلبني. إن اسمي أكثر قوةً من القدر".

إذ استيقظ بدافع صوته المرتفع، فتح نابليون عينيه وحدقّ حوله في الغرفة تلمسً بيده جبهته فوجدها نديةً

"ياله من حلم مزعج مريع" قال لنفسه

اقترب منه سانتَ دينيس. لقد كان صالحاً ومخلصاً، ودائماً إلى جانبه، ينام على الأرض إلى جوار السرير ومستعد دائماً للإصغاء. "أنا هنا يا سيدي".

وجد نابليون يد سانت دينيس

" قبل زمن طويل، عندما كنُت في مصر، تكلمَ مشعوذٌ إلىّ في الهرم"، قال نابليون. "لقد تنبأ عن دماري، وحذرّني من أقاربي ومن جحود قادة الجيش عندي"

مستغرقاً في تأملاته، وبصوت أجش طار النعاس منه، بدا وكأنه في حاجةِ إلى أن يتكلّم: "أخبرني أنه سيكون لدي زوجتين الأولى ستكون إمبراطورة وليس الموت بل امرأة أخرى ستخلعها عن العرش. أما الزوجة الثانية فستنجب لي ابناً ولكن كل سوء طالع سيبدأ معها. لن أعود مزدهر الحال وقوياً منذ ذلك الحين. كل آمالي ستخيب سأكون مطروداً بالقوة ومنفياً إلى بلد أجنبي، تحيط به الجبال والبحر"

حدَّق نابليون من سريره بنظرة خوفٍ لا يمكن إخفاوها.

"لقد أطلقت النار على ذلك المشعوذ" قال."لقد فكرت بأنه أحمق وأنا لا أصغي إلى الحمقى".

كان ثورفالدسن يصغي بينما راحت إليزا لاروك تشرح ما عرفته عائلتها منذ زمنٍ طويلٍ عن نابليون.

"بوزو دي بورغو بحث باجتهاد في كل ما جرى على جزيرة القديسة هيلانة "، قالت. "ما وصفته لك الآن حدث قبل شهرين من وفاة نابليون".

أصغى إليها بانتباهٍ زائف.

"لقد كان نابليون رجـلاً يؤمن بالخرافات "، قالت. "كان يؤمن كثيراً بالقدر، ولكنه ما كان لينحني لحتميَّته. كان يحب أن يسمع ما يريد أن يسمعه".

كانا جالِسَيْن فـي حجرة خـاصة في مطعم "غراند فيفور"، تطل على حدائق القصر الملكي (باليه رويال). كانت قائمة الطعام تقول بافتخار إن المطعم يعود تاريخه إلى العام 1780، وأن الضيوف يتناولون طعام الغداء فيه منذ القرن الثامن عشر في ديكورٍ مزخرفٍ ولوحاتٍ زيتيةٍ مرسومةٍ باليد بدقةٍ. ذلك المكان لم يكن ثورفالدسن معتاداً عليه، ولكن لاروك اتصلت به قبلاً واقترحت العشاء واختارت المكان.

"الواقعية واضحة ". قالت. "كل ما كان المشعوذ المصري قد تنبأ به قد حدث. فجوزفين صارت إمبراطورة ونابليون طلّقها لأنها لم تُنجب وريثاً".

"لقد كنت أعتقد أن سبب ذلك هو أنها كانت غير مُخْلِصة ".

"لقد كانت كذلك، وهو أيضاً كان كذلك. ماري لويس، الأرشيدوقة من النمسا ذات الثمانية عشر ربيعاً، أَسَرَتْ لبّ وخيال نابليون في نهاية الأمر، ولذلك تزوَّجها. وأعطته الابن الذي كان يريد".

"كانت تلك عادة الملكية، في ذلك الوقت " قال متأمِّلاً.

"أعتقد أن نابليون كان ليشعر بالانزعاج إذا ما قارنته بالملوك ".

أطلق ضحكةً خافتة، وقال : "إذاً لكان سيكون أحمق. فهو لم يكن سوى ملك".

"كما قالت النبوءة، بعد زواجه الثان-ي، عام 1809، تغيَّر حظ نابليون. الحملة الفاشلة على روسيا عام 1812، حيث أهلك القسم الأعظم من جيشه المنسحب المهزوم. وفي العام 1813، الائتلاف حشد إنكلترا وبروسيا وروسيا والنمسا ضده. وهزائمه في إسبانيا ولايبزغ، ومن ثم انهياره في ألمانيا وخسارته لهولندا. سقطت باريس عام 1814، وتناظ عن العرش. ثم أرسلوه إلى إلبا، ولكنه هرب وحاول أن يستعيد السيطرة على باريس من الملك لويس الثامن عشر. ولكن معركة واترلو وضعت حداً له في 18 حزيران (يونيو)، 1815، وهكذا انتهى الأمر. ثم نُفي إلى جزيرة القديسة هيلانة لكي يموت هناك ".

"إنك تكرهين الرجل حقاً، أليس كذلك؟"

"ما يغيظني هو أننا لن نعرف الرجل. لقد أمضى السنوات الخمس من نفيه في جزيرة القديسة هيلانة يصقل صورته، يكتب سيرته الذاتية وينهيها بشكلٍ قصصي أكثر من الحقائق والدقائق، ناسجاً التاريخ على مزاجه. وفي الحقيقة، لقد كانَ زوجاً لم يحبّ زوجته حقاً، بل طلّقها بسرعة عندما أخفقت في أن تنجب له وريثاً. لقد كان جنرالاً اعترف بحبٍّ كبير لجنوده، ومع ذلك فقد ضحَّى بهم بمئات الألوف. وكان يفترض أنه لا يخاف، ولكنه مراراً وتكراراً هجرهم عندما اقتضت مصلحته ذلك. كان قائداً لا يريد شيئاً سوى أن تكون فرنسا قوية، ومع ذلك أبقى على الأمة متورطةً دائماً ف-ي حروب. أعتقد أن الأسباب التي تجعلني أمقته واضحة ".

فكّرَ بأن بعض الإثارة قد تكون مفيدةً. "هل كنت تعلمين أن نابليون وجوزفين كانا يتناولان طعام العشاء هنا؟ لقد قيل لي إن هذه الغرفة بقيت كما هي منذ أوائل القرن التاسع عشر".

ابتسمت وقالت له: "لقد كنتُ متأكدة من ذلك. وهذا أمرٌ ممتع، أن تكون لديك المعرفة بهذه المعلومات".

"هل قتل نابليون فعلاً ذلك المشعوذ في مصر؟"

"لقد أمر أحد علمائه بأن يفعل ذلك، ألا وهو مونج ".

"هل تؤمنين بنظرية أن نابليون مات مسموماً؟" كان يعرف ذلك، إذ يُفترض أن الزرنيخ قد دُسَّ ببطء إلى طعامه وشرابه، بكميةٍ كافية لتقتله في نهاية

الأمر. والاختبارات الحديثة المعاصرة التي أجريت على خصلاتٍ من بقايا شعره أكَّدَتْ وجود مستوياتٍ عالية من الزرنيخ ".

ضحكت وقالت : "لم يكن لدى البريطانيين سبب يدفعهم لقتله. بل في الواقع، العكس هو الصحيح. لقد كانوا يريدون أن يبقى على قيد الحياة ".

وصلت أطباق الطعام التي طلبوها. وكان قد طلب سمك البوري الأحمر المقلي بالزيت والبندورة، وأما هي فكانت قد طلبت دجاجةً صغيرةً في الصلصة وقد نُثر عليها الجبن.

"أتعرف قصة نبش قبر نابليون عام 1840، واعادته إلى فرنسا؟" سألته. هز رأسه.

"إنها دليلٌ قاطع على أن البريطانيين ما كانوا ليسمّمونه".



شق مالون طريقه عبر صالة العرض المهجورة. ما من أنوار مضاءة، والإنارة كانت تأتي من أشعة الشمس وتنتشر عبر صفحاتٍ بلاستيكية كانت تحمي النوافذ. كان الجو دافئاً ومشبعاً برائحة الدهان الطري. وكانت عدة خزائن وغرف للعرض مغطاةً بغطاءٍ قماشيٍّ قاسٍ. كانت السلالم مستندةً إلى الجدران. والمزيد من السقالات كانت عند الطرف البعيد. وكان هناك قسمٌ من الأرضية الخشبية قد أُزيل، واصلاحاتٌ غير مرتَّبة قد بدأت تُطبق على الطبقة الحجرية تحت السطحية.

لاحظ أنه ليس هناك كاميرات، ولا أجهزة تحسّس. مرَّ بالبدلات المعروضة في صالة العرض، والدروع، والسيوف، والخناجر، وأطقم الخيم، والمسدسات، والبنادق، كلها كانت معروضةً في خزائن مبطنةً بالحرير. كانت عمليةٌ تكنولوجية مطّردة ومتعمَّدة، كل جيلٍ كان يتعلم كيف يقتل الجيل التالي بشكلٍ أسرع. ما من شيءٍ أبداً على الإطلاق كان يوح-ي بشرف الحرب. بدلاً من ذلك، لم يكن هناك سوى تركيزٌ على مجد الحرب.

جال في المكان قرب خزّانٍ للغاز وتابع سيره في صالة العرض الطويلة، ونعليه المطاطيين لا يصدران أي صوت.

وسمع خلفه صوت الأبواب المعدنية وهي تُختبر.



وقف آشبي على منبسط الدرج التالي وراح يراقب بينما كان السيد غيلدهول يدفع الأبواب التي سمحت بدخولهم إلى صالات عرض نابليون.

لقد سدّها شيءٌ ما.

همست كارولين قائلةً: "لقد كنت أظن أنها مفتوحة ".

كان هذا تماماً ما قالته لاروك. كل ما كان له قيمة كان قد نُقل من المكان قبل أسابيع. وما بقي كان ذا قيمةٍ تاريخيةٍ ثانوية، فتُرك في الداخل لأن المخزن الخارج-ي كان محدوداً في حجمه. والمتعهد الذي كان ينجز الترميم كان قد وافق على العمل على صالات العرض وطلب تأميناً على الحوادث ليضمن سلامتها.

ومع ذلك فإن شيئاً ما قد سَدَّ الأبواب.

لم يكن يريد أن يجتذب انتباه المرأة في الأسفل، أو الموظفين في الطابق الذي في الأعلى في متحف الإسعاف.

فقال : "اِدفعوها. ولكن بهدوء".



وصلت الفرقاطة الفرنسية بيل بول إلى جزيرة القديسة هيلانة في تشرين الأول (أكتوبر) 1840 وعلى متنها فريق يقوده أمير جوانفيل، الأبن الثالث للملك لويس فيليب وأرسل الحاكم البريطاني، ميدلمور، ابنه لاستقبال الضيوف وأطلقت مدفيعة البحرية الملكية إحدي وعشرين طلقة احتراماًلهؤلاء وفي 15تشرين الأول (أكتوبر)، بعد خمسة وعشرين سنة من وصول نابليون إلى جزيرة القديسة هيلانة، بدأت عملية نبش قبر الإمبراطور كان الفرنسيون يريدون أن يقوم البحاّرة بالعملية، ولكن البريطانيين كانوا يصرون على أن ينجز شعبهم العمل. كان هناك عمال محٌليون وجٌنود بريطانيون يعملون خلال الليل تحت المطر الغزير. كانت قد مرت تسع عشرة سنة على دفن نابليون في تلك التربة، عندما ختُم ذلك التابوت بالآجر تلو الأخرى وخرق طبقات البناء المدعمة بقضبان معدنية مع رفع الأغطية لكي يحصلوا أخيراً على رؤية

جثمان الإمبراطور الميت، هذه العملية التي استغرقت جهداً كبيراً.

عددٌ كبير من الذين عاشوا مع نابليون في جزيرة القديسة هيلانة عادوا ليشهدوا عملية إعادة نبش قبر نابليون: الجنرال برتراند، وبييرون، طباخ المعجنات، وأرشامبول سائس الخيل، ونوفيراز الخادم الثالث، ومارشاند، وسانت دينيس الذي لم يفارق الإمبراطور أبداً.

كان جثمان نابليون ملفوفاً بأجزاء من الساتان الأبيض الذي سقط عن غطاء الكفن. حذاؤه الطويل الأسود الذي كان يرتديه عند ركوب الخيل قد انفلع كاشفاً أصابع بيضاء شاحبة. الساقان البقايتان كانتا مغطاتين ببنطال قصير، وكانت القبعة تقبع إلى جانبه حيث وضعُت منذ سنوات. وكان هناك صحْن فضي يحوي قلبه موضوع بين فخذيه وأما يداه – بيضاوان وقاسيتان في حالة ممتازة – فقد أظهرتا أظافر طويلة تبدتً ثلاثة أسنان من فمه عندما تراجعت شفتاه إلى الخلف، ووجهه كان رمادي اللون بسبب لحية قصِيرة، وكان جفناه مغلقين بإحكام. كان الجثمان في حالة جيدة، وكأنه كان نائماً أكثر منه جسداً يتحللً

كل الأشياء التي أبقيت معه كانت لا تزال هناك، محتشً في سريره الذي كان من الساتان. مجموعة من العملات الفرنسية والإيطالية محفوٌر عليها وجهه الهادئ ووعاء زورقٌي فضَي، وسكاكين، وأشواك، وملاعق مزخرفة إضافة إلى أسلحة إمبراطورية، وقارورة فضّية تحوي مياها من وادي جيرانيوم، وعباءة، وسيفاً، ورغيف خبز، وزجاجة من الماء.

أزال الجميع قبعاتهم عن رؤوسهم، ورشً كاهنٌ فرنسي مياهاً مقدسّة على جثمان نابليون وهو يتلو كلمات المزمور130: "مَنِ الأَعَماِق صَرَخْتُ إلِيَكَ يَا رًب"

أراد الطبيب البريطاني أن يفحص الجثة باسم العلم، ولكن الجنرال غورنو، الممتلئ الجسم، ذا الوجه الأحمر والذقن الرمادية، اعترض قائلاً: "لن أسمح لك بذلك إن إمبراطورنا قد عانى ما فيه الكفاية من إهانات".

كان الجميع يعرفون أن لندن وباريس قد اتفقتا على نبش القبر ونقل الرفات كطريقةِ تدل على المصالحة بينهما وتسوية خلافات الأمتين. وفي نهاية الأمر، كما قال السفير الفرنسي بإنكلترا: "لا أعرف أي دافع معُتبر يستدعي الرفض،

لأن إنكلترا لا يمكنها أن تقول للعالم بأنها ترغب في الاحتفاظ بالجثة أسير".

خطا الحاكم البريطاني، ميدلمور، نحو الأمام وقال: "إن لنا الحق في أن نفحص الجثة"

فسأل مارشند: "وما السبب؟ ما الهدف؟ لقد كان البريطانيون هناك عندما خُتم التابوت، وقد خضعت الجثة للتشريح من قبل أطبائكم، رغم أن الإمبراطور ترك تعليمات واضحةٍ صريحةٍ بألا يحدث ذلك".

كان مارشند نفسه موجوداً هناك في ذلك اليوم، وقد كان واضحاً من مرارته أنه لم ينس ذلك الانتهاك.

رفع ميدلمور يديه كدلالة استسلام. "حسناً جداً. هل تعترض على معاينة سطحية وحسب؟ فرغم كل شيء، الجيد، كما تري، في حالة جيدة نظراً إلى حقيقة أنه دُفن لفترة طويلة. وهذا يتطلب بعض التحري".

لان غورغو، ووافق الآخرون.

وهكذا تحسسً الطبيب ساقى نابليون، والبطن، واليدين، والجفن، ثم الصدر.

"كان نابليون قد وُضع في تابوت مختوم مؤلّف من أربع طبقات هي من الخشب والمعدن، وأُقفل مفتاح الناووس، وكا شيء أُعًد لإعادته إلى باريس" قالت إليزا

فسأل ثورفالدسن: "ما الذي كان يسعي إليه الطبيب فعلاً؟"

"شيء ما كان البريطانيون يحاولونه، دون جدوى، وذلك عندما كان نابليون لا يزال أسيراً لديهم. ألا وهو مكان الكنز المفقود".

"هل كانوا يعتقدون أنه كان في قبره؟"

"لم يعرفوا الكثير من المواد الغريبة كانت موضوعة في ذلك التابوت واعتقد أحدهم أن الجواب قد يكون هناك. يعُتقد أن هذا كان أحد الأسباب التي دفعت بالبريطانيين للموافقة على نبش القبر – ألا وهو أن يلقوا نظرة أخيرة"

"وهل وجدوا شيئاً؟"

ارتشفت شرابها."لا شيء"

راحت تنظر إليه لتري وقع كلماتها في نفسه.

"لم ينظروا إلى المكان الصحيح أليس كذلك؟" سألها.
كانت قد بدأت تحب هذا الدانماركي." بل حتى لم يقتربوا من ذلك قيد أنملةِ".
وأنت يا سيدة لاروك، هل اكتشفت المكان الصحيح؟"
"يا سيد ثورفالدسن، هذا سؤاُل يجب أن نجد جواباً له قبل أن يمضي هذا النهار

38

وجد مالون صالات العرض المتعلقة بنابليون وتفحّص التذكارات المرتبطة بانتصارات الجنرال وأيضاً بسقوطه. رأى الرصاصة التي جرحت الجنرال في راتيزبون، والتلسكوب الخاص به، والخرائط، والمسدّسات، وعكّاز تنزُّهه، ورداءه، بل وحتى قناع صورة وجهه. وكانت إحدى زوايا المعرض تصوّر الغرفة التي مات فيها نابليون في جزيرة القديسة هيلانة، بكملها بما في ذلك السرير وظلّة السرير.

صدر صوتُ صريرٍ تردّد عبر القاعة.

الأبواب المعدنية التي تبعد قرابة مئة قدم خلفه كانت تُدفَع عنوة.

كان قد وضع إحدى رزم البناء إزاء الأبواب، وهو يعلم أنه سرعان ما سيكون هناك رفقة له. راح يراقب بينما ترك آشبي الكنيسة وسار في هدوء إلى الأنفاليد. وبينما توقف آشبي ومن معه مبدين إعجابهم بقاعة الشرف، هرع داخلاً. كان يفترض أن آشبي مهتّم بالاطّلاع على نفس المعلومات التي كانت ستيفاني قد زوَّدته بها. كان قد اتصل بها ليلة أمس، بعد أن غادر ثورفالدسن، ووضع خطة تتلاءم مع حاجاتها بدون أن يساوم على صديقه.

عمليةٌ يمكن التلاعب فيها. ولكنها ممكنة.

أصدرت الرزمة المركونة إلى الأبواب المعدنية صوت صرير أعلى.

التفت ورأى نوراً يتسلل إلى القاعة المظلمة.

دخلت ثلاثة أشباح مقتحمة الإنارة.

أمامه، وفي إحدى الخزائن الزجاجية المفتوحة جزئياً، كانت هناك بعض السكاكين الفضية، وكأس استخدمها نابليون في واترلو، وصندوق شاي من جزيرة القديسة هيلانة، وكتابان. كان ثمة لوحة صغيرة تعلن للناس أن الكتب كانت من مكتبة نابليون الشخصية في جزيرة القديسة هيلانة، وأنها جزء من المجموعة المؤلفة من 1600 كتاب التي كان قد احتفظ بها. كان أحد هذه الكتب هو "مذكّرات ومراسلات جوزفين "، كما يقول الإعلان، التي كتبها

نابليون عام 1821، قبل وفاته بوقت قصير جداً. لقد شكّ في مصداقية هذا الكتاب، وكان منزعجاً من محتواه. أما الكتاب الآخر فكان مجلداً صغيراً ذا غلاف من الجلد، وقد فُتِحَ على صفحة في منتصفه تقريباً، حيث كان هناك عنوان يقول : "الممالك الميروفنجية 450 – 751 ميلادية "، وهو من نفس المكتبة الشخصية، هذا الكتاب الذي كان له اعتبار خاص نتيجة لذكره في وصية الإمبراطور الشخصية الأخيرة.

سمع صوت وقع أقدام تسير على عجل على الأرضية الصلبة يتردد صداها في كل أرجاء القاعة.



لقد كان آشبي يحبّ الصيد.

كان يُسَرُّ دائماً بالكتب والأفلام التي يبحث فيها قتلةٌ مأجورون وصائدو كنوز عن كنوز مخبّأة. وفي الواقع، كان يمضي معظم وقته مستغرقاً في قراءة الكتابات القديمة، سواء كانت كتباً، أم وصايا، أم مراسلات، أم مفكرات شخصية، أم يوميات خاصة، أو سجلات عامة. وكانت القصاصات والشذرات من الكتب والكتابات منتشرة هنا وهناك. ولكن لم يكن قد حصل على أي دليل يحل له اللغز بشكل مباشر وأكيد. الأدلة والمفاتيح كانت عامة إما شذرات موجودة أو غير أكيدة، ولطالما سبَّبت له خيبة أمل أكثر من نجاحات.

وهذا الصيد كان مثالاً نموذجياً. ولكن ربما يجد شيئاً حقيقياً هذه المرة. كان يصعب التأكد من ذلك ما لم يتم تصفح كتاب "الممالك الميروفنجية 450 - 751 ميلادية "، الذي كان ينتظرهم على بعد بضعة أمتار.

كانت إليزا لاروك قد نصحته أن ذلك اليوم سيكون فرصة مثالية ليتسلَّل إلى هذا القسم من المتحف. فما من طاقم عمل للبناء سيكون هناك، وعلى نفس المنوال فإن طاقم الموظفين في الأنفاليد سيكونون توّاقين إلى انتهاء ذلك اليوم والذهاب إلى بيوتهم لأجل عيد الميلاد. فغداً إحدى الأيام القليلة التي يغلق فيها المتحف أبوابه أمام الزائرين.

شقّ السيد غيلدهول طريقه عبر صالة العرض المليئة بالفوضى.

كان الجو الفاتر يعبق برائحة الدهان وزيت التربنتين، دليل آخر على أعمال

التجديد الواضحة.

كان فـي حاجة إلى أن يغادر باريس بأسرع وقت بعد أن تنتهي هذه المهمة. سيكون الأمريكيون الذين ينتظرونه في لندن توّاقين للحصول على تقرير منه. وهو سيقدم هذا التقرير فـي نهاية الأمر. ما كان هناك داع للتأجيل أو المماطلة. فيوم غدٍ سيكون يوماً حاسماً هاماً – يوم عيد ميلادٍ سيتذكره من دون ريب.

توقف السيد غيلدهول، ولمح آشبي ما كان تابعه قد رآه لتوه.

في الخزانة الزجاجية حيث تم تنسيق تذكارات نابليون وكتبه، رأى أحد تلك الكتب. ولكن الكتاب الثاني كان قد اختفى. لم يبقَ سوى بطاقة صغيرة وُضِعت على زاوية حامل خشبي فارغ.

مرّت دقيقة صمت ثقيلة بدت وكأنها ساعة.

تمالك نفسَه، وخطا مقترباً، وقرأ ما كان مكتوباً على البطاقة:

"لورد آشبي، إن كنتَ ولد عاقلاً،

سنعطيك الكتاب".

سألت كارولين : "ما معنى هذا؟"

"أفترض أن هذه طريقة إليزا لاروك في إبقائي على نفس الخط معها".

ابتسم على بارقة الأمل التي لمعت في أكذوبته. "إن المذاكرة تقول : نحن ".

"لقد أعطتك كل المعلومات الأخرى التي كانت لديها، وأعطتك كل المعلومات حول هذا المكان ". كانت كلماتها بمثابة سؤال أكثر منها تصريح.

"إنها حريصة. ربما لا تريدنا أن نحصل عليه أبداً. أو ليس بعد، على كل حال".

"ما كان يجب أن تتصل بها".

وصله السؤال الثاني في عينيها. وقال : "لنعد إلى إنكلترا".

تراجعوا إلى الوراء خـارجين من صالة العرض وراح ذهنه يستعرض الاحتمالات. لم تكن كارولين تعرف شيئاً عن هذا التعاون السري مع واشنطن،

والذي جعله يلقي اللوم لفقدان الكتاب على لاروك والنادي الباريسي.

ولكن الحقيقة أفزعته أكثر من ذلك بكثير.

لقد عرف الأمريكيون بشؤونه.



راح مالون يراقب الطرف البعيد من القاعة بينما خرج آشبي وصحبه من صالة العرض. ابتسم ابتسامة عريضة عندما أدرك ورطة آشبي ولاحظ كيف أنه قد خدع كارولين دود. بعد ذلك خرج عبر درج خلفي ولاذ إلى الأنفاليد من الواجهة الشمالية. لوّح بيده مستوقفاً سيارة أجرة، وعبر السين، ووجد مطعم "غراند فيفور". دخل إلى المطعم ونظر حوله في أرجاء الردهة البهيجة التي كانت فرنسيةً بالإجمال وذات جدران متألقة تغلّفها مرايا مذهبة الحواف. ألقى نظرة شاملة إلى الطاولات المغطاة ورأى ثورفالدسن جالساً مع امرأة حسنة المظهر، ترتدي بزّة نساء أعمال رمادية، وظهرها كان باتجاهه.

عرض الكتاب بدون لفت انتباه وابتسم.



عرف ثورفالدسن الآن كيف تبدّل ميزان القوى. لقد صار هو الآن المتحكِّم تماماً، ولم يدرك آشبي أو إليزا لاروك ذلك.

ليس بعد، على كل حال.

ولذا وضع ركبة فوق الأخرى، واستند إلى الخلف في كرسيه، وأعطى انتباهه لمضيفته، وهو واثق أن ديونه جميعها سرعان ما سيتم إيفاؤها.

الجزء
الثالث

39

الساعة 12:15 ظهراً

تبع سام ميغان موريسون وستيفاني نيلي وهما تدفعان رسم الدخول إلى برج إيفل. الصفّان عند المدخلين الآخرين، والمصاعد المؤدية إلى المنصتين الأولى والثانية كانت مكتظة بالناس، الذين كانوا لا ينفكون ينتظرون منذ حوالي ساعتين. أما هذا الصف الذي كان موجوداً هنا إلى جـانب البوابة فقد كان أسلهصر، لأن الطريق الوحيد إلى المنصة الأولى كان يتطلب صعود 347 درجة.

"ليس لدينا وقت لننتظر في الصف ". قالت ستيفاني نيلي.

كان سام قد أمضى الليلة في فندق عند الضفة اليسرى في إحدى الغرف، بينما أمضت ميغان موريسون الليلة في غرفة أخرى. وكان هناك موظفان من وكالة الاستخبارات السرية يحرسان الأبواب.

كانت ستيفاني قد استمعت إلى المعلومات التي قدّمتها ميغان، ثم أجرت بضعة مكالمات هاتفية. وبعد تكيد ما قد سمعته، أصرّت على وجود الحماية.

"هل يرتدي العملاء الميدانيون نفس الثياب طوال الوقت؟" سأل ستيفاني وهم يصعدون الدرج. لقد مضت عليه ثلاثة أيام وهو في نفس الثياب الحالية. قالت : "اشتر بضعة أطقم، وقم بعملك، وأنهِ المهمةَ...".

اجتازوا جـزءاً من الدرج رقمه 134. اجتازوا أربـع دعاماتٍ هائلةٍ من عوارض متشابكة كانت المسافات بينها أكبر من ملعب كرة قدم، كانت تدعم المنصة الأولى للبرج – على ارتفاع 189 درجة، كما كُتب على لوحةٍ في أسفل الدرج. البوابات كان يعلوها درج يؤدي إلى المنصة الثانية، على ارتفاع 37 قدماً، ثم تتابع الصعود إلى قمة مستوى سطح المراقبة، على ارتفاع 905 أقدام. أعلى بناء في باريس – شبكةٌ طويلةٌ رفيعةٌ مكشوفةٌ من الحديد المطاوع، مثبتة معاً ببرشامات، ومطلية بلونٍ رماديٍّ مُسمر، كانت هذه إحدى الصور الأكثر تميزاً في العالم.

كانت ميغان تصعد الدرج بارتياح، أما هو فكانت بطتا ساقيه تؤلمانه. لم تتكلم كثيراً ليلة أمس، بعد أن انتقلوا إلى الفندق. ولكنه كان خياراً صحيحاً ذاك الذي اتخذه عندما ذهب خارجاً معها من المتحف. والآن صار يعمل مع رئيسة مشروع ماجيلان بيليت.

مضت عشر دقائق أخرى من صعود الدرجـات ووصلوا إلى مجموعة الدرجات الأخيرة.

كانت منصة الطابق الأول مزدحمة بالزوّار الذين احتشدوا فـي محل التذكارات، ومكتب البريد، وصالة العرض، ومطعم الوجبات الخفيفة، والمطعم الفخم. وكانت المصاعد في الطرف البعيد تؤدي إلى الطابق الأرضي. وكان لا يزال أمامهم حوالي 330 درجة أو نحو ذلك ليصلوا إلى المستوى الثاني إلى اليمين. المنصة على المستوى الأول كانت تدور حول مركزٍ مفتوح يكشف عن منظر البلازا في الأسفل.

استراحت ستيفاني وقد استندت إلى الدرابزين. وانضم هو وميغان إليها. ونظروا معاً عبر جدارٍ زجـاجـي وأبواب كان قد كُتب عليها تعريفاً "قاعة غوستاف إيفل ".

"سيجتمع النادي الباريسي فـي تلك الغرفة "، قالت ميغان لستيفانـي هامسةً.

"وأنّى لك أن تعرفي ذلك حقاً؟

سبق أن جرت بينهما هذه المحادثة ليلة أمس. من الواضح أن ستيفاني كانت تمارس المثل القديم : "اسأل السؤال نفسه بما فيه الكفاية وانظر ما إذا كنت ستحصل على نفس الجواب ".

"انظري، يا آنسة وزارة العدل "، قالت ميغان. "لقد رأيتُ ما فيه الكفاية من عرضك للسلطة. لقد حاولتُ أن أكون مفيدةً وأن أساعدك. ولكن إن كنت لا تزالين غير مصدّقة لي، فما الذي نفعله هنا؟"

لم تردّ ستيفاني على هذا التحدي. وبدلاً من ذلك، تابعوا سيرهم متّكئين إلى الدرابزين وأبقوا نظراتهم مركزة على الجانب البعيد.

قالت ميغان في النهاية: "أعرف أنهم سيكونون هناك غداً. إن لديهم عملاً

مهمّاً. النادي بأكمله سيجتمع في عيد الميلاد".

قال سام: "يا له من موعد غريب للّقاء".

"عيد الميلاد هنا هو عطلة غريبة. لقد علمت أن الفرنسيين كانوا منذ زمن لا يبتهجون كثيراً بموسم الميلاد. معظمهم يترك البلدة خلال النهار، والباقون يذهبون إلى المطاعم. إنهم يحبون أن يأكلوا هذه التورتة التي تسمى"تورتة العيد". إنها تبدو مثل قطعة خشب ولها مذاقٌ مثل الخشب بالزبدة المجلَّدة عليها. ولذلك فلا أستغرب أن يجتمع النادي في عيد الميلاد".

"هل برج إيفل مفتوح؟" سأل سام.

أومأت ميغان برأسها. "عند الساعة الواحدة".

قالت ستيفاني: "أخبريني من جديد بما تعرفينه".

ظهرت ميغان سريعة الغضب ومهتاجةً، ولكنها أذعنت."لقد حجزت لاروك حجرة غوستاف إيفل، هناك تماماً. وستبدأ الحفلة الساعة الحادية عشر قبل الظهر وتستمر حتى الرابعة بعد الظهر. لقد تدبرت حتى أمر الطعام للغداء. أعتقد أنها فكرت أن تواجدها على ارتفاع مئة قدم في الفضاء يعطيها وشركاءها في الجريمة بعض الخصوصية والسرية".

سألت ستيفاني: "والأمان؟"

"كيف لي أن أعرف ذلك؟ ولكني أراهن أنك أنت تستطيعين أن تعرفي".

بدت ستيفاني مستمتعة بالفرصة المتبدية في إعلان ميغان: "المدينة تملك البرج، ولكن هيئة إدارة الاستثمار الجديدة لبرج إيفل هي التي تدير أمور البرج. ولديهم مؤسسة خاصة تضمن الأمن للموقع، إضافة إلى الشرطة في باريس والجيش الفرنسي".

كان سام قد لاحظ عناصر الشرطة تحت مدخل الباب الجنوبي، إضافةً إلى بعض الناس ذوي النظرات الجدية، يرتدون بزّات قتالٍ، ويحملون بنادق أوتوماتيَّة.

قالت ستيفاني: " لقد تحققت من الأمر. هناك مجموعة رتبت برنامجاً لها في تلك الغرفة ليوم غد، لهذه الفترة من الوقت، حيث طلبوا تأمين المزيد من إجراءات الأمن. غرفة حجرة الاجتماع نفسها ستكون مغلقة. والبرج سيكون

مغلقاً حتى الساعة الواحدة ظهراً. وبعد ذلك، وحيث سيدخل أناس كثيرون لزيارة المكان كما هو الحال اليوم، وهذا سيكون عدداً كبيراً".

أوضحت ميغان: " كما قلت. إنها أول مرة يتجرّأ فيها النادي على الاجتماع خارج منزلهم في الماريه. ذلك المنزل الذي أريته لسام البارحة".

سألت ستيفاني ميغان: "أتعتقدين أن هذا الأمر له مغزى؟"

"لا بد من ذلك. فالنادي مشكلة".



ترك مالون "غراند فيفور" واستقلّ سيارة أجرة خارج المطعم للذهاب برحلةٍ سريعة إلى اللوفر. دفع أجرة السيارة وعبر تحت مدخلٍ كبير يفضي إلى قاعة نابليون، فرأى مباشرة الهرم الزجاجي الهندسي الذي كان بمثابة منور لمدخل المتحف في الأسفل. الواجهة الكلاسيكية في اللوفر كانت تبتلع أرض العرض الضخمة من ثلاث جوانب، بينما كان قوس النصر، المبني على نمط القوس الروماني ذا أعمدة رخامية وردية اللون، ترتفع كالخفر عند أقصى الطرف الشرقي.

كانت سبعة أحواض غرانيتية مثلّثة الشكل تحيط بالهرم الزجاجي. على طرف أحدها جلس رجلٌ نحيلٌ بملامح نحيلة وشعرٍ كثيف رملي اللون بلمسات من اللون الرمادي عند الصدغين. كان يرتدي معطفاً صوفياً داكن اللون وقفّازاتٍ سوداء. ورغم أن الجو بعد ظهر ذاك اليوم كان دافئاً بعد برودة الصباح القارسة، فقد قدّر مالون أن درجة الحرارة لا زالت منخفضة. كان ثورفالدسن قد أخبره أن الرجل سيكون في انتظاره هناك، بعد أن يكون قد حصل على الكتاب. ولذلك فقد سار باتجاهه وجلس إلى الحافة الباردة.

قال البروفسور مراد باللغة الإنكليزية: " لا بد أنك كوتون مالون".

بعد أن ألقى نظرةً على جيمي فودريل، كان يحمل كتاباً بشكلٍ ظاهر، فسلّمه له."ها هو طازجٌ قد خرج تواً من الأنفاليد".

"هل كان من السهل سرقته؟"

"كان يكفي أن أجلس هناك وأنتظر كما سبق وقلت لك".

راح ينظر إلى مراد الذي كان يقلب صفحات الكتاب الهشّة بين أصابعه. كان قد درسها لتوه خلال رحلتي ركوب السيارة وعرف إلى أين ستؤدي القراءة به. محطة التوقف الأولى كانت في المنتصف حيث كانت المخطوطة مقسومة بحد ذاتها إلى قسمين. في صفحة بيضاء، كانت بمثابة مقسِّم للكتاب، كان مكتوباً:

CXXXV II CXLII LII LXIII XVII
II VIII IV VIII IX II

راح ينظر إلى البروفسور الذي تغضّنت جبهته وعلا العبوس وجهه دلالة الاستياء. "لم أتوقع هذا".

نفخ مالون في يديه لكي يدفئهما وراح يراقب الهرج والمرج المذعور في الفناء، إذ إن مئاتٍ من السيّاح كانوا يدخلون إلى اللوفر ويخرجون منه.

"هلاّ شرحت لي؟"

"إنها عقدة المغربي. شيفرةٌ عُرف عن نابليون أنه كان يستخدمها. هذه الأرقام الرومانية تشير إلى نصٍّ محدد. بالصفحة والسطر، إذ إن هناك صفَّان فقط. سنحتاج لأن نعرف النص الذي استخدمه لكي يكشف الكلمات المفتاحية التي تشكّل الرسالة. ولكن ليس هناك سطر ثالث من الأرقام. تلك الأرقام التي يجب أن تحدد الكلمة الصحيحة في السطر الصحيح".

"لقد كنت أشعر أن الأمر لن يكون بتلك السهولة؟"

ابتسم مراد. "لم يكن الأمر كذلك أيضاً مع نابليون. لقد كان يحب الدراما. وهذا المتحف هو مثال نموذجي على ذلك. لقد انتزع تقدماتٍ من كل مكان احتلّه وجلبها معه إلى هنا، جاعلاً من هذا المكان، في هذا الوقت، أعظم وأغنى مجموعة تحفٍ في العالم".

"لسوء الحظ، أعاد الحلفاء كل شيء إلى مكانه. على الأقل ما نجده هنا - وذلك بعد العام 1815".

"إنك تعرف تاريخكم يا سيد مالون".

"أحاول. ويكفي أن تقول كوتون، لو سمحت".

"هذا اسمٌ غير مألوف. من أين حصلت عليه؟"

"مثل نابليون، هناك دراما كثيرة في تفسير ذلك. وماذا عن عقدة المغربي؟ هل من طريقةٍ لحلها؟"

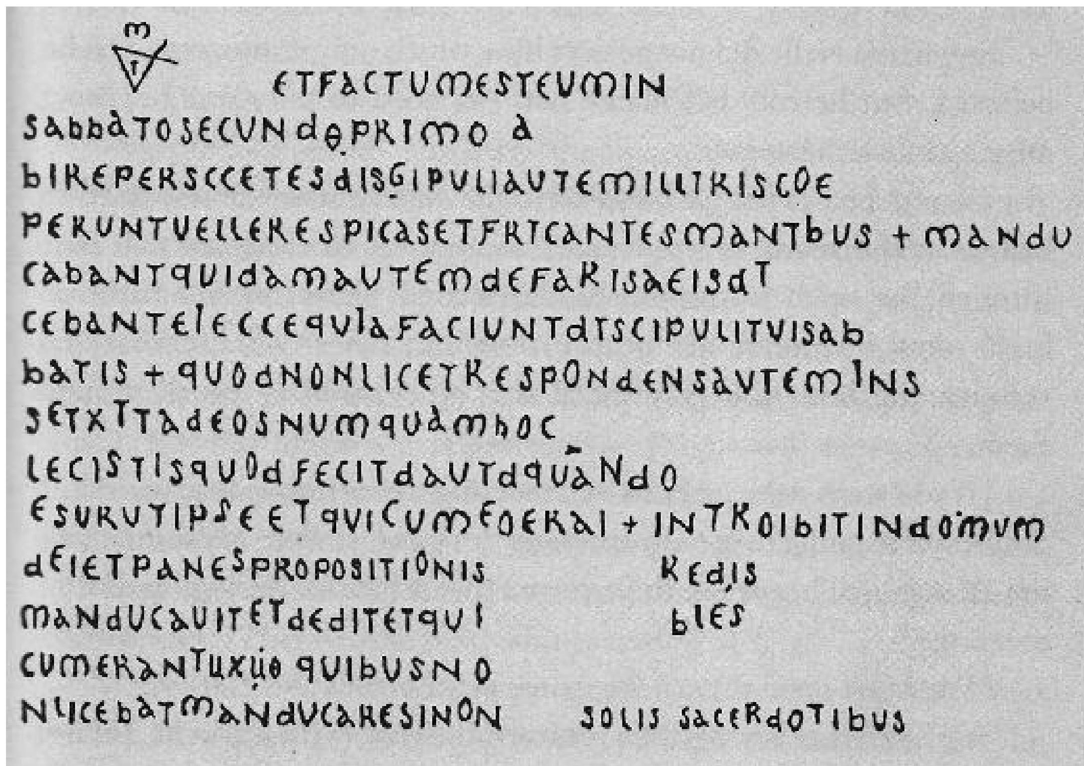
"ليس بدون معرفة النص بالضبط الذي استُخدم لوضع الأرقام. الفكرة كانت هي أن المرسِل والمرسَل إليه يكون لهما نفس النسخة ليقارنا بينهما. وذلك الصف الثالث المفقود من الأرقام قد يكون مشكلة حقيقية".

كان ثورفالدسن قد أطلعه بشكل كامل على وصية نابليون وعلى كتاب المرجع الذي كان مراد يمسك به والذي ورد في وصية نابليون الأخيرة. ولذلك فقد انتظر إلى أن أنهى البروفسور تخمينه للصفحات المتبقية.

"آهٍ يا إلهي،" قال مراد عندما وصل إلى حواشي النهاية. نظر العجوز إليه. "يا للروعة".

لقد نظر لتوه فرأى كيف أن طريقة الكتابة الغريبة قد جُعلت مائلةً، بلون حبرٍ أسود باهت، ألا وهو نفسه الحبر الذي استُخدم لكتابة الأرقام الرومانية.

سأل: " ربما تعرف ما هذه؟"


ETFACTUMESTEUMIN
SABBATOSECUNDOPRIMO A
BIREPERSCCETESDISCIPULIAUTEMILLIKISCOE
PERUNTUELLERESPICASETFRICANTESMANIBUS + MANDU
CABANTQUIDAMAUTEMDEFARISAEISDT
CEBANTEIECCEQUIAFACIUNTDISCIPULITUISAB
BATIS + QUODNONLICETRESPONDENSAUTEMINS
SETXTTADEOSNUMQUAMHOC
LECISTISQUODFECITDAUTDQUANDO
ESURUTIPSEETQUICUMEOERAT + INTROIBITINDOMUM
DEIETPANESPROPOSITIONIS REGIS
MANDUCAUITETDEDITETQUI BLES
CUMERANTUXUO QUIBUSNO
NLICEBATMANDUCARESINON SOLIS SACERDOTIBUS

فَهَزَّ مراد رأسه وقال: "لا فكرة لدي".



جاءَ سام ليدافع عن ميغان وقال: "يبدو أنّها ليست بحاجة لأي دليل. يمكنني القول إنّ وجودك هنا أكثر من كافٍ".

فأجابَت ستيفاني: "حسناً، حسناً. أخيراً بدأ السيّد كولنز يفكّر مثل عميل سرّي".

لم يقدِّر موقفها المتعالي، بيد أنّه لم يكن في وضع يسمح له بالاحتجاج. كانت على حقّ - بالفعل اضطرّ لاستخدام عقله. فقال: " كنتِ تراقبين موقعها الإلكتروني، وكذلك موقعي الخاص. والله أعلم كم من موقعٍ آخر! إذاً ثمّة شيء كان يحصل هنا. شيء قد لفت انتباه الجميع".

فأجابت ستيفاني: "الأمر بسيط. نريد أن يُزَجّ أعضاء نادي باريس في السجن ".

لم يصدّق كلامها. "ثمّة شيء آخر، وأنتِ تعرفينه".

لكنّ ستيفاني نيلي لم تردّ عليه، ممّا عزّز شكوكه. غير أنّه لم يستطع لومها. لا داعي لإخبارهما بما هو أكثر من الضروري.

أخذ يراقب المكان فيما ظل الناس المرتدين ملابس سميكة لأجل الدفء يتدفّقون من أسفل السلالم. كان عدد متزايد من الأشخاص يدخل ويخرج من المصاعد التي علت عبر الأشغال الحديديّة المفتوحة للمنصّة الثانية. اندفع حشد إلى المطعم المجاور لتناول الغداء. تسلّلت نسمة باردة إلى الميدان عبر معدن ذي لون رمادي مائل إلى البنّي منسوج حولها.

قالت ميغان: "إنْ كنتِ تريدين أن تكوني على معرفة باجتماع الغد، أشكّ في أنّك سوف تركّبين أجهزة تنصّت. تقول لي مصادري الخاصّة إنّ غرف النادي تُنظّف وتُمسحُ أرضيتُها قبل الاجتماعات وخلالها وبعدها".

فأوضَحَت له ستيفاني: " لن نحتاج إليها".

حدّقَ سام بها، فبادلته النظرات إنّما بتكشيرة لم تَرُقْ له.

"هل قمتما يوماً بخدمة الموائد؟"

40

استمتعت إليزا حقّاً بمحادثتها مع هنريك ثورفالدسن أثناء الغداء. كان رجلاً ذكياً، سريع البديهة، يكره تضييع وقته على أحاديث صغيرة. بدا مستمعاً متحمّساً، شخصاً يستوعب الوقائع، ويضعها في الترتيب الصحيح، ومنها يستخلص الاستنتاجات بسرعة.

مثلها تماماً.

قالت: " أدرك نابليون أنّ الحرب مفيدة للمجتمع. فحشد، كما لم يسبقه أحد، أفضل ما عنده من مفكّرين ليفكّروا بشكل أفضل. فاكتشف أنّ العلماء يصبحون أكثر إبداعاً حين يكون التهديد حقيقيّاً. يصبح التصنيع أكثر ابتكاراً وإنتاجيّةً. أمّا الناس فيمسون أكثر خضوعاً. كما اكتشف أنّ المواطنين يسمحون، تحت التهديد، بأيّ خرق من جانب الحكومة، ما داموا محميّين. ألا أنّ الإفراط في الحرب مُدمِّر. فقط سوف يكون على الشعب أن يتحمّل الكثير، وقد تأكّد أعداؤه من أنّ ثمة أموراً كثيرة تفوق ما كان ينويه، وقد فقد في نهاية المطاف كامل القدرة على الحكم".

فقال ثورفالدسن: "لستُ أفهم كيف يمكن لحرب أن تكون مفيدةً. ففيها سيّئات كثيرة".

"هناك الموت، والدمار، والخراب، والضياع. بيد أنّ الحرب لطالما وُجِدَت. كيف يمكن لعمل خاطىء تماماً ألا ينفكّ يزدهر وينمو؟ الجواب بسيط. فالحرب لها منافع. تذكّروا أنّ أعظم الإنجازات التكنولوجيّة البشريّة كانت دائماً نتاج حرب. انظروا إلى الصراع العالمي الأخير الذي علّمنا أن نجزّئ الذرّة ونحلّق في الفضاء، ناهيك عن تطوّرات لا تُحصى في ميدان الإلكترونيّات، والعلم، والطب، والهندسة، وذلك كلّه، بينما كنّا نذبح بعضنا البعض على نطاق لم يسبق له مثيل ".

طأطأ رأسه مؤيداً. "إن ما تقولينه صحيح".

"حتّى إنّ الأمر مأساويّ أكثر من ذلك. أيها السيد ثورفالدسن، انظر إلى التاريخ الأمريكي، فاقتصاده منظوم مثل الساعة، فهو أشبه بدورة ازدهار،

وركود، وانهيار. ولكن هنا تكمن حقيقة ما مفادها أنّ كلّاً من هذه الانهيارات الدوريّة قد حدثت خلال فترة من الإنفاق العسكري غير الملائم. إنّ فترات ما بعد حرب 1812، والحرب الأهلية في الستّينيات، والحرب الإسبانيّة - الأمريكية في بداية القرن العشرين، شهدت جميعها انهيارات. كما أنّ الكساد الكبير في الثلاثينيات، عقب الحرب العالميّة الأولى، قد جاء في زمن دخلت فيه الولايات المتحدة في عزلة وفكّكت جيشها تفكيكاً مطلقاً. ثمّة حرب أخرى ينبغي التشديد عليها".

"يبدو وكأنّه موضوع قد قمت بدراسته".

"حقّاً فعلت، والأدلّة واضحة. فالحرب تتيح الفرصة لبسط حكم مستقرّ وثابت للمجتمع. وتوفرِّ ضرورةً خارجيّةً واضحةً ليقبل المجتمع بالقوانين السياسيّة. فالحرب العالميّة الأخيرة والسيادة الوطنيّة سوف تنتهيان في الأخير. ذاك ما كان نابليون قد فهمه. إنه على الأرجح أوّل زعيم معاصر استوعب معناه ".

بدأت غرفة الطعام في"غراند فيفور" تخلو من الناس. أوشك وقت الغداء على النهاية، فتأمّلت الزبائن وهم يودِّعون بعضهم البعض ثمّ يغادرون ببطء.

فقالت: "خطّط نابليون لنقلة نوعيّة ليس في فرنسا فحسب، بل في سائر الأراضي التي احتلّها، من حالة حرب إلى مجتمع يسوده السلام. غير أنّه أدرك أنّه من أجل القيام بذلك، يحتاج لحلول بديلة للحرب. ومن سوء حظّه أنّ البدائل المناسبة كانت معدومةً في زمنه".

"ماذا يمكن أن يحلّ مكان الحرب؟"

فأجابت بنبرة غير مبالية: "إنّ إيجادها صعب إنّما ليس مستحيلاً. تقضي الفكرة بخلق عدو بديل، تهديد، سواء حقيقيّاً أم محسوساً، يحتشد المجتمع ضدّه ليدافع عن نفسه، كحرب الدمار الشاملة بواسطة الأسلحة النوويّة على سبيل المثال. ذاك كان محور الحرب الباردة. لم يُقْدِم أيٌّ من الطرفَين على القيام بأي عَمَلٍ يُذكر إزاء الآخر، بيد أنّ كليهما صرفا ملياراتٍ ومليارات على التحضيرات. ازدهرت الحكومة أثناء الحرب الباردة وتوسّع النظام الفيدرالي الأمريكي إلى مستويات لم يسبق لها مثيل. وقد بلغت الحضارة الغربيّة مستويات عالية جديدة بين 1950 و 1990. بفضل الحرب الباردة أيضاً، استطاع الإنسان أن يصعد إلى القمر. هناك مثل لبديل جدير بالحلول مكان

الحرب".

"ثمّة وجهة نظر في كلامك".

"هناك أمثلة أخرى، إنّما أقلّ إقناعاً، نذكر منها، الاحترار العالمي، والنقص المحسوس في الطعام، ومراقبة المياه العذبة. ففي السنوات الأخيرة، خضعت كل هذه الأمور للتجربة، ولكن حتّى الآن، لم يجد أحد فيها ما يكفي لاعتبارها بمثابة تهديد حقيقي أو محسوس".

"ربما تكون البرامج الشاملة التي تعزّز الرعاية الصحيّة، والتعليم، والإسكان العام، والنقل، فعّالةً. إنّما يجب أن تشمل السكّان أجمعين في نجاحهما وأن تُصرف الموارد بشكل فاحش. أشكّ في إمكانيّة حصول ذلك. حتى إنّ الحروب الصغيرة تصرف مقادير هائلةً من الموارد. فالإنفاق العسكري والجهوزيّة مجرّد إسراف وتبذير لا فائدة منه، ولا يضاهيه أي برنامج رعاية اجتماعيّة، مع أنّ برامج الرعايّة الصحيّة والضمان الاجتماعي عبر العالم تبذّر المال بشكل جنوني. ولكنها في النهاية، لا تستطيع، بكل بساطة، أن تغدق في الصرف بما يكفي لتحويل المغامرة إلى بديل حرب قابل للحياة".

ضحك ثورفالدسن بخفّة."أتدركين سخافة ما تقولينه؟"

"تماماً. ولكنّ الانتقال إلى سلام عالمي محاولة صعبة. فأن نتجاهل تحدّي الحكم لبرهة، لهي مسألة توزيع هجوم جماعي".

"كما فعل الرومان؟ في ملعب الكولوسيوم؟ مع المصارعين والألعاب والأضاحي؟"

"كان الرومان أذكياء. لقد عرفوا المفاهيم التي أشرحها. ففي مجتمع مبنيّ على السلام، إذا كان لا بد من تفادي التفكّك الاجتماعي، فلا بد من إيجاد بدائل للحرب. وهذا ما قدّمته الألعاب للشعب الروماني وازدهر مجتمعهم طيلة قرون".

تمكّنَتْ من رؤية اهتمامه بما كانت تقوله.

"أيها السيّد ثورفالدسن، منذ زمن بعيد، أدرك الملوك القدماء أنّ ما لا يتحمّله المرؤوسون عندهم في زمن السلم، يتقبّلونه عن طيب خاطر في زمن

الحرب. وبالفعل، أثبت هذا المفهوم صحّته في أيامنا هذه، في الديموقراطيّات الحديثة. فلننظر مرةً أخرى إلى أمريكا. ففي الخمسينيات، لقد سمحت بالتعدّي على تعديلها الأوّل، عندما رأت أنّ تهديد الشيوعيّة الانتهاكيّة بات حقيقيّاً. من هنا، أضحت حريّة التعبير بلا أهميّة بالمقارنة مع خطر الاتحاد السوفياتي، ذاك الخطر الذي رُسِم في المخيّلة. حتّى أنّه مؤخّراً، بعد اعتداءات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، تمّ إقرار قوانين كان الأمريكيون لينفروا منها لو أنّها صدرت في أي وقت آخر. هكذا، قام قانون باتريوت الأمريكي لمكافحة الإرهاب بإلغاء الحرّيات واجتياح الخصوصيّات بشكل لم يسبق له مثيل، كما أنّ قوانين المراقبة قد كبحت الحريّات المدنيّة وقيّدت الحرّيات الراسخة. أبصرَت قوانين التحديد النور، تلك القوانين التي نفر منها الأمريكيون حتى ذلك الحين. غير أنّها سمحت بتلك الانتهاكات حفاظاً على سلامتها".

"أو على الأقل ليحسّوا بالأمان".

ابتسمَت وقالَت: "تماماً. هذا ما أتحدّث عنه بالضبط. إنّ تهديداً خارجيّاً قابلاً للتصديق يساوي قوّةً سياسيّةً - ما دام التهديد قابلاً للتصديق".

صمتَت برهةً.

"وضمن تلك المعادلة، توجد فرصة لربح عظيم".



أشارَ مالون إلى الكتاب الذي كان البروفسور مُراد يحمله وإلى الأسطر المكتوبة المُتّسمة بشيء من الغرابة. "إنّ جهلنا للموضوع سوف لن يروق لهنريك".

تابع مُراد تفحّصه لذلك الوضع غير الطبيعي. "لديّ فكرة. هيّا بنا ندخل إلى اللّوفر. ولكن ثمّة أمر عليّ أن أتأكّد منه".



كان ثورفالدسن يستوعب كل ما كانت إليزا لاروك تشرحه. من الواضح أنّها تمعَّنت في التفكير في خططها. قرّر توجيهها نحو آشبي.

فقال لها بصوت ودود: "لم تسأليني شيئاً عن مشكلتك الأمنيّة".

"افترضْتُ أنّك سوف تكلّمني عن ذلك عندما تصبح مستعدّاً للأمر".

رشف من كأسه ورتّب أفكاره. "آشبي يواجه ديوناً تبلغ قيمتها نحو ثلاثين مليون يورو، ومعظمها قروض شخصيّة، بدون ضمان، وبفائدة عالية".

"وجدتُ لورد آشبي شخصاً واضحاً وصريحاً، وفي منتهى الإخلاص. لقد فعل كل ما طلبتُه منه".

"لورد آشبي سارق. كما تعرفين جيداً، قبل سنوات قليلة، كان متورّطاً مع جماعة من جامعي الفن في عمل غير شرعي. وقد واجه كثيرون منهم مؤخّراً العدالة".

"لم يتم إثبات شيء من هذا ضد اللورد آشبي".

"هذه المرّة، لا شيء يعفيه. أعرف أنّه متورّط. أنتِ أيضاً تعرفين ذلك. لهذا السبب هو عضو في ناديك".

"وهو يحرز تقدّماً ممتازاً في تنفيذ طلباتي. في الواقع، إنه موجود حاليّاً هنا، في باريس، على أمل التوصّل إلى حلّ واعد قد يساعدنا على بلوغ أهدافنا. لذا، أيها السيد ثورفالدسن، ربما سأكون مستعدّةً بما يكفي للمسامحة".



تبع مالون البروفسور مراد في الهرم الزجاجي ونزل سلسلة من المصاعد الإلكترونيّة. علت دمدمة خافتة عبر الحشود المنتظرة دورها لدخول المتحف. سأل نفسه إلى أين كانوا متّجهين وشعر بالامتنان عندما اجتازَ البروفسور الصفوف الطويلة أمام شبابيك التذاكر وتوجّه إلى المكتبة.

كان المتجر المؤلّف من طابقين حافلاً بالمعلومات. كان يحوي آلاف الكتب المعروضة للبيع، وقد رُتِّبَت حسب بلد صدورها وزمنه. ذهب مراد إلى قسم الكتب الفرنسيّة الواسع حيث كانت مُجَلَّدات تعود إلى عصر نابليون مُكدَّسةً على طاولات كثيرة.

قال الأكاديمي: "آتي إلى هنا دائماً. أنّه مكان رائع يضمّ نصوصاً كثيرةً غامضة المعنى لا نجدها في مكتبات عاديّة".

فهمَ بسهولة هذا الهوس. فعشّاق الكتب جميعهم متشابهون.

بحَثَ مراد عن العناوين بسرعة.

فسألني: "أتسمح لي بمساعدتك؟"

"أبحث عن مجلّد فرنسي".

ظلّت عيناه تتفحّصان الطاولة. "كتاب جزيرة القديسة هيلانة. ابتعتُه منذ أسابيع قليلة ولكن..." مدّ يده إلى الأسفل وسحب أحد المجلّدات. "ها هو! كم هو باهظ الثمن! فاكتفيتُ بتأمّله من بعيد".

ابتسمَ مالون. أعجبه ذاك الرجل. لا شيء مثير للانتباه حوله.

أخذ مراد المجلّد وتصفّحه. بدا وكأنّه وجد ما كان يبحث عنه وطلب من مالون أن يفتح الكتاب الذي أخذه من الأنفاليد في الصفحة التي تحوي تلك الأسطر الغريبة المكتوبة.

قال مراد مشيراً إلى الكتاب الذي جاءا من أجله: "هذا ما فكرتُ فيه تماماً. إنها صورة عن بعض المدوّنات التي كتبها نابليون أثناء نفيه في جزيرة القديسة هيلانة. نعلم أنّ حارسه سانت دينيس قد أعاد كتابة العديد من مسودّات نابليون، منذ أن صار خط يد الإمبراطور شنيعاً". وتابع مراد مؤشّراً بإصبعه: "أُنظرْ. النموذجان الموجودان عندنا هما سيّان تقريباً".

قارَنَ مالون الكتب ورأى أنّ المخطوطة هي نفسها بالفعل. فالأحرف مكتوبة بخط اليد نفسه.

فسأل: "إذاً سانت دينيس هو من كتب ما تضمّنه هذا الكتاب الميروفنجي؟"

"كلا، لم يفعل".

بدا مالون مرتبكاً مشدوهاً.

أشار مراد إلى كتاب اللوفر المفتوح وقال: "إقرأ التعليق الموضوع تحت الصورة ".

فعلَ وأدرك عندئذٍ: " أهو خط يد نابليون؟"

طأطأ مراد رأسه مؤيّداً وأشار إلى النص الميروفنجي وأوضَحَ: "لقد كتَبَ شخصيّاً ما يتضمّنه هذا الكتاب، ولكنّه فيما بعد وضع الكتاب في عهدة سانت

دينيس. وهذا تحديداً ما يجعل هذه الكتابة جديرةً بالاهتمام".

تذكَّرَ ما أخبره به هنريك بشأنِ الحوار الذي دار بين آشبي وكارولين دود. فقد اكتشفَت هذه الأخيرة رسالةً كُتِبَت هي أيضاً بخط يد نابليون. وكان من غير العادي رؤية خط يد نابليون، على حد قولها لآشبي.

ذكَرَ ذلك لمراد.

فقال البروفسور: "كنتُ أفكِّر بالأمر ذاته. أوجزَ لي هنريك ذلك أيضاً. إنّه أمر في منتهى الغرابة حقاً!"

أمعن النظر في الخطوط الأربعة الواردة في تلك الرسالة الغريبة إلى جانب غيرها من العلامات الأخرى العشوائيّة المكتوبة بخط يد نابليون بونابرت نفسه.

قال مالون: "ثمّة رسالة هنا. لا بدّ من ذلك".



قرّرَ ثورفالدسن أن يدخل أكثر في أعماق ذات إليزا لاروك. فسألها: "ماذا لو عجزَ لورد آشبي عن الاستجابة لطلباتك؟"

فأجابت باستهجان: "عدا عن أسلافي، فإن قلّة لا تُذكر من الناس قد بحثَت عن كنوز نابليون. يعتبرها الناس عموماً مجرّد خرافةً. آمل أن يكونوا على خطأ. لا أظنّ أنّ الذنب ذنب آشبي إذا فشل. يكون على الأقلّ قد حاول".

"بينما يقوم بخداعك بشأن موارده الماليّة".

لمسَت كأسها وقالت: " أقرّ بأنّها مشكلة. لستُ مسرورةً بذلك". صمتَت لحظةً وتابعت: "ولكن حتّى الآن غاب عنّي أي دليل".

"ماذا لو أنّ آشبي قد عثر على الكنز ولم يخبرك بالأمر؟"

"كيف بإمكاني أن أعرف؟"

" لن تعرفي ".

"هل من شيء وراء إلحاحك؟"

رأى أنّها قد فَهِمَت التلميحة إلى وعد ضمني. "فمهما كان الشيء الذي يبحث عنه اليوم هنا في باريس، فهو أمرٌ يُهمّنا كثيراً. أنتِ بنفسك قلتَ أنّه قد

يحمل مفتاح اللّغز. إذا كنتُ محققةَ بشأنه، سوف يقول لك أنّه لن يقدر على سحب أي غرض كان، هذا إذا لم يكن عنده أعذار أخرى. يبقى عليك أن تحكمي أنتِ بذاتك إن كان كلامه كذباً أو حقيقةً".

41

تَرَكَ مالون الدكتور مُراد في اللوفر، بعد تصوير صفحتَي الكتاب الميروفنجي المكتوبتَين بخط نابليون وترك نسخ التصوير مع البروفسور. كان عليه الاحتفاظ بالكتاب.

استقلّ سيّارة أجرة، وعَبَرَ نهر السين، ثمّ توجّهَ إلى برج إيفل. تحت الأعمال الحديديّة، ووسط زحمة الحشود الواقفة في الصف بانتظار دورها لصعود المصعد الكهربائي، لَمَحَ ستيفاني وسام وامرأة أخرى: ميغان موريسون.

فقال لسام: " يسرّني أن أراك بخير. لا شكّ أنّك لم تسمع أياً من الأشياء التي قلتُها في المتحف".

"بكل بساطة لم أستطع المكوث في مكاني دون أن أحرِّك ساكناً".

"في الواقع، كنتَ تستطيع ذلك، وهذا ما كان عليك أن تفعله".

ثم قابَلَ مالون موريسون وجهاً لوجه، فكانت تماماً كما وصفتها ستيفاني: قصيرة، قلقة، جذّابة، ومثيرة للاهتمام.

أشارّ مالون إلى ستيفاني وسأل: " أهي دائماً عدوانيّة إلى هذا الحدّ؟"

"في الحقيقة، لقد نضجَت وهدأت مع مرور الزمن".

ثمّ قالت ستيفاني: " نستأذن منكم لدقيقة". أمسكَت ذراع مالون وقادته جانباً وسألته: " ماذا وجدتَ في قصر الأنفاليد؟"

سحبَ الكتاب من تحت سترته وأراها إيّاه."لم يكن لورد آشبي مسروراً لاختفائه. تأمّلته وهو يقرأ ملاحظاتي. غير أنّني انتبهتُ إلى أنّه تجاهل أسئلة كارولين دود وألقى كلّ اللوم على لاروك".

"هذا ما يفسِّر لماذا لا يعرف ثورفالدسن أنّ آشبي يعمل لدينا. لذا أبقى جواسيسه عن قرب. لم أفكّر في أنّ هنريك كان ليطارد الرجل 24 ساعةً في اليوم أو ليستمع إلى كل حوار".

عرفَ مالون أنّ المراقبة المُشدَّدة، مهما كانت مُتقَنةَ، قد لُوحِظَت في النهاية. فمن الأفضل التأنّي وتوخّي الحذر.

قالت: "لم يراقِب المسؤولون عندنا آشبي بشكل جيّد. فقد مُنِحَ حرّية مُطلقة، وكان هو من يصدر الأوامر".

تأمّلَ مالون سام وميغان موريسون وهما يقفان على بعد مئة قدم."هل يقوم بواجبه كما ينبغي؟"

"يريد أن يكون عميلاً سرّياً، لذا سوف أمنحه فرصةً".

"أهو مستعدّ لذلك؟"

"هو كل من عندي في الوقت الراهن، لذا سوف يضطرّ أن يكون مستعدّاً ".

"وهي؟"

"متهوّرة. متعجرفة. منحلّة الأخلاق".

"من السهل أن نرى كيف تتناكفان كلاكما؟"

فابتسمَت وقالت: " ثمّة مخابرات فرنسيّة تعمل لدي. لقد علموا عن بيتر لايون ويريدون إيجاده فوراً. فاسمه مرتبط بثلاث عمليّات تفجير أودَت بحياة أربع شرطيّين منذ عشرة أعوام".

"أما زالوا غاضبين بشأن ما حدث في بلدة كلوني؟"

ضحكَت بخفّة."إنّ المدير العام للأمن الخارجي يعرف كلّ شيء عنك. لقد أخبرني عن دير بيليم وكاتدرائيّة آخِن. لكنّه عاقل. فهكذا دخلنا آشبي وأنا في الأنفاليد وخرجنا منها من دون أي مشكلة. صدِّقني، عندهم أمن أفضل من ذلك".

"أحتاج لشيء آخر". لوَّحَ بالكتاب وتابع: " قصّة صحفيّة تحكي عن سرقته. ليس بشيء كبير - إنّما يكفي لإعداد صفحة يوم غد. قد تساعِد بعض الشيء!"

"مع هنريك؟"

فطأطأ رأسه مؤيّداً."عليّ أن أُبقيه تحت السيطرة. لديه خطّة لاستخدام السرقة ضدّ آشبي مع لاروك. لا أريد أن أرى الأذى، فلنتساهل معه إذاً!"

" أين هو؟"

"إنّه يعمّق الخلاف بين إليزا لاروك وآشبي.أتدركين أنّني أفعل مثله. إنّني

أجعلهما يتنافسان مع بعضهما لمصلحتك".

"إنْ أبليتَ بلاءً حسناً، ربما سنحصل على مبتغانا".

كان متعباً. فقد عاد إليه إرهاق الأسبوعَين الماضيين. مرّر يده عبر شعره. يجب عليه أيضاً الاتصال بغاري. يصادف عيد الميلاد غداً، وهو يوم يفترَض أن يتحدّث فيه الآباء إلى أبنائهم.

فسأل: "وماذا الآن؟"

"أنت وأنا متوجهان إلى لندن".



وضع سام يديه العاريتين في جيب معطفه ووقف وسط الحشود مع ميغان.

كانت الشمس تسطع في سماء خالية من الغيوم.

سألها: " لِمَ تفعلين هذا؟"

"لأنّ صديقتك تلك قالت لي إنّه سيتم توقيفي إن لم أفعلْ".

"لا، ليس هذا السبب".

لم تظهر على وجهها اللطيف أي علامة خوف أو قلق. هذا ما لاحظه منذ يوم أمس. لا سلبية في هذه الشخصيّة، أو على الأقل، لا تسمح بتجلّي أي تعبير.

فقالت: "أخيراً نفعل ذلك. انتهى الكلام. فنحن هنا، يا سام، نفعل شيئاً".

أحسّ بشيء من الحماس في نفسه.

"يمكننا ردعهم. أعرف أنّ ذلك كان حقيقيّاً. كذلك أنت تعرف. لسنا مجانين، يا سام!"

"أتدركين أنّ ما تريدنا ستيفاني أن نفعله هو أمر خطير؟"

فضحكَت بخفّة. "إلى أي درجة قد يكون سيّئاً؟ هل من شيء أسوأ مما حصل في المتحف يوم أمس؟ ما المشكلة في بعض خُيلاء الفرسان؟"

سأل نورستروم: "ماذا تعني تلك الكلمة؟"

"حرّ. ارتجالي. لا مبالي نوعاً ما".

سمح لدماغه البالغ خمسة عشر عاماً باستيعاب المعنى. كان قد خرق قاعدةً أخرى وخاطر بالصعود على واجهة الصخرة. كان نورستروم قد طلب منه أن يستخدم حبلاً، ألا أنّه لم يُطِعه.

"سام، جميعنا نجازف. هكذا ننجح. إنّما ليس بالمخاطرات الغبيّة. فالنجاح يأتي من تقليص الخطر، وليس تعظيمه".

"لكن لي تكن هناك ضرورة للحبل. فقد أبليتُ بلاءً حسناً".

"وماذا كان ليحصل لو أنّك لم تسيطر على نفسك؟ ماذا لو انزلقت قدمك؟ أو تمزّق عضلك؟ "تشير أسئلة نورستروم بوضوح إلى أنّه كان تعيساً، هذا إن لم يكن مستاءً."كنت لوقعْتَ، كنتَ لبقيتَ مشوّهاً طيلة العمر، أو ربما مُتَّ، وماذا تكون قد استفدْتَ من تلك الخاطرة؟"

حاول أن يضع المعلومات في إطارها، موبّخاً نفسه بينما يفكر بالجواب المناسب. لم يحب يوماً إثارة غضب نورستروم. عندما كان أصغر سناً، لم يكن يبالي، ولكنّة ومع المعمر، لم يعد يريد أن يخيّب أمل هذ الرجل.

"أنا آسف. كان ذلك غباءً".

ربّتَ الرجل المتقدم في السنّ على كتفه وقال: "تذكّر يا سام، إنّ الغباء سوف يقودك إلى الموت".

رنّ تهديد نورستروم بوضوح في دماغه بينما راح يتأمّل أسئلة ميغان الثلاثة. قبل سبعة عشر عاماً، عندما صعد على واجهة الصخرة من دون حبل، أدرك أنّ نورستروم كان على حقّ.

إنّ الغباء سوف يقتلك.

ألا أنّه نسي تلك الأمثولة أمس عندما كان في المتحف.

ليس اليوم.

كانت ستيفاني نيلي قد عيّنته لتأدية مهمّة. أهو عمل يتضمّن أخطاراً؟ نعم، الكثير منها، إنّما ينبغي قياسها وحسابها.

لا مجال للخيلاء في ذلك!

"أريد أن أكون حذراً يا ميغان. وأنتِ كذلك".

42

إنكلترا
الساعة 2:40 بعد الظهر

اختلس آشبي النظر إلى ساعته ولاحظ أنّ سيارة البنتلي من مطار هيثرو إلى سالن هول قد استغرقت أكثر من ساعة. كما لاحظ أنّ عمّاله انهمكوا في صيانة المكان، على الرغم من أنّ النافورة التي تشبه فرس البحر، وبركة القناة، والشلالات، لبثت صامتةً لفصل الشتاء. عدا عن اصطبل واسع ومطبخ وجناحٍ للخدم، ظلّ المنزل على حاله منذ القرن الثامن عشر. حتّى إنّ أجمة الغابة والمروج بقيت على حالها. كانت الأرض المحيطة في أحد الأزمنة أرض بور، فقام أسلاف آشبي بتلطيف الوادي بالعشب والسياج. كان آشبي يعتزّ بجمال هذه الأرض وباستقلالها. إنّها قصر من القصور الريفيّة، وواحدة من أحدث الممتلكات البريطانيّة الخاصة التي لم يعتمد مدخولها على السياحة قط.

ولن يعتمد عليها يوماً.

توقّفت السيارة عند قمّة طريق مسدود. كان القرميد البرتقالي اللون والنوافذ ذات الألواح الزجاجيّة الماسيّة تتلألأ تحت أشعة الشمس. وكانت المزارب المائيّة الزخرفيّة تلوح من السطح، وقد توازنت فؤوسها لكأنّها تنذر المجتاحين.

قالت له كارولين بينما وطأت أقدامهم عتبة المنزل: "سوف أجري بحثاً صغيراً ".

جيّد! عليه أن يفكّر. توجّه والسيّد غيلدهول إلى غرفة المكتب وجلَسَ آشبي وراء مكتبه. وما لبثَ أن تحوّل هذا اليوم إلى فاجعة.

لزم الصمت طيلة رحلة الإياب من باريس مؤجِّلاً المحتوم. ثمّ رفع الهاتف واتصل بإليزا لاروك.

قالت: "آمل أنّك تحمل لي مزيداً من الأخبار السارّة".

"في الواقع، لا. لم أجد الكتاب هناك. ربما نُقِلَ إلى مكان آخر خلال فترة

إعادة الترميم. وجدتُ واجهة العرض والأغراض الأخرى، ولكنّني لم أعثر على مجلّد الميروفنجيين".

"كانت المعلومات التي أُعطيت لك في منتهى الدقّة".

"لم نجد الكتاب هناك. هلاّ تتأكدي من جديد؟"

" بالطبع!"

"في الصباح، حالما أعود إلى باريس للاجتماع، ربما نستطيع التحدّث على انفراد قبل بدئه".

"من المفترض أن أصل إلى البرج قبل العاشرة والنصف".

" أراكِ غداً إذاً".

أقفل الهاتف ونظر إلى ساعته.

لا تزال هناك أربع ساعات للانطلاق. كان قد رتّب لقاءً مع الأمريكية. وكان يأمل أن تكون تلك محادثته الأخيرة، بما أنه قد ملَّ وضجرَ من الألعاب البهلوانيّة. لقد أراد العثور على كنز نابليونٍ وتمنّى أن يحمل الكتاب المفتاح الذي في قصر الأنفاليد. فالأمريكيون القُساة الذين لا يرحمون هم من يسيطرون عليه في الوقت الراهن!

سوف يكون عليه التفاوض هذه الليلة.

ففي الغد، سوف يكون الأوان قد فات.



أغلقَت إليزا هاتفها وأعادَت التفكير بتوقّعات هنريك ثورفالدسن."إذا كنتُ على حق، سوف يقول لك إنّه لم يستطع سحب أي شيء، أنّه لم يكن هناك أو سوف يخترع عذراً آخر". وعلى حدّ ما قاله لها من جديد، قُبَيل تناول الغداء ومغادرة المطعم: " يبقى عليك أن تحكمي أنت بذاتك إذا كان كلامه كذباً أم حقيقةً".

كانت بأمان داخل منزلها في"الماريه" التي لا تبعد كثيراً عن مكان اجتماع أعضاء نادي باريس. كانت عائلتها قد حازت على هذه المُلكيّة منذ منتصف القرن التاسع عشر. لقد نشأت وترعرعت بين هذه الجدران الأنيقة وأمضت

معظم أوقاتها هناك. أكّدَت لها مصادرها الخاصّة داخل الحكومة الفرنسيّة أنّ الكتاب الذي تبحث عنه موجود هناك، في المتحف. فذاك الكتاب، عدا عن أنّه جزء من مكتبة نابليون الشخصيّة وقد أتى على ذكره في وصيته، هو أثر من الماضي يحمل في طيّاته معنىً تاريخياً. كانت مصادرها الخاصّة قد طرحَت بعض الأسئلة، ألا أنّها امتنعَت عن ذلك حالما علمَت باختفاء الكتاب، ما دامت هذه المصادر قد عرفت منذ زمن طويل أنّه ينبغي عليها لزوم الصمت والتكتّم عن الموضوع احتراماً وتقديراً لكرمها وشهامتها.

لم تنفكّ تتناقش عما يجب فعله بشأن ثورفالدسن منذ مغادرتها مطعم "غراند فيفور". فقد ظهر الملياردير الدانماركي على حين غرّة، وفي جعبته معلومات تعجز عن تجاهلها. من الواضح أنّه على علم بطبيعة عملها، وقد أكَّدت النبوءة نواياه. وإذا بآشبي يؤكِّد بدوره تكهّنات ثورفالدسن. إنها لم تعد تنوي تجاهل أي إنذار بعد الآن.

سحبَت الرقم الهاتفي الذي أعطاها إياه ثورفالدسن في الأمس وطلبت الرقم. عندما أجاب، قالت له: "قرّرتُ أن أوجّه لك دعوة للانضمام لمجموعتنا".

"يا للكرم! أفترض أنّ لورد آشبي قد خيّب أملك".

"فلنقل إنّه أثار فضولي. هل أنت مشغول في الغد؟ سوف يجتمع أعضاء النادي في جلسة مهمة".

"أنا يهودي. لذا يوم الميلاد ليس يوم عطلة بالنسبة إليّ".

"كذلك الأمر بالنسبة إليّ. نلتقي صباحاً في صالة "غوستاف إيفل" على أوّل رصيف في البرج، في الساعة الحادية عشر. توجد هناك غرفة طعام رائعة، هكذا نتناول الغداء بعدما ننهي حديثنا".

"فكرة مدهشة".

"أراكَ عندئذٍ".

أغلقت الهاتف.

غداً.

لقد كان يوماً لطالما انتظرَتْه. خطّطت أن تقدّم لعصبتها شرحاً كاملاً عمّا تعلّمته عائلتها من أوراق الرقّ المخطوطة. حدّثت ثورفالدسن عن بعض منها

أثناء الغداء، غير أنّها تعمّدت إغفال التحذير. ففي مجتمع مبني على السلام، خالٍ من الحرب، تبيّن أنّ تحفيز الخوف الجماهيري عبر تهديدات سياسيّة، أو اجتماعيّة، أو بيئيّة، أو علميّة، أو ثقافيّة، أمر شبه مستحيل. حتّى الآن، لم تثبت أي محاولة مصداقيّتها أو مدى تأثيرها على المدى الطويل. ثمّة شيء أشبه بطاعون أسود بات وشيكاً على نطاق عالمي، ألا أنّ هذا التهديد التي لا تزال ظروفه مجهولة، والخاضع لسيطرة ضئيلة أو معدومة، غير عملي.

وإنّ أي تهديد ينبغي أن يكون قابلاً للاحتواء.

على أي حال، تلك كانت الفكرة بوجه عام: بثُّ الرعب في نفس الشعب كي يصبح مطيعاً، من ثمّ، الاستفادة من خوفه. الحلّ الأفضل هو الأبسط. يكفي اختراع تهديد ما! تتّسم خطّة كهذه بميزات كثيرة. إنها أشبه بمفتاح لتخفيف ضوء الثريّا قابل للتعديل بدرجات لا متناهية. من حسن الحظ أنّ العالم قد عرف اليوم عدوّاً فعليّاً قد أثار الرأي العام.

الإرهاب.

كما قالَت لثورفالدسن، أثبتَ ذلك التهديد الصريح فعاليّته في أمريكا، لذا، من المفترَض أن يُثبت فعاليّته في سائر أنحاء العالم.

غداً، سوف ترى إذا ما صدَقَت مخطوطات الرق أم لا.

إنّ ما شاء نابليون أن يفعله في أيّامه، سوف تفعله هي الآن.

طوال مئتي عام، استفادت عائلتها من مصائب الآخرين. تمكّنَ بوزو دي بورغو من حلّ لغز مخطوطات الرق لتعليم أولاده، كما علّموا بدورهم أولادهم - لا يهمّ من وضع القوانين - يكفي أن تتحكّموا بالمال وسوف تملكون قوّة حقيقيّة.

من أجل تحقيق ذلك، لا بد من أن تتحكّم في الأحداث.

فالغد، سوف يكون بمثابة تجربة بالنسبة إليها.

وماذا لو تكلّلت بالنجاح؟

عندئذٍ، سوف ينتظرها المزيد.

43

لندن

الساعة 6:40 بعد الظهر

بحث آشبي في الظلمة بين مئات الوجوه عن وشاح أخضر وذهبي من طراز"هارودز". من الواضح أنّ الأشخاص المحيطين به كانوا سيّاحاً، وكان مرشدهم يهتف بشيء عن "الإحساس بضوء الغاز والضباب" وعن آب (أغسطس) 1888 عندما بثّ جاك السفّاح الرعب في عاهرات الشرق الأقصى المعاقرات الخمر.

ابتسمَ ابتسامة عريضة.

بدا أنّ السفّاك يثير اهتمام الأجانب فقط دون سواهم. سأل نفسه إن كان هؤلاء الناس مستعدّين لدفع المال في بلدانهم لقاء جولة في المنتجعات حيث يعيش من ارتكب جرائم الإبادة الجماعية.

كان في الجانب الشرقي من المدينة، في وايتشابل، يمشي على رصيف مكتظّ بالناس. على يساره، عبر شارع مزدحم، علا برج لندن بأحجاره الرماديّة اللون المغمورة بضوء بخار الصوديوم. لقد تحوّل الخندق المائي القديم إلى بحر من عشب الشتاء الأخضر الزمرّدي. وكان النسيم البارد يتسلّل إلى نهر"التيمز" المجاور فيما كان نور جسر البرج يلمع بعيداً جداً.

"مساء الخير، لورد آشبي".

كانت المرأة التي ظهرت بجانبه قصيرة القامة ذات شعر قصير، في أواخر الخمسينيات، أمريكيّة بلا شك، تلبس وشاحاً أخضر وذهبيّاً. تماماً كما سبق أن وصفوها له.

ومع ذلك.

قال لها: "أنتِ جديدة".

" أنا المسؤولة ".

لفتَت هذه المعلومة انتباهه.

سبق له أن التقى عنصر الاتصال المعتاد في المخابرات الأمريكية في جولات عدّة جرت في لندن. لقد تنزّها في المتحف البريطاني، في لندن مدينة شكسبير، في مايفير القديم، والآن في منتجعات جاك السفّاح.

سألها من غير تكلّف: "من تكونين؟"

"ستيفاني نيلي".

أوقفَت المجموعةُ المرشدَ السياحي لتسأله عن شيء ما، كالاستنتاج كيف أنّه تمّ هنا، في ذاك المبنى الذي يقع في الأمام مباشرةً، العثور على أوّل ضحيّة لجاك السفّاح. ربَّتت على كتفه، بينما كان الآخرون يصبّون كامل تركيزهم على المرشد، انجرفوا في أمواج الحشود.

قالَت: "من الملائم أن نلتقي في هذه الجولة. لطالما أرعَبَ جاك السفّاح الشعب ولكن لم يُقبض عليه قط".

لم يبتسم لمحاولتها المائلة إلى السخرية. "أستطيع أن أنهي تورّطي الآن وأن أغادر إن كنتم لستم في حاجة لمساعدتي بعد الآن".

من جديد، سارَت المجموعة نحو الأمام.

"أُدرك أنّ الثمن الذي سوف يكون علينا أن ندفعه هو حرّيتك. ولكنّ ذلك لا يعني أَنّ الأمر يروق لي".

آثر في نفسه أن يلزم الهدوء. يجب أن تُصعَق هذه المرأة وجميع هؤلاء الذين تمثّلهم، على الأقل لأربع وعشرين ساعة أخرى، وعلى الأقل إلى أن يحصل على الكتاب.

فقال: "إنّ آخر ما قيل لي هو أنّنا متورّطان معاً في هذه المساعي".

"لقد وعدتَني بتسليم المعلومات اليوم. جئتُ لأسمع شخصيّاً اقتراحك". توقّفت المجموعة في موقع آخر من المواقع المشهورة.

قال بصوت خافت: "سوف يُفجِّر بيتر لايون كنيسة الدوم، في قصر الأنفاليد غداً، يوم عيد الميلاد، وذلك، على سبيل البرهان"

"على ماذا؟"

"إليزا لاروك امرأة متعصّبة. تتمتّع بحكمة قديمة لازَمَت عائلتها وأسلافها

طيلة قرون عدّة. إنها، في نظري، في منتهى التعقيد، وعموماً لا تمتّ للموضوع بأي صلة. مع ذلك، تبقى هناك دائماً مجموعة فرنسيّة متطرّفة تريد إصدار بيان، أليس صحيحاً؟"

" من هي هذه المرّة؟"

"تتضمّن التمييز ضد المهاجرين بموجب القانون الفرنسي. تضمّ الأفريقيّين الشماليّين الذين تدفّقوا إلى فرنسا منذ سنوات، حيث رُحِّب بهم كعاملين ضيوف. و إذا بهم يشكّلون الآن عشرة بالمئة من السكّان وقد سئموا من الاحتجاز. يريدون أن يصدروا بياناً. تملك لاروك الوسائل ولا تسعى خلف أي فضل أو استحسان، لذا، سمسر بيتر لايون شراكةً".

"أريد أن أفهم ما هي غاية هذه الشراكة؟"

تنهّد وقال: "أتقدرين على حلّ اللغز؟ إنّ فرنسا في وسط نقلة ديموغرافيّة. وقد بات هؤلاء الجزائريّون والمغاربة مشكلةً. فقد صاروا الآن فرنسيّين أكثر من الأفريقيّين من بعيد! لكنّ اليمينيين الميّالين إلى كره الأجانب واليسار العلماني يكرهونهم. إذا ظلّت معدّلات الولادة على حالها، فسوف يتخطّى عدد هؤلاء المغتربين عدد الفرنسيين الأصليّين خلال عشرين عاماً".

"وما علاقة تفجير قصر الأنفاليد بتلك الحتميّة؟"

"إنّها علاقة رمزيّة تماماً. فهؤلاء المهاجرون مغتاظون من كونهم في الدرجة الثانية. يريدون جوامعهم، حريّتهم، حرّية التعبير السياسي، التأثير، السلطة. يريدون كل ما يملكه الآخرون. ولكنّ الفرنسيّين لا يريدونهم أن يحصلوا عليها. قيل لي إنّ قوانين عديدةً قد صدرَت في محاولة لإبقاء هؤلاء الناس على بعد". صمتَ برهةً ثمّ تابع: "كما أنّ الفئة المعادية للساميّة في ازدياد ملحوظ في كافّة أرجاء فرنسا. بدأ اليهود يشعرون بالخوف من جديد".

"وهل يقع اللوم في ذلك على هؤلاء المهاجرين؟"

فضحك بخفّة وقال: "ربما على بعضهم. في رأيي، إن كان لا بدّ من قول الحقيقة، المسؤوليّة الأكبر تقع على الراديكاليّين الفرنسيّين. غير أنّ اليمين السياسي واليسار المتطرّف قد أبليا بلاءً حسناً في لَوم هؤلاء المهاجرين على كل الآفات التي حلّت بالبلاد".

"ما زلتُ أنتظر جوابي".

توقّف المتنزّهون عند محطّة أخرى مهمّة هي أيضاً، وأطال المرشد السيّاحي الحديث.

قال: "تجري إليزا اختباراً لإيجاد طريقة أخرى لاستغلال العدوانيّة الوطنيّة الفرنسيّة في شيء آخر غير الحرب. هجوم من جانب عنصر راديكالي ضدّ نُصُب تذكاريّ فرنسي وطني، قبر محبوبه نابليون الذي تكرهه، والذي على حدّ رأيها، من شأنه توزيع تلك العدوانيّة الجماعيّة. أو على الأقل، هذا أسلوبها في تحليل الأمر".

"لماذا تكره نابليون؟"

فأجاب بابتسامة لا مبالاة: "أنّى لي أن أعرف؟ أفترض أنّها تقاليد عائليّة. واصلَ أحد أسلافها ثأراً كورسيكياً ضدّ نابليون. لم أفهم ذلك جيّداً قط".

"هل يجتمع أعضاء نادي باريس غداً في برج إيفل؟"

طأطأ رأسه مؤيّداً. "كنتِ منشغلةً. أليس أكثر حكمةً أن تطرحي عليّ سؤالاً مباشراً لترَي إذا كنتُ صادقاً؟"

"أنا في عجلة، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أني أصدِّق كل كلمة تقولها".

هزّ رأسه وقال: "وقاحة! سفاهة! لماذا؟ لقد تعاونتُ مع جماعتك..."

"عندما شئت أنت ذلك. لقد احتفظتَ عمداً بهذه المعلومات حول الهجوم".

"هذا ما كنتِ لتفعلينه لو كنتِ في مكاني. ولكنّك الآن تعرفين، عندك ما يكفي من الوقت، فتحضّري!"

"لا أعرف شيئاً. كيف سيجري ذلك؟"

"يا إلهي، كيف أكون على معرفة بتلك المعلومات؟"

"أنتَ من أبرَمَ الاتفاق مع لايون".

"صدّقيني، إنّ ذلك الحقير لا يقدّم سوى القليل جداً من التفاصيل. يريد فقط أن يعرف متى تمّ تحويل ماله واذا ما تمّ التحويل. ولكنّه لا يقدّم أي شرح أبعد من ذلك".

"أهذا كلّ شيء؟"

"يقفل قصر الأنفاليد يوم عيد الميلاد. على الأقل، لن يكون هناك أشخاص لنقلق بشأنهم".

لم تبْدُ مرتاحةً. فقالت: " لم تُجِبْ بعد على سؤالي حول نادي باريس؟"

"نلتقي غداً صباحاً في برج إيفل. استأجرّتْ إليزا غرفة طعام في الطابق الأوّل وتنوي أخذ الجميع إلى القمّة عند ساعة الظهر تقريباً. كما قلتُ، يحب لايون الفترات الزمنيّة. فساعة الظهر تصادف موعد التفجير، وسوف يشكّل النادي النقطة الاستراتيجيّة المثاليّة".

"أيعرف أعضاء النادي ما سيحصل؟"

هزّ رأسه وقال: " يا إلهي، لا! فقط هي وأنا، وصديقنا الأفريقي الجنوبي. أفترض أنّ معظمهم سوف يصابون بصدمة".

"رغم أنّه ليست عندهم أي مشكلة في الاستفادة منه".

ذهَبَت المجموعة المتنزّهة إلى أبعد، إلى جوف الجانب الشرقي من لندن الغارقة بالظلام.

قال: "قلّما تسعى الأخلاق وراء الربح".

فسألته: : "قلْ لي إذاً ما الذي يفترض بي أن أعرفه؟ كيف سنتواصل في النهاية مع لايون؟"

"كما فعلْتُ".

"هذا لا يكفي. أريد أن يتم تسليمه".

توقّف عن المشي وقال: "كيف تقترحين عليّ أن أفعل ذلك؟ لم أرَه سوى مرّة واحدة، وكان متنكِّراً بالكامل. أنه يتواصل معي على طريقته".

كانا يتكلّمان بصوت خافت وهما يمشيان خلف المجموعة الرئيسيّة. ومع أنّه قد ارتدى معطفه الصوفي السّميك وقفّازات الفرو، ألا أنّه أحسّ بالبرد. فكان كل نفث يتبخّر أمام عينيه.

فقالت: "بالتأكيد، تستطيع ترتيب شيء ما، باعتبار بأنّنا لن نلاحقك قضائياً".

استوعَب التهديد الضمني."ألهذا السبب يشرّفني حضورك الليلة؟ هل جئتِ

لتوجيه إنذار؟ ألم يكن ممثّلك جازماً بما فيه الكفاية؟"

"انتهت اللعبة، يا آشبي. إنّ فائدتك في تراجع سريع. أقترح عليك بأن ترفع من قيمتك".

في الواقع لقد سبق أن فعل ذلك، ألا أنّه كان على وشك ألا يقول شيئاً لهذه المرأة. فسأل: "لماذا أخذت جماعتكِ الكتاب في الأنفاليد؟"

ضحكَت بخفّة وقالت: "لأبيّن لك أنّ ثمّة تغييراً قد حصل في هذا الطرف. ثمّة قواعد جديدة يجب تطبيقها".

"كم أنا محظوظ لأنّك مخلصة تماماً لمهنتك".

"أتظن فعلاً أنّ ثمة كنز مفقود لنابليون يُفترَض بنا إيجاده هناك؟"

"هذا ما تعتقده إليزا لاروك".

مدَّت يدها تحت معطفها وأخرجَت شيئاً وسلّمته إياه: "هذا دليل على حسن نيّتي".

أمسكَ المجلَّد بين قفّازيه. استطاع من خلال الوميض المحيط المنبثق من مصباح في شارعٍ مجاور، أن يلتقط العنوان: "الممالك الميروفنجيّة 450-751 ميلادية ".

الكتاب الآتي من قصر الأنفاليد.

فقالت: " الآن، أعطني ما أريده".

اقتربَت المجموعة من ملهى"تن بيلز" وسمعَت المرشد السيّاحي يشرح كيف أنّ ذاك المبنى شكّل مأويً للعديد من ضحايا جاك السفّاح، وربما للسفّاح نفسه. تمّ الإعلان عن استراحة لمدّة خمس عشرة دقيقة وكانت المشروبات متوافرةً في الداخل.

عليه أن يعود إلى سالن هول وكارولين."هل انتهينا؟"

"أراكَ غداً!"

"سوف أبذل قصارى جهدي لأضمن حصولكِ على ما تريدينه".

فقالت: "آمل ذلك، لأجلك!"

بهذه الكلمات غادرت تلك المرأة المدعوّة ستيفاني نيلي في عتمة الليل.

نظر إلى الكتاب. أخيراً، بدأت المياه تعود إلى مجاريها.

"عمتَ مساءً، لورد آشبي!"

رنّ الصوت المفاجئ في أذنه اليمنى، وقد جاء منخفضاً وخشناً أضعف من صدى النعال المطرطقة على بلاط الرصيف من حوله. التفتَ وأبصرَ، على ضوء مصباح شارع آخر، صبغةً حمراويّة في شعر كثيف وحاجبين خفيفين. شاهدَ أنفاً معقوفاً، ووجهاً بانت عليه علامات خوف، ونظّارات. كان الرجل يلبس مثل الآخرين الذين من حوله، ثياباً شتويّةً سميكة، بما فيها شالاً وقفّازات. وكان يمسك في إحدى يدَيه بكيس من متجر سلفريدج.

ثمّ رأى العينين.

كانتا بلون ذهبي متوهّج كالكهرمان.

سأل بيتر لايون: "أما زالَ مظهرك نفسه؟"

" بالكاد".

"على الأرجح أنّه من الصعب ألا تكون عندك هويّة خاصّة".

"لا مشكلة عندي مع هويتي. أعرف تماماً من وماذا أكون".

هذه المرّة، بدا الصوت أمريكيّاً.

انتابه القلق. لا يُفترَض ببيتر لايون أن يكون هناك.

"ثمّة حديث بيني وبينك، لورد آشبي".

44

باريس
الساعة 8:50 مساء.

لحقَ سام بميغان وهي تنزل الدرّج اللولبي. كانا قد تناولا العشاء في مقهى في الحيّ اللاتيني بعدما حصلا على إعفاء مؤقّت من حجز ستيفاني نيلي الوقائي.

سألها وهما ينزلان السلالم في الظلام الحالك: "إلى أين نحن ذاهبان؟"

قالت ميغان: "إلى قاعدة باريس".

كانت تسير أمامه ومصباحها اليدوي يبدّد الظلمة على الأرض. عندما بلغ الطابق السفلي، ناولته مصباحاً آخر."لا يتركون مصابيح على طول الدرج لدخلاء مثلنا".

"دخلاء؟"

حرّكت شعاع مصباحها وقالَت: "وجودنا هنا غير قانوني".

"ماذا تقصدين بِـ هنا؟"

"مقالع الحجارة. مئة وسبعون ميلاً من الجسور وصالات العرض، أُنشئَت عندما اقتُطع الحجر الكلسي من الأرض، واستُخدِمَت للمباني لصناعة الجصّ للجدران، والطين للقرميد، وبلاط السقوف. جميع المواد المطلوبة لبناء باريس، وهذا ما بقي منها. مترو أنفاق باريس".

"وما هو سبب وجودنا هنا؟"

أجابَت بلا مبالاة: "أحبّ هذا المكان. ظَنَنْتُ أنك أنت أيضاً تحبّه".

مشَت إلى الأمام، في ممرّ رطب مصبوب من الصخر الصلب ومدعوم بإطار كلسيّ. كان الجوّ بارداً إنّما ليس قارساً، في حين أن الأرض كانت وعرةً ومتقلّبةً.

قالت: "حذار من الفئران. قد تنقل داءُ البَريمِيَّات".

فتوقف لحظةً وسأل: "عفواً ماذا قلتِ؟"

"عدوى جرثوميّة. مميتة".

"أمجنونة أنتِ؟"

سكتت ثم قالت: " إلا إذا كنت تنوي أن تترك إحداها تعضّك أو أن تخفّ أصابعك في بَولها، عندئذٍ، قد أقول إنّك موافق".

"ماذا نفعل هنا؟"

"هل أنت دائماً عصبي هكذا؟ اتبعني. سوف أريكَ شيئاً".

عادا إلى الرواق، والسطح صار فوق رأسه. كشف ضوؤها الخافت عن خمسين قدماً من جسر يقع أمامهما.

نادى في الظلمة: "نورستروم!"

تساءل في نفسه أن لماذا عصى أوامره وأتى، بيد أن وعد المغامرة قد كان أكثر جاذبية من أن يُغفَل. لم تكن القبور بعيدة عن المدرسة، و قد علم الجميع بذلك. من الطريف كيف أنّ أحداً لم يستخدم قط كلمة ميتم، بل دائماً كلمة مدرسة. أو المعهد. من كان والداه؟ لم تكن لديه أدنى فكرة. لقد تخلّيا عنه عند ولادته، لم تعرف الشرطة قط كيف وصل إلى الكنيسة. حرصَت المدرسة أن يعرف التلاميذ قدر المستطاع عن أنفسهم لا مكان للأسرار - في الحقيقة، لطالما قدَّر هذا النظام - ولكن، بكل بساطة، لم يكن هناك شيء ليتعلّمه.

"سام".

صوت نورستروم.

قيل له إنّ نورستروم قد أسماه، عندما وصل لأوّل مرّة إلى المدرسة، سام كولنز، تيمّناً بعَمٍ غالٍ و عزيز على قلبه.

نادى في الظلمة: "أين أنت"

"لستُ بعيداً"

صوَّبَ ضوءه و تابع المشي.

"إلى هنا فقط"، هكذا قالت ميغان عندما انتهى الجسر بصالة عرض شاسعة، ذات مخارج متعددة و سقف مرتفع. كانت ركائز حجريّة تدعم سطحاً مقوّساً. صوّبت ميغان ضوءها على الجدران الخشنة فيما راح يراقب

الشعارات المكتوبة عليها، و الرسومات، و المدوّنات، و التخطيطات، و الصور المرسومة بالفسيفساء، والأشعار، وحتى نصوص الأغاني الموسيقيّة.

قالت: "إنّه تصوير للتاريخ الاجتماعي. تعود هذه الرسومات إلى زمن الثورة الفرنسيّة، حصار بروسيا في أواخر القرن التاسع عشر، والاحتلال الألماني في الأربعينيات. لطالما شكّل مترو باريس ملجأً ضدّ الحرب والموت والدمار".

ثمّة صورة قد لفتت انتباهه: رسمة المقصلة.

قالت من فوق كتفه: "تعود إلى أيّام الرعب الكبير، عمرها مئتا عام. هي شهادة على زمن شكّلت فيه الميتات الشنيعة جزءاً من الحياة اليوميّة هنا. لقد صُنِع ذلك من دخان أسود. كان الحفّارون في تلك الحقبة يحملون شموعاً ومصابيح زيتيّة، وكانوا يضعون الشعلة مقابل الحائط، فيسخن الكربون في الحجر. إنّها فكرة ذكيّة!"

أشار بضوئه وقال: "أيعود هذا إلى الثورة الفرنسيّة؟"

أومأت برأسها إيجاباً، وقالت: "هذا مخزون تاريخي يا سام. هنا تكمن الخفايا بأكملها. أفهمتَ لماذا أحبّه؟"

نظرَ إلى الصور. بدا معظمها مصمَّماً برزانة، بيد أنّ السخرية جليّة هي الأخرى، إلى جانب عديد من الإضافات الإباحيّة.

قالَت وسط الظلمة: "إنّه مكان مدهش حقاً! غالباً ما آتي إلى هنا. إنه مكان يعمّ فيه السلام والهدوء. لكأنّها عودة إلى رحم الأم. بالنسبة إليّ، ربما تكون العودة إلى السطح أشبه بولادة جديدة".

بالفعل، أدهشته صراحتها. يبدو أنّ كسوراً وانشقاقات كانت موجودةً حقاً في كيانها الصلب. ثمّ فهمَ الأمر.

"أنتِ خائفة، صحيح؟"

نظرَت في عينيه فتمكّن تحت ضوء مصباحها أن يلتمس صدقاً في عينيها.

"تعرف أنّني خائفة".

"أنا خائف أيضاً".

"لا بأس أن يشعر المرء بالخوف". هذا ما قاله نورستروم حين وجده أخيراً في الكهف. "ولكن لم يكن يُفترَض بك أن تأتي بمفردك إلى هنا".

الآن عرف ذلك.

قال نورستروم: "قد يكون الخوف حليفاً. دعه يلازمك دائماً، مهما كان الصراع. فهذا يُبقيك حاذقاً".

"لكنّني لا أريد أن أشعر بالخوف. أكره هذا الشعور".

مدّ نورستروم يده على كتفه و قال له: "ليس أمامك خيار آخر يا سام. إنّ الظروف هي التي تولِّد الخوف، و كيفيّة تجاوبك معها هي كل ما في سيطرتك. ركِّز على ذلك، و تأكّد أنّك سوف تنجح على الدوام".

مدَّ يده بلطف على كتفها. كانت المرّة الأولى التي يلامسان بعضهما، وهي لم تتراجع.

تفاجأ من السّعادة التي غَمَرَتْه في تلك اللحظة!

قال لها: "سوف نكون بخير".

"إن هؤلاء الرجال الذين كانوا أمس في المتحف، أظنّهم سوف يؤذونني في نهاية المطاف".

"أهكذا حقّاً استبقتِ الأمور بينما كنتُ هناك؟"

تردَّدت برهةً ثمّ طأطأت رأسها.

قدَّر صراحتها و أخيراً قال: "يبدو أنّنا كلينا غير عقلاني".

ابتسمت ابتسامةً عريضةً و قالت: "نعم، على ما يبدو".

سحبَ يده متسائلاً عن تلك الهشاشة التي أظهرتها. سبق أن تواصلا مع بعضهما مرّات عديدة عبر البريد الإلكتروني خلال السنوات الماضية. لطالما فكَّر أنّه يخاطب رجلاً اسمه جيمي فودريل. ولكن، بدلاً من ذلك، كان الطرف الآخر على الإنترنت امرأةً مُحيِّرةً. حاول أن يتذكّر أكثر. ففي الواقع، حاولَت تلك المرأة الاتصال به في بعض تلك البيانات ليس بهذه الطريقة إطلاقاً - إنما بما يكفي لجعله يحسّ بوجود اتصال ما.

أشارت بضوئها وقالت: "في أسفل هذه الممرّات سوف تجد سراديب الموتى

حيث كُدّسَت عظام ستة ملايين شخص. هل سبق أن رأيتها؟"

هزّ رأسه وقال: "لا".

لزمَ الصمت.

تابعَت: "إنّ هذه الرسومات من صنع أشخاص عاديّين. غير أنّها محاولة تأريخيّة. فالجدران هنا مغطاة بالصور على مدى أميال. تجسّد حياة الناس، وأزمنتهم، ومخاوفهم، وشعوذاتهم. إنّها بمثابة سجل". استراحَت برهةً ثم تابعَت: "لدينا فرصة يا سام لنقوم بشيء حقيقي، شيء قد يشكّل فارقاً".

كانا متشابهين إلى حدّ بعيد. لقد عاش كلاهما في عالم فعليّ من التخوّف الفائق والحدس، وقد ضمرَ كلاهما النوايا الحسنة.

قال: "فلنفعلْ!"

فأجابت ضاحكةً بخفّة: "يا ليت الأمر بهذه السهولة. لديّ شعور سيئ بهذا الشأن".

بدت وكأنها تستمدّ قوّتها من هذا المشهد تحت الأرضي، وربما بعض الحكمة.

"هلا شرحتِ ذلك؟"

هزّت رأسها وقالت: "لا أستطيع، حقّاً لا أقدر. إنّه مجرّد إحساس ليس إلاَّ".

ثمّ دنَت أكثر. كانت إنشات قليلة تفصل بينهما، فقالت: " أتعرف أنّ قبلةً تقصِّر الحياة بثلاث دقائق؟"

أمعنَ التفكير في سؤالها الغريب، ثمّ هزّ رأسه.

"ليست قبلةً سريعةً على الخَد. إنّ القبلة الحقيقيّة، كما تقصد، تسرّع دقات القلب إلى حدّ أن هذا الأخير يبذل في أربع ثوان جهداً أكبر مما يبذله عادةً في ثلاث دقائق".

"حقاً"؟

"هناك دراسة حول هذا الموضوع. يا للهول يا سام! هناك دراسات حول كل شيء. اعرفْ أنّ 480 قبلةً - كما تعرفها - تقصّر حياة الإنسان بيوم. فـ 2300 قبلة تكلّف أسبوعاً إذاً! ماذا عن 120000 قبلة؟ تكلّف عاماً بأكمله".

اقتربَت أكثر.
فابتسم وقال: "وما مغزى هذا؟"
"أستطيع أن أستغني عن ثلاث دقائق من حياتي إذا شئتَ".

45

لندن

كان مالون يراقب ستيفاني وهي تتوارى عن الأنظار في عتمة الليل، فشاهدَ رجلاً آخر يقترب فوراً من غراهام آشبي، حاملاً بيده كيس متجر سلفريدج. كان مالون قد اندسَّ وسط الحشود المتجوّلة الثرثارة. وكانت مهمّته تقضي بحراسة ستيفاني، ومراقَبة كل الأمور عن كثب، ولكنّ الآن، حان الوقت ليحصلوا على استراحة.

انتبهَ لملامح رفيق آشبي.

كان شعره أحمر، وأنفه رفيعاً. كان متوسّط البنية، يتراوح وزنه بين اثنين وسبعين وسبعة وسبعين كيلوغراماً. وكان كالآخرين يرتدي معطفاً صوفياً وشالاً وقفّازات. ألا أنّ ثمة شيئاً في داخله قال له إنّ ذاك الرجل ليس كأي شخص آخر.

كان كثيرون يشقّون طريقهم إلى مقهى تن بيلز. وكانت قرقعة أحاديث الحشود تتناثر في ظلمة الليل. كان المبادرون المتجوّلون يتاجرون بقمصان "جاك السفّاح" وبأكواب تذكاريّة. تلكّأ كُلٌّ من آشبي وصاحب الشعر الأحمر على الرصيف، فيما تقدم مالون إلى مساحة خمسين قدماً، يفصل بينهم حشد من الناس الصاخبين. ومَضَت أضواء آلات التصوير في العتمة عندما راح العديد من أفراد المجموعة يتصوّرون أمام واجهة المقهى الناصعة الألوان.

انضمّ إلى المرح الصاخب وابتاعَ قميصاً من أحد التجّار.



بدا آشبي قلقاً ومشغول البال.

قالَ له بيتر لايون: "أظنّ أنه من الأفضل أن نتحدث الليلة".

"كيف علمتَ بأنّني هنا؟"

"تلك المرأة. أهي من معارفك؟"

حاولَ أن يتذكّر حديثه مع ستيفاني نيلي. فقد حرصا على إبقاء صوتهما خافتاً وكانا قد ابتعدا عن الحشد. لم يكن أحد في جوارهما. هل سمع بيتر لايون شيئاً من حديثهما؟

"لدي معارف كثيرين من النساء".

أجابَ لايون وهو يضحك بخفّة: "لا أشكّ في الأمر. توفّر النساء أروع اللذّات، وأسوأ المشاكل".

سأله من جديد: "كيف وجدتني؟"

"هل فكّرْتَ للحظة أنّني لن أكتشف ما الذي تفعله؟"

عندئذٍ، بدأت ساقاه ترتجفان، إنّما ليس من البرد.

أومأ لايون لآشبي بأن يطوف عبر الشارع، بعيداً عن الملهى، حيث كان أقليّة من الناس واقفين وكانت جميع الأنوار مطفئةً في الشارع. مشى آشبي خائفاً، ولكنّه أدرك أنّ لايون لن يفعل شيئاً هنا، أمام شهودٍ بهذه الكثرة.

أم تراه يفعل؟

ثمّ قال له لايون بصوت منخفض ومدروس: "علمتُ باتصالاتك بالأمريكيين منذ البداية. تظنّ نفسك حاذق الذكاء؟ كم هذا مُسلٍّ!"

لا معنى للكذب. "لم يكن أمامي خيار آخر".

قال لايون لا مبالياً: "جميعنا نملك خيارات، ولكنّ ذلك لا يهمّني. أنا أريد مالك، وأنت تريد خدمةً. أفترض أنّك ما زلت تريد تلك الخدمة؟"

"أكثر من أي وقت مضى".

أشار لايون إليه بإصبعه."عندئذٍ، سوف يكلّفني ذلك ثلاثة أضعاف أجري الأصلي. المئة بالمئة الأولى لخيانتك، أمّا الثانية فهي للمأزق الذي ورّطتني فيه".

لم يكن في موضع يسمح له بالنقاش. ناهيك عن ذلك، كان يستخدم مال النادي على أي حال.

"يمكن ترتيب ذلك".

"أعطتْكَ كتاباً. ما هو؟"

"أيدخل ذلك في إطار الصفقة الجديدة؟ أيجب عليك أن تكون على علم بكافة أعمالي؟"

"يفترض بك أن تعرف يا لورد آشبي أنّه يصعب عليّ أن أقاوم حاجتي الملحّة لقتلكَ. أكره الرجل الذي لا يملك شخصيّةً خاصةً به، وهكذا أنتَ أيها السيّد".

إنّه موقف مثير للاهتمام لقاتل جماعي، إلا أنّه احتفظ برأيه لنفسه.

قال لايون: "إن لم يكن من أجل المال...." توقّفَ برهةً ثمّ تابع: "لا تختبر صبري أكثر".

قَبِلَ بنصيحته وأجاب على سؤال الرجل: "إنّه مشروع شرعتُ العمل عليه. أنّه كنز ضائع. لقد صادر الأمريكيون مفتاحاً حيوياً للّغز لإبقائي مذعناً مُطيعاً. وها قد أعادته إليّ".

"كنز؟ علمتُ أنّك كنتَ ذات يوم جامع تحف فنّية شرهاً. كنتَ تسرق أغراضاً مسروقةً أصْلاً، وتحتفظ بها لنفسك. كنتَ الأذكى حقاً! ولكنّ الشرطة وضعَت حدّاً لهذا".

"مؤقّتاً".

ضحكَ لايون. "حسناً، لورد آشبي، أنتَ تسعى وراء كنزك. كل ما عليك فعله هو أن تحوّل إليّ مالي، قبل الفجر. سوف أتفقّده قبل أن تبدأ الأحداث".

"سوف يكون هناك".

سمِعَ المرشد السيّاحي يجمع الحشد ويقول لهم إنّه حان الوقت للانتقال إلى مكان آخر.

قال لايون: "أظنّ بأنّني سوف أُنهي الجولة. جاك السفّاح، مثير جداً للاهتمام!"

"ماذا عن يوم غد؟ تعرف أنّ الأمريكيين يراقبون".

"هذا أعرفه. سوف يكون عرضاً بكل ما في الكلمة من معنى".



انسلّ مالون وسط الحشد فيما طاف الجميع، بمن فيهم صاحب الشعر الأحمر،

لايون، وسط الظلام، تحت مراقبة المرشد السياحي. فقط أبقى ذا الشعر الأحمر تحت أنظاره، بعدما وجده مثيراً للاهتمام أكثر من آشبي.

واصل الحشد سيره لعشرين دقيقة أخرى على طول الشوارع السوداء القاتمة، إلى أن وصل إلى محطة للمترو. في الداخل، استخدم ذو الشعر الأحمر بطاقة سفر للمرور عبر الباب الدوّار. أسرعَ مالون إلى آلة واشترى بسرعة أربع بطاقات، متّجهاً إلى ما وراء الباب نحو السلّم الدوّار فيما اجتازت طريدته الطابق السفلي. لم تعجبه الأضواء الساطعة والحشود المنتشرة هنا وهناك، بيد أنّه لا يملك خياراً آخر.

اجتاز السلّم الدوّار وبلغ المنصّة.

كان صاحب الشعر الأحمر واقفاً على بعد عشرين قدماً، ولا يزال يحمل كيس التسوّق.

أشارت لوحة إعلانات إلكترونيّة إلى أنّ القطار سيصل بعد 75 ثانيةً. تأمّل في مخطط نفق لندن المتدلّي على الحائط ورأى أنّ هذه المحطة قد خدمَت خط ديستريكت الذي كان يحاذي نهر التيمز ويمتدّ على طول المدينة، من شرقها إلى غربها. كانت تلك المنصّة معدّةً للقطار المتّجه نحو الغرب، فيقودهم الطريق إلى تاور هيل، تحت وستمنستر، عبر محطّة فيكتوريا، وصولاً إلى ما بعد كنسينغتون.

أخذ الناس يتدفّقون أكثر فأكثر من فوق لدى وصول القطار.

ظلّ بعيداً، منتظراً في الخلف، ثمّ تبِعَ طريدته في العربة. وقفَ معانقاً أحد أعمدة الفولاذ كما كان يفعل صاحب الشعر الأحمر على بعد ثلاثين قدماً. كان عدد كبير من الناس يحتشد في العربة بحيث إن أي وجه من الوجوه لن يلفت انتباه أحد.

وفيما كان القطار يسير تحت المدينة محدثاً صوتاً انفجاريّاً خافتاً، تفحّص مالون هدَفَه الذي بدا رجلاً متقدّماً في السن، يخرج مساءً للاستمتاع بأجواء لندن.

لكنّه استطاع تمييز العينين.

كانتا ذهبيّتين كالكهرمان.

كان يعلم أن بيتر لايون لديه عاهة مميَّزة. صحيح أنّه لطالما أحبّ التقنّع، غير أنّ تلك الشائبة الوراثيّة لم تُلوِّن قزحيته بشكل غريب فحسب، لا بل أيضاً جعلتها مفرطة الحساسيّة ومنعته من ارتداء عدسات لاصقة. فَضَّلَ لايون النظارات ليحجب ذاك اللون الذهبي الكهرماني، ولكنّه في تلك الليلة، لم يكن يضع أي نظارات.

رأى لايون يتبادل الحديث مع عجوز مهيب واقف بجانبه. لمحَ مالون نسخةً من"صحيفة التايمز" مرميّةً على الأرض. سأل إذا كانت الجريدة تخصصّ أحداً. وبما أنّ أحداً لم يزعم امتلاكه لها، أمسكها وقرأ الصفحة الأماميّة، سامحاً بين حين وآخر لعينَيه باستراق النظر إلى ما حوله.

كما أنّه ظلّ يراقب المحطّات.

خمسة عشر شخصاً أتوا وذهبوا قبل أن يغادر لايون في محطة "إيرلز كورت". وكانت هذه المحطة مشتركة بين خطّ ديستريكت وخط البيكاديلي، حيث كانت إشارات زرقاء وخضراء توجِّهُ المسافرين إلى أي من الطريقين. تبعَ لايون الإشارات الزرقاء لخط البيكاديلي، وتوجّه نحو الغرب. ركب مالون عربة وراء العربة التي ركب فيها لايون. فكّر أنّه يجب عدم مشاطرته المكان ذاته لتجنُّب الخطر. وأخذ يتجسّس على هدفه عبر نوافذ السيّارة التي كانت تمشي أمامه.

ألقى نظرةً خاطفةً على الخريطة فوق باب العربة أكّدت له أنّهم متّجهون مباشرةً إلى مطار هيثرو.

46

باريس

تأمَّل ثورفالدسن الصفحتَين المكتوبتَين بخط اليد في الكتاب الميروفنجي. كان قد توقّع من مالون تسليم الكتاب بكامله إلى مراد عندما التقيا في وقت سابق في اللوفر، إلا أنّ ذلك لم يحصل لسبب ما.

قال له مراد: "لم يترك لي سوى نسخة عن الصفحتين. لقد أخذَ الكتاب معه".

كانا جالسَين من جديد في فندق ريتز، في بار همنغواي المُكتَظّ.

"ألم يذكر كوتون إلى أين هو ذاهب؟"

هزَّ مراد رأسه. "ولا كلمة واحدة! أمضيتُ النهار في اللوفر، حيث رحتُ أقارن النماذج الكتابيّة. لا شكّ أنّ هذه الصفحة التي تحوي أربعة عشر سطراً من الرسائل مكتوبة بخط يد نابليون. يمكنني فقط الافتراض أنّ الأرقام الرومانيّة هي أيضاً مكتوبة بخط يده".

نظرَ إلى الساعة المعلّقة على الحائط خلف البار. كانت الحادية عشرة مساءً. لم يشأ البقاء أسيرَ الغموض. الله يعلم أنّ هذا ما فعله للآخرين، غير أنّ الأمر يختلف عندما يأتي دوره.

قال مراد: "الرسالة التي أخبرتني عنها، رسالة كورسيكا تلك التي وجدها آشبي، مع الرسائل المُجَمّعة التي رُمِّزَت باسم المزمور 31. ربما لم تكن هناك جدوى من أي رسالة كتبها نابليون لعائلته. لقد أنجبَتِ زوجته الثانية ماري لويس طفلاً من رجل آخر بينما كانت لا تزال متزوّجةً بنابليون. لا شكّ أنّ الإمبراطور لم يعرف بالأمر قط ما دام قد احتفظَ بصورة لها في منزله في جزيرة القديسة هيلانة. كان يحبّها حتّى العبادة. لقد عادَت إلى النمسا مع أبيها، الملك، الذي انحاز إلى القيصر ألكسندر وساهم في هَزيمة نابليون. لا يوجد دليل يؤكِّد أنّ الرسالة التي كتبها نابليون موجَّهةً لها أو لابنه. والواقع أنه بعد موت نابليون، سافَرَ مبعوث إلى فيينّا حاملاً في جعبته بعضاً من

رسائله الأخيرة. ولكنّها رفضَت أن ترى المبعوث حتّى".

"من حسن حظنا".

أومأ مراد برأسه. "كان نابليون أحمق في مسألة النساء. فالمرأة التي كان بإمكانها مساعدته، والتي تخلّى عنها هي جوزفين التى كانت عاقر وهو كان يحتاج إلى وريث. فطلّقها وتزوّج بماري لويس". لوَّحَ البروفسور بالنسختَين."ومع ذلك، فإذا به يُرسل رسائل سرّيةً لزوجته، ظنّاً منه أنّها لا تزال حليفةً".

سأل: "هل لديك أي فكرة عمّا تعنيه الإشارة إلى المزمور 31 في الرسائل التي وجدها آشبي؟"

هزَّ العالِم رأسه."هل قرأتَ ذاك المزمور؟ يبدو أنّ هذه طريقته في التأسف على نفسه. ولكنّني اليوم بعد الظهر اكتشفتُ شيئاً مثيراً للاهتمام في أحد النصوص المعروضة للبيع في اللوفر. فبعد تنحّي نابليون سنة 1814، أرسلَت حكومة باريس الجديدة مبعوثين إلى أورليانز لمصادرة ثياب ماري لويس، والسبائك الإمبراطورية، ومجوهراتها الماسيّة، وكل أغراضها الثمينة. لقد استجوبوها عن ثروة نابليون، ولكنّها قالت لهم إنّها لم تكن تعرف شيئاً. والأرجح أنّها قالت الحقيقة".

"لقد انطلق عندئذ البحث عن كنزه؟"

"يبدو ذلك".

" ولا يزال قائماً".

وهذا ما جعله يفكِّر بآشبى.

غداً سوف يتقابلان أخيراً وجهاً لوجه.

وماذا عن مالون؟

ماذا كان يفعل؟



نزلَ مالون من عربة القطار وتبعَ لايون في المحطّة رقم 2 في مطار هيثرو. كان قلقاً لأنّ طريدته على وشك مغادرة لندن. غير أنّ الرجل لم يجرؤ على

الظهور إطلاقاً قرب أي شباك تذاكر أو تدقيق أمني. عوضاً عن ذلك، مرَّ عبر محطة الركّاب، حيث توقّفَ عند نقطة تفتيش وعرَضَ ما بدا هويّة فيها صورة. لم يكن مالون قادراً على ملاحقته بأمان، لأنّ الممرّ كان خالياً بحيث يوجد باب وحيد في أقصى طرفه. فدخلَ إلى مختلى، وأخرجَ هاتفه الخليوي من جيب معطفه واتصلَ بستيفاني.

"أنا في مطار هيثرو عند محطة التفتيش رقم 46- ب. أريد أن أجتازها بسرعة. يُوجَدُ حارسٌ واحد ومعه جهاز إرسال لاسلكي".

"لا تتحرّك. أنا الآن مع الأشخاص المناسبين".

أعجبته قدرة ستيفاني على استيعاب المشكلة على الفَور، من دون أسئلةٍ أو جدال، ومن ثمّ إعطاء الحلّ.

تسلّلَ من المختلى ودنا من الحارس الشاب. كان لايون قد ذهبَ، بعد أن خرجَ من الباب الذي في آخر الممرّ. أخبرَ الحارس من يكون، وأراهُ جواز سفره وأوضحَ له أنّ عليه الخروج من ذلك الباب.

فأجابَ الرجل: " مستحيل. يجب أن يكون اسمك وارداً في القائمة". ثم نقرَ بأصبعه الناتئ العظام على كتيّب مفتوح على المكتب أمامه.

فحاول أن يسأل: "من هو الرجل الذي مرَّ للتوّ؟"

"لِمَ عليّ أن أقول لك؟ تبّاً لك، من تكون؟"

زعقَ جهاز الراديو الذي كانٍ ذاك يحمله الرجل، فنزع الجهاز عن خصره وأجاب. كان مالون يضع قطعةً في أذنه منعَته من سماع ما يقوله، غير أنّه استطاع من خلال النظرات الموجَّهة إليه أن يفترض بأنّه هو محور الحديث.

عندما أنهى الحارس مكالمته، سأله مالون: "أنا سبب هذه المكالمة. الآن قُلْ لي من الرجل الذي مرَّ للتوّ من هنا؟"

"روبرت برايس".

"ماذا يفعل؟"

"لا فكرة لدي، ولكنّه جاء إلى هنا من قَبْل. ما الذي تريده أيها السيّد مالون؟"

كان لا بد من أن يقدِّر احترام الإنكليز للسلطات.

"إلى أين توجّهَ برايس؟"

"تشير وثائقه إلى أنّه ذاهب إلى الهنغار 56- ر".

"قلْ لي كيف أذهب إلى هناك".

رسمَ الحارس بسرعةٍ خريطةً على قطعة ورق وأشارَ إلى الباب في آخر القاعة. "ذلك يقود إلى مدرج الطيران".

رَحلَ مالون وخرجَ وسط ظلام الليل.

وجَدَ بسرعة الهنغار 56- ر. كانت ثلاث نوافذ منه مضاءةً بنور برتقالي وأبيض. دَوَت محرّكات الطائرات فوق مطار هيثرو المُفْعَم بالحركة والنشاط. كان محاطاً بسلسلة أبنية مختلفة الأحجام. فكانت هذه المنطقة تبدو وكأنها مملكة شركات الطيران الخاصّة وطائرات الشركات.

ارتأى أنّ نظرةً خاطفةً في إحدى النوافذ هي الطريقة الأكثر أماناً. دارَ حول المبنى وعَبَرَ الباب المتحرّك. وفي الناحية الأخرى، تسلل نحو نافذة وألقى نظرة منها، فاستطاع تمييز طائرة من طراز سيسنا سكايهوك ذات محرّك واحد. وكان الرجل الذي أسمى نفسه روبرت برايس، رغم أنّه بيتر لايون بالتأكيد، منشغلاً في تفحّص الأجنحة والمحرّك. كان هيكل الطائرة أبيض اللون، مُخطّطاً بالأزرق والأصفر، وقد حفِظَ مالون عن ظهر قلب أرقام الذيل. لم يكن بالإمكان رؤية أي شخص آخر في الهنغار، وبدا لايون وقد وضع كل تركيزه على الفحص البصري. وكان قد ألقى كيس سلفريدج على الأرض الإسمنتيّة قُرب باب الخروج.

راقَبَ لايون يصعد إلى داخل الطائرة، وتلكّأ لبضعة دقائق، ثمّ خرجَ، مصفّقاً باب الحجرة. أمسكَ لايون كيس التسوّق وأطفأ أنوار الهنغار.

كان بحاجة إلى الانسحاب ما دام قادراً على ذلك. فمن المحتمل جداً أن يتعرّض للخطر.

سمعَ مالون باباً معدنيّاً يُفتَح ثمّ يُغلَق.

جمد في مكانه آملاً أن تكون فريسته متجهةً من جديد نحو محطة الركّاب. فإذا سلكَ هذا السبيل، لن يبقى أمامه مفرّ.

اتجه خلسة نحو الزاوية واسترقَ نظرةً.

كان لايون يشقّ طريق العودة إلى محطة الركّاب، إنّما بعد أن توجّه إلى سلّة مهملات بين حظائر الطائرات ورمى فيها كيس سلفريدج.

كان مالون يريد هذا الكيس، ولكنّه في الوقت ذاته لم يشأ أن يضيّع هدفه. فانتظرَ حتى عاد لايون إلى المحطة، ومن ثمّ أسرَعَ إلى سلّة المهملات. لم يكن هناك وقت للصعود إلى الداخل، فأسرَعَ إلى الباب، وتردَّد برهةً، ثمّ بَرَمَ المقبض بحذر.

لم يكن هناك سوى الحارس، الذي ظلّ جالساً في مكتبه، جليّاً للعيان.

دخلَ مالون وسأله: "إلى أين ذهَبَ؟"

فأشَّرَ الحارس إلى محطّة الركّاب الرئيسيّة.

"ثمّة كيس سلفريدج في سلّة مهملات في الخارج. قُمْ بإخفائه في مكان أمين. على أي حال، لا تفتحه ولا تتدخّل بمحتوياته. سوف أرجع. مفهوم؟"

"ما الذي يجبّ ألا أفعله؟"

أعجبه موقف الشاب.

في قلب محطة الركّاب، لم يلمَح مالون بيتِر لايون. سارَعَ إلى محطّة مترو الأنفاق ورأى أنّه ليس هناك أي قطار يُرتقَب وصوله في الدقائق العشر التالية. فرجِعَ إلى هدفه السابق وتفقَّد نضد سيّارات الأجرة، والمتاجر، والصرّافين. كان عدد وافر من الناس مسافرين في الساعة العاشرة ليلاً عشيّة الميلاد.

توجَّه إلى حمّامات الرجال ودخَلَ.

كانت المراحيض الإثني عشر شاغرة، في حين كان البلاط يلمع تحت الأنوار المشعة. كان الهواء الدافئ يعبق برائحة مادة التنظيف. استخدم أحد المراحيض ثمّ غسلَ يدَيه، ونظّفَ وجهه برغوة الصابون.

جعلته المياه الباردة يشعر بالانتعاش.

أزال رغوة الصابون وتناول منشفة ورقية، فنشّف وجنتَيه وجبينه، ومسَحَ الرغوة عن عينيه. وعندما فتحهما، رأى في المرآة رجلاً واقفاً خلفه.

فسأله لايون بصوت أجشّ عميق، بلكنة أمريكيّة كثر منها أوروبيّة: "ومن تكون؟"

"شخص يرغب في وضع رصاصة في رأسك".

استرعى لونُ عينيه الذهبيُّ الكهرمانيُّ العميقُ انتباهَه. كان بريقهما المتملّق يفتن ويسحر.

أخرَجَ لايون يده من جيب معطفه ببطء، كاشفاً عن مسدس صغير العيار. "يا للعار، لن تستطيع فعل ذلك. هل استمتعتَ بالرحلة؟ إنّ جاك السفاح مذهل!"

"أفهمُ كيف أنّه كذلك بالنسبة إليك".

ضحكَ لايون بخفّة: "أحبُّ الضحك والسخريّة كثيراً. الآن..."

دخَلَ صبي قصير القامة بسرعةٍ إلى الحمّام، حول الممرّ المفتوح الذي يقود إلى محطة الركّاب، منادياً والده. استغلَّ مالون الاضطراب غير المتوقّع ليضرب بكوعه الأيمن يد لايون التي كانت تمسك بالمسدس.

انطلقَت الرصاصة من المسدّس مُحدثةً ضجةً عاليةً وأصابت السقف.

اندفَعَ مالون نحو الأمام ودفعَ بنفسه وبلايون إلى جدار فاصل رخامي. ثبَّتَ يده اليسرى على معصم لايون ووجَّه السلاح إلى الأعلى.

سمعَ الصبي يصرخ، ومن ثمّ، سمعَ أصوات أخرى.

سدّد بركبته ضربة على بطن لايون، غير أنّ الرجل بدا مُستبِقاً الحركة فتحاشاها.

أدركَ لايون، على ما يبدو، أنّ الحدود ضيّقة جداً، فانطلق إلى الباب. ركَضَ مالون وراءه ووَضَع ذراعَيه حول رقبة لايون، ملقياً إحدى اليدَين على وجهه، وشادّاً عليه بعنف، لكنّ عقب المسدس أصاب فجأةً جبين مالون.

وَمَضَت الغرفة أمام عينيه.

فَقَدَ توازنه وقواه.

أطلقَ لايون العنان لنفسه وخرج من الباب متوارياً عن الأنظار. كان مالون يترنّح بشدّة ويحاول اللحاق به، بيد أنّ موجةً من الدوار رمَت به على

الأرض. أبْصَر عبر الضباب حارساً مرتدياً الزيّ الرسميّ يسرع إليه. ففركَ صدغَيه وحاولَ استعادة توازنه.

"ثمَّة رجل خرج للتوّ من هنا. شعره أحمر، متقدم في السن، مسلّح". لاحظَ أنّ يده تمسك شيئاً ما. لكأنّه قبض على شيء عندما حاول منع هرب لايون."سوف يسهل إيجاده".

كان يمسك قطعة سليكون، مُصَمَّمة وملوّنة على شكل أنف بشري رفيع. بدا الحارس مصعوقاً.

"إنّه متنكّر. حصلتُ على قطعة من قناعه".

خرجَ الحارس بسرعة، وترنَّح مالون ببطء في سيره نحو محطة الركّاب. كانت الحشود قد تجمّعت فيما ظهر حرّاس آخرون. وكان ذاك الحارس الشاب من بينهم.

سار إليه مالون وسأله: "أمعك كيس التسوق؟"

" اتبعني!"

بعد دقيقتَين، وصلَ مالون والحارس إلى غرفة مقابلات صغيرة قُربَ المكتب الأمني. كان كيس سلفريدج موضوعاً على طاولة مصفَّحة.

اختبَرَ وزنه، فوجده خفيفاً. ثم انتقل إلى داخله ونَزَعَ كيساً بلاستيكياً أخضر اللون بدا أنّه يحتوي على عدد من الأشياء الغريبة الشكل.

كانت تطقطق.

لم يكن قلقاً بالضرورة بشأن المتفجّرات بما أنّ لايون استبعدَ بوضوح الأغراض التي كانت داخل الكيس. ألقى بالمحتويات على الطاولة وصُدِمَ لرؤية أربع مجسَّمات معدنيّة صغيرة لبرج إيفل، من نوع التذكارات التي تُباع في كافة أرجاء باريس.

سأل الحارس الشاب: "ما هذا بحق الجحيم؟"

لقد وصلته الفكرة تماماً.

47

سالن هول
الساعة 11:40 ليلاً

راقَبَ آشبي كارولين وهي تتفحّص الكتاب الذي أمَّنتْه ستيفاني نيلي بصورة ملائمة. كان قد كذبَ وقال لكارولين إنّه تحدّث إلى لاروك وقد وافقَت أخيراً أن تعطيه إياه بنقله فوراً عبر القناة بواسطة ساعي بريد شخصي.

فقالت بصوت يدلّ على الحماس: "إنّه خط يد نابليون. بلا شك".

" وهذا مهمّ؟".

"يجب أن يكون مهمّاً. لدينا معلومات لم نحصل عليها من قَبْل. أكثر بكثير من تلك التي جمعها بوزو دي بورغو. لقد نظرتُ في كلّ نص مكتوب أمَّنَتْه إليزا لاروك. لم يكن هناك الكثير حقاً. لقد ركَّز دي بورغو على الشائعات أكثر منها على الوقائع التاريخيّة. أظنُّ أنّ كرهه لنابليون قد حجبَ قدرته على دراسة المسألة بشكل فعّال يسمح له بالتوصّل إلى جواب".

يمكن للحقد أن يؤثّر بشكل كبير على الحكم. لذا قلّما كان يسمح لعاطفة بأن تغلبه. "تأخّر الوقت وعليّ أن أكون في باريس غداً".

"هل يجب أن أكون معك؟"

"هذا شأن النادي. وهو يوم عيد الميلاد، لذا سوف تكون جميع المتاجر مغلقةً".

لطالما عرفَ أنّ هوايتها المفضّلة كانت التجوّل في جادة مونتاني وسلسلة متاجر المصمّمين المشهورين فيها. في العادة، يتساهل معها، ولكن ليس في الغد!

ظلَّت تتفحّص الكتاب الميروفنجي."لا أستطيع الامتناع عن التفكير بأننا نملك كافة القطع".

بيد أنّه كان لا يزال منزعجاً من بيتر لايون. فقد قام بتحويل المبلغ الإضافي كما طُلِبَ منه، مرتعباً من العواقب التي قد تنجم في حال عارض الأمر. ما لا

يُصدَّق هو أنّ الأفريقي الجنوبي كان واعياً جداً للأمريكيّين.

قال لها: "أنا واثق بأنّكِ سوف تتمكنين من جمع هذه القطع".

"إنك تحاول الآن أن تخرجني عن طَوْري".

فابتستمَ. "لقد خطرت على بالي الفكرة".

"أيمكنني الذهاب معكَ غداً؟"

رأى شرّاً في عينيها وعرفَ أن ليس أمامه خيار آخر."حسناً، ولكن شرط أن أكون.... راضياً تماماً الليلة".

"أظن أنّه يمكن ترتيب ذلك".

لكنّه رأى أن فكرها لا يزال في الكتاب وفي رسالة نابليون. أشارَت إلى النص المكتوب بخط اليد."إنّه لاتيني. من العهد القديم. يتطرّق إلى قصة يسوع وتلاميذه وهم يكلون في السبت. توجد ثلاث صياغات لتلك القصّة: لوقا، ومتى، ومرقس. لقد كتبتُ الأسطر الأربعة عشر، كي نتمكن من قراءتها:

ET FACTUM EST EUM IN

SABBATO SECUNDO PRIMO A

BIRE PER SCCETES DISCIPULI AUTEM ILLIRIS COE

PERUNT VELLER SPICAS ET FRINCANTES MANIBUS + MANDU

CABANT QUIDAM AUTEM DE FARISAEIS DI

CEBANT EI ECCE QUIA FACIUNT DISCIPULI TUI SAB

BATIS + QUOD NON LICET RESPONDENS AUTEM INS

SE IXIT AD EOS NUMQUAM HOC

LECISTIS QUOD FECIT DAVID QUANDO

ESURUT IPSE ET QUI CUM EO ERAI + INTROIBOT IN DOMUM
DEI FE PANES PROPOSITIONIS
MANDUCA VIT ET DEDIT ET QUI
CUM ERANT UXIIO QUIBOS NO
N LICEBAT MANDUCARE SI NON SOLS SACERDOTIBUS

"توجد أخطاء كثيرة، مثل Discipuli تُكتَب بحرف ال "c" وليس بحرف ال"g"، فصحّحتُها في النص الأصلي الذي هنا في الكتاب. كذلك قام نابليون بخليط كامل لل-ipse dixit. ولا معنى إطلاقاً لكلمةuxiio . ولكن استناداً إلى كل هذا، ههنا المقصود:

"وَفِي السَّبْتِ الثَّانِي بَعْدَ الأَوَّلِ اجْتَازَ بَيْنَ الزُّرُوعِ. وَكَانَ تَلاَمِيذُهُ يَقْطِفُونَ السَّنَابِلَ وَ يَأْكُلُونَ وَهُمْ يَفْرُكُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ لَهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ: "لِماذَا تَفْعَلُونَ مَا لَا يَحِلُّ فِعْلُهُ فِي السُّبُوتِ؟" فَأَجَابَ يَسُوعُ: "أَمَا قَرَأْتُمْ وَلَا هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ جَاعَ هُوَ وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ اللهِ وَأَخَذَ خُبْزَ التَّقْدِمَةِ وَأَكَلَ وَأَعْطَى الَّذِينَ مَعَهُ أَيْضاً الَّذِي لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلَّا لِلْكَهَنَةِ فَقَطْ؟"""

"نظرَتْ إليه: "كم هذا غريب، ألا تظن ذلك؟"

"نعم، هذا أقل ما يمكن قوله".

"هذا النص لا يتطابق مع أي من الروايات الإنجيليّة الثلاث. بل هو أقرب ما يكون إلى جمع بينها. ولكن ثمّة شيء أكثر غرابةً حتّى".

انتظرَ برهةً.

"نابليون لم يكن يعرف اللاتينيّة أبداً".



ودَّع ثورفالدسن البروفسور مُراد وصعد إلى جناحه. وعلى الرغم من اقتراب منتصف الليل، إلاّ أنّ باريس لم تكن تنام أبداً. كان بهو فندق ريتز مفعماً بالنشاط، وكانت الحشود تتدفّق من وإلى الصالونات المليئة بالحركة. وفيما

كان يخرج من المصعد، لمَحَ رجلاً مكفهرّ الوجه منتفخ الخدّين ذا شعر أسود أملس ينتظر على أريكة.

كان يعرفه جيّداً، بما أنّه كان قد وظّفَ منذ سنتين مؤسّسة هذا الرجل الدانماركيّة للتحقيق في موت كاي. كانوا يتواصلون عادةً عبر الهاتف، وفي الواقع، كان يظنّ أنّه في إنكلترا، يشرف على مراقبة آشبي.

قال: "لم أتوقّع أن أراك هنا".

"سافرتُ من لندن باكراً. ولكنّني كنتُ أُشرفُ على ما يجري هناك".

كان ثمّة خطب ما."تعالَ معي".

راح يتمشى معه على طول الرواق الهادئ.

"ثمّة معلومات عليك أن تعلم بها".

توقّف لحظةً ونظر في وجه المحقِّق.

"لقد تتبعنا خطوات آشبي منذ أن غادر باريس. لقد ذَهَبَ إلى البيت لبضع ساعات، ثمّ خرج في الليل. وقام بجولةٍ في منطقة جاك السفّاح، سيراً على القدمَين".

أدرَكَ غرابة الأمر بالنسبة إلى لندني.

سلّمه أحدهم صورة. "لقد التقى بتلك المرأة. وتمكنّا من التقاط صورة لهما".

احتاجَ لثانية واحدة للتعرّف إلى وجه المرأة: ستيفاني نيلي.

رنَّت في ذهنه أجراس التنبيه، وجاهد بصعوبة للاحتفاظ بقلقه لنفسه.

"كان مالون هنا، هو الآخر".

هل سمعَ جيداً؟ "مالون؟"

طأطأ المحقِّق رأسه وأراه صورةً أخرى. "وسط الحشود. وقد غادر عندما رحلَت المرأة".

"هل تحدّث مالون مع آشبي؟"

"لا، لقد غادر المكان في إثر رجلٍ كان قد تحدّث إلى آشبي. لقد قرّرنا أن نترك كلَيهما يرحل، كي لا يسبِّبا مشكلةً".

لم تعجبه نظرة الرجل."أتزداد الأمور سوءاً؟"
طأطأ المحقِّق رأسه.
"تلك المرأة التي في الصورة أعطَت آشبي كتاباً".

48

باريس
الثلاثاء 25 كانون الأوّل (ديسمبر)
الساعة 10:30 صباحاً

جالَ مالون في كنسية الدوم (القبة) في فندق الأنفاليد. كانت ست كنائس ناتئةً من الوسط، وكل منها تضمّ أبطالها العسكريّين، وقد خُصِّصت إمّا للعذراء مريم أو لأحد آباء الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة. كان يقوم بدوريّة في الطابق السفلي، الذي يقع تحت الطابق الرئيسي بعشرين قدماً، والذي يحيط بقَبْر نابليون. لم يكن قد اتصل بَعْد بِغاري ولهذا السبب غضبَ من نفسه، ولكنّ الليلة الماضية كانت ليلةً طويلةً جِدّاً.

سمِعَ ستيفاني تنادي من الطابق العلوي: "هل من جديد؟"

كانت واقفةً أمام درابزين من الرخام، مُحدِّقةً به.

"لا مجال لإخفاء شيء، حتّى إنّنا لا نستبعد وجود قنبلة في هذا الضريح".

كانَت الكلاب قد مَسَحَت كل فجوة، غير أنّه لم يتم العثور على شيء. حتى أنّ قصر الأنفاليد قد فُتِّشَ هو أيضاً، ولكن عبثاً! ولكن، بما أنّ آشبي قد قال إنّ الكنيسة هي المستهدفة الأولى، فقد تمّ مسح كل إنش مربَّع بعناية فائقة.

وقَفَ عند مدخل صالة عرض صغيرة مضاءة بمصابيح نحاسيّة قديمة. في الداخل، كان هناك تمثال يعرّف عن سرداب نابليون الثاني، ملك روما (1811 - 1832). وكان يوجد تمثال رخاميّ أبيض للأب يعلو قَبْر الإبن. كان ملقىً أرضاً في رداء التتويج، حاملاً صولجاناً وكرةً عليها خريطة العالم مع صليب.

ألقَت ستيفاني نظرةً إلى ساعتها."اقترب موعد الاجتماع. هذا المبنى خالٍ من الخطر يا كوتون. هل من مشكلة".

كانوا قد دخلوا حظيرة الطائرات في هيثرو في الليلة الماضية، بعدما فَرَّ بيتر لايون من محطة الركّاب، وتفحّص الطائرة. كانت الطائرة سيسنا مُسجَّلةً لدى شركة بلجيكيّة عاديّة، وتمتلكها شركة تشيكيّة وهميّة. حاول الإنتربول

الأوروبي يوروبول أن يطارد كائناً بشريّاً ما، بيد أنّ جميع الأسماء والعناوين لم تؤدِّ إلى أي نتيجة. كانت الحظيرة بذاتها مؤجَّرةً للشركة التشيكيّة نفسها، بحيث كان الإيجار يُدَفَع عن ثلاثة أشهر مسبقة.

قال: " لقد واجهني لايون لسبب. فقد أرادنا أن نعرف أنّه عَلِمَ أنه بمكاننا. فتركَ لنا أبراج إيفل الصغيرة تلك. يا للجحيم! حتّى إنّه لم يحجب عينيه بنظّارات. والسؤال هنا هو: هل يعرف آشبي أنّنا نعرف؟"

فهزَّت رأسها."إنّه في برج إيفل. لقد وصلَ منذ بضع دقائق. كنّا لسمعنا بذلك قبل الآن، إن كان يعرف حقّاً. قال لي مدرّبوه إنّه لم يكن يخجل قط من التعبير عن نفسه".

راح يبحث في ذهنه عن الاحتمالات. حاولَ ثورفالدسن الاتصال به ثلاث مرّات، ولكنّه لم يردّ ولم يعاود الاتصال حتّى. بقيَ مالون في لندن الليلة الماضية، هرباً من أسئلة حول الكتاب قد يعجز عن الإجابة عليها. ليس الآن. سوف يتكلّمان لاحقاً. اجتمع أعضاء نادي باريس لعقد اجتماعهم. بقي برج إيفل مغلقاً حتّى الساعة الواحدة بعد الظهر. لن يكون على المنصّة الأولى سوى أعضاء النادي، وفريق الخدمات والأمن. عرفَ مالون أنّ ستيفاني قد امتنعَت عن إخبار المخابرات الفرنسيّة بتفاصيل عن المقرضين. عوضاً عن ذلك، لقد تسلَّلَت خلسةً إلى قاعة الاجتماع.

فسأل: "هل سام وميغان في مكانهما؟"

فطأطأت رأسها تأييداً. "يمكنني أن أضيف أنّ كلاهما في منتهى الحماس ".

"هذه مشكلة دائماً".

"أشكّ في وجود خطر هنا. لقد شدَّدَت لاروك على ضرورة تفتيش كل شخص والتأكّد من عدم وجود أي سلاح أو جهاز تنصّت".

حدَّقَ بضريح نابليون الضخم. "أتعرف أنّ هذا الغرض ليس مصنوعاً حتّى من الرخام السماقي الأحمر؟ بل من حجر الكوارتز الأفينتوريني الفنلندي".

فقالَت: "لا تُخبِر الفرنسيّين. ولكنّني أعتقد أنّه مثل شجرة الكرز وجورج واشنطن".

سمِعَ صوت رنين وشاهد ستيفاني تجيب على هاتفها الخليوي، فتستمع لبرهةً، ثمّ تنهي الاتصال.

قالَت: " مشكلة جديدة".

فحدّقَ بها.

"هنريك في برج إيفل، وسيدخل اجتماع النادي".



كان سام يرتدي زيّ فريق الخدمات: السترة القصيرة والبنطال الأسود، كلّ هذا نزولاً عند رغبة ستيفاني نيلي. وكانت ميغان ترتدي لباساً مماثلاً هي الأخرى. كانا من بين الأحد عشر شخصاً الذين جهّزوا غرفة الطعام التي تضمّنت طاولتَين دائريّتَين فقط، كُسِيت كلّ واحدة منهما بشرشف ذهبي وزُيِّنَت بآنية خزفيّة ذات ذوق رفيع. ربّما كانت القاعة بذاتها تبلغ خمسين قدماً عرضاً وخمساً وسبعين طولاً، مع خشبة مسرح في أحد الأطراف. كان يمكنها أن تضمّ بسهولة مئتي ضيف، لذا بدَت الطاولتان منعزلتين.

انهمكَ في تحضير فناجين القهوة والتوابل والتأكّد من أنّ إبريق الشاي والقهوة البخاري شغّال. لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفيّة تشغيل الآلة، غير أنّ ذلك يبقيه قريباً من الطريق الذي يشقّه أعضاء النادي للوصول إلى الاجتماع. على يمينه، كان جدار طويل من النوافذ ذات الزجاج المصفَّح السميك يعطي منظراً مذهلاً عن السين والضفّة اليمنى.

كان ثلاثة رجال متقدّمين في السن وامرأة متوسّطة العمر قد وصلوا. استقبلتهم امرأة رسميّة المظهر تلبس زيّاً رماديّاً فرداً فرداً.

إنها إليزا لاروك.

كانت ستيفاني نيلي قد عرضت عليه قبل ثلاث ساعات صوراً لأعضاء النادي السبعة. رسم فكرةً عن صاحب كل صورة: ثلاثة منهم يرأسون مؤسّسات إقراض عظيمة، وواحد كان يخدم البرلمان الأوروبّي. دَفَعَ كل واحد 20 مليون يورو ليشارك فيما يحصل، ممّا أكسبهم، على حدّ قول ستيفاني، أكثر من 140 مليوناً من الأرباح غير المشروعة.

هنا يكمن التجسّد الحيّ لكل ما طالما شكّ بوجوده.

كان عليه وميغان النظر والإصغاء. وفوق كلّ ذلك، كانت ستيفاني قد توخّت الحذر، ولم تقم بأي مخاطرة غير ضروريّة من شأنها كشف هويّتهم.

انتهى من العبث بآلة القهوة وتهيّأ للذهاب.

وصَلَ ضيف آخر.

كان مرتدياً لباساً مثل بقية الرجال: بدلة عمل رماديّة اللون باهظة الثمن، وقميصاً أبيض، وربطة عنق صفراء باهتة.

إنه هنريك ثورفالدسن.



دخَلَ ثورفالدسن إلى قاعة غوستاف إيفل حيث استقبلته فوراً إليزا لاروك. مدّ لها يده، فصافحتها برقّة.

قالت له: "أنا مسرورة جدّاً لوجودك هنا. تبدو أنيقاً جداً في هذه البدلة".

"قلّما ألبس بدلةً. ولكنّني فكرتُ أنّها أفضل ما يمكن ارتداؤه في مناسبة هذا اليوم ".

طأطأت رأسها امتناناً له، وقالت: "أقدّر احترامك. هو يوم مهم حقّاً".

ظلّ يحدِّق بلاروك. كان مهمّاً جداً بالنسبة إليها أن تراه مهتمّاً بالحدث. لاحظ الحوار الصغير الذي يدور في كافة أرجاء القاعة فيما تلكّأ بضعة أعضاء آخرين. كان فريق الخدمات منهمكاً في تحضير استراحات العشاء والمرطّبات. كان قد تعلّم منذ زمن بعيد درساً مفيداً. خلال دقيقتين من دخولك أي صالة، اعرَف إن كنت محاطاً بأصدقاء أو أعداء.

تعرّف إلى نصف الوجوه على الأقل. رجال ونساء الأعمال والأموال. بضع مفاجآت حقيقيّة، بما أنّه لم يفكّر قط بأنّهم تآمريّون. كانوا جميعاً أثرياء، إنّما ليس بشكل هائل، طبعاً ليس في حلفه. لذا يُحتَمَل أنّهم سوف يدركون مخطّطاً من شأنه أن يدرّ أرباحاً سريعةً، سهلةً وغير متوقعة.

قبل أن يتمكّن من تقييم الجوّ المحيط به تقييماً كاملاً، اقترب رجل طويل القامة، داكن البشرة، ذو لحية مخطّطة بشعيرات فضّية، وعينين رماديّتين حادّتين.

ابتسمَت لاروك ومدَّت ذراعها، مقرِّبة إليها القادم الجديد وقائلة له: "ثمّة شخص أريد أن أعرّفك عليه".

واجهته وقالت:

"هنريك، أقدِّم إليك لورد غراهام آشبي".

49

صعِدَ مالون من سرداب نابليون عن طريق سلالم رخاميّة مُطوَّقة في الأعلى بتمثالَين برونزيَّين جنائزيّين، أحدهما يحمل التاج ويد العدالة، والآخر سَيفاً وكرةً أرضيّة. انتظرته ستيفاني أمام مذبح الكنيسة العظيم، المتميّز بمظلّة العواميد الملتوية الحافلة بذكريات برنيني في بازيليك القديس بطرس.

قالت: " يبدو أنّ جهود هنريك تكلَّلت بالنجاح. لقد تمكّن من الحصول على دعوةٍ إلى النادي".

"إنّه في مهمّة. يمكنك فهم ذلك".

"أستطيع أن أفهم. ولكنّني أنا أيضاً في مهمّة، ويمكنك فهم ذلك. أريد بيتر لايون ".

نظرَ حول الكنيسة المهجورة. "يبدو كلّ شيء على غير ما يرام. يعرف لايون أنّنا نريده. فتلك الطائرة في هيثرو لم تفده بشيء منذ البداية".

"ولكنّه يعرف كذلك أنّه لا يمكننا أن نكشف عن أوراقنا".

لذا لم تُطوِّق الشرطة كنيسة الدوم. ولذا لم يتم إخلاء مستشفى الأنفاليد ومركز العَجَزة. كانت وحدتها الجراحيّة المزوّدة بأحدث التقنيات تعيل المحاربين القدامى، وقد عاش هناك نحو مئة شخص بصورة دائمة في المباني المطوِّقة لكنيسة الدوم. في الليلة الماضية، بدأ البحث عن المتفجِّرات بهدوء. لا شيء يُنذِر باحتمال وجود مشكلة ما. لا شيء سوى تفتيش هادئ. إنّ إنذاراً شاملاً قد يقضي على أي فرصة لاعتقال لايون أو الاستيلاء على نادي باريس.

بيد أنه تَبيَّن أنّ المهمّة كانت مثبطةً للعزيمة.

كان قصر الأنفاليد عبارةً عن مئات الآلاف من الأقدام المربَّعة، الموزَّعة على اثني عشر مبنى متعدّد الطوابق، أي عدد وافر من الأماكن لإخفاء متفجّرة.

وإذا بجهاز الإرسال الذي كانت ستيفاني تحمله يطقطق باسمها، ثمّ يأتي

صوت ذكوري يقول:

"وجدنا شيئاً ".

فأجابت: "أين؟"

"في القبّة".

"نحن قادمون".



صافح ثورفالدسن يد غراهام آشبي، وأجبَرَ شفتيه على الابتسام، وقال: "سررت بلقائك".

"أنا أيضاً. لقد عرفتُ عائلتك لسنوات طويلة. كما أنّني من المعجبين بخزفك الصيني".

طأطأ رأسه للإطراء.

أدركَ ثورفالدسن أنّ إليزا لاروك كانت تراقب كل خطوة يقوم بها، مُجريةً تقييمها الشخصيّ لكلّ منهما، فاستجمع كل ما عنده من سحر وتابع تأدية الدور.

قال آشبي: "أخبرتني إليزا بأنّك تريد الانضمام إلينا".

"يبدو جهداً يستحق العناء".

"أظنّك سوف تجدنا مجموعةً جيدةً. لسنا سوى في البداية، ولكن أمامنا متّسمع من الوقت في هذه التجمعات".

ألقى نظرةً على الغرفة من جديد وتمكّن من تعداد سبعة أعضاء، بما فيهم آشبي ولاروك. كان أفراد فريق الخدمات يطوفون مثل أشباح تائهة، فينجزون مهمّتهم، وينسحبون واحداً تلو الآخر عبر ممرّ بعيد.

كان نور الشمس الساطع يتدفّق من جدار ذي نوافذ، مُلقياً شعاعه الرقيق على السجّادة الحمراء والمحيط المعشوشَب.

دَعَت لاروك الجميع إلى الجلوس.

سار آشبي نحو مكانه.

شقَّ ثورفالدسن طريقه إلى أقرب طاولة، إنّما بعد أن ألقى نظرةَ على رجل شاب من فريق الخدمات الذي كان يضع كراسي إضافيّةً خلف المنصّة على يمينه. ظنَّ في بادئ الأمر أنّه على خطأ، ولكن حين عاد العامل بحمولة إضافيّة تأكد من الأمر.

سام كولنز.

كان هنا.



صعدَ مالون وستيفاني سلّماً من المعدنِ بارداً يقود إلى فسحة بين الجدران الداخليّة والخارجيّة. لم تكن القبّة قطعةً وحيدةً. بل إن أحد الطابقين فقط من النوافذ في الجدار الخارجي للقبة كان يمكن رؤيته من الداخل. كانت القبّة الأولى تحيط بالكامل بقبّة ثانية، ظاهرةً عبر قمّة القبّة السفليّة المفتوحة، تلتقط نور النهار عبر طابق ثانٍ من النوافذ وتُضيء الداخل. كان تصميماً مذهلاً، يتّضح فقط في الأعلى، فوقَ كل شيء.

وَجَدا منصّةً محاذيةً للقبّة العليا وسط هيكل المبنى الخارجي التقاطعي المؤلَّف من أخشاب وألواح حديديّة كثر حداثةً. كان هناك سلّمٌ معدني آخر مائل نحو المركز، بين الدعائم، يقود إلى منصّة ثانية ترسو على سلّم أخير يؤدي إلى البرج الصغير. كانا قريبَين من قمّة الكنيسة أي على ارتفاع ثلاث مئة قدم تقريباً. على المنصّة الثانية، تحت البرج، كان يقف أحد أعضاء فريق الأمن الفرنسي الذي تسلّل إلى الأنفاليد منذ ساعات عديدة.

كان يؤشِّر نحو الأعلى.

"هناك".



كانت إليزا مسرورةً. لقد جاء الأعضاء السبع جميعاً، بالإضافة إلى هنريك ثورفالدسن. كان كلّ منهم يبحث عن مقعد. أصرَّت على أن يجلسوا إلى طاولتَين كي لا يحسّ أحد بالاكتظاظ. لطالما كرهَت الازدحام. ولعلّ ذاك الشعور ناتج عن كونها قد عاشت وحيدةً طيلة حياتها بعد بلوغها سنّ الرشد. ليس لأنّ الرجل لا يستطيع أن يقدّم من حين إلى آخر لهواً ممتعاً، بل هو مجرّد

التفكير بعلاقة شخصيّة حميمة، بشخص يرغب في مشاركتها أفكارها ومشاعرها، ويتمنّى منها هي أيضاً أن تشاركه أفكاره ومشاعره. فهذا ما يدعو إلى نفورها.

راقَبَت بدقةٍ ثورفالدسن وهو يلتقي بغراهام آشبي. لم تصدر أي ردّة فعل عن أي من الإثنين. واضح أنّه كان لقاء غريبَين للمرّة الأولى.

نظَرَت إلى ساعتها.

حان الوقت لبدء الاجتماع.

قبل أن تتمكّن من لفت انتباه الجميع، دنا منها ثورفالدسن وقال لها بهدوء: "هل قرأتِ صحيفة "لو باريزيان" هذا الصباح؟"

"سوف أقرأها في وقت لاحق اليوم. كان صباحي حافلاً".

رأته يمدّ يده إلى جيب بدلته ويسحب منها قصاصة من الصحيفة.

"عليكِ إذاً أن تقرئي هذا. من الصفحة 12 أ. العمود الأعلى الأيمن."

ألقَت نظرة سريعة على القطعة التي تفيد بحدوث عمليّة سرقة يوم أمس في فندق الأنفاليد وفي متحفه الحربي. ففي إحدى صالات العرض التي تمّ ترميمها، استولى السارقون على غرض من معرض نابليون.

استولوا على كتاب.

"الممالك المميروفنجيّة، 450-751 ميلادية".

إنه كتاب مهمّ ما دام مذكوراً في وصيّة الإمبراطور، وفيما عدا ذلك، لم تكن له أيّة قيمة. كان هذا كان أحد أسباب تركه في صالة العرض. كان فريق عمل المتحف في صدد جرد التحف الفنية المتبقية للتأكّد من أن شيئاً آخر لم يُسرَق.

حدَّقَت بثورفالدسن. "كيف أمكنك أن تعرف أن ذاك الغرض يخصّني؟"

"كما أوضحتُ في قصرك، لقد درستُك، ودرسته، بأدقّ التفاصيل".

دقّ جرس الإنذار الذي قرعه ثورفالدسن يوم أمس في أذنها.

"إن كنتُ على حقّ بشأنه، سوف يقول لك إنّه لي يستطع سحب أي شيء، وإنّه لم يكن هناك أو سوف يختزع عذراً آخر".

وهذا بالضبط ما قاله لها غراهام آشبي.

50

صعِدَ مالون إلى البرج عبر فتحة في السقف. فاستقبله النسيم البارد ونور الشمس في تلك الظهيرة المشرقة. نظرَ من أعلى الكنيسة، فإذا بمنظر مُذهل في جميع الاتجاهات. على شماله، أبصَرَ نهر السين ممتدّاً على طول المدينة، فيما برَزَ متحف اللوفر في اتجاه الشمال الشرقي. أمّا غرباً، فكان يظهر برج إيفل على مسافة تقلّ عن ميلَين.

تبعتْه ستيفاني إلى فوق. كان رجل الأمن قد صعد في الأخير، إنما بقي على السلّم ولم يكن يظهر منه سوى رأسه وكتفين.

قال الرجل: "قرّرْتُ تفحّص القبة بنفسي. لم أجد شيئاً هناك، ولكنني أردتُ سيجارةً، فصعدتُ إلى هنا وشاهدتُ ذلك".

تَتّبعَ مالون إصبعَ الرجل فلمَحَ صندوقاً أزرق، ربما يبلغ حجمه أربع إنشات، مُعلّقاً بسقف البرج. كان سور نحاسي تزييني يحرس كلاًّ من المداخل ذات القناطر الأربعة. صعد بحذر إلى إحدى السكك ووقف على بعد إنشات من الصندوق. فشاهدَ سلكاً رفيعاً، ربما يبلغ طوله قدماً، ممتداً على أحد الجوانب ومتدلياً في الهواء.

حدَّقَ بستيفاني."إنه جهاز توجيه لإرشاد الطائرة إلى هنا". ففكَّ الوحدة التي قد ثُبِّتَت في مكانها بواسطة لصوق. "يجب أن يكون قابلاً للتشغيل عن بعد. ولكن تركيبه هنا استلزم جهداً كبيراً".

"ليسَت بمشكلة لبيتر لايون. لقد أنجزَ أعمالاً أصعب بكثير من هذه بكثير".

نزلَ حاملاً في يديه ذاك الجهاز وضغط على زرّ إلغاء التشغيل على جانبه. "يُفترَض بذلك أن يعقّد له المسألة". سلَّمَ ستيفاني الجهاز وقال لها: "تدركين أن هذا في منتهى السهولة".

رأى أنها توافقه الرأي.

خطا نحو سكّة أخرى ونظرَ إلى الأسفل حيث كانت الشوارع تتقارب في ساحة فارغة أمام الجهة الغربية من الكنيسة. كان يوم عيد الميلاد قد سرقَ

الجزء الأكبر من الازدحام اليومي. وتفادياً لتحذير أحد بشأن برج إيفل المجاور الذي يقدّم مشهداً حُرّاً للأنفاليد، لم يطوّق أي شرطي الشوارع.

لمَحَ شاحنةً فاتحة اللون، مُسرِعةً نحو الشمال، على طول طريق الأنفاليد. كانت تسير بسرعة غير معتادة. تحرّك شمالاً نحو جادة تورفيل، المتعامدة مع المدخل الرئيسي لكنيسة الدوم.

لاحظَت ستيفاني اهتمامه.

تباطأت الشاحنة، وانحرفَت إلى اليمين، ثمّ غادَرَت الشارع وشقّت طريقها إلى مجموعة من الدرجات الحجرية نحو بوابة الكنيسة الرئيسية.

وجدَت ستيفاني جهازها.

اجتازَت الشاحنة الدرجات وأسْرَعَت إلى ممرّ بين رقع من العشب الشتائي. انزلقَت فجأة في قاع مزيد من الدرجات.

انفتَحَ باب السائق الجانبي.

أشعَلَت ستيفاني جهاز الإرسال الذي تحمله، داعيةً إلى الانتباه، ولكن قبل أن تنطق بكلمة هرب رجلٌ من المركبة وسارع نحو سيارة ظهرَت في الشارع.

قفزَ إلى الداخل، وابتعَدت السيارة مُسرِعةً.

وهنا انفجَرَت الشاحنة.



"دعوني أتمنى لكل منكم ميلاداً مجيداً"، هكذا قالت إليزا وهي تقف أمام المجموعة. "يسرني أن أرى الجميع هنا. أظنه مكاناً مثالياً لاجتماعنا اليوم. هو مختلف قليلاً بالنسبة إلينا. فالبرج بحد ذاته لا يفتح قبل الواحدة، لذا نتمتّع بمطلق الخصوصية". صمتت برهةً وتابعت: "وسنتناول معاً غداءً شهياً".

كانت مسرورةً لا سيما وأن روبرت ماسترورياني قد حضر، موفياً بالوعد الذي قطعه لها في الطائرة.

"لدينا ساعة عمل تقريباً، ففكَّرتُ أنّ رحلة قصيرة إلى القمة، قبل وصول الجماهير قد تكون مدهشةً. لا نحظى في كل يوم بفرصة بلوغ قمة برج إيفل مع عدد ضئيل كهذا من الناس. حرصتُ على إدراج هذه الرحلة في

استجمامنا".

قوبل اقتراحها بتأييد واضح.

"كما أننا محظوظون بحضور عضوينا الأخيرَين".

ثم قدَّمَت ماستروياني وثورفالدسن.

"من الرائع انضمامكما إلى مجموعتنا. هكذا يصبح عددنا ثمانية، وأنا واثقة أننا سنحافظ على هذا العدد. هل من اعتراض؟"

لم يتفوّه أحد بكلمة واحدة.

"رائع!"

نظرَت إلى الوجوه المتحمّسة المنتبِهة. حتى إن غراهام آشبي بدا مفعّماً بالحيوية والنشاط. أتراه كذب عليها بشأن الكتاب الميروفنجي؟

يبدو كذلك!

سبق أن التقيا قبل وصول الآخرين. وكان آشبي قد قال لها إنّ الكتاب لم يكن في صندوق العرض الخاص به. لقد أصغَت بانتباه، وراقبَت أدقّ التفاصيل، واستنتَجَت إما أنه يقول الحقيقة أو أنه من أبرع الكّذابين الذين عرفتهم في حياتها.

بيد أن الكتاب كان قد سُرِقَ. وقد أفادَت أبرز الصحف الباريسية بعملية السرقة تلك. كيف كان ثورفالَدسن يعرف إلى هذا الحد؟ هل كان آشبي مُسرِّب معلومات إلى الأمن؟ لا وقت للإجابة على هذه الأسئلة في هذه اللحظة. كان عليها التركيز على المهمة التي بين يديها.

"ظننتُ أنني سوف أخبركم القصة في البداية. سوف يعذرني سنيور ماستروياني على التكرار. لقد أخبرته القصة نفسها منذ يومين، إنما تكراري القصة قد يحمل كثيراً من المعلومات لباقي الحضور. فهي تحكي عما حصل لنابليون حين كان في مصر".



اندفع مالون من كنيسة الدوم عبر بوابتها الرئيسية المحطّمة. تبعَته ستيفاني. ظلّت الشاحنة تحترق عند قدم السلالم. إلى جانب أبواب المدخل الزجاجية،

ألحِقَت بعض الأضرار بالكنيسة. أدركَ أن الشاحنة، إذا كانت مُحَمَّلة بالمتفجّرات، يُفترض بها أن تدمِّر الجهة الجنوبية بأكملها، ناهيك عن المباني المجاورة التي تضمّ المستشفى ومركز المحاربين القدامى.

قال: "لم يكن ذلك انفجاراً بقدر ما كان مجرد فرقعة".

دوَت صفّارات الإنذار بعيداً جداً. وتهافت رجال الإطفاء نحو هذا الاتجاه. كانت الحرارة المتصاعدة من الشاحنة المخنوقة بالدخان تدفئ هواء الظُّهر البارد.

قالت: "أيمكن أن يكون عطلاً؟"

"لا أعتقد ذلك".

علا صوت صفّارات الإنذار.

عاد جهاز الإرسال الذي كانت تحمله ستيفاني إلى الحياة. أجابَت على الاتصال، وسمعَ مالون ما أفادَ به الطرف الآخر.

"هناك من زرع قنبلة في محكمة الشرف".



استمَعَ ثورفالدسن إلى لاروك وهي تنهي قصتها المصرية، وتشرح مفهوم نابليون الأصلي لنادي باريس، وتقدّم لمحة عامة عن أوراق البردي الأربعة. لاحظَ أنها لم تذكر أيضاً أنه هو أيضاً قد تلقى كثيراً من المعلومات. من الواضح إنها أرادت أن يكون حديثهما خاصاً. لا شكّ أنّ قراءتها قصاصة الصحيفة قد أثَّرَت فيها.

وكيف لا؟

حتى إنّ ردّة فعلها قد أوحَت إليه بشيء آخر. فآشبي لم يذكر بأن الكتاب بات الآن في حوزته بفضل ستيفاني وكوتون.

ولكن ما شأن مشروع ماجيلان بيليت هنا؟

حاول التواصل مع مالون خلال الليل وطيلة الصباح، غير أن صديقه لم يرد على هاتفه. لقد ترك له رسائل، ولكنه لم يتلقَّ أي واحدة بالمقابل. ظلَّت غرفة مالون في فندق ريتز شاغرةً في الليلة الماضية. ومع أن تحرّييه لم يروا

عنوان الكتاب الذي أعطته ستيفاني لآشبي، إلا أنه عرفَ أنه كان الكتاب الذي أتى من الأنفاليد.

وهل يوجد احتمال آخر؟

لا بدّ من وجود سبب وجيه وراء تسليم مالون الكتاب لستيفاني، بيد أنه يعجز عن إيجاده.

جلَسَ آشبي بهدوء إلى الطاولة، وهو يراقب لاروك بانتباه. تساءل ثورفالدسن عما إذا كان الرجال والنساء الآخرون الجالسون في الغرفة قد أدركوا على ماذا وقَّعوا. شكَّ في أن تكون إليزا لوحدها مهتمةً بالأرباح غير الشرعية. فقد أحسَّ، من خلال لقاءَيهما، بأنها امرأة عندها مهمّة - مصمّمة على إثبات أمر ما، ربما لتبرير إرث عائلتها الذي ظلّ طيّ النكران. أو ربما لإعادة صياغة التاريخ؟ مهما كان السبب، فإن الهدف ليس جمع المال فحسب. فقد حشدَت هذه المجموعة هنا، في برج إيفل، في يوم عيد الميلاد، لسبب ما.

فكَّر في نفسه أنه يجب عليه في الوقت الحالي أن ينسى أمر مالون وأن يركِّز على المشكلة التي بين يديه.



أسرع مالون وستيفاني إلى محكمة الشرف ووقفا في المربَّع الأنيق. في الوسط، كانت امرأة شابة واقفةً. ربما كانت في أولى الثلاثينيات، شعرها داكن طويل، ترتدي بنطالاً قطنياً وقميصاً أحمر باهت اللون تحت معطف أسود، تحمل غرضاً في إحدى يدَيها.

كان رجلا أمن مسلَّحَين واقفَين في ظلال المبنى المقنطر المواجه، قرب السّقالة حيث دخلَ مالون في المتحف يوم أمس. وكان رجل مسلّح آخر يقف في الجهة اليسرى، عند المدخل ذي القنطرة الذي يقود إلى الخارج عبر الجهة الشمالية من الأنفاليد، فيما كانت البوابات الحديدية مغلقةً.

تمتمت ستيفاني: "يا للجحيم!"

ظهرَ رجل خلفهما، بعدما دخل إلى المبنى المقنطر عبر الأبواب الزجاجية التي تقود إلى المتحف. كان يرتدي السترة الواقية وزيّ الشرطة الفرنسية.

فأبلغهما الرجل: "لقد ظهرَت المرأة منذ برهة".

قالت ستيفاني: "ظننتك قد فتّشتَ هذه المباني".

"سيّدتي، توجد مئات الآلاف من الأمتار المربّعة من المباني هنا. أسرعنا قدر المستطاع، دون لفت الانتباه، وفقاً لتعليماتكم. إذا شاء أحدهم التهرّب منّا، لن يكون أمراً صعباً".

كان على حق.

فسألَت ستيفاني: "ما الذي تريده المرأة؟"

"أخبرَت الرجال أنها سيطرت على قنبلة وطلبَت منهم أن يبقوا في مكانهم. اتصلتُ بكم عبر جهاز الإرسال".

أرادَ مالون أن يعرف: "هل ظهَرَت بعد أم قبل أن انفجرَت الشاحنة أمام الكنيسة".

" فوراً بعد انفجارها".

فسألته ستيفاني: "بِمَ تُفكِّر؟"

حدَّقَ بالمرأة. فالتفتَت ونظرَت إلى الرجال الذين أبقَوا سلاحهم مصوَّباً نحوها. وبحكمةٍ، أبقَت في يدها آلة الضبط التي ظلّت متحرّكةً هي الأخرى.

صرخَت: "لا تقتربوا واخفضوا أسلحتكم".

لم يَمْتَثِل أي من الرجال للأوامر.

صاحَت: "يُحتمل أن تكون القنبلة في المستشفى أو في دار العَجَزة. هل يجب المجازفة؟"

همسَ الشرطي الذي كان واقفاً بجانبهم: "فتّشنا كلا المبنيَين أولاً وبحذر. لم نجد شيئاً هناك".

صرخت المرأة: "لن أكرّر ذلك".

أدركَ مالون أن ذلك هو ما كانت ستيفاني قد دعت الفرنسيين إليه. ولم تكن شخصاً قابلاً للانخداع.

ومع ذلك،

أمَرَت من جديد: "أخفضوا الأسلحة".

51

تمَشَّت إليزا نحو المنصّة في أحد أطراف القاعة. ألقَت نظرةً خاطفة إلى ساعتها التي كانت تشير إلى الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة.

يبقى خمس وعشرون دقيقة.

"سوف ننطلق في رحلتنا إلى القمة عما قريب. ولكن أولاً، أريد أن أوضِح اقتراحاتي للمستقبل القريب".

وقفَت في وجه المجموعة وقالت: "في السنوات العشر الأخيرة، شهدنا قدراً كبيراً من التغييرات في الأسواق المالية العالمية. إن السهم المستقبلي، الذي كان للمنتجين في وقت من الأوقات بمثابة طريقة لإحاطة منتوجاتهم، ليس الآن مجرّد لعبة حظ حيث يتم بيع وشراء سلع غير موجودة بأسعار لا تمت إلى الواقع بِصلة. رأينا ذلك في السنوات القليلة الأخيرة عندما تجاوز سعر النفط ال- 150 دولاراً للبرميل الواحد. لا توجد علاقة بين هذا السعر والعرض، الذي كان آنذاك، وفي جميع الأوقات، مرتفعاً. في النهاية، انهارت السوق وهبطت الأسعار بسرعة.

رأت أن كثيرين في الغرفة أيّدوا تقييمها.

فأوضَحَت: "أمريكا هي أول من يُلام على ذلك. في عامي 1999 و2000، صدرَ تشريع مَهَّدَ الطريق إلى هجوم مُضارَبي. في الحقيقة، ألغى ذاك التشريع الأنظمة القديمة الصادرة في الثلاثينيات والرّامية لمنع انهيار آخر في البورصة. ومع اختفاء إجراءات الوقاية، عادَت المشاكل نفسها، تلك التي برزت في الثلاثينيات. لا يُفترَض بأن تشكِّل التخفيضات في قيمة البورصة الناتجة عن تلك المشاكل مفاجأةً".

لاحظَت تعابير غريبة على بعض الوجوه.

"هذا أساسي. فالقوانين التي تضع الطمع إلى المال واللامسؤولية قبل العمل الدؤوب والتضحية تأتي لقاء ثمن".

صمتَت برهة ثم تابعَت: "ولكنها تولِّد فرصاً أيضاً".

ساد صمتٌ في الغرفة.

"بين 26 آب (أغسطس) و 11 أيلول (سبتمبر) 2001، باعَت مجموعة من المضاربين التجاريين السرّيّين على المكشوف قائمةً مؤلفةً من ثمانية وثلاثين سهماً يُتوقَّع هبوط قيمتها جرّاء أي هجوم على أمريكا. لقد كانت موضوع تداول خارج نطاق أسواق الأوراق المالية الكندية والألمانية. تضمَّنَت الشركات الخطوط الجوية المتحدة أو ما يُعرَف بيونايتد إيرلاينز، والخطوط الجوية الأمريكية (أمريكان إيرلاينز)، وبوينغ، ولوكهيد مارتين، وبنك أمريكا، ومورغان ستانلي دين ويتر، وميريل لينش. في أوروبا، استهدفَت شركات التأمين، ميونيخ ري، سويس ري، أكسا. في يوم الجمعة ما قبل الهجمات، باعَت شركة ميريل لينش عشرة ملايين سهم. في الأيام العادية، لا يُباع أكثر من أربعة ملايين سهم. فشهدَت كل من يونايتد إيرلاينز وأمريكان إيرلاينز قدراً غير عادي من النشاط المضارَبي في الأيام التي سبقَت الاعتداء. لم يسبق أن شهدَت ذلك أي شركة طيران أخرى".

فسأل أحد أفراد المجموعة: "ما هو اقتراحك؟"

"فقط ما استنتجه أحد أعضاء مجموعة ثينك تانك الاستشارية الإسرائيليّة التي تُعنى بالإرهاب عندما درسوا الأوضاع المالية لأسامة بن لادن. فاعتباراً من اعتداءات "أيلول (سبتمبر)، حقَّق بن لادن أرباحاً ناهزَت العشرين مليون دولار".



سمعَ مالون دوي مروحية في الأعلى فرفع عينَيه ليرى طائرة تابعة للبحرية البريطانية تطير على ارتفاع منخفض.

قالَت له ستيفاني: "ناتو".

وبناءً لتعليمات ستيفاني، خفض الرجال الذين يطوّقون المرأة في الفناء أسلحتهم.

صرَخَت ستيفاني باللغة الفرنسية: "فعلْتُ ما طلبته".

لم يُجب زارع القنابل. وقفَت على بعد خمسين قدماً وأبقت عينيها على القناطر التي كانت تحيط بمحكمة الشرف. ظلَّت عصبيّةً، منفعلةً، متذبذبةً،

مُحرِّكة يدَيها باستمرار.

سألتها ستيفاني: "ماذا تريدين؟"

"أبقى مالون عينَيه مركَّزتَين على المرأة واستغلّ الثواني القليلة عندما صرفت بصرها ليدس يده تحت سترته، فعثَرَت أصابعه على البيريتا الذي قدّمته له ستيفاني قبل ساعات قليلة.

صرخَت المرأة بالفرنسية: "توصَلتُ إلى إثبات نقطة لجميع الذين يريدون أن يعاملونا بكُرْه".

شدّ يده على السلاح.

لم تنفكّ يداه تتحرّكان ورأسها ينتقل من نقطة إلى أخرى، وجهاز ضبط القنبلة في حركة متواصلة.

فسألت ستيفاني: "من نحن؟"

عرفَ مالون أن رئيسته السابقة كانت تنفِّذ السيناريو. أبقوا المهاجم منشغلاً. تحلّوا بالصبر في انتظار لحظة ارتباك منه.

التقَت عينا المرأة بعينَي ستيفاني. "يجب على فرنسا أن تعرف أنه لا يجب تجاهلنا".

انتظرَها مالون لتستأنف استكشافها الرصيف المكسو بالحصاة، تماماً كما فعلت من قَبل.

ثم قالت ستيفاني: "من..؟"

تأرجحَت اليد التي كانت حاملة آلة الضبط إلى اليسار.

وفيما أدارت رأسها باتجاه القنطرة المواجهة، حرّر مالون سلاحه وقام بالتسديد.



اختبأ سام وراء قاعة الاجتماع، بعيداً عن الأنظار. تمكّن من البقاء داخل الغرفة، من دون أن يدري أحد به، فيما خلا باقي الفريق في القاعة. كانت الفكرة تقضي بمناورة أحدهم على مدى السمع. راقب ميغان وهي تحاول ذلك إنما انضم إليها خدّام آخرون لمساعدتها في إزالة بعض عربات الشاي. كانت

عيناه الخائبتا الأمل قد قالتا له إن الأمر يعود له وانه قد قام بخطوته.

لم يبقَ أي رجل أمن في الداخل. جميعهم كانوا قد وُزِّعوا في الخارج. لا وجود لأي خطر لأي شخص يدخل من الأبواب التي تقود إلى شرفة المراقبة، ما دامت ترتفع نحو مئتي قدم عن الأرض.

كان قد استمع إلى خطاب إليزا لاروك وفهمَ بالضبط ما كانت تصفه. حدثَ البيع على المكشوف عندما باع شخص سهماً لم يكن يمتلكه على أمل إعادة شرائه في وقت لاحق بسعر أقل. تقضي الفكرة بالاستفادة من هبوط متوقع في الأسعار.

إنها مغامرةٌ مليئةٌ بالمخاطر بأشكال متعددة.

أولاً يجب أن تكون الأوراق المالية التي تُباع بخسارة مُقترَضةً من أصحابها، من ثمّ مباعةً لقاء الثمن الحالي. وما إن يهبط السعر، حتى يُعاد شراؤها بقيمة أقل، وتُعاد إلى صاحبها، ويحتفظ البائع على المكشوف بالربح. وفي حال ارتفاع السعر، بعكس الهبوط، يُعاد شراء الأسهم بسعر أعلى، مما يسبب الخسارة. بالطبع، إذا عرف البائع على المكشوف أن سعر سهم ما سوف يهبط، وفترة حصول ذلك حتى، يزول أي خطر في الخسارة.

وتكون إمكانية الربح هائلةً.

إنه أحد التلاعبات المالية التي حذَّرَ بشأنها موقعه وموقع ميغان على الإنترنت.

لقد سمع شائعاتٍ داخل وكالة الاستخبارات السرية حول إمكانية وجود تلاعب من جانب بن لادن، بيد أن تلك الحقائق قد صُنِّفَت ووضعت أعلى منه بعدة مستويات. ربّما تعليقاته على الموضوع هي التي دفعَت رؤساءه إلى ممارسة الضغط. كما أن سماعه إليزا لاروك تردّد تكهنات سبق أن أعلنها أكّدَ ما شكّ به منذ زمن طويل.

كان أقرب إلى الحقيقة مما توقَّعَ.



استمعَ آشبي باهتمام كبير إلى ما كانت إليزا لاروك تقوله، والتي قد جمَّعَت ما كانت تخطط له. ومع أنه اتُّهِم بترتيب الأمور لبيتر لايون، إلا أنها لم تتقاسم

معه جوهر كامل مخططها.

قالت: "المشكلة في مبادرة بن لادن هي أنه فشل في استباق أمْرَين. أولاً، كانت البورصة مقفَلَة لأربعة أيام كاملة بعد الهجمات. ثانياً، وُضِعَت إجراءات تلقائية للكشف عن عمليات البيع على المكشوف. من بينها، إجراء "بلو شيتينغ"، الذي يقوم بتحليل أحجام التداول وبتحديد التهديدات المُحتَملة. لقد أعطَت تلك الأيام الأربعة سلطات الأسواق الوقت لملاحظة ذلك، على الأقل في أمريكا. ولكن في بلاد ما وراء البحار، واصلَت الأسواق عملها، واستُخلِصَت الأرباح قبل أن يتمكَّن أحد من اكتشاف التلاعب".

استعادَ آشبي في ذاكرته نتائج هجمات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، كانت لاروك على حقّ. لقد خسرَت ميونيخ ري، ثاني أكبر شركة لإعادة التأمين في أوروبا، قرابة الملياري دولار جرّاء تدمير مركز التجارة العالمي، وقد هبطَت أسهمه بعد الهجمات. أمّا بائع على المكشوف واسع الاطلاع فكان بإمكانه تحقيق الملايين.

تذكّرَ أيضاً ما حصل للأسواق الأخرى.

داو جونز هبطَت 14%، ستاندارد أند بورز 500، إيندكس 12%، ناسداك 1 %: إن هذه النتائج نفسها قد انعكسَت في كافة الأسواق الأجنبية تقريباً على مدى أسابيع عقب الهجمات. فمحفظة آشبي قد خسرَت الكثير، في الحقيقة، لقد شهدَت بداية انكماش اقتصادي ازداد سوءاً شيئاً فشيئاً.

كان كلُّ ما قالته عن المشتقّات صحيحاً. مجرّد مراهنات هوجاء تمّ توظيفها بمال مُقترَض. معدلات فائدة، عملات أجنبية، أسهم، إفلاس شركات - راهن عليها كلها مستثمرون، وبنوك، وسماسرة. قال له محلّلوه الماليون مرّةً إن أكثر من 800 تريليون يورو، في كافة أرجاء العالم، بقيَ في دائرة الخطر في أي يوم.

الآن صار يعلم أنَّه لا بدّ لوجود طريق للربح من كل هذا الخطر.

يا ليته عرف ذلك من قَبْل!



شاهَدَ مالون المرأة تثبِّت آلة التحكُّم التي تحملها. كانت عيناها مُركَّزتَين على

عينَيه.

فصرخ لها بالفرنسية: "هيّا افعلي. هيّا!"

فضغطَت على الآلة، إلا أن شيئاً لم يحصل.

أعادت الكرّة، ولم ينفجر شيء هذه المرة أيضاً.

فارتسمَت على وجهها علامات ارتباك وحيرة.

52

جلَسَ ثورفالدسن متصلِّباً في كرسيه، ولكنه وجد أنه من الصعوبة أن يحافظ على رباطة جأشه. كانت هناك امرأة تناقش بهدوء كيف أنّ أحد الإرهابيين حقّق ربحاً من قتل الآلاف من الأناس الأبرياء. لم تظهر على وجهها أي تعابير سخط أو اشمئزاز، بل على العكس، بدَت بوضوح منذهلةً من الإنجاز.

كذلك، بدا غراهام آشبي متأثراً. لا مفاجأة في ذلك. فشخصه غير الأخلاقي ليس عنده أي مشكلة في تحقيق ربح على حساب تعاسة الآخرين. سأل نفسه إذا فكَّر آشبي لحظةً في هؤلاء الضحايا السبع في مدينة مكسيكو. أو إنه قد تنفّس الصعداء لأن همومه قد انحلَّت أخيراً! من الواضح أنه لم يعرف أسماء الضحايا. فلو علم بها، لكانت صدرت ردة فعل عن آشبي عندما قُدِّمَت الأسماء في وقت سابق. ولكن لم تصدر منه أي إشارة تدل على تعرّفه عليهم. كيف عساه يعرف الضحايا؟ وما همّه؟ لقد اتُّهِم أرماندو كابرال بترتيب الأمور، وكلما قلّت التفاصيل التي عرفها آشبي، كان أفضل.

سأل آشبي: "لماذا لم نسمع بذلك من قَبْل؟"

فأجابت لاروك: "كان الإنترنت محمَّلاً بالشائعات طيلة سنوات. حتى إن المنشور الدوري "لي إيكو" (الأصداء) الفرنسي الشهير، المعني بالشؤون المالية، قد نشَرَ مقالاً حول هذا الموضوع سنة 2007. وقد أشارت صحف أمريكية عديدة إلى القصة. أخبرني أشخاص مقربون من الحكومة الأمريكية كنت أعرفهم أن المسألة بكاملها قد دُمِغَت على أنها مُصنَّفة. لا أظن أن الأمريكيين يريدون تكيد تلك الشائعات. على صعيد رسمي، أعلن مجلس الأوراق المالية الأمريكي (SEC) عدم حصول أي تعامل داخلي".

ضحكَ آشبي بخفّة: "أمريكيون تقليديون! احفظوا أسراراً وتأمَّلوا أن تختفي مع الزمن".

فقال فردٌ آخر من المجموعة: "وهذا ما فعلَه بالضبط".

قالَت لاروك: "ولكن يمكننا أن نتعلّم من هذا الجهد. في الواقع، لقد درستُ الأمر لبعض الوقت".



أنزَلَ مالون سلاحه فيما احتشدَ رجال الأمن حول المرأة وأمسكوا بها من ذراعيها ويديها وسحبوها من قاعة الشرف.

سألت ستيفاني: "كيف عرفت أن تكشف أوراقها؟"

"لم تكن تلك القنبلة بشيء. كان بإمكانهم القضاء على الكنيسة بأكملها. كان لايون يعتمد على شبكة رخوة واستفاد منها". أومأ مستعيناً بالمسدس إلى آلة التحكم الملقاة على البلاط.

"إن هذا الغرض لا يُشعِل شيئاً".

"وماذا لو كنتَ مخطئاً؟"

"لا لم أخطئ".

هزَّت ستيفاني رأسها.

قال: "قادنا لايون إلى هنا حتى يقتلنا. عرفَ أن آشبي يلعب على الحبلَين. قادنا إلى هنا لأنه أرادنا أن نكون هنا".

"لم تكن لدى تلك المرأة أي فكرة. أظهرَت تعابير وجهها كل ذلك. لقد كانت مستعدةً لتفجير شيء ما".

"في كل عمل، هناك ضحية تسقط بفعل الخداع. لقد استخدمها لايون في سبيل المماطلة والمراوغة. أرادنا أن نكون منشغلين، على الأقل، إلى أن يصبح مستعدّاً لنا".

داخل الفناء المحاط بمباني الأنفاليد المكوّنة من أربعة طوابق، لم يتمكّنوا من رؤية برج إيفل، وما كان يجري مع سام وهنريك. حاول أن يتذكّر القبة وجهاز الإرسال. "حسب اعتقادي، عندما قمنا بإطفاء الجهاز، أعطينا إشارةً لبدء العرض".

بدأ جهاز ستيفاني يعمل فجأةً.

"هل أنتِ هنا؟" كان صوتاً رجالياً متوسط الجهير وعُرِفَ على الفور: كان الرئيس داني دانيلز.

ظهرت الدهشة على وجهها وأجابت: "نعم سيّدي، أنا هنا".

"كوتون هنا، أيضاً؟"

"أجَل إنه هنا".

"أراد فريق العمل التحكم بهذا الاتصال، ولكنني فكّرتُ أنه من الأفضل أن أتحدث إليك شخصياً. لا وقت عندنا للترجمة. كنا نراقب الأمور هنا وواجهتِ صعوبةً هناك. وإذا بتطوّر مفاجئ هنا. منذ ست دقائق، انحرفت طائرة صغيرة عن طريقها وتجنّبت هبوطاً مُبرمجاً في مطار باريس - لو بورجيه".

عرفَ مالون الميدان الذي يقع على بعد سبعة أميال تقريباً في الشمال الشرقي. لقد كان طيلة عقود، مطار باريس الوحيد، الذي اشتهر على أنه موقع هبوط المعبر الأطلسي لتشارلز ليندبيرغ سنة 1927.

قال دانيلز: "إن هذه الطائرة ذاهبة الآن في اتجاهك".

ربط مالون كافة النقاط في رأسه وقال: "لهذا السبب كان لايون يماطل ويراوغ؟"

"ثمة مروحية تابعة للناتو تهبط شمال الأنفاليد كما ذكرنا. اصعَد على متنها، سوف أتصل بك هناك".



كانت إليزا تستمتع بتلك الأوقات. إن التعابير التي تجلّت على وجوه الحاضرين بعد سماع كلماتها أكَّدّت اختيارها الموفَّق للمجموعة. فقد كان كل فرد منها مقاولاً جريئاً شُجاعاً.

"فشِلَ بن لادن لأنه سمح للتعصّب بأن يتجاوز الحكم الجيّد. لم يتوخَّ الحذر. أراد تسجيل موقف وأراد أن يعرف العالم بأنه قد فعل".

هزَّتْ رأسَها. "لا يمكنكم تحقيق أرباح طويلة الأمد من غباء كهذا".

قال روبرت ماستروياني: "لستُ مهتماً بقتل الناس".

"ولا أنا. وليس ذلك ضرورياً. كل ما تحتاجه هو تهديد قابل للتصديق يخيف الشعب. فضمن هذا الخوف، سوف نعمل".

سأل آخر: "أليس العالم خائفاً بما يكفي؟"

قالت: "حقّاً، هو كذلك. كل ما علينا فعله هو استخدام الأمر لمصلحتنا".

تذكّرَت شيئاً علّمتها إياه أمّها. "أفضل طريقة لكسب ثقة المستمعين هي جعلهم يفكّرون بأنك وثقتِ بهم من خلال تسليمهم سرّاً".

"لدينا حكمة ورق البردي. لقد علّم نابليون الكثير، صدّقوني، ويمكن أن يرشدنا نحن كذلك".

ارتسمَت على وجهها تعابير عميقة التفكير.

"العالم خائف أصْلاً. الإرهاب حقيقي. لا يقدر أي منا أن يغيّر ذلك. المسألة هي كيف يمكن استخدام هذا الواقع".

قال أحدهم: "Cui Bono" ("الفائدة مقياس للقيمة").

ابتسمَت. "هذا صحيح. "من يستفيد". يصفُ ذاك المبدأ اللاتيني هذه المساعي تماماً". رفعَت إصبعها لتكيد إضافي. "ألم تفكّروا قط من يستفيد من الإرهاب؟ هناك تشديد فوري في أمن المطار والمبنى. من يراقب كل هذه المنشآت؟ مراقبة الملاحة الجوية - ناهيك عن البيانات. فالأرباح يُحقِّقُها هؤلاء الذين يؤمِّنون هذه الخدمات الأساسية. يتأثر اقتصاد التأمين مباشرةً. تتمّ عسكرة جوّنا، وأرضنا، ومياهنا، ومحيطاتنا بمستويات عالية. لا شيء غالٍ فوق اللزوم ليحمينا من تهديد. إن أعمال الدعم اللوجستي، وخدمات الهندسة والبناء المرتبطة بـ "الحرب" على الإرهاب غير ثابتة. فهذه الحرب، يمارسها مقاولون خاصون أكثر من الجيش نفسه. إن الأرباح المُحقَّقة هناك تفوق كل فهم. لقد شهدنا أن الأسهم في الشركات التي تؤمّن خدمات داعمة للحرب ازدالت قيمتها بنسبة 5 إلى 8% منذ 2001".

ابتسمَت رافعةً حاجبها.

"أدركُ أن جزءاً من هذا بديهي. إنما توجد طرق أخرى، أكثر حذقاً، للربح. أريد أن أحدّثكم عنها بعد الغداء".

سألها آشبي: "ما الذي تخططين له؟ أنا فضولي".

ليس عندها شكّ في فضوله. فهي فضولية أيضاً. تساءلت عما إذا كان آشبي صديقاً أم عدوّاً.

"دعني أشرح لك الأمر. في أواخر التسعينيات، اقتربَت كوريا الجنوبية وتايلاند وإندونيسيا من الانهيار المالي. أخيراً، أنقذها صندوق النقد الدولي

وكفلها. كان صديقنا روبرت ماستروياني يعمل مع صندوق النقد الدولي، لذا يعرف عمّا أشير إليه".

طأطأ ماستروياني رأسه مؤيداً.

"أثناء تلك الكفالة، نهبَ المستثمرون اقتصاد البلدان الثلاثة، حاصدين أرباحاً هائلة. إن كنت تملك المعلومات الصحيحة، في الوقت المناسب، حتى في أوقات مشتقات المخاطرة والأسواق المستقبلية، يمكنك تحقيق أرباح بقيمة الملايين. سبق أن أجريتُ بعض التوقّعات التمهيدية. مع توفّر حوالي ثلاث مئة مليون يورو، يمكننا أن نتوقّع، وبصورة معقولة، عائدات تتراوح بين 4 و8 مليارات يورو خلال الأشهر الأربعة والعشرين القادمة. وأنا محافظة. لا شك أن هذه المبالغ سوف تتراكم من دون ضرائب".

رأت أن هذا التوقّع أعجبَ المجموعة. لا شيء يغري شخصاً يملك المال كثر من فرصة كسب المزيد من المال. صَدَق جدّها بقوله: "اكسَبوا أكبر قدر ممكن من المال واصرفوه، لأن المزيد من المال سوف يكون بانتظاركم".

سأل أحدهم: "كيف سنتمكن من الإفلات من العقوبة؟"

"أجابَت لامبالية: "كيف لا؟ إن الحكومة عاجزة عن إدارة النظام. قلّة ممن هم داخل الحكومة يفهمون المشكلة، وبالتأكيد لا يعرفون كيفية تصميم حلّ. والرأي العام جاهل تماماً. يكفي أن تنظروا إلى ما يفعله النيجيريون كل يوم. يرسلون الملايين من الرسائل الإلكترونية لأشخاص جاهلين وغير مدركين للخطر، زاعمين أنه يمكن تحقيق عائدات من بعض الأموال غير المطلوبة، شرط أن يرسلوا رسوماً إدارية صغيرةً. وقَعَ عدد لا يحصى من الناس عبر العالم في فخّ الخدعة. عندما يتعلّق الأمر بالمال، قلّة هم الذين يفكّرون بوضوح. أقترح عليكم أن تفكّروا بصورة صافية كالبلّور".

"وكيف علينا فعلنا ذلك؟"

"سوف أشرح لكم كل شيء بعد الغداء. يكفي القول إننا في صدد ضمان مصدر تمويل من شأنه تزويدنا بمليارات إضافية في موارد غير متَتَبَّعة. إنه كنز ثروة غير مسجلة يمكن استثمارها واستخدامها لمصلحتنا العامة. الآن، لقد حان الوقت لنستهلّ مغامرتنا إلى قمة البرج لبضع دقائق من التفرُّج".

وقفَت المجموعة.
قالت: "أؤكِّد لكم أن الرحلة تستحق العناء".

53

استمعَ مالون إلى صوت الأسطوانات التوربينية لمحرّك الرولز رويس وهو يحرّك شفرات المروحية. كانت البحرية قد علّمته كيف يقود الطائرات المقاتلة وقد سجَّلَ وقتاً مميزاً في الطائرات النفّاثة، غير أنه لم يقدْ أبداً طائرة مروحية. فاستراحَ في الحجرة الخلفية فيما أخذت الطائرة تُحلّق في سماء الظهيرة الباردة.

جلسَت ستيفاني بجانبه.

لفتَت انتباهه دردشة من نافذة باب غرفة القيادة. كان الطيَار يُشير إلى سماعة رأسه والى جهازَين مُعلَّقَين على الحائط. سلَّمَ أحد رجال الإسعاف الذين في الجيش السمّاعات إلى كل من مالون وستيفاني.

همسَ الطيّار في أذنه: "ثمة رسالة مُشفَّرة آتية إليك".

لوى الميكروفون بالقرب من فمه: "فلنسمعْها".

بعد تكتكات قليلة سمعَ صوتاً يقول: "أنا عذْتُ".

فسأل مالون داني دانيلز: "هلا أخبرتنا عما يجري؟"

"انحرفَت الطائرة عن الطريق. أولاً ذهبَت شمالاً بعيداً عن المدينة، وها هي تعود الآن جنوباً. لا يمكن إجراء أي اتصال عبر جهاز الإرسال. أريد منكما أن تتفقّداها قبل أن نفجّرها من السماء. معي الرئيس الفرنسي على الخط الآخر. لقد انطلق بطائرة مقاتلة. الآن، الهدف ليس فوق أي من المناطق السكنية، لذا يمكننا إنزالها. ولكن من الواضح أننا لا نريد أن نفعل ذلك، إلا عند الضرورة القصوى. هناك الكثير من التفسيرات!"

فسأل: "أنت كيد من أنّ التهديد حقيقي؟"

"يا للجحيم، يا كوتون! لستُ أكيداً. اللعنة! ولكن كان للايون طائرة في هيثرو. لقد وجدتها. يمكنني أن أُضيف بأنه على ما يبدو، أرادنا أن نجد..."

"تعرفُ إذاً ما حصل في الليلة الماضية؟"

"أعرف كل التفاصيل. أريد ابن العاهرة هذا. لدي أصدقاء قد ماتوا عندما

فجّرَ سفارتنا في اليونان، وليسوا سوى نقطة من بحر الأصدقاء الذين قَتِلوا على يده. سوف أخرم تذكرة هذا الصبي لإثبات صلاحيتها".

أزاح أحد الطيّارين الباب الخشبي إلى غرفة القيادة المفتوحة وأشار إلى الأمام. تأمَّلَ مالون السماء. كانت الغيوم تكشف عن المنظر الفرنسي. كانت ضواحي باريس تتمايل تحت عجلات طائرة المروحية. لاحظَ هيكل طائرة مقلّماً بالأزرق والأصفر في البعيد - طائرة سيسنا سكاي هوك أخرى، مماثلة لتلك التي شُوهِدَت في الليلة الماضية - تعبر على مسافة خمسة آلاف قدم تقريباً.

قال للطيّار من خلال سمّاعة رأسه: "سدّ الفجوة".

فسألَ دانيلز: "هل تراها؟"

أحسَّ بطاقة تتسرّب من المحرك فيما كانت طائرة المروحية تشق طريقها إلى الأمام.

ومَضَ صفيح الطائرة المعدنية تحت أشعة الشمس.

قال مالون للطيّار: "إبْقَ وراءه، خارج مدى البصر".

راقَبَ أرقام التحديد الحمراء الموجودة على الذيل والمطابقة لتلك التي شوهِدَت في الليلة الماضية.

فقالَ عبر سمّاعة الرأس: "إن أرقام هذه الطائرة هي نفسها كتلك التي في هيثرو".

فسألَ لايون:"أتعتقد أن لايون في الطائرة".

فأجاب مالون: "سوف أتفاجأ. هو قائد الأوركسترا أكثر مما هو عضو فيها"

فقالَ الطيّار: "إنها تنعطف".

نظرَ من النافذة ورأى أن سكاي هوك تنعطف يساراً.

سأل مالون الطيّارَ: "أين نحن؟"

"في شمال باريس، ربما على بعد أربعة أميال. فبهذا المقدار، ابتعدَت الطائرة عن وسط المدينة، مما سوف يقودنا إلى خارج البلدة".

كان يحاول أن يفهم كل ما عرفه: قطع مبعثرة، عشوائية، إنما مربوطة ببعضها البعض.

قال الطيّار: "إنها تنعطف من جديد. الآن غرباً، بعيداً تماماً عن باريس، باتجاه فرساي".

نَزَعَ السمّاعات وقال: "هل رآنا؟"

قال الطيّار: "كلا، على الأرجح. إن مناورته عادية".

"أيمكننا الاقتراب من فوق؟"

طأطأ الطيّار رأسه. "ما دام غير ناوٍ على الصعود".

"هيّا!"

مالَت دفّة الطائرة إلى الأمام وارتفعت سرعة المروحية. بدأت المسافة إلى سكاي هوك تقلّ.

أشارَ مساعد الطيّار إلى سمّاعة الرأس: "ذاك الرجل من جديد على جهاز الإرسال".

التقطَ من جديد سمّاعات الرأس: "ما هذا؟"

قالَ دانيلز:

"يريدنا الفرنسيون أن ننزل الطائرة. ماذا أقول لهم؟"

أحسَّ بقبضة يد ستيفاني على ذراعه اليمنى. كانت تشير إلى الأمام، خارج الزجاج الأمامي. التفَتَ فيما فُتِحَ باب الحجرة على الجانب الأيسر من سكاي هوك.

"ماذا..؟"

قفَزَ الطيّار من الطائرة.



كان آشبي آخر من صعدَ على متن المصعد. ملأ أعضاء نادي باريس الثمانية ثلاث عربات زجاجية علَت من المنصة الثانية 175 متراً آخر إلى قمة برج إيفل. كان الصعود المُسبِّب للدوار داخل الأشغال الحديدية مزعجاً قليلاً.

لمَعَ العالم تحت الشمس التي سطعَت. راقبَ آشبي نهر السين ووجَدَ أن اسمه مناسب - يعني "التواء"، وهذه بالضبط حال وسط مدينة باريس مع

الالتواءات الثلاثة. في عيد الميلاد، كانت حركة السير ضعيفة في الجادات الموازية والمتقاطعة مع المجرى المائي، التي تكون في العادة مزدحمةً بالسيارات. في البعيد، علَت كاتدرائية نوتردام العامرة بمزيد من القباب الكنائسية، وسطوح مصنوعة من الزنك، وغابة من أجمة المداخن. ألقى نظرةً خاطفةً على منطقة "لاديفانس" وجاداتها الحافلة بأبراج مرتفعة. كما لاحَظَ الأضواء المُسلَّطة على عارضات برج إيفل. فحزِرَ أنها مصدر الذبذبة الكهربائية التي تُنيرُ المكان في كل ليلة.

نظرَ إلى ساعته، فكانت الحادية عشرة وثلاثة وأربعين دقيقة.

لم يمضِ وقت طويل.

راقبَ مالون مظلّة الهبوط وهي تنفتح وتلتقط الهواء. تابعت سكاي هوك طريقها غرباً، متحكّمةً بالارتفاع والسرعة. في الأسفل، كانت مساحة واسعة من الحقول، والغابات، والقرى والطرقات تنتشر على مدى المنظر القروي خارج باريس.

أشارَ إلى الطائرة وقال للطيّار: "تعالَ وانظرْ عن قرب".

تقدّمت المروحية إلى الأمام واقتربَت من سكاي هوك. حوَّل مالون وضعيته إلى جانب الطائرة الأيسر ونظرَ إلى الطائرة الأحادية المحرّك.

قال في الميكروفون: "لا أحد في الداخل".

لم يعجبه أيٌّ من هذا. التفَتَ إلى رجل الإسعاف الذي في الجيش وسأله: "هل لديك منظار مكبِّر؟"

قدَّمَ له شاب على الفور منظاراً. ركَّزَ مالون عبر السماء الصافية على سكاي هوك".

قال للطيّار: "اذهب إلى الأمام".

تغيّرَ مسارهما الموازي، فصارت المروحية في مقدّمة الطائرة. ومن خلال المنظار، صوَّبَ نظره خلف الزجاج الأمامي إلى غرفة القيادة، فإذا بالمقعدين الأماميَين خاليَين، مع أن المقود يتحرّك في هزّات مدروسة. كان يوجد شيء على مقعد مساعد الطيّار، بيد أن سطوع الشمس قد صعَّبَ تحديد ذلك الشيء. أما المقعد الخلفي فكان مكتظّاً بحزم مغلّفة بجرائد.

أنزَلَ المنظار عن عينيه.

قال: "تحمل تلك الطائرة شيئاً. لستُ أعرف ماذا بالضبط، ولكنها كمية هائلة".

انحدَرَت أجنحة سكاي هوك ومالَت الطائرة إلى الجنوب. كان الانعطاف مضبوطاً وكأن أحداً كان يقودها.

قال دانيلز في أذنه: "كوتون، ما هو تقييمك؟"

لم يكن أكيداً. لقد تمَّ توجيههم - لا مجال للجدال - وقد ظنَّ أن هذه الطائرة هي نهاية المطاف. ولكن...

قال في الميكروفون: "ليسَت هذه المشكلة".

سأل دانيلز: "أتوافقينني الرأي يا ستيفاني؟"

"نعم!"

من الجيّد أنها لا تزال تثق بحكمه، بما أن تعابير وجهها تناقض كلامها.

سأل الرئيس: "وأين المشكلة إذاً؟"

شكَّ بأمر ما. "يعاين رجال المراقبة الجوية الفرنسية المنطقة. يجب أن نعرف كل شاردة وواردة عن كل طائرة تحلّق في السماء".

"تَمَسّكا".



خطت إليزا خارجةً من المصعد إلى منطقة المراقبة الفارغة في الطابق العلوي الذي يعلو سبعة وخمسين طابقاً عن الأرض. قالَت للمجموعة: "إن التواجد هنا من دون أشخاص آخرين لمروّع بعض الشيء. في العادة، تكون هذه المنصة مكتظةً".

أشارَت إلى السلالم المعدنية التي تقود، عبر السقف، في الخارج، إلى الطابق العلوي.

قالت: "أليس كذلك؟"

تأمَّلَت المجموعة تصعد السلالم. وقفَ آشبي معها. عندما خرج آخر واحد

منـهم من باب الطابق العلوي، التفتَت إليه وسألته: "هل سيحصل ذلك؟"
طأطأ رأسه: "بعد خمس عشرة دقيقة بالضبط".

54

أبقى مالون عينَيه على سكاي هوك ورأى الطائرة تُغيِّر طريقها من جديد، مائلةً إلى الجنوب لكأنها تبحث عن أحد. قالَ في سمّاعة الرأس، متسائلاً ما إذا كان هناك أحد: "هل الطائرة المقاتلة هنا؟"

قال دانيلز: "إنها في موضعها الصحيح".

اتَّخَذَ قراراً. "أنزِلْها فيما لا نزال قادرين على ذلك. لا شيء سوى الحقول في الأسفل، ولكنّ المدينة تبرز بسرعة".

ضرَبَ على النافذة وقال للطيّار: "أبعِدْنا وبسرعة".

ابتعدَت سكاي هوك مُسرعةً فيما تباطأت المروحية..

قال دانيلز: "أعطيَ الأمْر".



خرَجَ ثورفالدسن إلى هواء كانون الأول (ديسمبر) البارد. لم يسبق أن زارَ قمة برج إيفل، وذلك، من دون سبب معيَّن. أرادَت ليزيت أن تأتي منذ سنوات، إلا أن الأعمال قد منعتها من هذه الرحلة. فقال لها: نذهب في الصيف القادم. ولكن الصيف القادم قد حلّ وولّى، ومرّ صيف تلو الآخر، إلى أن ماتت. كان كاي قد زار القمة عدة مرّات وأحبّ أن يخبره عن المنظر، الذي أقرّ بأنه مذهل. كان هناك ملصقٌ معلَّق على السياج، تحت قفص يغطي منصة المراقبة، يشير إلى أن الرؤية تمتدّ على مدى ستين كيلومتراً في يوم صافٍ.

ويومذاك كان بلا شك يوماً صافياً، يوماً من أيام الشتاء المشرقة تحت سماء زرقاء صافية خالية من الغيوم. كان مسروراً لأنه قد ارتدى أَسْمَكَ معطف صوف عنده، وقفّازاتٍ وشالاً إلا أن الشتاء الفرنسي لا يشبه نظيره الدانماركي في شيء.

لطالما حيَّرَتْه باريس. لم يسبق له أن تأثَّرَ بها. في الواقع، أعجبته عبارة من Pulp Fiction، قالتها إحدى الشخصيات التي أدّاها جون ترافولتا: الأشياء هناك هي نفسها كهنا، مع اختلاف بسيط. كان وجسبر قد شاهدا الفيلم

منذ أعوام قليلة، وقد حيَّرتهما فكرته الرئيسية، ولكنهما في الأخير نَفَرا من العنف. لغاية يومَين قبْل ذلك الحين، لم يكن يعتبر العنف إلا في الدفاع عن النفس. غير أنه أردى أرماندو كابرال قتيلاً هو وشريكه في الجريمة بدون أي ندم.

وقد أقلقه هذا.

كان مالون على حقّ.

فقط لم يكن يقدر على قتل الناس.

ولكن بالنظر عبر منصة المراقبة الباردة إلى غراهام آشبي الذي كان واقفاً بجانب لاروك يتطلّعان إلى باريس، أدركَ أن قتل هذا الرجل قد يكون لذّةً. كم هو مثير للاهتمام كيف أن عالمه قد أمْسى مرتبطاً بالكره والحقد. فكَّرَ في نفسه أن عليه التفكير بأشياء جميلة. يجب ألا يفضح وجهه ومزاجه أفكاره.

وصَلَ إلى هذا الحدّ.

الآن، انتهى كل شيء.



عرفَ آشبي ما توقَّعتْه إليزا لاروك. أرادَت طائرةً صغيرةً، محمَّلةً بالمتفجّرات، لتنفجر في كنيسة الدوم في أقصى جنوب الأنفاليد.

سيكون عرضاً هائلاً!

إنّ المتعصّبين الذين تطوّعوا لقبول المسؤولية المطلقة قد أحبّوا الفكرة. حملَت هذه الحركة إحساس 11 أيلول (سبتمبر) الشنيع، وان كان فقط على نطاق أصغر، من دون وفيّات. لذا تمّ اختيار يوم الميلاد: كان الأنفاليد والكنيسة مغلقين. بالتزامن مع هجمات باريس، سوف يتفجّر نصبَين تذكاريَّيْن وطنيَّين آخرَين وهما متحف أكيتان في بوردو، وقصر الباباوات في أفينيون. كذلك سوف يكون كلاهما مغلقين.

كلُّ عملٍ يحمل قيمةً رمزية.

وبينما طوّقوا منصة المراقبة لاستراق النظر، لاحظَ عربةً تشتعل، منجرفةً في الهواء البارد، من أمام الكنيسة في الأنفاليد. ازدحم المكان بالشرطة،

ورجال الإطفاء وعربات الطوارئ. وقد رأى ذلك بعض من الآخرين أيضاً. التقَطَ بعض التعليقات، إنما لا شيء مهم. بدا الوضع تحت السيطرة. لا شكّ أن للايون صلة بألسنة النيران، ولكن لا فكرة عنده عمّا خطط له الأفريقيون الجنوبيون. لم يتم تشاطر أي تفصيل، ولا حتى شاء أن يعرف.

المطلب الوحيد هو وجوب حصول ذلك في ساعة الظهر.

نظر إلى ساعته. حان وقت الرحيل.

انحرفَ عمْداً عن الآخرين فيما أخذتهم لاروك في جولة بصرية. لاحَظَ أنها استهلّتها بالمنظر المواجه للشمال، من ثم مشَت إلى المنصة الغربية. وفيما استدارت المجموعة إلى الجنوب، خرجَ بسرعة من باب الخروج الذي يقود نزولاً إلى غرفة المراقبة الصغيرة المحصورة. وببطء، زَحْلَقَ اللوحة الزجاجية المغلقة، شابِكاً القفل في أسفلها. كان السيّد غيلدهول قد استكشف بدقّة منصّة القمّة واكتشفَ أن البابَين اللذَين يقودان إلى فَوق من الجزء المحصور مزوّدين بأقفال تشتبك بكبسة واحدة وتنفتح بمفتاح لا يحمله سوى رجال الأمن.

إنما ليس في ذلك اليوم.

كانت لاروك قد تفاوضت مع نادي باريس لتبقى لوحدها لمدة ساعة في القمّة، تنتهي الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة، عشرين دقيقة قبل أن تُفتَح أكشاك التذاكر التي تنخفض 275 متراً عن ذاك الطابق ويتدفّق الزائرون نحو الأعلى.

بسرعة، نزلَ أربع عشرة درجة معدنية وصولاً إلى الجانب الشرقي. كانت لاروك والآخرون لا يزالون في الجهة الجنوبية، يسترقون النظرات. صعِدَ السلالم المعدنية وصولاً إلى الباب الثاني وزلقَ بهدوء اللوحة الزجاجية السميكة المغلَقة، شابِكاً قفلها.

ها قد تم اصطياد نادي باريس في القمة.

نزَل السلالم، ودخل أحد المصاعد الشاغرة وأنزلَ العربة إلى تحت.



قال دانيلز في سماعات مالون: "لديّ المعلومات. تحلّق حالياً ستّ طائرات في

فضاء باريس الجوّي. أربعة منها طائرات نفّاثة على مقربة من أورلي وشارل ديغول. اثنتان هما خاصتان". صمَتَ الرئيس برهة ثم قال: "تتصرّف كلتاهما بشكل غريب".

سألَت ستيفاني: "حدِّد ذلك".

"إن إحداهما لا تستجيب لأوامر جهاز الإرسال. أما الأخرى فاستجابت للأوامر ولكنها فيما بعد قامَت بشيء مخالف للتعليمات".

فقال مالون، الذي يعرف الجواب: "تذهب كلتاهما في هذا الاتجاه".

"واحدة من الجنوب الشرقي، وأخرى من الجنوب الغربي. إننا نرى تلك الآتية من الجنوب الغربي. إنها بيتشكرافت".

ضرَب مالون نافذة غرفة القيادة وأمرَ الطيّار الذي كان يستمع إلى الحديث: "اذهب نحو الجنوب الشرقي".

قالَ دانيلز: "هل أنتَ متأكد؟"

أجابَت ستيفاني: "إنه متأكد".

التقَطَ تفجيراً جوياً على يمينهما، ربما على بعد خمسة أميال.

لقد تمَّ تدمير سكاي هوك.

قالَ دانيلز: "قيل لي إن الطائرة الأولى قد رحلَت".

قالَ مالون: "أراهن أن ثمة سكاي هوك أخرى، تتجه إلى الجنوب الشرقي".

قالَ دانيلز: "أنت محقّ يا كوتون. حصلتُ للتوّ على الرؤية البصرية. الألوان والشارة نفسها كتلك التي أنزَلناها".

قالَ: "تلك هي الهدف. تلك التي يحميها لايون".

قالَ الرئيس: "وعندك مشكلة إضافية".

قالِ مالون: "أعرفُ. لا يمكننا تفجير هذه. إنها تحلّق فوق المدينة".

سمعَ تنهيدة دانيلز: "يبدو أن ابنَ العاهرة يخطِّط جيداً".



سمِعَت إليزا انفجاراً في البعيد، من جانب البرج المعاكس. وقفَت في الناحية

الجنوبية من منصة المراقبة، وأخذَت تنظر باتجاه جادة دي مارس. كانت منازل خاصة ومجموعة شقق فخمة مصطفّةً على جانبَي أرض العرض السابقة، وجادات واسعة بموازاة الجانبَين.

ألقَت نظرة خاطفة إلى يسارها ورأت الأنفاليد. فقد كانت قبّة الكنيسة المُترَفة لا تزال سليمةً. تساءلَت عما كان ذاك الصوت، لا سيما وأنها كانت تعرف أن دقائق قليلة تفصل عما بقيَت تخطط له لزمن طويل. كان آشبي قد قال لها إن الطائرة سوف تأتي من الشمال، محلّقةً فوق السين، تابعةً جهاز إرشاد لاسلكي كان قد أُخفي داخل القبّة منذ بضعة أيام.

سوف تكون الطائرة مُحمَّلةً بالمتفجّرات، ومرفقةً بصهاريج من الوقود. يَعِدُ الانفجار بأن يكون عرضاً بكل ما في الكلمة من معنى. سوف تنظر إليها، ومن دون عوائق، على بُعْد ثلاث مئة متر تقريباً في الهواء.

قالَت: "هلّا انتقلنا إلى الجهة الشرقية لإلقاء نظرة أخيرة قبل النزول؟"

تجمّعوا كلّهم في الزاوية.

نظَّمَت طريقهم بشكل متعمِّد حول المِنصّة، حيث أخذَت تتأمل المنظر ببطء في ذاك النهار البهيج، فينتهي بهم الأمر بأن يكونوا مواجهين للشرق، باتجاه الأنفاليد.

نظرَت من حولها وسألت: "هل رأى أحدكم لورد آشبي؟"

هزّ البعض رأسه.

قال ثورفالدسن: "سوف لقي نظرةً".



شقَّت ويتسلاند لينكس طريقها عبر الهواء، متّجهةً نحو سكاي هوك. أبقى مالون عينَيه مصوّبَتين خارج النوافذ وأبصرَ الطائرة. قال للطيّار: "باتجاه الحادية عشرة. هيّا اقترِب".

فانقضَّت المروحية وبسرعة تجاوزَت الطائرة الأحادية المحرّك. راقَبَ مالون غرفة القيادة عبر المنظار ورأى أنّ المقعدَين فارغَين، وأن عمود القيادة يتحرّك، كما في الطائرة الأخرى، وذلك، بضربات مدروسة. تماماً كما من قَبْل،

ثمة شيء على مقعد مساعد الطيّار. أمّا المقعد الخلفي فكان محمَّلاً بحزم ملفوفة بجرائد. فقالَ وهو يُنزِلُ منظاره: "تماماً كما في الطائرة الأخرى. تطير تلقائياً. إنما هذه تطيرُ حقيقةً. فقد قاسَ لايون وقتها لتكون هناك فرصة صغيرة للتعاطي مع المشكلة". ثمّ نظرَ إلى الأرض. لا شيء إلا الشوارع والمباني الممتدّة على أميال. "وخيارات قليلة".

قالت ستيفاني: "كثير بالنسبة إليه أن يرسل إلينا الرسائل".

"لم يسهّل الأمور".

خارج نافذة المروحية، راقَبَ مصعد إنقاذ مع سلك فولاذي.

إنّ ما كان عليه فعْلُه واضح، إنما لم يكن يسعى إليه. التَفَتَ إلى رجل الإسعاف الذي في الجيش. "عندك سرج للجسم لتلك الرافِعة؟"

طأطأ الرجل رأسه.

"ها هو".

سألَت ستيفاني: "بِم تُفكِّر؟"

"يجب على أحد أن ينزل إلى تلك الطائرة".

"كيف تخطّط لذلك؟"

أشارَ إلى الخارج. "منحدر سهل".

"لا يمكنني السماح بذلك".

"لديكِ فكرة أفضل؟"

هزَّت رأسها. "كلا، ولكنني المسؤول الأعلى هنا. وهذا نهائي".

قالَ دانيلز في أذنهما: "كوتون معه حق. إنه العمل الوحيد. يجب عليكما السيطرة على تلك الطائرة. لا يمكننا إسقاطها".

قالَ لها: "أتريدين مساعدتي؟ دعيني أساعدكِ".

رمقته ستيفاني بنظرة تقول: "هل تعتقد أن ذلك ضروري؟"

قال: "إنها الطريقة الوحيدة".

طأطأت رأسها تأييداً.

نزَعَ سمّاعة الرأس وزَحْلقها على بدلة طيران معزولة سلّمه إياها رجل الإسعاف الذي في الجيش. فبكَّلها، ثمّ شدَّ البدلة حول صدره. فحص رجل الإسعاف مدى إحكامها بواسطة إقفال صلبة.

قالَ الشاب: "في الخارج، رياح قوية. سوف تنجرفان على السلك. سوف يبقي الطيّار المسافة ضيّقة لتقليص الانجراف". سلَّمَه رجل الإسعاف الذي في الجيش مظلّة الهبوط، التي وضعها على البدلة.

صرخَت ستيفاني فوق التوربينات: "يسرّني أن أراك تتصرّف بوعي".

"لا تقلقي سبق أن فعلْتُ ذلك".

قالت: "لستَ ماهراً في الكذب".

ارتدى غطاءً صوفياً. من حسن الحظ أنه غطّى وجهه بالكامل مثل لصوص المصارف. كانت نظّارات صفراء تحمي عينَيه.

حرَّكَ رجل الإسعاف يدَه، يسأله إذا كان جاهزاً.

أومأ برأسه.

كان باب الحجيرة مفتوحاً. تسلّل عبره هواء بارد. لبسَ قفّازاتٍ سميكة معزولة. سمع طقطقةً حين وضعَ مشبك الرافعة على البدلة.

عدَّ إلى الخمسة، ثمّ خرج.

55

شقَّ ثورفالدسن طريقه من شمال إلى غرب المنصّة المطوَّقة. مرَّ بجانب النوافذ التي على يمينه، تلك التي تكشف عن تمثالَين من الشمع يجسّدان غوستاف إيفل وتوماس إديسون، واللذَين صُمِّما بشكل يُظهرُهما وكأنهما يدردشان مع بعضهما في منطقة إيفل السابقة. كان الهدوء لا يزال يخيِّم على المكان. وحدها الرياح جاءَت لترافقه.

كان آشبي قد توارى عن الأنظار.

في منتصف الطريق، توقَّفَ ولاحظَ أن باب المخرج الزجاجي قد أُقفِلَ. عندما مرَّت المجموعة من هنا منذ بضع دقائق، كان الباب مفتوحاً. قبضَ على المسكة وجرَّب فتحه.

كان مُوصَداً.

لعلَّ أحد فريق العمل قد فعلَ ذلك من باب الحماية؟ ولكن لماذا؟ سوف يُفتَح البرج عمّا قريب للزائرين. فلِمَ إقفال أحد البابَين اللذَين يقودان إلى المنصّة العلوية؟

عادَ أدراجه إلى الناحية الشرقية حيث وقفَ الآخرون يتأمّلون المشهد. كان باب المخرج الثاني مُقفَلاً أيضاً. جرَّبَ مسكتَه.

كان موصداً أيضاً.

أصغى إلى إليزا لاروك وهي تُشير إلى بعض المعالم التاريخية. "هناك الأنفاليد، ربما على بُعْد ثلاثة كيلومترات. وهناك دُفِنَ نابليون. يبدو أن ثمة بلبلة قد حصلَت".

أبْصَرَ عربةً تحترق ببطء أمام الكنيسة، ناهيك عن عدد كبير من شاحنات الإطفاء ورجال الشرطة الذين انتشروا في كافة أرجاء الجادات التي تمتدّ من النصب التذكاري. سألَ نفسه عما إذا كان هناك علاقة لما كان يحصل علاقة بالبابَين المُوصَدَين. نادراً ما تكون الصدفة وليدة صدفة!

قالَ لإليزا، مُحاولاً لفتَ انتباهها: "سيّدة لاروك؟

"فنظرَت إلى وجهه.

"إن بابَي المخرج اللذَين يقودان إلى تَحْت مُوصدَين".

لاحظَ علامات الارتباك التي لاحَت على وجهها. "كيف يمكن ذلك؟"

قرَّر الإجابة على سؤالها بطريقة أخرى: "وثمّة خبر مُزعج أيضاً".

فرمقته نظرةً حادةً.

"إن لورد آشبي قد رحل".



وقفَ سام منتظراً على منصّة الطابق الأول وتساءل عمّا كان يحصل على ارتفاع خمس مئة قدم. فحين أخلى أفراد نادي باريس قاعة الاجتماعات وعاد فريق العمل لتحضير الغداء، كان قد ضاعَ وسط الفوضى.

همسَت ميغان في أذنه بينما كانا يرتّبان الفضّيات والصحون على طاولات العشاء: "كيف ذهب؟"

فتمتمَ قائلاً: "لدى هؤلاء الناس خطط كبيرة".

"هلّا أوضحتَ لي ذلك؟"

"ليس الآن. فلنكتفي بالقول إننا كنّا على حقّ".

أنهيا تحضير الطاولتَين. التَقَطَ دُفعة جذّابة من الخضار المطبوخة بالبخار ولحم البقر المشوي. كان جائعاً، ولكن لم يتسنَّ له الوقت للأكل في ذاك الحين.

أعادَ ترتيب الكراسي أمام كل صحن.

قالَت ميغان فيما يعملان: "لقد صعدوا إلى القمّة منذ نصف ساعة".

كان ثلاثة رجال أمن يراقبون الحاضرين. عرفَ أنه هذه المرّة لم يعد قادراً على البقاء في الداخل. كما رأى ردّة فعل هنريك ثورفالدسن بينما أدرك الدانماركي أن سام كان هناك. لا شك أنه تساءل عما كان يجري. لقد قيلَ له إن ثورفالدسن لم يكن على علم بحضور الأمريكي، وقد أوضحَت ستيفاني أنها أرادَت إبقاءَ ذلك سرّاً. سأل نفسه عن السبب، بيد أنه قرّر عدم مواصلة الجدال مع رؤسائه.

أشارَ كبير الحرّاس إلى أنه يجب على الجميع الانسحاب.

غادرَ مع ميغان عبر الأبواب الرئيسية مع الآخرين. انتظرا في المطعم المجاور أمْرَ العودة وأخذِ الصحون من على الطاولة. نظرَ إلى فوق، إلى مشبّك الحديد البنيّ اللون المائل إلى الرمادي. كان المصعد ينزل من الطابق الثاني من فوق.

لاحظَ أن ميغان قد رأته هي الأخرى.

تردَّدَ كلاهما عند السياج المركزي، قربَ مدخل المطعم، فيما أسرَعَ حضورٌ آخرون إلى الداخل هرباً من البَرْد.

توقّف المصعد في طابقهما.

فُتِحَت عربة في أقصى طرف المنصّة، وراء قاعة الاجتماعات، خارج حقل بصرهما. أدركَ سام أن عليهما التروّي لبعض الوقت قبل الشكّ في رئيس الحرّاس أو رجال الأمن، الذين عادوا إلى موضعهم السابق خارج أبواب غرفة الاجتماع.

وإذ بغراهام آشبي يظهر.

كان لوحده.

أسرَعَ إلى السلالم التي تُنزِله إلى الطابق الأرضي واختفى.

قالَت ميغان: "كان على عجلة".

وافقها الرأي. ثمّة خطب بلا شك.

فأمَرَها: "اتبعيه من دلهن أن يراك".

رمقته بنظرة متسائلة، متفاجئةً من قساوة صوته: "لماذا؟"

"افعلي ذلك فقط!"

لم يكن لديه وقت للجدل، ثمّ غادَرَ.

فسألته: "إلى أين أنت ذاهب؟"

"إلى الطابق العلوي".



لم يكن مالون قد سمع باب المروحية يَصْفَق بعنف خلفه، غير أنه أحسَّ بالرافعة تنحني. وضعَ ذراعيه على جانبيه، وانبطحَ رافعاً ساقَيه إلى فوق. كان إحساس السقوط مستبعداً بسبب مقبض السلك الصلب.

نزَلَ وانحرف إلى الوراء كما توقَّع رجل الإسعاف الذي في الجيش. كانت سكاي هوك ترفرف تحته بخمسين قدماً. ظلّت الرافعة ترخي السلك فتسلّق ببطء إلى أعلى الجناح.

هبَّ هواء بارد جداً وقرَسَ جسمه. وفَّرَت له بدلته وغطاء وجهه الصوفي بعض الحماية، بيد أن أنفه وشفتاه قد بدأت تتشقَّق من الجفاف.

وجَدَت قدماه الجناح.

ارتجفَت سكاي هوك لانتهاكه لها، إلا أنها سرعان ما استقرّت من جديد. واظبَ جهده وطلب مزيداً من الترخية فيما ناور باتجاه باب الحجرة على جانب الطيّار.

هبّ هواء بارد أفقَدَه توازنه وأرجحَ جسده على السلك.

تمسّكَ بالسلك وتمكّن من التأرجح من جديد باتجاه الطائرة.

ومرّةً أخرى تحرّكَ وأحسّ السلك يطول.

كانت سكاي هوك طائرةً عالية الجناح، تعتلي جُنَيْحاتها الهيكل، وتدعمها عواميد مائلة. ولكي يدخل فيها، كان سينزلق تحت جناحها. طلبَ من المروحية التباطؤ كي يتمكّن من النزول أكثر. بدا أن الطيّار قد عرفَ على البديهة ما الذي كان يجول في رأس مالون وانزلقَ ببطء حتى صار بمستوى نوافذ الحجرة.

نَظَرَ إلى الداخل.

كانت المقاعد الخلفية قد نُزِعَت في حين أن الحزَم التي كانت ملفوفةً بجرائد قد كُدِّسَت منِ فوق إلى تحتَ. كان جسمه يتعرّض للطمات، ومع أنه ارتدى نظّاراتٍ واقيةً، إلا أن الجفاف قد انتزع الرطوبة من عينيه.

طلَبَ مزيداً من الترخية وفيما أرخيَ السلك، أمْسكَ طرف اللوحة الناتئ وناورَ فوق العمود الداعِم، مُثَبِّتاً قدمه على وقاء عجلات الهبوط، ضاغطاً ثقل جسده بين العمود الداعِم والجناح. أخَلَّ وزنه الديناميكيا الهوائية للطائرة

ورأى الجُنَيْحات تتوازن.

ظل السِّلكُ يرتخي، ويدور تحت الطائرة، من ثمّ توقَّف. يبدو أن رَجُلَ الإسعاف الذي في الجيش أدركَ أنّ التوتر قد زال تماماً.

ألقى وجهه على نافذة الحجرة ونظرَ إلى الداخل.

كان قد وُضِعَ صندوق رمادي صغير على مقعد الركّاب. الْتَوَت الأسلاك إلى لوحة العدّادات. ركَّزَ مرّة أخرى على الحُزَم المغلّفة. نحو الأسفل، في الفسحة التي تفصل بين المقعدَين، كانت الأربطة مكشوفةً عاريةً، تكشف عن مادة باللون الأرجواني المزرقّ.

قدَّرَ أنها متفجرات من البلاستيك، ربّما من نوع سي 83.

هي مواد خارقة القوة بالفعل!

عليه أن يدخل إلى سكاي هوك، ولكن قبل أن يقرّر ما سيفعل، لاحَظَ أن ارتخاء السلك بدأ يتراجع. كانوا يعيدون رفعه إلى المروحية وقد أعاقَ الجناح قدرته على إعطاء إشارة "لا".

لم يعد بإمكانه الرجوع.

هكذا، قبل أن يسحبه السلك من مكانه، أرخى القفل ورمى المشبك، الذي واصل الصعود بصورة ثابتة.

تمسّك بالعمود الداعِم وبلَغَ مزلاج الباب.

فانفتحَ الباب.

أما المشكلة هنا فكانت الزاوية. فقد كان هو في المقدمة، والمفاصل على يساره، فيما ينفتح الباب باتجاه جبهة الطائرة. كان الهواء الموزَّع من الركن تحت الجناح يعاكسه، ويمنعه من فتح الباب.

وضعَ أصابع يده اليسرى المغطّاة بالقفّازات حول طرف الباب الخارجي، فيما لا تزال يده اليمنى قابضةً على العمود الداعم. في حدود حقله البصري، راقبَ المروحية وهي تخفف التوتّر من أجل إلقاء نظرة. نجحَ في فتح الباب متحدّياً الرياح، بيد أنه وجدّ أنّ مفاصله توقّفَت عند تسعين درجة، فلم تبقَ له إذاً مساحةٌ كافية لينزلق إلى الداخل.

لم تبقَ أمامه سوى طريقة واحدة.

أفلَتَ يده من العمود الداعم، وأمسكَ الباب بِكِلْتَي يديه، وأرجح جسمه إلى الداخل باتجاه حجرة القيادة. إن سرعة الهواء قد تغلّبَت فوراً على مفاصل الباب الموصدة، فيما خبطَت مظلة الهبوط التي كانت تلازمه في هيكل الطائرة، وإذا باللوحة المعدنية تُدخله إلى المدخل الرئيسي المفتوح. أمسَكَ أعصابه وأدخلَ بالتأنَي ساقه اليمنى، ثمّ ثنى باقي جسمه في حجرة القيادة. من حسن حظّه أن مقعد الطيّار كان ممدَّداً بالكامل.

صفقَ الباب وتنفّس الصعداء.

أخذَت عارضة الطائرة تدور يميناً ويساراً.

حدَّدَ على لوحة العدّادات جهاز تعيين الوجهة. كانت الطائرة لا تزال في طريق شمالي غربي. بدا أنّ مراقبة الحركة الجوية كانت متوفّرةً عن طريق خريطةً متحرّكة كاملة ضمن نظام تحديد الموقع العالمي "جي بي أس"، افترضَ أنها مرتبطة بالطيّار الآلي؛ "بيد أن الغريب في الأمر هو أن الطيّار الآلي كان قد فُصِلَ.

أبصَرَ الحركة من طرف عينه والتفَتَ ليرى المروحية تقترب من طرف الجناح الأيسر. في نافذة الحجرة، كانت هناك إشارة حملَت أرقاماً. كانت ستيفاني تُشيرُ إلى سمّاعة رأسها وتؤشّر إلى الأرقام.

فهمَ ما تريد.

كانت وحدة أجهزة راديوهات سكاي هوك على يمينه. فأشغلَها ووجدَ التردد للأرقام التي أشارَت إليها. نَزَعَ عن وجهه الغطاء الصوفي، ووضعَ سمّاعةً وميكروفون على رأسه وقال: "هذه الطائرة مُحمَّلة بالمتفجّرات".

قالَت: "هذا ما أردْتُ سماعه بكل بساطة".

أضافَ دانيلز في أذنه قائلاً: "فلننزلها على الأرض".

"الطيّار الآلي مطفأ".

فجأةً، انحرفَت سكاي هوك إلى اليمين. لم تكن حركةً سريعةً عادية، بل تغيير طريق بأكمله. راقبَ العارضة تدور إلى الأمام، من ثمّ إلى الوراء، والدوّاسات تعمل تلقائياً، ضابطةً الدقّة ضمن مناورة شديدة الانعطاف.

وإذا بانعطاف حاد آخر، فأشارَ نظام تحديد الموقع العالمي "جي بي أس" إلى أن الطائرة قد غيّرت طريقها، فصار اتجاهها يميل أكثر إلى الغرب، وعلا ارتفاعها إلى ثمانية ألف قدم، فيما ناهزت سرعة الهواء 185 كيلومتراً في الساعة.

فسألَت ستيفاني: "ماذا يحصل؟"

"إن لهذا الشيء، طريقة تفكير خاصة به. كان انعطافاً حاداً بستين درجة".

قالَ دانيلز: "كوتون، لقد احتسَبَ الفرنسيّون طريقك. مباشرةً باتجاه الأنفاليد".

مستحيل! فقد أخطؤوا! كان قد حدَّدَ نقطة نهاية هذه المغامرة، متذكِّراً ما سقَطَ من كيس متجر سلفريدج في الليلة الماضية.

نظرَ من الزجاج الأمامي وحدَّدَ الهدف في البعيد.

"تلك ليسَت وجهتنا. إن هذه الطائرة ذاهبة إلى برج إيفل".

56

دنَت إليزا من الباب الزجاجي وجرَّبَت المزلاج.

نظرَت إلى الأسفل عبر اللوحة الزجاجية السميكة ورأت أنّ قفلاً داخلياً كان قد أُوصِدَ. يستحيل أن يكون ذلك وليد صدفة.

قال ثورفالدسن: "إن ذاك الذي في الجهة الأخرى موصد أيضاً".

لم تَرُقْ لها نبرة الدانماركي المدروسة المتعمَّدة، التي أوحَت بأن ذلك لا يُفترَض به أن يشكِّل مفاجأةً.

انعطف أحد الأعضاء الآخرين إلى يسارها. "لا يوجد سبيل آخر للنزول من هذه المنصّة، ولم أرَ أي حجرة هاتف للعموم".

في الأعلى، قربَ قمّة القفص، لَمَحَت حلّ المشكلة: نظام مراقبة عن طريق الشاشة، كاميرا صوّبت عدساتها نحوهم. "لا شكّ أن أحداً من رجال الأمن يراقب. يجب علينا، بكل بساطة، أن نجذب انتباههم".

قال ثورفالدسن: "أخشى ألّا يكون الأمر بهذه السهولة".

نظرَت إلى وجهه، خاشيةً ما قد يقوله، إنما داريةً بما سيجري.

قال: "مهما كان مخطط آشبي، فهو قد أخذَ بالتأكيد ذلك بعين الاعتبار، إلى جانب كون بعض منّا سيحمل هاتفه الخاص. يلزمنا بضع دقائق للوصول إلى هناك. فمهما كان الحدث الذي ينتظرنا، سوف يحصل قريباً".



أحسَّ مالون الطائرة تنزل. صوَّبَ عينَيه على جهاز قياس الارتفاعات.

7 آلاف قدم والهبوط مستمر.

"ما الذي...".

توقّف السقوط فجأةً عند 5600 قدم.

قالَ في السمّاعة: "أقترح إرسال تلك الطائرة المقاتلة في هذا الاتجاه؟ ربما يجب إسقاط هذه الطائرة ". نظرَ إلى الأسفل، حيث المباني، والطرقات

والناس. "سوف أفعل ما بوسعي لتغيير المسار".

قال دانيلز: "قيلَ لي إنه سيكون لديك مُرافِق للطائرة المقاتلة بعد ثلاث دقائق على الأكثر".

"فكّرتُ أنّك قلت إنّ هذا لم يكن خياراً فوق المناطق السكنية".

"إن الفرنسيين مولعون قليلاً ببرج إيفل. ولا يأبهون فعلاً...."

"بي؟"

"أنت قلتها وليس أنا!"

بلغَ مقعد الركّاب، والتقَطَ الصندوق الرماديّ وتفحّصه من الخارج. كان جهازاً إلكترونياً أو ما شابه، مثل حاسوب محمول لم يُفتَح. لم يَرَ أي مفتاح كهربائي. فانتزَعَ سلكاً مُرشِداً إلى جهة الخروج، إنما لم يتمكن من حلّه. فقذَفَ الصندوق؛ وبكلتَي يدَيه، فكّ الوصْلة عن لوحة العدّادات. ومَضَت شرارة كهربائية تلتها خبطة عنيفة فيما اهتزَّت الطائرة يميناً ثمّ يساراً.

رمى السلك جانباً وبلَغَ عارضة الطائرة.

مدّ قدمَيه إلى الدواسات وحاول استعادة توازنه، غير أن حافة الجُنَيْح والدفّة كانتا خامِدَتين وتابَعَت سكاي هوك باتجاه شمالي غربي.

سألَت ستيفاني: "ماذا حصل؟"

"قتلتُ دماغ الطائرة، أو أحد أدمغتها على الأقل. ولكنّ هذا الشيء لا يزال دائراً. ويبدو أن أجهزة التحكّم لا تعمل".

التقَطَ العمود من جديد وحاولَ الانحراف إلى اليسار.

خبطَت الطائرة بينما كانت تقاوم سيطرته. سمعَ تغييراً ملحوظاً في صوت المروحة. كان قد قاد ما يكفي من الطائرات الأحادية المحرّك ليعرف ما إذا كان تغيّر الصوت يشير إلى عطل ما.

فجأةً، انتفَضَت مقدمة الطائرة وبدأت سكاي هوك تصعد.

وصَلَ إلى دوّاسة البنزين وحاول إيقاف الطائرة، ولكنها ظلّت ترتفع. أشارَ جهاز قياس الارتفاعات إلى 8000 قدم حين هبَطَت مقدّمة الطائرة أخيراً. لم يعجبه ما كان يحصل. كانت سرعة الهواء تتغيّر بمعدّلات مفاجئة لا يمكن

توقّعها. كانت أسطحة التحكّم متقلّبة ومتذبذبة هي أيضاً. كان بإمكانه إيقافها بسهولة، وذاك كان آخر ما يحتاج إليه مع مجموعة من المتفجّرات فوق باريس.

نظرَ إلى الأمام.

على هذا المجرى وفي هذه السرعة، كان بعيداً عن البرج دقيقتَين على الأكثر.

سأل أيّاً من مستمعيه: "أين تلك الطائرة المقاتلة؟"

"قالَت ستيفاني: "انظر إلى يمينك!"

أبْصَرَ طائرة اعتراض جوّي من طراز "تورنادو" ترفرف فوق جناحه، مع صاروخين جو- جو مركبتين على بطنها.

سألَ: "أنتِ على اتصال معه؟"

"إنه تحت أمرك".

"قُولي له أن يستعدّ".

تراجَعَت طائرة تورنادو وأعادَ تركيزه على الطائرة الهائجة.

قال لستيفاني: "أخْرِجي تلك المروحية من هنا".

التقطَ عارضة الطائرة.

همس لها: "حسناً يا عزيزتي، سوف يؤذيكِ ذلك أكثر مني بكثير".



بحثَ ثورفالدسن في سماء باريس. كان غراهام آشبي قد واجه صعوبةً كبيرةً لإيقاع نادي باريس بأكمله في الفخّ. شرقاً، كان رجال الشرطة والإطفاء لا يزالون يطفئون الحرائق في الأنفاليد.

جابَ حول المنصّة، غرباً وجنوباً.

فرأى الطائرات: طائرة أحادية المحرّك تتبعها هليكوبتر عسكرية على مقربة منها، وطائرة مقاتلة نفّاثة تغيّر اتجاهها وصاعدةً إلى فوق.

كانت الطائرات الجوية الثلاث قريبةً بما يكفي للإشارة إلى وجود عطل.

انجرفَت المروحية، مفسحة المجال للطائرة الأحادية المحرّك، تتأرجح على أجنحتها.

سمعَ الآخرين يقتربون من ورائه، بمن فيهم لاروك.

فقال: "إن مصيرنا وشيك".

تأمَّلَت السماء الزرقاء الصافية. كانت الطائرة تهبط، وكانت دعامتها مصوّبةً مباشرةً إلى المنصة التي يقفون عليها. لاحظَ وميض معدنٍ تحت نور الشمس، فوق وخلف المروحية والطائرة.

الطائرة النفّاثة العسكرية.

قال بهدوء: "يبدو أن أحداً يعالج المشكلة".

بيد أنه أدركَ أن إسقاط الطائرة ليس بخيارٍ عمليّ.

فتساءَل: كيف سيُحدَّد مصيرهم يا ترى؟



لوى مالون العمود بشدّة إلى اليسار وأمسكه مقاوماً قوّةً شديدةً تجبره على العودة إلى المركز. فقد ظنّ أن الصندوق الرمادي يقود الطائرة، ولكن، على ما يبدو، حدَثَ تغيير كبير في سكاي هوك. كان رأس آخر يتحكّم بالأمور في مكان ما، لأنه مهما كان يفعل، فقد ظلّت الطائرة على المسار.

أشغلَ دوّاسات الدفّة وحاول استعادة بعض التحكّم، إلا أن الطائرة أبَت الاستجابة.

كان واضحاً أنه في طريقه إلى برج إيفل. افترضَ أن جهاز إرشاد آخر قد أُخفيَ هناك، تماماً كما في الأنفاليد، الإشارة غير المقاومة لسكاي هوك.

قالَ: "قولي لطائرة تورنادو أن تجهّز صاروخها، وأبعِدي تلك المروحية اللعينة".

قالَت ستيفاني: "لن أحطِّم تلك الطائرة وأنتَ في داخلها".

"لم كن أعرف أنك تهتمين لأمري إلى هذه الدرجة!"

"هناك أشخاص كثيرون تحتك".

ابتسمَ إذ كان يعرف ذلك أكثر منها. ثمّ خطرَت على باله فكرة. إذا تعذّر التغلّب على الأجهزة الإلكترونية التي تتحكّم بالطائرة، ربما سيُضلّلان لتخفيف قبضتهما.

تمكّن من إيقاف المحرّك وفصل المروحة.

وصَلَت آلية دفع الطائرة إلى طريق مسدود وتعطَّلَت.

فسألته ستيفاني في أذنه: "يا للجحيم! ماذا حصل؟"

"قرّرتُ قطع الدم عن الرأس".

"هل تعتقد! أن أجهزة الكمبيوتر قد تنفصل؟"

"إذا لم تفعل، نكون أمام مشكلة خطيرة".

نظرَ إلى الأسفل إلى نهر السين الرمادي المائل إلى البنّي. كان الارتفاع يتقلّص. ومن دون أن يزوّد المحرّك أجهزة التحكّم بالطاقة، ارتخت المروحة إنما ظلّت دائرةً. أشار جهاز قياس الإرتفاع إلى 5000 قدم.

"سوف يكون هذا قريباً".



خرجَ سام من المصعد في قمة البرج. لم يجد أحداً عند منصّة المراقبة المُسيَّجة. قرّرَ أن يتباطأ وأن يتوخّى الحذر. إذا كان قد أخطأ بشأن آشبي، يكون عليه تقديم تفسير ما. كان يعرّض نفسه لخطر إلا أنّ شيئاً ما قد قال له إن ذلك يستحق المخاطرة.

نظرَ عبر النافذة إلى الخارج، شرقاً بداية، ثمّ شمالاً فجنوباً.

رأى طائرة تقترب بسرعة،

إلى جانب هليكوبتر عسكرية،

وبحذرٍ أيضاً. يا للجحيم!

ثبَّتَ أحد السلّمين المعدنيّين اللذَين يقودان إلى منصة المراقبة العلوية. كان باب زجاجي في الطابق العلوي مقفلاً وموصداً. راقَبَ المزلاج في الأسفل. لا مجال لفكّه من دون مفتاح. قفزَ فوق شبكات معدنية، ثلاث دفعة واحدة، وعَبَرَ الغرفة وجرَّبَ الطريق الآخر الذي يقود إلى فوق.

الشيء نفسه!

لكمَ الباب الزجاجي السميك.

كان هنريك في الخارج.

ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً.



راقبَت إليزا المروحة تتوقف عن الدوران وارتفاع الطائرة يتقلّص. كانت الطائرة على بعد أقلّ من كيلومتر ولا تزال تقترب في طريق مستقيم.

قال أحد أعضاء النادي: "الطيّار مجنون".

قال ثورفالدسن بهدوء: "يبقى أن نرى ذلك".

أثَّرَت فيها جرأة الدانماركي وهدوء أعصابه. كان مرتاحاً تماماً، بالرغم من خطورة الوضع.

سألها روبرت ماسترورياني: "ما الذي يحصل هنا؟ لم أنضم إلى المجموعة لأتعرض لذلك".

التفَتَ ثورفالدسن ونظر ليواجه الإيطالي: "يبدو أنه قُدِّر لنا أن نموت".



كافح مالون لأجهزة التحكّم.

قالَت ستيفاني على جهاز الإرسال: "أعِد تشغيل المحرّك!"

"إنني أحاول".

وَصَل إلى المفتاح الكهربائي. خشخشَ المحرّك ولكنه لم يدر. حاول من جديد، فدار فاشتغل.

كان ينزل، وكانت قمة برج إيفل تبعد أقل من ميل.

مرّةً أخرى، دوى المحرّك بضربة واحدة، فيما كانت المروحة الدوّارة تولِّد سرعة الهواء. لم يعطِ الأجهزة الإلكترونية وقتاً للتجاوب، بل دفع دوّاسة البنزين إلى أقصى سرعة. أخذ يميل الأجنحة، ويحرف الطائرة في الريح، وعَبَرَ البرج، مشاهداً الناس واقفين في القمّة، ودالّاً على طريقه.

57

راقَبَ سام الطائرة الصغيرة تقترب. دفعَ الباب الزجاجي المُقفَل ونزل السلالم، ثمّ هرول إلى نوافذ المراقبة الجنوبية. مرّت الطائرة مُحدِثةً زئيراً. كانت المروحية تلاحقها ملاحقة شديدة.

فُتِحت أبوابُ المصعد وخرج منها رجالٌ يرتدون زيّاً موحّداً.

كان أحدهم رئيس الأمن الذي سبق أن التقى به.

قال لهم: "الأبواب التي تقود إلى الطوابق العلوية مقفلة. نحتاج لمفتاح".



ركَّزَ ثورفالدسن على حجرة القيادة في السيسنا التي مرّت أمامه، على بُعْد مئات من الكيلومترات. احتاج لثانية واحدة فقط للتعرّف إلى وجه الطيّار:

كوتون مالون.



قال مالون: "إنني أتحكّم بها".

كان ارتفاعه يتصاعد. قرّرَ أن يستقرّ عند 3000 قدم.

قال: "كان ذلك وشيكاً".

قالَت ستيفاني: "هذا تبصُّر. هل من تجاوب؟"

"أحتاج لمطار".

"إننا ننظر لنرى ما يمكن أن نجد".

لم يشأ أن يخاطر بالهبوط في مطار أورلي أو شاول ديغول. "يجب أن أجد حقلاً صغيراً في مكان ما. ماذا أمامي؟"

"ما إن تتجاوز المدينة التي لا تبعد سوى بضع أميال عن هنا، قيلَ لي إنّ هناك غابة ومستنقع، يوجد حقل في كريتاي، وآخر في لاغني، وآخر في تورنان".

"كم تبلغ المسافة للوصول إلى حقل مكشوف؟"

"عشرون ميلاً".

تفقَّدَ وقوده. أشارَ العدّاد إلى خمسين ليتراً، فالصهريج كامل تقريباً. يبدو أن الشخص الذي خطَّط لذلك، أيّاً كان، أرادَ مقداراً كبيراً من البنزين لمساعدة ال-سي -83.

قالَ لستيفاني: "حاولي أن تجِدي لي مَدْرجاً. يجب أن تكون هذه الطائرة على الأرض".

"في الأمام مهبط خاص للطائرات في إيفري. إنه معزول، لا شيء فيه. إننا ننذرهم بإخلاء المنطقة. كيف حال الطائرة؟"

"مثل امرأة مروَّضة".

"هذه أمنيتك".

فجأةً، فرقَعَت المروحة.

نظَرَ خارج الزجاج الأمامي، ما بعد غطاء المحرّك، وشاهدَ المروحة وكأنها تتوقّف.

ولوحده أصدر المحرك شرارةً ودارَ من جديد.

التوى عمود التحكّم عن قبضته بينما مالَت الطائرة إلى أقصى اليمين. دوى المحرّك بأعلى سرعة للطائرة تقريباً، وانتشرَت الجنيحات. كان شيء ما، أو أحدٌ ما، يحاول استعادة السيطرة.

سألت ستيفاني: "ما الذي يحصل؟"

"أفترضُ أن هذا الشيء لم يحبّ ملاحظتي المُزدَرية. له طريقة تفكيره الخاصة".

التوى في المقعد بينما ثبتت حجرة القيادة، ثمّ مضَت الطائرة إلى اليسار. لعلّ أجهزتها الإلكترونية قد تشوَّشَت، فيما كان جهاز الإرسال والاستقبال يبحث عن الإشارة التي كان يتبعها للوصول إلى برج إيفل.

سعَت سكاي هوك إلى الارتفاع وبدأت تصعد، ولكنها سرعان ما توقّفت. قاومَ هيكل الطائرة بعناد كالحصان. ارتجّت العارضة ارتجاجاً قوياً. وتخبّطَت

دواسات الدفّة.

"لن ينجح ذلك. قولي لتلك الطائرة المقاتلة أن تستعدّ لإطلاق النار. سوف أرفع هذا الشيء قدر المستطاع، ثمّ سأقفز من الطائرة بالمظلّة. قولي له أن يعطيني فرصة ضئيلة قبل أن يطلق النار".

لأول مرة، لم تجادله ستيفاني.

أمالَ مقدّمة الطائرة مباشرةً إلى فوق. دفَعَ الجنيحات للارتداد، وتمسَّك بقوّة مُلزِماً سكاي هوك بالصعود رغماً عنها. بدأ المحرّك يعمل، مثل سيّارة تصارع منحدراً شاهقاً.

ركَّزَ عينيه على جهاز قياس الارتفاعات: 4000 قدم، 5000، 6000.

انسدَّت أذناه.

ارتأى أن ارتفاع 8000 يجب أن يكون كافياً، وعندما تخطّى العدّاد هذه العلامة، أفلتَ قبضته. وبانتظار أن تثبت الطائرة، نزعَ سمّاعات الرأس ووضع من جديد الغطاء الصوفي على وجهه. لم يكن متشوّقاً للدقائق القادمة.

وَصَلَ إلى المزلاج وفتَحَ الباب.

تسلَّلَ هواء بارد وهو يحاول فتح اللوحة. ومن دون أن يعطي نفسه وقتاً للشعور بالخوف، استدار محاولاً أن يدفع نفسه بقدمه بعيداً عن جسم الطائرة.

كان قد قفزَ مرّتين فقط من الطائرة؛ مرّةً في مدرسة الطيران، ومرّةً أخرى في العام الماضي فوق صحراء سيناء، غير أنّه تذكَّر ما علّمته إيّاه البحرية حول فقدان الوعي: عليكم أن تقدِّموا ظهوركم، وأن تمدّوا ذراعَيكم وساقَيكم. لا تدعوا جسمكم يفقد توازنه. لم يكن يحمل جهاز قياس الارتفاعات وقرّرَ تخمين سقوطه الحرّ بالعدّ. كان عليه أن يفتح المظلة حول ارتفاع 5000 قدم. بلغَت يده اليمنى صدره وبحَثَ عن حبل إطلاق المظلّة. لا تنتظر أبداً، هكذا حذّره مدرّبه مراراً وتكراراً، ولوهلة مرعبة عجزَ عن إيجاد المَسْكة، ولكن بعدئذٍ، التفَّت أصابعه حول الحلقة.

نظرَ إلى فوق وراقبَ سكاي هوك تواصل رحلتها المتقلّبة، بحثاً عن هدفها، فيما كان محرّكها يفرقع، وارتفاعها يتغيّر باستمرار.

بدا له الوقت بطيئاً بينما كان يسقط عبر هواء الشتاء.

كانت صورة فنية من حقول وغابات ممتدةً تحته. أخذَ لمحة عن المروحية على يمينه بما أنها أبقته تحت نظرها.

وصلَ إلى العشرة في عَدَّه وشدَّ الحبل بقوّة.



سمعّت إليزا وقع خطواتٍ والتفَتَتَ لترى رجال الأمن مندفعين من حول زاوية السطح.

سأل رئيس الأمن: "هل الجميع بخير؟"

طأطأت رأسها قائلةً: "نحن بخير. ما الذي يجري؟"

"لسْنا أكيدين. يبدو أن أحداً قد أقفل الأبواب التي تقود إلى المنصة العلوية وأن طائرةً صغيرةً قد تحطّمَت في هذا الموقع".

بكل بساطة، إن كلّ ما سمعَتْه أكَّدَ ما سبق أن أوضحه ثورفالدسن.

حدّقت بالدانماركي.

بيد أنه لم يكن يبدي أي انتباه. بدلاً من ذلك، كان الرجل المتقدم في السنّ واقفاً عند حافة المنصة ويداه في جيبَي معطفه، يتأمّل ما وراء السياج، نحو الجنوب حيث تفجَّرَت الطائرة في السماء. كان الطيّار قد غادر قُبَيل الحادثة بالضبط، وهو الآن ينزل بواسطة مظلّة محاطاً بهليكوبتر مُبقيةً نظرها عليه.

كان ثمّة خطب هنا.

أبعد بكثير من خيانة غراهام آشبي.



انفتحت المظلّة ورفعَ مالون ناظريه إلى الحبل على أمل عدم وجود أي تشابك فيه. وعلى الفور، استُبدِلت دفعة مجنونة من الرياح بلوحة قماش فيما التقطت المظلة الهواء. كان لا يزال عالياً، على الأغلب على ارتفاع يفوق ال- 5000 قدم، بيد أنه لم يُبالِ، انفتح ذاك الشيء وإذا به الآن يسقط برفق نحو الأرض.

على بعد نحو ربع ميل، راقبَ أثر صاروخ وتبع مسلكه. بعد برهة، اشتعلَت كرة نارية في السماء، مثل نجمة تمرّ بمرحلة النجم المستعر فيما ال- "سي-83" دمّرَت سكاي هوك.

أكّد الانفجار الكبير شكوكه.

إن هذه الطائرة كانت هي المشكلة.

مرَّت طائرة تورنادو بسرعة في الأعالي، فيما ظلّت المروحية على بعْد ميل تتبعه وهو ينزل.

حاول أن يقرّر أي مكانٍ أفضل للهبوط. أمسك الوصلات ودفع المظلّة المستطيلة نحو الأسفل، معزِّزاً سرعة هبوطه.

بعد ثلاثين ثانية، لاقت قدماه حقلاً محروثاً وانحنى على الأرض. عبقت في مناخيره رائحة عفونة أرض محروثة. ولكن، قلّما تهمّ الرائحة الكريهة. الأهم هو أنه ما زال على قيد الحياة.



حدَّقَ ثورفالدسن بالمظلّة النائية. لا ضرورة للتظاهر بعد الآن. لقد كُشِفَت حقيقة غراهام آشبي، كذلك الأمر بالنسبة إلى مالون. إن ما حدث للتوّ قد ورَّط الحكومات، مما يعني أن مالون كان عميلاً لستيفاني، أو للفرنسيين، أو للإثنين.

وأن هذه الخيانة لن تمرّ دون حساب.

الجزء
الرابع

58

نزل آشبي السلالم متوجِّهاً إلى الطابق الأرضي. فقد قدّر الوقت اللازم لهروبه، مدركاً بأنّ أمامه بضعة دقائق ثمينة فقط. وكانت خطّته تقضي بأن يعبر جادة غوستاف إيفل وأن يشقّ طريقه عبر "شامب دي مارس"، باتجاه ساحة جاك رويف، مركز أرض الاستعراض السابقة. في الشرق، كانت سيارة تنتظر في جادة ج. بوفار وفي داخلها كارولين. كان عليه أن يوضح لها بعض المسائل، آخذاً بعين الاعتبار ما على وشك أن تراه، بيد أن أكاذيبه كانت جاهزةً.

ظلّ ينزل السلالم.

كانت صفقته مع بيتر لايون واضحةً. لم يتعهّد قط بتحقيق مطلب لاروك، وهو تحطيم طائرة في كنيسة الدوم وتنفيذ عمليتَي هجوم متزامنتَين في أفينيون وبوردو. عوضاً عن ذلك، كان آشبي قد حصرَ الترتيبات في نطاق باريس فقط، معدِّلاً الهدف صَوبَ برج إيفل. لم يفهم قط نيّة لاروك، ومع ذلك، بعد سماع عرضها في وقت سابق، صار يقدِّر بعضاً من نقاطه.

ربما يكون الرعب نافعاً، على ما يبدو.

وصلَ إلى آخر مجموعة من الدرجات. كان لاهثاً مقطوع الأنفاس، إنما مسروراً بوجوده على أرض صلبة. قال لنفسه أن يهدأ ويمشي على مهل. كان هناك ذكور كثيرون تلوح عليهم مظاهر الرجولية، ويلبسون زيّاً عسكرياً مموَّهاً ويحملون أسلحةً ناريةً أوتوماتية، يقومون بدوريّة على الرصيف. تحت القاعدة الحديدية، كان مئات الناس واقفين في صفوف طويلة ينتظرون افتتاح المصاعد عند الساعة الواحدة بعد الظهر.

للأسف، لن يحصل ذلك في هذا اليوم.

قد يُمحى برج إيفل عن وجه الأرض بين لحظة وأخرى.

في نسخته المعدّلة عن خطة إليزا لاروك، كان قد اتفق مع لايون على جعل الأنفاليد نقطة تضليل، ووسيلة لبثّ أكبر قدر ممكن من الارتباك. لطالما قيلَ للايون إنّ البرج هدفه الأولي. لم يكن بحاجة ليعرف أنّه سوف يقضي على كامل أعضاء النادي الباريسي، بمن فيهم لاروك. لا يهم. وما همّ لايون؟ لم

يفعل سوى تقديم خدمات طلبها منه زبون. وآشبي هو زبون بالنسبة إلى لايون. إن التفسير الذي قدّمه للأمريكيين عن سبب عدم تواجده مع الآخرين في القمة كان واضحاً؛ فقد أعفَتْه لاروك من باقي اجتماع اليوم، وأرسلَتْه في مهمّة.

من يستطيع أن يناقضه؟

مرَّ تحت القنطرة الجنوبية الشرقية وخرج من البرج. ظلّ يمشي وهو يعدّ الثواني في رأسه. نظرَ إلى ساعته. كانت الثانية عشرة ظهراً.

لم تكن لديه أدنى فكرة من أين كانت الطائرة آتية. كل ما كان يعرفه أنّها قد تصل إلى هنا في أي لحظة.

عَبَرَ جادة غوستاف إيفل ودَخَلَ إلى شامب دي مارس.

كان صافي الذهن، فحاول الاسترخاء. كان بيتر لايون من أكثر المجرمين خبرةً في العالم. لا شكّ أن الأمريكيين كانوا متورّطين، إنما لن يقتربوا أبداً من لايون. والآن، والمأساة على وشك أن تنتشر، سيكون عليهم التعاطي مع مسائل إضافية كثيرة. كان قد أبلغَ عن الأنفاليد، وقد حافظ على دوره في المساومة. فالسيارة المشتعلة التي رآها أمام كنيسة الدوم كانت بلا شكّ جزءاً من عرض لايون الذي وفَّرَ كذلك الحجّة الفضلى للأمريكيين. كان لايون قد غيَّرَ خطّته. على ما يبدو، لقد خدَعَ الأفريقيُّ الجنوبي الجميعَ، بمن فيهم نفسه أيضاً.

وما هي النتيجة الأخيرة؟

سوف يتحرّر من الأمريكيين ومن إليزا لاروك، واذا سارت الأمور جيّداً، سوف يحتفظ بكافة إيداعات النادي وسوف يعثر على كنز نابوليون المخبّأ الضائع، والذي سيُبقيه أيضاً لنفسه.

إنـها مكافأة بالفعل!

سوف يكون والده وجدّه فخورَين.

ظلّ يتمشّى منتظراً الانفجار ومتحضّراً للاستجابة للحادثة كأي مُتفرِّج مصدوم.

سمِعَ أزيز طائرةٍ يعلو أكثر فأكثر.

سمعَ أيضاً خبطة المحركات الغليظة.

أهي طوّافة؟

توقَّفَ، والتفتَ، ونظرَ إلى السماء، فشاهدَ طائرةً أحادية المحرّك تميل أجنحتها بشكل متعامد تقريباً مع الأرض، أعلى من منصة الطابق الثالث ببضع مئات من الأمتار.

تبعتها مروحية عسكرية كانت تطاردها مطاردةً شديدة.

فتحَ عينين واسعتين مذعورتَين.



خرَجَ ثورفالدسن من المصعد مع باقي أعضاء النادي الباريسي. كان الجميع قد عادوا إلى منصة الطابق الأول. لم يقدِّم رجال الأمن الذين فتحوا الأبواب الزجاجية في الأعلى أي تفسير يوضح لهم كيف أصبحَت موصَدة. إلا أنه كان يعرف الجواب: كان غراهام آشبي قد خطط لقتل جماعي آخر.

شاهَدَ الآخرين يشقّون طريقهم إلى غرفة الاجتماعات. كان معظم الأعضاء يرتجفون، إنما حاولوا إظهار ثقتهم بأنفسهم. تعمَّدَ ألا يحتفظ بتعليقاته لنفسه في القمّة، وقد رأى ردّة فعل الآخرين إزاء تحليلاته بشأن غراهام آشبي. كما لاحظَ غضبَ لاروك منه ومن آشبي على حدٍّ سواء.

وقَفَ قرب الدرابزين الخارجي، وقد وضع يديه الملتفّتين بقفّازات في جيب معطفه. وشاهد لاروك تسير باتجاهه.

قالَ لها: "انتهى وقت الإدّعاء بيننا. ما عدتُ أطيق صبراً على مسايرتك والمزاح معك".

"أهذا ما كنت تفعله؟"

"لقد حاول غراهام آشبي أن يقتلنا جميعاً".

"أعرف ذلك. كان ضرورياً مشاركة هذه الأفكار مع الجميع؟"

هزَّ كتفَيه لا مبالياً وقال: "عليهم أن يعرفوا ما الذي أُعِدَّ لهم. ولكنني أتساءل ما الذي كنتِ تخططين له؟ لم نصعد إلى فوق للاستمتاع بالمنظر فقط".

رمقَتْه بنظرة غريبة محيّرة.

"لا يحق لك أن تفكّر جدياً أنني كنتُ طرفاً من جنونك. إنها أفكار سبق أن أبعدْتَها. كّل هذا جنون!"

بدَت في آن واحد مذهولةً، ومذعورةً، ونافرةً، ومفتونةً بسخطه.

أوضحَ لها: "جئتُ من أجل غراهام آشبي. استخدمتُكِ لأكون بالقرب منه. في البداية، فكَّرْتُ أن ما كنتِ تدبّرينه يستحقّ أن يوضَع له حدٌّ. ربما. ولكنني ما عدتُ أبالي. ليس بعد ما حاول غراهام آشبي فعله".

"أؤكِّد لك يا هاري ثورفالدسن أنني لستُ شخصاً يُستخَفّ به أو يُهزأ به. وسوف يتأكَّد لورد آشبي من ذلك عمّا قريب".

قال بنبرةً باردةً: "سيدتي، دعيني أوضح لك أمراً. يُفترَض بك أن تكوني ممتنَّةً إذ لم تعد لدي أية مصلحة في إيذائك. لو فعلتُ، لكنتُ ردعتك. ولكني لا أبالي! فهذا ليس شأني! مع أن لديك الكثير من المشاكل. فأولاً آشبي. وثانياً، الحكومة الأمريكية. إن تلك الطائرة، قد قادها عميل إدارة عدل سابق اسمه كوتون مالون. وإن رئيسه، من الإدارة نفسها، هنا أيضاً، وأفترض بأنه يعرف بالضبط ما الذي تفعلينه. لم تعد خططك سرّية بعد الآن".

أدار ظهره للانصراف.

فأمسكته بذراعه وقالت له: "من تظنّ نفسك؟ لستُ شخصاً يسهل الانصراف عنه؟"

أطلق العنان للغضب الذي كان يعتريه. إن هَول كل ما حصل قد صعقه بقوّة. واذ شاهد الطائرة تقترب أكثر فأكثر من قمة البرج، أدركَ أن افتقاره للتركيز كاد يكلّفه هدفه النهائي. فمن جهة، كان مسروراً لأن مالون قد أوقف الطائرة. ومن جهة أخرى، اكتشافه المروّع لغدر صديقه قد آلمه أكثر مما كان ليتصوّر.

كان عليه إيجاد مالون، وستيفاني، وآشبي، وإنهاء الأمور. لم يَعُدِ النادي الباريسي جزءاً من المعادلة. كذلك الأمر بالنسبة إلى هذه المرأة المثيرة للسخرية التي رمقته بنظرات مليئة بالحقد والكره.

قال لها وهو يشدّ على أسنانه: "اتركي ذراعي".

لم تفلت ذراعَه.

فسحَبَ يده محرراً نفسه، وأمَرَها قائلاً: "ابقي بعيدةَ عن طريقي".

"لكأنني أتلقّى منك الأوامر".

"هذا أفضل لك، إذا كنتِ تريدين البقاء على قيد الحياة. لأنك إن تدخّلتِ في أموري بأي شكل من الأشكال، فسوف أقتلك".

قال لها ذلك وانصرفَ.



لمحَ آشبي السيارة التي كانت كارولين جالسةً في داخلها عند المنعطف. كان السير مزدحماً في الشوارع الموازية لشامب دي مارس. فُتِحَت أبواب السيارات وأشار الناس إلى السماء.

انحسَرَت موجات القلق في نفسه.

كان بحاجة لأن يكون بعيداً.

لم تحطّم الطائرة برج إيفل. إنّ أسوأ ما في الأمر هو أن إليزا لاروك قد أدركَت الآن أنّه حاول أن يقتلهم كلّهم.

أنّى لها أن لا تدرك ذلك؟

ما الذي حصل؟ هل خانَه لايون؟ كان قد دفع النصف الأول من الرسوم المُغتَصَبة. كان يجب على الأفريقي الجنوبي معرفة ذلك. لماذا لم يكن بإمكانه تأدية المهمة؟ لا سيما باعتبار أنّ شيئاً قد حصل بوضوح في كنيسة الدوم، وقد تصاعد الدخان من الشرق مما أكَّد أن لسنة النيران لا تزال تلتهب هناك.

وكانت هناك مسألة الدفعة المتبقية أيضاً.

ثلاثة أضعاف الرسوم الاعتيادية. قدر هائل من المال اللعين.

دخل إلى السيارة.

جلسَت كارولين في المقعد الخلفي المواجه له، فيما كان السيد غيلدهول جالساً في المقعد الأمامي، مقعد القيادة. كان بحاجة لإبقاء غيلدهول على مقربة منه.

سألته كارولين: "أرأيتَ كم كانت تلك الطائرة قريبةً من البرج؟"

"أجَلْ".

كان مسروراً لعدم اضطراره لتقديم مزيد من التفسيرات.

"هل انتهى عملك؟"

كان يأمل ذلك! فقال: "نعم، للوقت الراهن". ثم حدَّقَ بوجهها المبتسم، وسألها: "ما هذا؟"

فقالت: "لقد حَلَلْتُ لغز نابليون".

59

تمدَّدَ مالون على العشب الذي كان الشتاء قد برّده محوّلاً إياه إلى قشّ بنيّ وراح يراقب هبوط الطوافة. فُتِحَ باب الحجيرة الخلفية ووثَبَت منه ستيفاني، وتبعها رجل الإسعاف. فكَّ سرجَ المظلّة ولامسَت قدماه الأرض. لاحظَ القلق الذي كان واضحاً في عينيها، آملِةً أن يكون بخير.

تحرّرَ من المظلّة. "قولي للفرنسيين إننا متساوون".

فابتسمَت.

قال: "أفضل حتّى. قولي لهم إنهم مدينون لي".

شاهَد رجل الإسعاف يجمع أطراف المظلّة المنتفخة.

قال: "لايون متعجرف بالتأكيد، وها قد راح يتباهى أمامنا. لقد كان مستعداً للظهور في الأبراج الصغيرة في لندن، ولم يبذل أي جهد لإخفاء عينيه الكهرمانية اللون. في الواقع، لقد خرج عن عاداته لكي يواجهني. كان سيربح على جميع الأحوال. فإن أوقفنا الطائرة، يُقحم آشبي في الموضوع. وإن فوَّتْنا الطائرة، يجعل الزبون مسروراً. أشكّ في أن يكون قد اكترث فعلاً للنتيجة النهائية"، ممّا يفسِّر الهجومات المضلِّلة في الأنفاليد والطائرات الأخرى. وكان يعرف ذلك. "علينا إيجاد آشبي".

قالَت: "ثمّة مشكلة أكبر. عندما عبرنا قمة البرج، رأيتُ هنريك".

"كان يُفترَض به أن يكون قد رآني في حجرة القيادة تلك".

"هذا ما فكرتُ به تحديداً!"

لفَتَ رجل الإسعاف انتباه ستيفاني، وأشار إلى جهاز الإرسال الذي كانت تحمله في يدها. فخطَتْ مبتعدة، وتحدّثت في اللاسلكي ثمّ عادَت بسرعة.

قالَت وهي تشير إلى الطوافة: "لقد أحدثنا خرقاً لديهم. لقد قاسوا الإشارات التي أُرْسِلَت إلى تلك الطائرات. ولدينا بيّنات الموقع على الأرض".



كان سام قد ترك الاجتماع لمهمة أمنية وفتح أبواب المخرج لمنصة المراقبة، متنبّهاً لتعليمات ستيفاني التي قالت له إنه لا ينبغي عليه أن يساوم. عادَ إلى المنصة الأولى قبل أن ينزل أعضاء النادي الباريسي ويدخلوا من جديد إلى غرفة الاجتماعات. راقَبَ إليزا لاروك وهنريك يتواجهان. ومع أنه لم يتمكّن من سماع ما كانا يقولانه، لم يصعب عليه أن يشعر بما بينهما من توتّر، لا سيما وأن هنريك قد نزعَ يدها عن ذراعه. لم يسمع شيئاً من ستيفاني ولم يجد سبيلاً للعودة إلى غرفة الاجتماعات، لذا قرّرَ أن يغادر.

حاول أحدهم تحطيم طائرة في برج إيفل، وأوشك على النجاح. من الواضح أن القوات العسكرية كانت على علم بالأمر، بما أن الطوافة كانت تحوم حول الطائرة.

كان عليه الاتصال بستيفاني.

أرخى ربطة العنق حول رقبته وفكّ زرّ قميصه الأعلى. كانت ثيابه ومعطفه في مركز الشرطة، تحت برج الإرشاد الجنوبي، حيث بدَّلَ وميغان ملابسهما.

استراحَ في مركز منصة الطابق الأول المفتوح ونظرَ إلى الناس في الأسفل. كان المئات ينتظرون في صفّ طويل. لا شكّ أن تفجيراً يحدث فوقهم بتسع مئة قدم هو أمرٌ مروّع. ما يثير الاهتمام هو أن السلطات لم تعمل على إخلاء الموقع. في الحقيقة، سادَ هدوء مميَّز مكان الفوضى الآتية من فوق. لكأنّ شيئاً لم يحصل. أحسّ بأن ستيفاني نيلي لها دور في ذلك القرار.

تنحّى عن الدرابزين واستخدم المصاعد المعدنية لينزل إلى الطابق الأرضي. كان هنريك ثورفالدسن قد رحل، وقرّر سام عدم مواجهته. لم يكن بإمكانه ذلك، على الأقل ليس هنا!

في نصف طريق النزول، ارتجّ هاتفه الخليوي في جيبه.

كانت ستيفاني قد أعطَت واحداً له وآخر لميغان، مُبَرمِجةً أرقام كلٍّ منهما، إلى جانب أرقامها، في الذاكرة.

وجَدَ الجهاز وردّ على الهاتف.

قالَت ميغان: "أنا في سيارة أجرة، أتبع آشبي. كنتُ محظوظةً لأجد واحدة. لقد ركضَ إنما توقّف بما يكفي من الوقت ليشاهد الطائرة التي كانت تطير. لقد

كان مصدوماً يا سام".

"كلنا كذلك".

"ليس هذا ما أقصده". عقدت المفاجأة لسانها. "لقد صُدِم بإخفاقها".



راحت إليزا تنظر إلى وجوه المجموعة في حين أنّ أفكاراً متضاربةً عديدةً كانت تتخبّط في ذهنها مما صعّبَ عليها التركيز.

سأل أحد أعضاء النادي: "ما الذي حصل هناك؟"

"إن رجال الشرطة يفتّشون، ولكن يبدو أن ثمة عطل قد طرأ على الطائرة. من حسن الحظ أن المشكلة قد حُلَّت في الوقت المناسب".

"لماذا كانت أبواب المخرج موصدةً؟"

لم يكن بإمكانها أن تقول لهم الحقيقة. "من المفترَض أن نعرف الجواب قريباً".

"ما الذي قصده السيد ثورفالدسن بقوله إن تلك الطائرة كانت مصيرنا؟ هل كان الموت قد قُدِّر لنا؟ وهل اللورد آشبي متورِّط في المسألة؟"

كانت خائفةً من التساؤلات. "على ما يبدو، ثمة عداوة خاصة بين اللورد آشبي والسيد ثورفالدسن، عداء لم أعلم به إلا مؤخراً. بسبب هذا الحقد، طلبْتُ من السيد ثورفالدسن أن يسحب عضويته، ووافقَ. لقد اعتذرَ عن أي خوف أو إزعاج ربما كان قد سبَّبَه".

قال روبرت ماسترويانى: "هذا لا يُفسِّر ما قاله على ذاك الرصيف".

"أظنّ أن مخيّلته هي التي كانت تتحدّث آنذاك. فهو يكنّ حقداً شخصياً للورد آشبي".

لم يبدُ العضو الأحدث في النادي راضياً.

"أين آشبي؟"

ومرّة جديدة، فَبْركَت كذبة أخرى. "لقد غادرنا بناء على طلبي لتولّي مسألة أخرى في منتهى الأهمية. قد يعود، وربما لا، لحضور باقي الاجتماع".

لاحظَ أحدهم: "هذا ليس ما قلته لنا في قمة البرج. لقد أردتِ أن تعرفي أين كان".

فكَّرَت في نفسها أن هؤلاء الرجال والنساء ليسوا أغبياء. فقَالت لنفسها: لا تُعامليهم كما لو كانوا كذلك. وقالَت: "كنتُ أعرفُ أنه سوف يغادر، ولكنني بكل بساطة لم أدرك أنه كان قد غادَر".

"إلى أين ذهب؟"

"ذهبَ يبحث عن الكنز الذي أخبرتُكم عنه، تلك الثروة التي لا تُقدّر. إن لورد آشبي يفتّش عنه، وقد اكتشف معلوماتٍ جديدة. في وقت سابق، قدّم اعتذاره كي يتمكن من استكشاف كل الاحتمالات الواردة".

أبقَت صوتها هادئاً وجازماً، بما أنها قد تعلّمَت منذ زمن بعيد أن المهم ليس فقط ما نقوله بل أيضاً طريقة تعبيرنا عنه.

سأل عضو آخر: "هل سنتابع؟"

كان سؤاله مفاجئاً. "بالتأكيد، ولِمَ لا؟"

قالَ ماسترورياني: "أصحيح أننا كدنا نُقتَل جميعنا؟"

كان عليها أن تخفّف من خوفهم، والطريقة الفضلى لإزالة المخاوف تكمن في التركيز على المستقبل. "أنا واثقة أن كلّ واحد منكم يواجه الخطر في كل يوم. ولهذا تحديداً نحن هنا: بهدف تقليص ذلك الخطر. لا يزال لدينا الكثير لنناقشه، وملايين كثيرة من اليورو لنحقّقها. ما رأيكم لو نركّز جهودنا ونستعد ليوم جديد؟"



جلسَ مالون في حجيرة الطوافة الخلفية واستمتَع بحرارة السخّان.

سمع ستيفاني تقول عبر سمّاعته: "إن الإشارة المُرسَلة إلى الطائرات نابعة عن سقف مجاور لنوتردام. في جزيرة سانت لويس، الواقعة خلف الكاتدرائية. وضعَت شرطة باريس المبنى تحت المراقبة. استخدمنا مراكز مراقبة الناتو لتحديد الموقع".

"هنا يطرح السؤال ذاته".

رأى أنها فهمَت ما يجري.

قالَت: "أعرف. إنه أمرٌ سهل للغاية! اللعنة! إن لايون متقدّم عنّا بخطوتين كاملتَين. إننا نتابع طيفه".

"أفهم ذلك، ولكن هذا كل ما لدينا".



نزلَ سام من سيارة الأجرة ودفعَ للسائق. كان قد علق في زحمة السير في الشانزيليزيه، في قلب منطقة تجارية عالية الدخل تضمّ أمثال لويس فيتون، وهيرمس، وديور، وشانيل. كان قد تبع تعليمات ميغان وإذ به يقف أمام فندق الفور سيزون (الفصول الأربعة) المؤلّف من ثمانية طوابق من طراز هندسة العشرينيات.

ألقى نظرةً حوله، ولمخ ميغان عبر الشارع. لم يتسَنَّ له الوقت ليبدّل ملابسه، مع أنه كان قد خلَعَ معطفه وملابسه قبل مغادرة برج إيفل. كان لا يزال مرتدياً زيّ النادل، ذاك القميص وذاك البنطال الفضفاض. كما أحضَرَ معه ثياب ميغان.

قالَت له وهي ترتدي المعطف: "شكراً".

كانت ترتجف. صحيح أنّ الجوّ كان بارداً، بيد أنّه كان يتساءل إذا ما كان هناك سبب آخر. وضَعَ يده على ظهرها ليهدّئها، وقد قدَّرَت مبادرته.

سألته: "هل كنتَ في الطابق العلوي؟"

طأطأ رأسه.

"اللعنة! كان ذلك قريباً، يا سام!"

وافقها الرأي ولكن ذلك قد انتهى الآن. "ماذا يحصل هنا؟"

"دخلَ آشبي وجماعته إلى الفندق".

"أتساءل ماذا يُفترَض بنا أن نفعل الآن".

بدَت وكأنها تتأهَّبُ مَحَاولةً استرجاع قوّتها وشجاعتها. سارَت نحو زقاق ضيّق بين مبنَيين. "فكِّر بالأمر يا شرلوك فيما أبدّل ملابسي".

ابتسمَ لثقتها بنفسها، باحثاً هو أيضاً عن بعض الثقة. إن الاتصال بستيفاني

أو مالون لن يحلّ الإشكالية. فتعليماته تفرض ألا يتبع أحداً. لا شكّ أن ستيفاني نيلي لم تتوقع أن تحدث عملية ارتطام طائرة ببرج إيفل. لقد فعل ما وجده الأنسب، وحتى هذه اللحظة لم يُكْشَف أمره.

أو ربما لا.

ربما رآه ثورفالدسن في غرفة الاجتماع، إلا أنّ أحداً لم يذكر أن الدانماركي سوف يكون هناك.

لذا اتَّخَذَ قراراً.

والقرار هو استشارة الرجل نفسه الذي كان قد طلب منه الاستشارة.



قفَزَ مالون من الطوافة فيما هبطَت خلف نوتردام على العشب الأخضر. انتظرهم قائد شرطة مرتدياً البدلة إلى أن توقفت ريش المروحية عن الدوران.

قالَ الشرطي لستيفاني: " لقد كنتِ على حقّ. فقد أكَّدَ صاحب المبنى أن رجلاً ذا عينين كهرمانيتَين قد استأجر شقةً في الطابق الرابع وقد دفع عن ثلاثة أشهر مسبقاً".

فسألت: "هل المبنى آمن؟"

"لقد طوّقناه، وبصورة خفيّة كما طلبتِ".

من جديد، أحسّ مالون بالتحفظ غير المريح الذي بدا يجمعه وستيفاني. ليس من شيء جيّد في ذلك. مرّةً أخرى، لم يبذل لايون أي جهد لحجب آثاره.

لم يعد مرتدياً بدلة الطيران الوسخة، بل لبس سترته الجلدية واستعاد البيريتّا. فباشرَ بخيار ضئيل.

"فَلنرَ ما الذي في جعبة هذا الحقير هذه المرّة".

60

جلَسَ آشبي في أحد أجنحة فندق "فور سيزون" الملكّية.

ثم قال لغيلدهول آمراً: "أحضرِ آل مورايز إلى هنا. أريدهم في فرنسا قبل حلول الليل".

راقَبَته كارولين بعينين بدتا وكأنهما تسبران أغوار أفكاره. كان وجهه أحمر ومنتفخاً بسبب البرد إنما أيضاً بسبب أعصابه المشدودة، وكان صوته مرهقاً ومبحوحاً.

فسألَت: "ما الخطب، يا غراهام؟"

أرادَ أن يكسب هذه المرأة كحليفة له، فقدَّم لها جواباً فيه شيء من الحقيقة. "ثمّة ترتيب قد ساء وضعه. أخشى أن تغضب مني السيدة لاروك، لدرجة ترغب معها في أذيّتي".

هزت كارولين رأسها: "ماذا فعلتَ؟"

فابتسَم: " أحاولُ بكل بساطة التخلّص من قبضة الآخرين التي لا تنفكّ عني".

سمحَ لعينيه أن تلقيا نظرة متفحّصة إلى ساقَيها الممشوقتين وتضاريس خصرها. إن مجرّد التفرّج على هذه الخطوط الرائعة الخالية من أي شائبة حرَّرَ ذهنه من المشكلة، ولو لبرهة قصيرة.

أضافَ قائلاً: " لا يمكنكِ لومي على ذلك. أخيراً عادت المياه إلى مجاريها. بكل بساطة أردتُ إنهاء المسألة مع إليزا. إنها مجنونة، كما تعرفين".

"إذاً تريد آل مورايز؟ والسيّد غيلدهول؟"

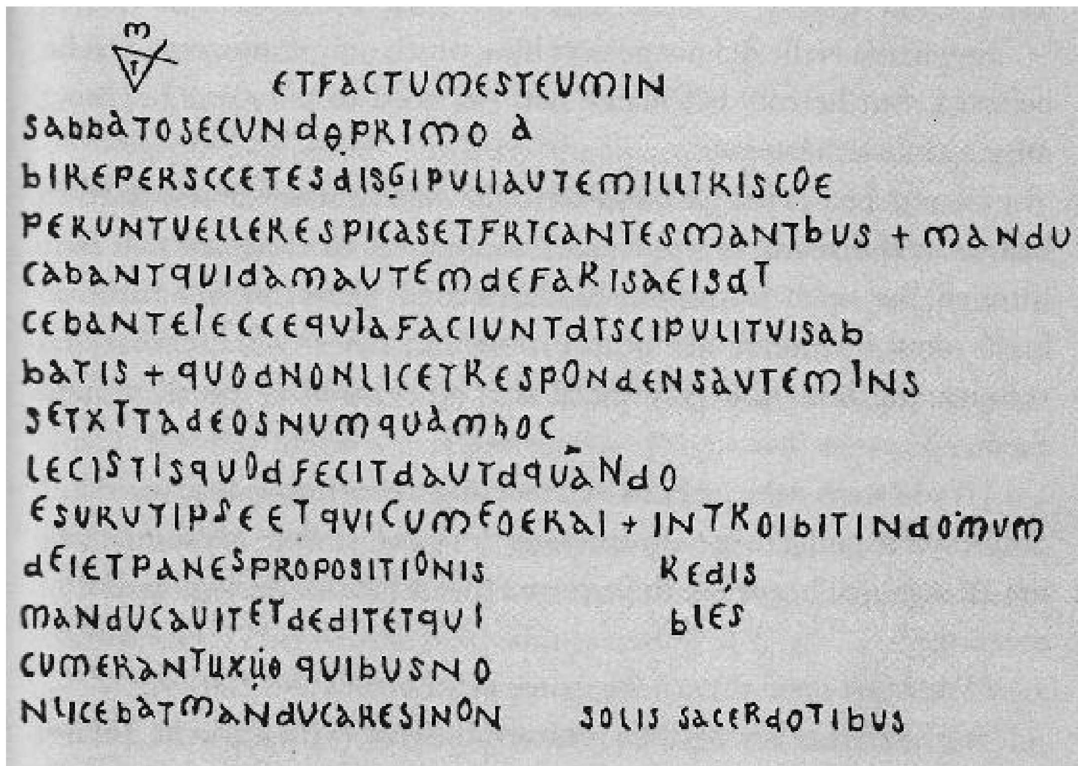
"وربما مزيداً من الرجال. سوف تستشيط تلك الساقطة غضباً".

"فلنقدِّم لها إذاً شيئاً يثير غضبها بالكامل".

كان بانتظارها لتشرح له ما وجدَتْه.

وقَفَت وسحَبَت حقيبةً من الجلد من على كرسي قريب. في الداخل، وجَدَت

قطعة ورق كُتِبَ عليها أربعة عشر سطرٍ من رسالة أَخِذَت من الكتاب الميروفنجي، بخط يد نابوليون نفسه.



ETFACTUMESTEUMIN
SABBATOSECUNDEPRIMO A
BIREPERSCCETESDISCIPULIAUTEMILLIRISCOE
PERUNTUELLERESPICASETFRICANTESMANIBUS + MANDU
CABANTQUIDAMAUTEMDEFARISAEISDT
CEBANTEIECCEQUIAFACIUNTDISCIPULITUISAB
BATIS + QUODNONLICETRESPONDENSAUTEMINS
SETXTTADEOSNUMQUAMHOC
LEGISTISQUODFECITDAUTDQUANDO
ESURUTIPSEETQUICUMEOERAT + INTROIBITINDOMUM
DEIETPANESPROPOSITIONIS REDIS
MANDUCAUITETDEDITETQUI BLES
CUMERANTUXUO QUIBUSNO
NLICEBATMANDUCARESINON SOLIS SACERDOTIBUS

قالتَ: " إنها تماماً مثل تلك التي وجدناها في كورسيكا. تلك الرسالة ذات الكتابة المنقوشة التي كشفَت عن المزمور 31 بخط يد نابوليون أيضاً. عندما سطّرتُ على الأسطر، أصبحَت واضحةً".

أخرجَت مسطرةً وأرَتهُ إياها.

لاحظَ فوراً أحرفاً أعلى من أخرى.

"ماذا يعني ذلك؟"

أعطته ورقةً أخرى، ورأى جميع تلك الأحرف المنقوشة.

BERTROIETASIOESTCETRESORETILESTLAMORT

قالَت: "لم يكن صعباً تشكيل الكلمات. كل ما يلزمنا هو إضافة بعض الفراغات بينها".

ثمّ عرَضَت ورقةً أخرى.

A DOGOBERT ROI ET A SION EST CE TRESOR

ET IL EST LA MORT

ترجَمَ الفرنسية: "الكنز يخصّ الملك داغوبيرت وسيون وهو هناك مَيت". ثمّ هزَّ كتفه متشائماً: "ماذا يعني هذا؟"

ارتسمَت ابتسامةٌ عريضةٌ ماكرةٌ على شفَتيها المُغيرِيَتَين.

"الكثير!"



دخَلَ مالون إلى المبنى والسلاح في يده وصعدَ السلالم.

تبعته ستيفاني.

انتظرَته شرطة باريس في الخارج.

لم يكن أيّ منهما متأكداً مما ينتظرهما، فكلّما قلَّ عدد المشاركين في العملية، كان أفضل! كان التطويق يتحوّل بسرعة إلى مشكلة، لا سيما باعتبار أن المَعْلمَيْن الوطنيَّين قد تعرّضا لهجوم وأنّ النار قد أُطلِقَت على طائرات من السماء. كان الرئيس دانيلز قد أكّد لهما أنه سوف يكون على الفرنسي التعاطي مع الإعلام. التركيز على إيجاد لايون، ذاك كان أمْره.

وصلا إلى الطابق الرابع ووجدا باب الشقّة التي كان الرجل صاحب العينين الكهرمانيتين قد غادرها، بعد أن أعطاهما صاحب المبنى المفتاح.

وقفَت ستيفاني في أحد الجوانب والمسدس في يدها. أحنى مالون جسده إلى الجانب المعاكس واتّكأ على الباب. لم يتوقّع أن يجيب أحد، فأدخلَ المفتاح في القفل، وأدار المقبض، وأرجحَ الباب نحو الداخل.

انتظَرَ بضعة ثواني، ثمّ نظر حول عضاضة الباب.

كان من الواضح أن الشقة خاليةٌ. لم يكن فيها سوى شيء واحد: حاسوب محمول مُلقى على الأرضية الخشبية، وشاشته مواجهة لناحيتهما، وعدّاد يتكتك:

دقيقتين، 1:59، 1:58.



كان ثورفالدسن قد اتصل بمالون على هاتفه الخليوي سبع مرّات، ولكن اتصاله كان يُحوَّل في كلّ مرّة إلى البريد الصوتي. وفي كل مرة يفشل فيها في التقاطه، يزداد غمّه.

كان بحاجة للتحدث إلى مالون.

والأهم هو أنه كان عليه إيجاد غراهام آشبي. لم يأمر محقّقيه بتعقّب البريطاني بعد مغادرته إنكلترا صباح يومذاك. افترضَ أن آشبي سوف يكون تحت أنظاره في برج إيفل، حتى وقت متأخر من فترة بعد الظهر. قبل ذلك الحين، يكون رجاله في فرنسا قد استعدّوا للرحيل.

بيد أن آشبي كان قد أعَدّ خطّةً أخرى.

جلسَ ثورفالدسن لوحده في غرفته في فندق ريتز. ما العمل الآن؟ أحسّ بضياع شديد. كان قد خطّط بدقّة، متوقعاً كل شيء تقريباً، باستثناء القتل الجماعي للنادي الباريسي. إنه أمر مبتكر. سيقرُّ لآشبي بذلك. لا بد أن إليزا لاروك في حالة اضطراب. لقد أضحَت الخطة التي أمَرَت بتنفيذها في حالة فوضى. على الأقل، أدركَت أنه لطالما قال الحقيقة بشأن سيّدها البريطاني الجدير بالثقة كما زعمَت. الآن، لدى آشبي شخصان يتمنّيان موته.

هذا ما جعله يعيد التفكير بمالون، وبالكتاب، وبمراد.

هل عرف البروفسور شيئاً؟

رنّ هاتفه الخليوي.

ظهرت على الشاشة عبارة "رقم خاص"، إلا أنه أجابَ.

كان سام كولنز. قال له: "هنريك، أحتاج لمساعدتك".

أراد أن يعرف ما إذا كان كل من حوله يكذب. "ما الذي كنتَ تفعله؟"

ظلَّ الطرف الآخر على الخط صامتاً. أخيراً قال سام: " لقد توظَّفْتُ لدى دائرة العدل".

سُرَّ لسماع ذلك الشاب يقول الحقيقة. فعامَلَه بالمِثْل: "رأيتك في برج إيفل، في قاعة الاجتماع".

"فكّرتُ في أنك قد تراني".

"ما الذي يحصل يا سام؟"
"إنني أطارد آشبي".
كان أفضل نبأ سمعه. "من أجل ستيفاني نيلي؟"
"ليس تماماً. إنما لم يبقَ أمامي خيار آخر".
"أعندك سبيل للاتصال بها؟"
"لقد أعطتني رقماً مباشراً، لكنني تردّدتُ بالاتصال بها. أردتُ التحدّث إليك أولاً".
"أخبِرْني أين أنتَ؟"



اقترَبَ مالون من الحاسوب المحمول فيما راحت ستيفاني تفتّش غرفتي الشقّة الباقيتَين.
فصرخَت: "إنهما خاليتان".
جثَا على ركبتيه. تابعَت الشاشة تعداد الدقائق والثواني، وهي على وشك إعلان الدقيقة. انتبه إلى بطاقة معلومات مُدرجة في منفذ جانبي، مصدر الاتصال اللاسلكي بشبكة الإنترنت. في الجزء الأيمن في أعلى الشاشة، أشار مؤشّر البطّارية إلى 80%. لم يكن الجهاز قد أُشعِل منذ وقت طويل.
41 ثانية.
سألت ستيفاني: "ألا يفترض بنا أن نغادر؟"
"عرفَ لايون أننا سنأتي. تماماً كما في الأنفاليد، لو كان يريد قتلنا لأمكنه ذلك بطرق أسهل".
28 ثانية.
"أتدركين أن بيتر لايون حقير سافل؟"
19 ثانية.
قال لها فيما كانا كلاهما يراقبان الشاشة: "لقد اتّصلَ هنريك سبع مرّات".
فقالت: "يجب التعامل معه".

"أعرف".

12 ثانية.

تمتمَت: "لعلّك مخطئ في قولك إنّه لا توجد قنبلة هنا".

9 ثواني.

"لقد أخطأْتُ من قَبْل".

6 ثواني.

"هذا ليس ما كرّرْتَه في محكمة الشرف".

ثم ظهرَت على الشاشة: 5، ثمّ 4، 3، 2، 1.

61

انتظَرَ آشبي تفسيرَ كارولين. من الواضح أنها كانت تستمتع بوقتها.

قالتَ: " إن كان لا بدّ من تصديق الأسطورة، فإنّ نابوليون وحده كان يعرف مكان كنزه. لم يَبُح بهذا السرّ إلى أي أحد نعرفه. ما إن أدركَ أنه سوف يموت في جزيرة القديسة هيلانة، حتى اضطرّ للكشف عن ذاك المكان لابنه".

أشارَت إلى الأسطر الأربعة عشر من الكتابة. "الكنز يخصّ الملك داغوبيرت وسيون وهو هناك مَيت. الأمر في منتهى السهولة".

ربما لشخص يحمل عدة شهادات جامعية في التاريخ، إنما ليس له!

"كانَ داغوبيرت ميروفنجياً قد حكَمَ في الجزء الأول من القرن السابع. لقد قام بتوحيد الفرنجة وجعل من باريس عاصمته. كان آخر ميروفنجي يمارس أي سلطة حقيقية. بعد ذاك، أمْسى الملوك الميروفنجيّون حكّاماً عاجزين عديمي الجدوى ورثوا العرش منذ الصغر، وعاشوا لفترة طويلة تكفي لتوليد وريث ذكوري. تبقي السلطة الحقيقية في أيدي العائلات النبيلة".

كان فكره لا يزال منشغلاً ببيتر لايون وإليزا لاروك والتهديد الذي يشكّلانه. أراد أن يتصرّف وليس مجرّد الاستماع. بيد أنه فكّر في نفسه أنه ينبغي عليه التحلّي بالصبر. لم يسبق لها أن خيّبت آماله.

"بنى داغوبيرت البازيليك في سانت دينيس، في شمال باريس. وكان أول ملك يُدفَن هناك ". صمتَت برهةً ثمّ تابعَت: "وهو لا يزال هناك".

حاولَ أن يتذكّر قدر المستطاع تلك الكاتدرائية. شُيِّدَ المبنى لأول مرّة على قَبْر سانت دينيس، وهو أسقف محلّي استُشهِدَ على يد الرومان في القرن الثالث، وهو موقَّر لدى الفرنسيين. كان مبنىً استثنائياً فريداً من نوعه من حيث البناء والتصميم، ويُعتبَر أحد أمثلة الهندسة القوطية الأولى على وجه الأرض. تذكَّرَ شخصاً فرنسياً كان يعرفه يقول متباهياً إنّ أعظم مجموعة للنصب الجنائزية الملَكيّة موجودة هناك. وكأنه مهتمّ! ولكن ربما يُفترَض به ذلك! لا سيما أنه قَبرٌ مَلَكي مميّز.

أوضَحَت قائلة: "لا يعرف أحد إن كان داغوبيرت قد دُفِن حقاً هناك". إنّ المبنى قد شُيِّد لأوّل مرّة في القرن الخامس. حَكَمَ داغوبيرت في منتصف القرن السابع. وهَبَ قسماً كبيراً من ثروته في سبيل تحسين البازيليك التي اعتُبرَ في القرن التاسع مؤسسها. في القرن الثالث عشر، كرّسَ له الرهبان مأوىً جنائزياً على شرفه".

"هل داغوبيرت هناك أم لا؟"

قالَت لا مباليةً: "وما همّنا؟ إن هذا المأوى لا يزال يُعتَبَر قَبْر داغوبيرت، حيث هو ميت".

فهم مقصد كلامها. "هذا ما كان يُفترَض لنابوليون أن يصدّقه؟"

"لا يمكنني أن أرى أنه كان في مقدوره أن يفكر سوى بذلك".



حدَّق مالون إلى الحاسوب المحمول والكلمة الوحيدة المعروضة بالأحرف الكبيرة، والموكَّدة بثلاث علامات تعجب.

بوووووووم!!!

قالَت ستيفاني: "هذا مثير للاهتمام".

"كان لايون مُولَعاً بالقنابل".

تغيّرَت الشاشة وإذا برسالة جديدة تظهر:

ما الذي يقوله الأمريكيون؟

كل يوم تأخير، دولار بالناقص.

ربما في المرّة القادمة.

قالَ: "الآن، تفاقم الأمر". بيد أنه رأى أكثر من مجرّد إحباط في عيني ستيفاني وعرَفَ بم كانت تفكّر.

لا النادي الباريسي. لا لايون. لا شيء.

قال: "ليس الأمر بهذا السوء!"

بدا وكأنها قد لحظَت الوميض في عينه. "هل من شيء يجول في خاطرك؟"

أومأ برأسه. "طريقة لنلتقط طيفه أخيراً!"



حدَّق آشبي بصورة نصب داغوبيرت الجنائزي التي وجدتها كارولين على الإنترنت. كان الذوق القوطي مسيطراً على تصميمه المليء بالحركة.

قالَت: " إنه يُجسّد أسطورة جون الناسك. فقد أبصرَ في منامه أن الشياطين قد سرقوا روح داغوبيرت، وأخيراً انتزعها كلٌّ من القديسين دينيس، وموريس، ومارتن من قبضتهم".

"وهذا يكمن داخل البازيليك في سانت دينيس؟"

طأطأت رأسها. "بجوار مذبح الكنيسة الرئيسي. لقد أفلَتَ بطريقة ما من غضب الثورة الفرنسية. قبل 1800، كان كلّ عاهل تقريباً يُدفَن في سانت دينيس. إلا أنّ معظم القبور البرونزية كانت قد ذوِّبَت خلال الثورة الفرنسية، فيما الباقي منها قد تحطمَ وتكدّس في حديقة خلف المبنى. كانت بقايا كلّ ملك بوربوني تُرمى في حفرة في مقبرة مجاورة".

ذلك الثأر الوحشي جعله يُفَكِّر بإليزا لاروك. "ينفّث الفرنسيون عن غضبهم بمنتهى الجدّية".

قالَت: " أوقَفَ نابوليون تخريب الممتلكات وأعاد الكنيسة إلى حالتها الأصلية. ومرّةً أخرى، جعلها مقبرة إمبراطورية".

لاحظَ المعنى. "كان إذاً متآلفاً مع البازيليك؟"

"إن الصلة الميروفنجية تجذب، بلا شك، انتباهه. ميروفنجيّون عديدون مدفونون هنا، بما فيهم داغوبيرت، بحسب رأيه".

فُتِحَ باب الجناح وظهرَ غيلدهول من جديد. ومن مجرّد طأطأة رأس خفية، فَهِمَ آشبي أن آل مورايز في طريقهم. سوف يكون في حالة أفضل إن كان محاطاً بموالين. لا بدّ من فعل شيء إزاء إليزا لاروك. لم يكن بإمكانه الالتفات باستمرار إلى الوراء، متسائلاً ما إذا كانت في ذلك اليوم إلى صفّه. ربما يستطيع عقد صفقة؟ كانت قابلةً للتفاوض. بيد أنّه سبق أن حاول قتلها، وهذه حقيقة باتت تعرفها حتماً. لا يهمّ! سوف يعقد صفقةً معها لاحقاً.

"حسناً، ماذا يحصل حين نزور سانت دينيس؟"

"ماذا لو أجبتُ على السؤال ما إن نصبح هناك؟"

"هل عندك جواب؟"

"أعتقد ذلك!"



خرَجَ ثورفالدسن من سيّارة الأجرة ولمحَ سام وامرأةً واقفَين في الشارع. وضَعَ يدَيه العاريتَين في جيب معطفه، وقطع الطريق. كان السير خفيفاً في الجادة الثلاثية الخطوط، وكانت جميع المتاجر المجاورة الفاخرة مقفَلةً بمناسبة عيد الميلاد.

بدا سام قلق البال. قدَّمَ فوراً المرأة وأوضَحَ من تكون.

قالَ: "يبدو أنكما كلاكما متورّط في مشكلة؟"

قالَت ميغان موريسون: "لم يكن أمامنا خيارات كثيرة".

سأل مشيراً نحو الفندق: "هل آشبي في الداخل؟"

طأطأ سام رأسه: "ما لم يكن قد قرّر المغادرة عبر مخرج آخر".

حدَّقَ عَبْر فندق فور سيزون، وسأل نفسه عمّا تراه يكون المخطط التالي.

قالَ سام: "هنريك، كنْتُ في قمّة البرج.

صعدْتُ بعدما نزلَ آشبي. إن تلك الطائرة كانت متجهة نحو النادي، ليس كذلك؟"

أومأ برأسه. "بالفعل، هذا صحيح. ماذا كنتَ تفعل فوق؟"

"جئتُ كي أراك".

جعلَتْه هذه الكلمات يُفكِّر بكاي. كان سام ليكون في سنّ كاي تقريباً، لو أنه عاش. إن أشياء كثيرةً في هذا الأمريكي قد ذكَّرَتْه بابنه. ربما لهذا السبب لم ينجذب نحوه. الحب الذي في غير موضعه، وسائر التفاهات النفسية التي قبل عامَين لم تعنِ له شيئاً.

الآن استنفده ذلك.

ولكن، عبر غيوم المرارة الكثيفة التي تلبّدت بها كل فكرة، لا يزال بإمكانه سماع صوت ضعيف للعقل، الذي طلب منه مرّةً أن يتروّى ويفكّر. فنظرَ في وجه سام وقال: " منَعَ كوتون حدوث تلك المصيبة. كان يقود الطائرة".

لاحظَ تلك النظرة المتشككة في عينَي الشاب.

"سوف تدرك أنه وستيفاني هما الأكثر دهاءً وسِعَة حيلةٍ. من حسن الحظ أنّهما كانا يقودان العملية".

صمَتَ برهةً ثمّ تابع: " كذلك الأمر بالنسبة إليك، على ما يبدو. إن ما قمت به لعمل شجاع، وأنا أقدّر لك ذلك".

ثمّ جاء إلى موضوع زيارته: "قلتَ لي أنّ عندك طريقة للاتصال بستيفاني نيلي؟"

طأطأ سام رأسه.

سألته ميغان: "أتعرفها؟"

"عملنا معاً عدّة مرّات. هي أحد معارفي".

من الواضح أن المرأة الشابة لم تُبدِ تأثّرها بالموضوع: "إنها ساقطة".

"ممكن".

قال سام: "لقد كنتُ أكره الاتصال بها".

"ليس عليك ذلك. يجب أن تعرف عن آشبي. اطلُب الرقم وسوف نتكلّم كلانا معها".

62

ودَّعَت إليزا آخر أعضاء النادي الباريسي وهم يغادرون قاعة غوستاف إيفل. تمكّنَت من السيطرة على نفسها خلال فترة بعد الظهر ومن تخفيف موجة القلق التي سادت في الغرفة. بدَا أن اتهامات ثورفالدسن قد دخلَت طيّ النسيان، أو على الأقل، قد عولجت قبل انتهاء الجلسة.

أمّا مخاوفها الخاصة فكانت مسألةً أخرى.

قبْل ساعتين، خلال استراحة، أجرَت اتصالاً.

سُرَّ الرجل الذي كانت تسعى وراءه بسماع أخبارها. لم تحمل نبرة صوته الفاترة أي عاطفة أو انفعال، لم يقل لها سوى أنه جاهز ومستعدٌّ للعمل معها. لقد عثرت عليه بالصدفة قبل بضع سنوات عندما طلبَت مساعدة غير عادية بشأن دائن - شخصٍ فكَّر أن الصداقة جعلَت تخلّفه عن التزاماته خياراً. فسألت من حولها، واكتشفَت مهارات ذلك الرجل، ثمّ التقَت به، وبعد أربعة أيام دفَعَ الدائن ملايين اليوروات المتوجِّبة عليه بالكامل. لم تسأل قط كيف تمَّ ذلك، بكل بساطة سُرَّت بالأمر. منذ ذلك الحين، حصلَت ثلاث "حالات" أخرى. في كل مرّة تجري فيها الاتصال، تُنْجَز المهمّة.

آمَلَت أن لا يكون ذاك اليوم استثنائياً عن باقي الأيام.

كان يعيش في منطقة مونتمارتر في ظلّ القبب وأبراج الأجراس التي تعلو فوق أعلى نقطة في باريس. وجَدَت المبنى في شارع شابي، وهو عبارة عن جادة مُظلَّلة وسط بيوت الإمبراطورية الثانية، العامرة حالياً بالمتاجر الحديثة، والمقاهي وشقق الطوابق العلوية الباهظة الثمن.

صعدَت السلالم إلى الطابق الثالث، ودقَّت بخفّة على الباب الموسوم بقطعة نحاس عليها رقم 5. كان الرجل الذي أجاب قصير القامة ونحيلاً، ذا شعر رمادي خفيف. ذكَّرَتْها ثنية أنفه وقصّة فكّه بصقرٍ بدا رمزاً ملائماً لباولو أمبروسي.

دُعيَت إلى الداخل.

سأل أمبروسي بصوت هادئ: "ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك اليوم؟"

"لندخل مباشرةً في صلب الموضوع كالعادة!"

"أنتِ شخص مهمّ. الوقت ثمين. أفترضُ أنّك لم تأتِ إلى هنا يوم عيد الميلاد لسبب سخيف".

فهمَت قصده الباطني المستتر: "ودفع الرسوم التي أمرت بها؟"

طأطأ رأسه قليلاً، هذا الرأس الذي كان أصغر من أن يتلاءم مع حجم جسمه.

قالَت: "إن هذا خاص جداً. يجب أن يتم بسرعة".

"حدّدي ماذا تقصدين بقولك "بسرعة"؟"

"اليوم".

"أفترض أنّ لديك المعلومات المطلوبة لتحضير ملائم".

"سوف أوجّهك مباشرةً إلى الشخص المستهدَف".

كان أمبروسي يرتدي سترةً ذات ياقة مرتفعة ضيّقة سوداء، ومعطفاً رمادياً مصنوعاً من التويد، وبنطالاً قطنياً متبايناً مع بشرته الشاحبة اللون. تساءلَت عن سبب تجهّم وجهه، ولكنها أدركَت أنها على الأرجح قصّة طويلة.

سأل: "هل تفضّلين طريقةً معيّنة؟"

"فقط يهمني أن تكون مؤلمةً وبطيئةً".

كانت عيناه الباردتان مجرّدتَين من الفكاهة. "على الأرجح أن خيانته كانت غير متوَقّعة".

قدَّرَت مهارته في الغوص في أفكارها. "هذا أقلّ ما يمكن قوله".

"حاجتك إلى الرضا، أهي كبيرةً إلى هذا الحدّ؟"

"فوق كل حدود".

"إذاً يجب الحصول على حلٍّ كامل".



طلبَ سام رقماً على هاتفه الخليوي. ردّ الطرف الآخر على الاتصال بسرعة.

قالَت ستيفاني: " ما الأمر يا سام؟"

"عندي آشبي".

أخبرَها بالضبط ما حصل منذ أن غادر برج إيفل.

فأوضَحَت قائلةً: "لا يفترض بكَ أن تتبعه".

"ولا يفترض بطائرة أن تطير باتجاهنا أيضاً".

"أقدِّر لك حذقك. إبقَ حيث أنت..."

أراحَه هنريك من الهاتف. من الواضح أن صديقه أراد التكلّم إلى ستيفاني نيلي، وأرادَ أن يعرف لماذا، فعادَ سام أدراجه واستمع إلى الحديث.



قال ثورفالدسن: " من الجيّد أن نعرف أنّ الحكومة الأمريكية هي على رأس الأمور بشكل مباشر".

فأجابَت ستيفاني بنبرة توحي بأنها باتت مستعدَّةً للمعركة: "من الجيد التحدّث إليكَ أيضاً يا هنريك".

قال: "لقد تدخّلتم في شؤوني".

"على العكس، أنتَ من تدخّل في شؤوننا".

"كيف أمكن ذلك؟ لا شيء من هذا يخصّ أمريكا".

"لا تكن متيقّناً هكذا. لستَ وحدك المهتمّ بآشبي".

بدأت معدته تخرخر. كم شكّكَ، آملاً أن يكون مخطئاً في شكوكه. "أهو مهمّ بالنسبة إليك؟"

"لا أستطيع تكيد أو نفي ذلك".

لم يطلب منها أي اعتراف أو إقرار. إنّ ما حصل للتوّ في برج إيفل يوضح كل شيء: "ليس من الصعب تصوّر ما يحصل هنا".

"فلنقلْ إنّ ثمة خطر هنا كبر من انتقامك".

"ليس بالنسبة إليّ".

"هل من فائدة إذا قلتُ إنني أفهم؟ كنتُ لأفعل الشيء نفسه لو انقلبَت

الأدوار".

"ما زلتما تتدخّلان".

"لقد أنقذنا حياتك".

"أعطيتم آشبي الكتاب".

"وهذه كانت فكرة جيدة. أرجحَته لينام. وأُضيفُ إن ذلك من حسن حظّك، والّا لكنت ميتاً الآن".

لم يكن في مزاج للامتنان. "كوتون خانني. حالياً ليس عندي وقت للتعاطي مع هذه الخيبة. ولكنني سوف أفعل".

"كوتون استخدم دماغه. عليك أنتَ أيضاً أن تفعل هذا، يا هنريك".

"إن ابني ميتٌ".

"لا حاجة لتذكيري".

"يبدو أنك بحاجة للتذكير".

صمتَ برهةً، أخذ نَفَساً واستعادَ رباطة جأشه: "إنه شأني، وليس شأنك، ولا شأن كوتون ولا شأن الحكومة الأمريكية".

"هنريك، أصغِ إليّ؟ لا يتعلّق هذا بك. ثمّة إرهابيّ متورّط هنا. رجل اسمه بيتر لايون. حاولنا اعتقاله على مدى قرن. أخيراً صار هنا على المكشوف حيث يمكننا أن نراه. عليكَ أن تدعنا نُنْهي هذه المهمّة. إنما نحتاج لآشبي لتنفيذ ذلك".

"ومتى ينتهي هذا كلّه؟ وماذا عن قاتل ابني؟"

ظلَّ الطرف الآخر من المكالمة صامتاً، ممّا أوحى إليه بأنه قد علمَ بالأمر.

"هذا ما فكّرتُ به. إلى اللقاء يا ستيفاني!"

"ماذا ستفعل؟"

أغلقَ الهاتف وسلّمه لسام. لبثَ الشاب وميغان موريسون صامتَين، يراقبانه بأعين قلقة.

قال لسام: "سوف تخونني أنتَ أيضاً؟"

"لا!"

جاء الجِواب سريعاً؟ ربّما في سرعة فائقة. بيد أنّ تلك الروح المتحمّسة بدَت خائفةً من إثبات شجاعتها.

قالت ميغان: "ثمة شيء يحصل".

التفَت وركَّزَ عبر الجادة في الفندق.

ظهرَ آشبي وتحدّث إلى البوّاب الذي أشارَ بسرعة إلى سيّارة أجرة. التفَتَ ثورفالدسن ونظرَ إلى المباني التي خلفهم، ربما يمكن رؤية وجهه.

قالَ سام: "إنه في سيارة أجرة".

"أوقِفْ واحدةً لنا نحن أيضاً".

63

نزلَ آشبي من المرسى تحت جسر ألْما إلى قارب السياح. شرقاً، أعلنَت أجراسُ البرج الساعة الثالثة بعد الظهر. لم يسبِقْ له أن قام بجولة في السين في القارب، مع أنه افترضَ أن الرحلات البحريةَ في منتهى الرواج. اليوم شغل المقاعد نحو عشرين غريباً تحت مظلّة من البلاستيك السخامي، علماً أن القارب لم يكن ممتلئاً حتى النصف. سألَ نفسه لماذا أصرَّ بيتر لايون على اللقاء في محيط دبق وعديم الذوق كهذا. كان قد تلقّى الاتصال منذ ساعة، وقد أبلغه صوتٌ أجش بالمكان والزمان. كان قد طلب من كارولين مواصلة العمل على ما اكتشفته وأخبرها أنه سيعود قريباً. لقد جادل متجاهلاً تعليمات لايون، إنما كان يعرف أفضل منه. ناهيك عن ذلك، كان لايون هو من فشل، وليس هو. وكانت هناك مسألة الأعباء المدفوعة سلفاً، والرصيد المدين.

جلسَ في مقعد في الصفّ الأخير وانتظرَ عشر دقائق حتى ازدادت سرعة المحرّكات وانزلق جسم السفينة في النهر، متوجّهاً شرقاً نحو جزيرة "لا سيتيه". ثمّ علا عبر مكبّر الصوت صوت امرأة تصف في اللغة الإنكليزية الضفّتَين والمناظر فيما قرقعَت أجهزة التصوير.

لفت انتباهه وألهاه نقْر على الكتف فالتفتَ ورأى رجلاً طويل القامة أشقر الشعر، بدا أنه ابن مدينة، في منتصف الستينيات، ذو وجهه مُنهَك مُغطّى بلحية كثيفة وشاربَين. كانت نظراته مختلفة تماماً عن اليوم الآخر، إلا أن عينَيه ظلَّتا ذهبيتَين كالكهرمان. كان يرتدي معطفاً من التويد وبنطالاً قطنياً. كالعادة، بدا أوروبياً بَحْتاً.

تبعَه آشبي نحو مؤخر السفينة، خارج سياج البلاستيك، حيث كانوا واقفين في البرد. ظلّ مُرشِد المجموعة يجذب انتباه الحشود.

سأل: "ماذا أشرح لكم اليوم؟"

"ماذا عن نابوليون؟"

كان الصوت عميقاً خشناً، أجش، كثر ميلاً إلى اللكنة الأمريكية هذه المرّة.

تجاوز القارب القصر الكبير (غراند بالاس) على الضفة اليمنى.

"أيمكنني أن أسألك عمّا حصل؟"

قال لايون: "لا يمكنك".

لم يكن ليقبل هذا التوبيخ. "أنتَ من فشل. ليس ذلك فقط، بل إنك عرّضتني أنا أيضاً للخطر. يمارس الأمريكيون ضغطاً. هل لديك أدنى فكرة عن الوضع الذي سبّبتَه؟"

"الأمريكيون هم الذين تدخّلوا".

"وهل هذه مفاجأة؟ كنت تعرفَ أنهم متورّطون. دفعتُ ثلاثة أضعاف أتعابك للتعويض عن تورّطهم".

بانَ عليه الغيظ، إنما لم يأبه. "قلتَ إن ذلك سوف يكون عَرْضاً بكل ما في الكلمة من معنى".

قالَ لايون: "حتى الآن لستُ أعرفُ من المُلام. كانت خططي واضحةً ودقيقةً".

استخدم النبرة المتعالية نفسها التي لطالما كان يكرهها. بما أنه عجزَ عن الكشف عن أنه استخدم لايون لتأدية عمله الوسخ، سألَ: " ما الذي يمكن فعله لتصليح الوضع؟"

"هذه ستكون مشكلتك. لقد انتهيت".

عجز عن تصديق ما سمعه: "أنت..."

قال لايون مقاطعاً: " أريد أن أعرف. ما الذي أملت كسبه من قتل هؤلاء الناس في البرج؟"

"كيف تعرف أنني أردتُ قتلهم؟" "بالضبط معالما عرفتُ عن الأمريكيين".

كان هذا الرجل يعرف الكثير، إلا أنه أحسّ بأن لايون لم يكن واثقا بنفسه تماماً يومذاك. من الجيّد أن نعرف أنه حتى الشيطان يفشل من حين إلى آخر. قرّرَ عدم محو الكارثة عن وجه الرجل. لا زال بحاجة للايون.

قال: "ما كنتُ لأستطيع التخلّص منهم أبداً، لا سيما لاروك، لذا قرّرتُ فسخ العلاقة بصورة سوف تُقدّرها".

"وكم من المال قد وُظِّفَ؟"

ضحِكَ بخفَة: "تحبّ أن تدخل في صلب الموضوع، أليس كذلك؟"

غيَّر لايون اتجاه وقوفه، واتّكأ على درابزين مؤخرة السفينة.

"إنها دائماً مسألة مال".

"يمكنني النفاذ إلى ملايين من أموال النادي المودَعة في مصرفي. هكذا دُفِعَ لك. ما كان يهمّني المبلغ الذي دفعوه لك. لا شكّ أن ذلك المال، أو ما تبقى منه، كان ليكون لي، لو أنّ رحلتك نجحَت". سمحَ لكلماته بأن تتوانى لكي تحقق الانطباع الذي يريد، موحياً مرّة أخرى بمن كان المسؤول عن الهجوم الفاشل. كان يملّ من التصرّفات المصطنَعة، ويكسب الشجاعة من الثانية، ويضجر من تكبّر هذا الرجل.

"ما الذي على المحك يا لورد آشبي؟"

أنه ما عاد سيشاركهم. "كثر مما تتصوّر. يجب تقديم الكثير للتعويض عن المجازفات المرتبطة بقتل هؤلاء الناس".

لم يقل لايون شيئاً.

أوضَحَ آشبي: "لقد تم الدفع لك. إلا أنني لم أتلقَّ الخدمة، كما وعِدْتُ. أنت تحب أن تتكلم عن الشخصية وكم يهمك هذا الأمر. هل تفشل، ومن ثمّ تُبقي مال الشخص؟"

قالَ لايون: "أما زلتَ تريدهم أن يموتوا؟"

توقّفَ برهةً ثم تابع: "أفترض أنني مهتمّ بمتابعة تعاوننا".

"ليس عليك أن تقتلهم جميعاً. ماذا لو تقتل لاروك فقط؟ من أجل المال الذي سبق أن دُفِعَ لك، وللمال الباقي المستحق لك".



لم يتمكّن ثورفالدسن من الصعود على متن سفينة نقل السياح مع آشبي. كان موظفوه وأزلامه في طريقهم قادمين من إنكلترا ويُفترَض بهم أن يصلوا في الساعات القليلة القادمة، ومن هنا فقد كانوا بلا فائدة. عوضاً عن ذلك، اختارَ أن يتبع سفينةً بطيئةً، بالتوازي مع السين في سيارة أجرة، في جادة مزدحمة.

فكّرَ أولاً في إرسال سام أو ميغان، إلا أنه خشي أن يتعرّفَ آشبي على

وجوههم في الاجتماع. غير أنه أدرك أنه لا يوجد خيار آخر. نظرَ في وجه سام. "أريدك أن تصعد على متن السفينة في المحطة التالية وأن ترى ما يفعل آشبي. اكتشِف أيضاً الطريق واتصل بي لإعلامي بذلك فوراً".

"لِمَ أنا؟"

"لقد استطَعْتَ أن تتنكَّرَ لأجل ستيفاني نيلي، يمكنك بالتأكيد أن تفعل ذلك لي".

رأى أن توبيخه قد أثّر على الشاب الفتي، على النحو الذي أراده.

طأطأ سام برأسه. "يمكنني فعل ذلك. ولكن يُحتمَل أن يكون آشبي قد رآني في غرفة الاجتماع".

"إنها فرصة يجب علينا انتهازها. ولكني أشكُّ في أن يكون قد أعار انتباهاً شديداً للموظّفين".

كانت الطريق أمامه تمرّ بين اللوفر يساراً والسين يميناً. رأى سفينة نقل السياح تتجه نحو مرسى تحت طريق السيارات. أشارَ للسائق بأن يتوقّف عند المنعطف.

فتَحَ الباب وخرجَ في تلك الظهيرة الباردة.

قال له: "اشعرْ بأمان"، ثمَّ صفَّقَ الباب وطلبَ من السائق أن يمشي إنما ببطء، والّا يضيّع السفينة.



قال لايون لآشبي: " لم تُجِب على سؤالي بَعْد! ما الذي على المحك هنا؟"

ارتأى، لضمان مساعدة لايون المستمرّة، أن يعطيه القليل من المعلومات. "كنز يفوق الحدود، كنز كبر بكثير من ابتزازك لي".

أراد أن يعرف ذلك الشيطان أنه لم يَعُد خائفاً بعد الآن.

"وكان عليك قتل لاروك والآخرين لاكتسابه؟"

أجابَ بلا مبالاة: "هي فقط. ولكنني قرّرتُ أنه بما أنك كنتَ تقتل الناس، فلِمَ لا نقتلهم كلّهم؟"

"لقد بخستُك حقّك من التقدير يا لورد آشبي".

بلا مزْاح!

"وماذا عن الأمريكيين؟ هل خنتهم هم أيضاً؟"

"قلتُ لهم إنني اضطررتُ لذلك، وأضيف بأنني ما كنتُ لأضحّي بك يوماً.

لو أن الأمور قد تطوّرت بالشكل الصحيح، لكنتُ نلْتُ حريّتي، والكنز، ومال النادي، ولما كنتَ علمتَ بالزبون التالي - يفوق أجره ثلاثة أضعاف أجْرَك العادي".

"كان الأمريكيون أذكى ممّا توقّعتُ".

"يبدو أنّها كانت غلطتك. لقد أدَّيتُ دوري، وأنا مستعدّ لأدفع باقي الأجْر. لا سيما أن..."

اتجهَت السفينة نحو محطة توقّف في اللوفر. صعد ركّاب جُدد على متنها وأخذوا مقاعدهم تحت المظلّة كما ينبغي. لبثَ آشبي صامتاً إلى أن ازدادت سرعة المحرّكات وعادوا إلى السين.

قال: "إني أنتظر".



قرّرَ سام عدم الجلوس بعيداً في اتجاه المؤخرة. بل اختارَ بدلاً من ذلك الانغماس في الحشود المتناثرة الحاملة كاميراتها. تحت المظلة، كان هناك مقدار من الارتياح، وخاصة مع الهواء الدافئ الصادر من سخّانات السفينة. وقفَ آشبي والرجل الآخر - الغريب المرتدي ملابس التويد وذا الشعر الأشقر، وراء الدرابزين المعدني، الذي تخيّله بارداً تماماً.

ركَّزَ انتباهه على ضفتي النهر بينما راح المرشد يكلّم المجموعة عبر مكبِّر صوتيّ، عن جزيرة "لا سيتيه" ونقاط الجذب المتعدّدة فيها، التي تقع أمامهم مباشرةً. تظاهَرَ بأنّه يتفرّج على المناظر ليبقي نظَرَه على ما يجري. أشارَ المرشد إلى أنه يمكنهم أخذ طريق الضفة اليسرى حول الجزيرة، مجتازين نوتردام، متوجّهين من ثمّ إلى مكتبة فرانسوا ميتران.

اتصلَ به وأبلغه بسرعة عن الطريق.



استمعَ إليه ثورفالدسن وأنهى المكالمة بسرعة، ودَرَس الطريق الأمامي.

قال للسائق: "اعبر النهر، ثمّ اذهبْ نحو اليسار، باتجاه الحيّ اللاتيني، إنما ابق قريباً".

لم يشأ أن يضيّع سفينة نقل السياح.

سألت ميغان موريسون: "ماذا تفعل؟"

"منذ متى تعيشين في باريس؟"

بدت مندهشةً بهذا السؤال، مدرِكةً أنه تجاهل سؤالها.

"منذ سنوات".

"قولي لي إذاً، هل من جسور عبر النهر وراء نوتردام، من والى الضفة اليسرى؟

"تردَّدَت، متفكرة في سؤاله. أدرك أنها لا تجهل الجواب بل تريد أن تعرف سبب أهمية هذه المعلومة بالنسبة إليه.

"يوجد جسر فوق. جسر الأركيفيش".

"هل هو مكتظّ؟"

هزّت رأسها. "عموماً، الكثير من المشاة، والقليل من السيارات المسافرة إلى جزيرة سانت لويس، خلف الكاتدرائية".

قال للسائق: " اذهَب إلى هناك".

"ما الذي ستفعله، أيها العجوز؟"

تجاهل نخستها له وقال بهدوء: "ما ينبغي فعله".

64

انتظَرَ آشبي بيتر لايون ليقول له ما أراد سماعه.

أوضَح الأفريقي الجنوبي بنبرة مكبوتة: "يمكنني إزالة لاروك من الوجود".

وقفَ مقابل النهر، يتأمّل أمواج السفينة الرغوية تتحلّل في المياه الرمادية المائلة إلى البنّي. تبعتهم سفينتا سوّاح مزودتان بمظلّات وحفنة من السفن الخاصة.

أوضحَ آشبي: "يجب أن يحصل ذلك غداً. غداً كأقصى مهلة. سوف تكون الأسوأ".

"تريد الكنز هي أيضاً؟"

قرّر أن يكون عديم الحسَ. "أكثر مما يمكنك أن تتصوّر. إنها مسألة شرف عائلة".

"هذا الكنز. أريد أن أعرف المزيد".

لم يشأ الإجابة، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر. "إنها ثروة نابوليون الضائعة. كنز مخبأ لا يُصدَّق! اختفى لمئتي سنة، ولكنني أعتقد أنني عثرت عليه".

"من حسن حظّك أن الكنز لا يهمّني. أفضِّلُ مناقصةً قانونيةً حديثةً".

اجتازوا قصر العدل ومرّوا تحت جسر مزدحم.

قال: "أفترض أنني لستُ مضطراً لدفع الرصيد، إلى أن تنتهي من لاروك".

"هذا فقط لأظهرَ لك أنني صاحب سمعة حسنة، سوف تجري الأمور بشكل جيد. سوف تكون ميتةً قبل الغد".

صمَتَ لايون برهةً وتابع: "واعرفْ يا لورد آشبي أنني قلّما أفشل. لذلك لا أقدِّرُ رسائل التذكير".

فهمَ المقصود. ولكن هناك شيء أراد التشديد عليه.

"اقتلْها وحسب!"



قرّرَ سام الدخول في آخر صفّ من المقاعد تحت المظلّة. راقَبَ شكل نوتردام المألوف في الأمام إلى يساره " والى يمينه، الحيّ اللاتيني وشركة شكسبير وشركاه، حيث بدأ كل هذا يوم أمس. أما المرشد الذي لم يكن يراه، بل كان يسمعه فقط عبر مكبّر الصوت يتحدّث برتابة وباللغتَين عن قصر الكونسيرجري في الضفة اليمنى البعيدة، حيث سُجِنَت ماري أنطوانيت قبل إعدامها.

وقَفَ ومشى من غير قصد نحو الصف الخلفي، متأملاً المناظر. لاحظَ الثرثرة، والتقاط الصور، والتصويب بين السيّاح على متن السفينة، فيما عدا رجل واحد كان جالساً في طرف ممرّ، في ثالث صفّ من الآخر. كان وجهه رقيقاً فاقداً الحيوية، له أذنان طويلتان، وبلا ذقن تقريباً. كان يرتدي معطفاً أخضر كالبازلاء فوق بنطال جينز أسود وجزمة. كان شعره الأسود المزرقّ مربوطاً على شكل ذيل الفرس. جَلسَ ويداه في جيبه، وعيناه مصوّبتان إلى الأمام، غير متأثّر وغير مهتمّ. يبدو أنه كان يستمتع بالرحلة. دنا سام من الجدار الخارجي وعَبَرَ حاجزاً خفياً حيث تغلّب البرد المتسلل من الخلف على الهواء الدافئ تحت الدرابزين. نظر إلى الأمام ولمحَ جسراً آخر ممتدّاً على طول السين. كانوا يقتربون إليه أكثر فأكثر.

تدحرج شئٌ على ظهر السفينة وتعلّقَ على جانب السفينة.

نظرَ إلى علبة معدنية في الأسفل.

كان قد تعلّمَ عن الأسلحة خلال تدريبه في الخدمة العسكرية، بما يكفي ليدرك أن تلك ليست بقنبلة يدوية.

لا!

قنبلة يدوية.

صوَّبَ عينيه نحو صاحب المعطف الأخضر، الذي كان يحدّق به مباشرةً، وزمَّ شفتيه في ابتسامة.

انبعثَ دخان أرجواني اللون من تلك العلبة.



ملأت الرائحة أنف آشبي.

التفَتَ حوله ورأى أن المكان الذي تحت مظلّة البلاستيك ممتلئ بالدخان.

علا الصراخ والزعيق.

هرَبَ الناس من الضباب، مندفعين نحوه، في الجزء المفتوح من ظهر السفينة، دافِعين البقايا من الداخل.

تمتم: "ماذا يحدث في العالم؟"



دَفَعَ ثورفالدسن لسائق سيارة الأجرة ونزلَ عند جسر الأركيفيش. كانت ميغان موريسون على حقّ. لم يكن الازدحام شديداً على جسر الحجر ذي المسلكَين. كانت حفنة من المشاة تأخذ استراحةً للاستمتاع بمنظر الجانب الخلفي من نوتردام.

قدَّم مبلغاً إضافياً بقيمة خمسين يورو للسائق وقال: "خُذْ هذه السيدة أينما تريد". نظرَ إلى المقعد الخلفي، عبر الباب المفتوح وقال: "حظّاً سعيداً. وداعاً!"

صفق الباب.

عادَت سيارة الأجرة إلى الطريق، واقترب من درابزين حديدي يحمي الرصيف من انحدار شديد بطول عشرة أمتار إلى النهر. في داخل جَيب معطفه، تحسّس المسدس، الذي شحنه جسبر يوم أمس من كرستيانغيد، إلى جانب مجلّات فائضة.

رأى غراهام آشبي ورجلاً آخر يقفان خارج الدرابزين المحيط بالسفينة، متّكئَين على درابزين المؤخرة، تماماً كما أفادَ سام. كانت السفينة على بعد مئتَي متر تقريباً، متجهةً بعكس التيار. يُفترَض به أن يتمكّن من إطلاق النار على آشبي، ورمي السلاح في نهر السين، ومن ثمّ، أن يمضي في سبيله قبل أن يدرك أحدٌ ما حصل.

كان معتاداً على استخدام الأسلحة. يمكنه تنفيذ عمليّة القتل هذه.

سمعَ فرملة سيارة والتفتَ.

كانت سيارة الأجرة قد توقّفَت.

فُتح الباب الخلفي وخرجَت منه ميغان موريسون. زرَّرَت معطفها ومشَت باتجاهه مباشرة.

صاحَت: "أيها العجوز، أنت على وشك ارتكاب حماقة، أليس كذلك؟"

"كلا، غير صحيح".

"إذا كنت مُصمِّماً، على الأقل دعْني أُساعدك!"



أسرعَ سام إلى مؤخرة السفينة مع الآخرين، فيما كان الدخان يتصاعد من السفينة كأن ناراً قد أُضرِمَت.

إلا أنّ تلك لم تكن هي الحال.

شقّ طريقه مجتازاً محيط السفينة ولمحَ صاحب المعطف الأخضر، متوجهاً، وسط ذلك الذعر، نحو الدرابزين حيث كان آشبي وصاحب ملابس التويد لا يزالان واقفين.

قبضَ ثورفالدسن على المسدس في جيبه، ورأى الدخان يتصاعد من سفينة نقل السياح.

هذا ما رأته ميغان هي الأخرى. "الآن، إنه أمر لا تراه في كل يوم". سمعَ صريراً آخر لفرملة سيارة، فالتفَتَ ورأى ازدحام كتلة سيارات على كل طرف من الجسر الذي كان واقفاً عليه.

عبرَت سيارة أخرى وانزلقَت عند محطة توقّف وسط الجسر.

فُتِحَ باب الركّاب الجانبي.

فظهرَت ستيفاني نيلي.



رأى آشبي ذاك الرجل، صاحب المعطف الأخضر، يخترق الحشود ويندفع بسرعة ويطلق الرصاص فيصيب أحشاء بيتر لايون. سمعَ آخرَ نَفَسٍ أطلقه

الأفريقي الجنوبي، فيما انهار على ظهر السفينة.

ظهرَ مسدسٌ في يد صاحب المعطف الأخضر، وقال الرجل لآشبي: "فوق الجانب".

"على الأغلب أنك تمزح".

أشارَ الرجل نحو الماء: "فوق الجانب؟"

التفَت آشبي فرأى مركباً صغيراً مجهزاً بمحرك خارجي، يركن بالقرب من السفينة، والسائق في موقع القيادة.

التفَتَ إلى الخلف ونظر بعمق إلى صاحب المعطف الأخضر.

"لن أكرّر قول ذلك".

التفَّ حول الدرابزين، ثمّ نزلَ متراً أو ما شابه من الجانب إلى السفينة الثانية.

رفعَ صاحب المعطف الأخضر نفسه ليتبعه، إنما لم يفلح في ذلك، بل التوى جسده بعنف إلى الوراء.

65

راقَبَ سام صاحب ملابس التويد يقف فجأةً ويشدُّ ذاك الرجل صاحب المعطف الأخضر من الدرابزين. كان آشبي قد قفزَ فوق الجانب. تساءلَ عمّا يوجد هناك. على الأغلب أن النهر بارد جداً. لا شكّ أنّ الأحمق لم يغطس في الماء.

اندفع صاحب ملابس التويد وصاحب المعطف الأخضر إلى متن السفينة.

أفْسَحَ لهما الركّاب المجال.

قرّرَ أن يفعل شيئاً بشأن الدخان. أخذَ نَفَساً واندفعَ تحت محيط السفينة. وجدَ علبة الدخان، ورفَعها من ظهر المركب، واجتازَ آخر صفّ من المقاعد حيث تنتهي المظلّة، ورماها من السفينة إلى البحر.

كان الرجلان لا يزالان يتعاركان على ظهر المركب، فيما كان ما تبقّى من الدخان يتبدّد بسرعة في الهواء البارد الجاف.

أرادَ أن يفعلَ شيئاً، إلا أنه كان خاسراً في جميع الأحوال.

خَفَتَ صوت المحرّكات. ثمّ فُتِحَ بابٌ في الحجيرة الأمامية وخرجَ الملّاح بسرعة. ظلّ صاحب ملابس التويد وصاحب المعطف الأخضر يتصارعان، من دون أن يكون لأيٍّ منهما أفضلية على الآخر. ثمّ هرَبَ صاحب ملابس التويد، ووقفَ جانباً ودفع بنفسه من على سطح المركب. كان صاحب المعطف الأخضر يستعد للوقوف هو أيضاً، ولكن بدلاً من أن يهجم على خصمه، اخترق المتفرّجين المحيطين به، وقفزَ فوق الجانب.

اندفَعَ صاحب ملابس التويد وراءه، بيد أن الرجل الآخر كان قد رحلَ. عَبَرَ سام ظهر المركب ولمحَ سفينة صغيرةً تضاءلت سرعتها، كانت تنحرف نحو مؤخّرة سفينتهم، من ثمّ تتحرّك في الاتجاه المعاكس.

راقَبَ سام هذا المشهد هو أيضاً.

ثمّ نزَعَ الرجل الباروكة عن رأسه والقناع عن وجهه.

تعرّف فوراً على وجهه الحقيقي.

إنه كوتون مالون.



أرخى ثورفالدسن قبضته التي كان قد وضعها على المسدس الذي في جيبه. سحَبَ يده من جيبه، وشاهدَ ستيفاني نيلي تسير نحوه.

تمتمَت ميغان: "لا يمكن أن يكون هذا جيداً".

وافقها الرأي.

بدأت سفينة نقل السياح تقترب من الجسر. رأى مصدر الدخان يُقذَف من السفينة إلى البحر، ثمّ رجلين، أحدهما آشبي، يثبان إلى مركب صغير يسير في الاتجاه المعاكس، تابعةً التيّار، فيما انعطف نهر السين أكثر فأكثر في باريس.

مرَّت سفينة نقل السياح تحت الجسر ولمح سام وكوتون مالون اللذين كانا واقفَين عند درابزين مؤخرة السفينة، محاطين بالناس. إلا أنه كان من المستحيل رؤيته نظراً إلى الزاوية المتجهة إلى الأعلى والى كون سام ومالون ملتفتَين إلى الجهة الأخرى مُشاهدَين المركب البخاري المتراجِع.

رأتهما ميغان وستيفاني أيضاً.

سألت ستيفاني بعد ما توقَّفَت على بعد متر: "أترَين الآن بما تتدخلّين؟"

سألت ميغان: "كيف عرفتِ أننا كنا هنا؟"

أجاتت ستيفاني: "هاتفيكما المحمولين. لديهما أجهزة تتبّع مُدمَجة فيهما.

عندما دخل هنريك في وقت سابق على الخط، أدركتُ أن ثمة مشكلة سوف تحصل. كنّا نراقب".

وقفَت ستيفاني في وجهه. "ماذا ستفعل؟ سوف تطلق النار على آشبي من هنا؟"

رمقها بنظرة شرسة وساخطة: " إنه أمرٌ سهل".

"لن تسمح لنا بتولّي ذلك، أليس كذلك؟"

عرفَ بالضبط ما الذي قصدته ب "نحن". "يبدو أن كوتون لا وقت لديه للإجابة على اتصالاتي، إنما عنده وقت وافر للمشاركة في عمليّتك".

"إنه يحاول أن يحلّ كافة مشاكلنا، بما فيها مشكلتك".

"لستُ بحاجة لأي مساعدة".

"لماذا ورّطته إذاً؟"

لأنه ظنّه صديقاً آنذاك، شخصاً سوف يكون هناك لأجله، كما كان هو مالون.

ثمّ سأل: "ما الذي كان يحصل على تلك السفينة".

هزَّت ستيفاني رأسها: "لكأنني سوف أشرح لك الأمر".

وتابعَت مؤشّرةً إلى ميغان: "وأنتِ، هل كنتِ ستتركينه يقتل رجلاً؟"

"لستُ أعمل لديك".

"أنت على حقّ".

أشارت إلى أحد رجال الشرطة الفرنسيين الذين كانوا واقفين بجانب السيارة: "أخرِجْها من هنا!"

أوضَحَ ثورفالدسن: "لن يكون ذلك سهلاً. سوف نغادر معاً".

"سوف تأتي معي".

لقد توقع هذا الرد. لهذا، كان قد أعاد زجّ يده اليمنى إلى جيبه وأمسك من جديد بمسدسه.

سحبَ السلاح.

سألته ستيفاني بهدوء: "ما الذي تخطط له؟ أن تطلق النار عليّ؟"

"لا أنصحك بدفعي لذلك. في الوقت الحالي، لا أبدو أكثر من مشارك مطيع في إذلالي شخصياً، وهذه هي مشكلتي يا ستيفاني وليستَ مشكلتكِ أنتِ، وأنوي إنهاء ما قد بدأتُ به".

لم تردّ عليه.

أمَرَ ميغان: "أطلبي لنا سيارة أجرة".

ركضَت إلى طرف الجسر ولوّحت لأول سيارة أجرة مرّت في الجادة المزدحمة. لبثَت ستيفاني صامتةً، إلا أنه قرأ في عينيها دفاعاً يَقِظاً إنما متعمّقاً، وشيئاً آخر. لم تكن لديها أيّة نيّة في ردعه.

كان يتصرّف باندفاع وتهوّر، بذعر وليس عن سابق تصميم، وبدت متعاطفةً معه بسبب الدوّامة التي كان يتخبّط فيها. عجزَت هذه المرأة التي تتمتع بخبرة عالية وبحرص شديد، عن مساعدته، بيد أنها، بينها وبين نفسها، لم تشأ

ردعه.

همسَت له: "اذهَبْ"

ركضَ نحو سيّارة الأجرة التي كانت منتظرةً، مسرعاً قدر ما سمح له ظهره المعقوف. ما إن صار في الداخل، سأل ميغان: "هاتفك الخليوي".

سلّمته الهاتف. فأنزلَ النافذة ورماه.



كان آشبي مرتعباً.

كان الزورق البخاري يشقّ طريق هروبه مجتازاً جزيرة "لا سيتيه"، سالكاً سبيلاً سريعاً حول سفن أخرى.

حصل كل شيء بسرعة.

كان يتحدث إلى بيتر لايون، ثمّ انهالت موجة دخان عليه. وإذا بصاحب المعطف الأخضر يمسك مسدساً قد سحبه بسرعة ما إن قفز من سفينة نقل السياح. من كان؟ أحد الأمريكيين؟

قال له الرجل: "أنت حقاً أحمق".

"من أنت؟"

أنزل المسدس. ثمّ رأى العينين الكهرمانيتين.

"أنا الرجل الذي تدين له بقدر هائل من المال".



نزَعَ مالون ما تبقى من الباروكة وقناع الوجه. رفع جفنيه وأخرجَ العدسات اللاصقة الكهرمانية اللون.

توقّفَت سفينة نقل السياح في أقرب مرسى وسمحَت للسادة المرتعبين بالمغادرة. كان مالون وسام آخر المغادرين، وقد انتظرَت ستيفاني على الشاطئ، على درج من الحجر على مستوى الشارع.

سألَت: "ما كان الأمر؟"

قال مالون: "فوضى عارمة".

بدا سام مرتبكاً.

قال مالون: "كان علينا محاصرة آشبي. فاتصلتُ، كما لايون، ورتّبتُ اجتماعاً".

"ماذا عن اللباس؟"

"ساعدنا الفرنسيون هناك. أحضرَ لنا عاملو الاستخبارات أخصّائيي تجميل. كانوا قد وضعوا علي أجهزة تنصُّت لتسجيل الأحاديث. مع أنه كان لدى بيتر لايون أفكار أخرى".

سألَ سام: "كان هو؟ ذاك الذي يرتدي المعطف الأخضر؟"

أومأ مالون برأسه. "يبدو أنه يريد آشبي أيضاً. وازالة القنبلة الدخانية كانت عملاً جيداً".

قالت له: "لقد كان هنريك هناك".

"إلى أي درجة هو غاضب؟"

"إنه مجروح يا كوتون. لا يفكّر بوضوح".

كان يجب أن يتحدّث مع صديقه، ولكن لم يتسنَّ له الوقت طوال النهار. عثرَ على هاتفه الخليوي، الذي أخفض صوته قبل الصعود على متن سفينة نقل السياح، ولاحظَ مزيداً من الاتصالات الآتية من هنريك ناهيك عن ثلاث اتصالات من رقم قد عرفه.

البروفسور جوزيف مراد.

ضغطَ على كبسة "إعادة الاتصال". ردّ البروفسور من الرنّة الأولى.

قال مراد: "لقد فعلتُ. حَلَلْتُ اللغز".

"أتعرف المكان؟"

"أعتقد ذلك".

"هل اتصلتَ بهنريك؟"

"فعلتُ للتوّ، لم أتمكن من التقاطك، فاتصلتُ به، يريدني أن ألتقي به". "يمكنك ذلك يا بروفسور. فقط قل لي أين وسوف أتولّى المسألة".

66

الساعة 3:40 بعد الظهر

اقتيدَ آشبي من المركب قَسْراً، قرب جزيرة سان جرمان في جنوب مركز المدينة القديم. وقد بات يدرك الآن أنّ الرّجل الذي أمسكه كان بيتر لايون وأن الرجل الذي تواجد في سفينة نقل السياح كان على الأغلب عميلاً أمريكياً. وكانت هناك سيارة يجلس فيها رجلان تنتظرهما في الشارع بمحاذاة النهر. أعطاهما لايون إشارةً ليخرجا. فتحَ أحدهما الباب الخلفي ونادى كارولين.

قالَ لايون: "إن صاحبك، السيّد غيلدهول، لن ينضم إلينا. أخشى أن يبقى محجوزاً بشكل دائم".

كان يعرف ماذا يعني ذلك. "لم يكن هناك داعٍ لقتله".

ضحكَ لايون ضحكةً خافتةً. "على العكس، إنه الخيار الوحيد".

تحوّلَ الوضع للتوّ من الخطِر إلى الميؤوس منه. من الواضح أن لايون كان يراقب كل خطوات آشبي، ما دام يعرف بالضبط مكان كارولين وغيلدهول.

أبْصَرَ ملامح خوف مجنون على وجه كارولين الجميل.

وكان خائفاً هو الآخر.

قادَه لايون إلى الأمام وهمسَ في أذنه: "ظننتُ أنّك قد تحتاج للآنسة دود. إنه السبب الوحيد لبقائها على قيد الحياة. أقترح عليك عدم هدر الفرصة الذي عرضتها عليها".

"أتريد الكنز؟"

"ومن لا يريده؟"

"قلتَ لي الليلة الماضية في لندن إنّ أموراً كهذه لا تهمّك".

"مصدر ثروة تجهله كل حكومة من دون أن تحسب له أي حساب. ثمّة أمور كثيرة يمكنني أن أفعلها عندما تكون هذه الثروة في متناولي - ولن يكون عليّ التعاطي مع مخادعين من أمثالك".

توقفوا خلف شارع مليء بالحركة، ورَكَنَ السائق السيارة وسط رقعة من الأشجار التي ابيَضّت بسبب الشتاء. لم يكن أحد ظاهراً للعيان في تلك المنطقة التي هي في معظمها عبارة عن مركز تجاري ومنشأة لتصليح المراكب مغلقين في العطلة. سَحَبَ لايون من جديد مُسَدّسه من تحت معطفه وثَبَّت جهازاً كاتماً للصوت على الماسورة القصيرة المدى.

أمر لايون وهما يقتربان: "أعيدوها إلى السيارة".

أُدخلت كارولين عبر المقعد الخلفي. وسارَ لايون إلى الباب المفتوح وأقْحَمَ ذراعه في الداخل، مصوّباً المسدّس مباشرةً نحوها.

لهَثَت قائلةً: "يا إلهي! لا! لا!"

قال لها لايون: "اخرَسي!"

بدأت كارولين تبكي.

قالَ لايون: "لورد آشبي، وأنتِ أيضاً آنسة دود. سوف أطرح هذا السؤال مرّة واحدة فقط. إن لم أحصل على جواب فوري، صريح واضح ودقيق، سوف أطلق النار. مفهوم؟"

لم يتفوّه آشبي بكلمة.

نظرَ لايون مباشرةً في عينيه. "لم أسمع صوتك يا لورد آشبي".

"ما هو الـ "مفهوم""؟"

قال لايون: " أخبراني أين يوجد الكنز؟"

حين غادر آشبي كارولين في وقت سابق، كانت لا تزال تُعدّ كل التفاصيل، مع أنها كانت قد حدَّدَت، على الأقل، نقطة انطلاق. تمنّى أن تعرف مزيداً من المعلومات في تلك الأثناء، وذلك لمصلحتهما هما الإثنين.

أجابَت كارولين بسرعة: "في الكاتدرائية، في سانت دينيس".

سألَ لايون وعيناه مثبّتتان على آشبي والمسدّس لا يزال مصوّباً عليه داخل السيارة: "أتعرف أين؟"

"أعتقد ذلك. ولكن عليّ الذهاب إلى هناك للتأكّد. عليّ أن أرى. لقد اكتشفْتُ كل ذلك".

سحَبَ لايون ذراعه وأنزل سلاحه. "من مصلحتك أن تحدد الموقع. آمل ذلك".

بقي آشبي واقفاً دون حراك.

صوَّبَ لايون سلاحه باتجاهه. "دورك الآن. سؤالان وأريد جوابَين بسيطين. ألديك خط اتصال مباشر بالأمريكيين؟"

كان ذلك سهلاً. فطأطأ رأسه تأييداً.

"هل معك هاتف؟"

طأطأ رأسه هذه المرّة أيضاً.

"أعطِني الهاتف والرقم".



كان مالون يقف مع سام محاولاً اتخاذ قراره بشأن الخطوة التالية عندما رنّ هاتف ستيفاني الجوّال. رأت المتّصل وقالت: "آشبي".

كان يعرف أكثر منها. "يبدو أن لايون يريد التحدث إليك".

ضغطت على زرّ مكبّر الصوت.

قال صوت ذكوري: "أفهم أنك أنت الشخص المسؤول".

أجابت ستيفاني: "في المرة الماضية، تفحّصتُ المكان".

"هل كنتِ في لندن ليلة أمس؟"

"أجل".

"هل استمتعتِ بالعرض اليوم؟"

"استمتعنا كثيراً بملاحقتك".

ضحِكَ لايون بخفّة: "هذا أبقاك مشغولةً بما يكفي لأتمكّن من معالجة أمر اللورد آشبي. إنه شخص غير جدير بالثقة، بما أنني متأكّد من أنك اكتشفتِ ذلك".

"على الأغلب أنه يظن الشيء نفسه عنك في الوقت الحالي".

"يُفترض بك أن تكوني ممتنّة. لقد أسديتُ لك معروفاً. سمحتُ لك بمراقبة

حديثي مع آشبي في وستمنستر. لقد ظهرتُ في الجولة السياحية لكي تتمكني من ملاحقتي. تركتُ لك الأبراج الصغيرة لتستكشفيها أيضاً. حتى أني هاجمتُ عميلك. ما الذي احتجتِه أيضاً؟ ولكن برأيي، ما كان ليخطر على بالك يوماً أن البرج كان هدف آشبي الحقيقي. أفترض أنك وجدت طريقة لردعه".

"وماذا لو أننا لم نفعل، هل يؤثّر ذلك؟ سوف يظل مالك محفوظاً للعمل القادم".

"لقد وثقث بك".

"آمل ألّا تتوقّع شيئاً لقاء ذلك".

"يا إلهي! لا! كل ما أريده هو عدم رؤية ذاك الأحمق المخادع آشبي ينجح!"

أدرَكَ مالون أنهم يشهدون تكبّراً غبياً من جانب بيتر لايون. لم يكفِهِ التقدّم بخطوتين على من يلاحقونه، بل شاء التصرّف بوقاحة.

قال لايون: "لديّ معلومات أخرى لك. وهذه حقيقية مئة بالمئة. لا تضليل فيها! إنّ المتعصّبين الفرنسيين المُلامين على المحاولة بأكملها كان عندهم شرط لاشتراكهم. هي حقيقة لم أذكرها قط للورد آشبي. إنهم انفصاليون، غاضبون من المعاملة غير العادلة التي تلقّوها من الحكومة. إنهم يكرهون الإجراءات القمعية العديدة التي يعتبرونها عنصريةً. كما أنهم سئموا من الاحتجاج. يبدو أن ذلك حقق القليل فقط، ولقد تم إغلاق العديد من مساجدهم في باريس خلال الأعوام القليلة الماضية، وذلك كعقاب على نشاطهم. ومقابل مساعدتي في الأنفاليد، يريدون الإدلاء بتصريح أكثر حدة وتأثيراً على المشاعر".

لم يحب مالون ما سمعه.

قال لايون: "ثمة قنبلة على وشك الانفجار".

داعبَت أناملٌ مرتعدةٌ من الخوف ظهرَ مالون.

"خلال صلوات عيد الميلاد في إحدى كنائس باريس. لقد ظنّوا ذلك ملائماً لأنّ بيوت العبادة الخاصة بهم مغلقة في كل يوم".

توجد مئات الكنائس في باريس.

أوضَحَت: "بَعد ثلاث نكسات، يصعب أخذك على محمل الجد".

"أفهم وجهة نظرك، ولكن هذه حقيقة. ولا يمكنك الاندفاع إلى هناك مع الشرطة. ربما يحدث الهجوم قبل أن يتمكن أحد من إيقافه. في الواقع، هو وشيك. أنت فقط باستطاعتك منع حدوثه".

قالَت ستيفاني: " غير صحيح! أنت تمنح نفسك مزيداً من الوقت ليس إلا".

"هذا أكيد. ولكن، أتستطيعين أن تراهني باعتبار ما أقوله كذباً؟"

رأى مالون في عيني ستيفاني ما كان يفكر به هو أيضاً.

ليس أمامنا خيار آخر.

سألَت: "أين؟"

ضحكَ لايون: "ليس الأمر بتلك السهولة. إنها عملية صيد ومطاردة بعض الشي ء. لا شكّ أن عدداً من الناس يعتمد عليك لإنجاز المهمة في الوقت المناسب. هل عندكم مواصلات برية؟"

"أجل".

"سوف أتصل بك عما قريب".

أغلقَت السماعة.

لاحَت على وجهها ملامح غضب، بيد أنها سرعان ما تلاشت كونها واثقةً من خبرتها في المخابرات التي اكتسبتها طوال تلك السنوات الخمس والعشرين.

نظرَت في وجه سام: "اتبَع هنريك".

سبق أن أخبرهم البروفسور مراد أن كاتدرائية سانت دينيس كانت وِجهة ثورفالدسن.

"حاول أن تبقيه تحت السيطرة ريثما نصل إلى هناك".

"كيف ذلك؟"

"لستُ أدري. جِدْ طريقة بنفسك".

"حاضر، يا سيدتي!"

ابتسمَ مالون لسخريته. "هذا ما كنتُ أقوله لها أنا أيضاً في العادة حين قامت بقصِّ جوانحي. يمكنك الإمساك به. أمسِك بزمام الأمور وأبقها تحت السيطرة".

"قول هذا أسهل من فعله مع هنريك".

وَضَعَ يده على كتف الشاب. "إنه يحبك. وهو في ورطة. اذهَب إليه وساعدْه!"

67

كانت إليزا لاروك تهيم حول شقتها في باريسٍ وتحاول أن ترتّب أفكارها المشوّشة. سبق أن استشارَت العرّاف، طارحةً أسئلة معيّنة: هل سينجح أعدائي؟

وقد بدا الجواب محيراً مربكاً. "عما قريب سوف يُرحَّب بالسجين في دياره، مع أنه يتألم الآن تحت سلطة أعدائه".

ما الذي يجري في العالم؟

كان باولو أمبروزي بانتظار اتصالها، وفي كامل الجهوزية للتصرف. أرادَت أن يكون غراهام آشبي ميتاً، إنما ليس قبل حصولها على أجوبة على أسئلتها الكثيرة. كان عليها أن تعرف مدى خيانة آشبي. عندئذٍ فقط يمكنها تقييم الأذى المحتمل. كانت الأمور قد تغيَّرَت. إن رؤية تلك الطائرة متجهة نحوها فوق برج إيفل قد ظلّت راسخةً في أفكارها. كما كان عليها استعادة سيطرتها على أموال النادي الباريسي التي تبلغ مئات ملايين اليورو والتي أبقاها آشبي في مصرفه.

ولكن اليوم يوم عطلة. يستحيل حدوث ذلك! سوف يكون هذا أول أمرٍ تتولى القيام به في الصباح.

كان آشبي موضع ثقة كبيرة عمياء. وماذا عن هنريك ثورفالدسن؟ كان قد قال لها إن الأمريكيين على علم بكل ما جرى. أيعني ذلك انكشافاً كاملاً؟ كان كل شيء في خطر؟ إن حدث اتصال مع آشبي، أفلن يصل إليها؟

رنّ الهاتف الذي كان موضوعاً على الطاولة الجانبية. هاتفها الأرضي. قلّة كانوا أولئك الذين يعرفون الرقم، إلى جانب بعض الأصدقاء والقدامى في الفريق.

وآشبي.

فردّت على الاتصال.

"سيدة لاروك، أنا هو الرجل الذي عيّنه لورد آشبي لتولّي معرضك صباح

اليوم".

لم تَقُلْ شيئاً.

قال الصوت: "سوف أتوخّى الحذَر أيضاً. اتصلتُ لأخبرك أنّ لورد آشبي تحت رعايتي. ثمة أعمال عالقة بيننا. بعد الانتهاء منها، أنوي قتله. فاطمئنّي لأنك سوف تسترجعين ديونك التي في ذمته".

"لماذا تقول لي هذا؟"

"سوف أتمكن من تقديم خدماتي إليك في المستقبل. أنا أعرف من كان يدفع الفاتورة. كان آشبي عميلك فحسب. هذه طريقتي للاعتذار عن الحادثة المؤسفة. يكفي القول إن أحد معارفنا الإنكليز قد كذب عليّ كذلك. قصدَ قتلك وشركائك، ولقى اللوم عليّ. من حسن الحظ أن أحداً منا لم يتأذَّ".

فكَّرَت في نفسها: لم يتأذَّ أحد جسدياً، ولكن الأذى قد حصل!

"لا حاجة للكلام يا سيدتي. اعلمي أن المشكلة سوف تُحَلّ".

ثم سكتَ الهاتف.



كان آشبي يستمع إلى بيتر لايون وهو يسخر من لاروك، وقد ارتاع لسماع كلمات "أنوي قتله". استمعت كارولين لنفس العبارة، فتحوّل خوفُها إلى رعب، إلا أنه أسكتها حين رمقها بنظرة بدت مُطَمْئِنة.

أغلق لايون الهاتف وابتسم. "لقد أرَدْتَها أن تكون بعيدة عنك. وهي بعيدة. لا يسعها فعل شيء، وهي تعرف ذلك".

"ليس فعلاً. لقد أسأتُ تقديرك. وهذه غلطة لن تتكرر معي بعد الآن". قالَت كارولين من غير تفكير: "لست مضطراً لقتلنا!"

ثمّ سأل آشبي: "ما الذي يردعك عن قتلنا بعد أن نكون قد تعاونّا بشكل كامل؟"

بدا وجه لايون مثل لاعب شطرنج ينتظر ببرودة خطوة خصمه التالية، علماً أنه يعرف خطوته سلفاً. "لا شيء. ولكن للأسف، يبقى التعاون الخيار الوحيد".



نزل هنريك من سيارة الأجرة أمام بازيليك سانت دينيس ونظر إلى برج الكنيسة الجانبي الوحيد إذ ينقصه توأمه. كان المبنى يبدو كأبتر فقد أحد أطرافه.

قالت له ميغان: " البرج الآخر أُحرِقَ في القرن التاسع عشر. لقد ضربَتْه صاعقة البرق. ولم يتمّ استبداله قط".

لقد أوضحت خلال الرحلة إلى الشمال أنه في ذلك المكان تحديداً كان يُدفَن الملوك الفرنسيون طوال قرون. بدءاً من القرن الواحد والعشرين، شكَّلَت الكنيسة معلماً تاريخياً وذلك قبل نوتردام بخمسين عاماً. هنا بالذات أبصرَت الهندسة القوطية النور. وخلال الثورة الفرنسية، تمّ تدمير عدد كبير من القبور، إلا أنه أعيد ترميمها. والآن، هي مُلْك الحكومة.

كانتْ السقالةُ معلقة بالجدران الخارجية التي تُغَلِّف ما يبدو واجهة شمالية وغربية تغطي على الأقل ثلاثة أرباع الطريق. وكان حاجز من الخشب الرقائقي المُشيَّد بسرعة يطوّق القاعدة، ما أعاق النفاذ إلى الأبواب الرئيسية. وكان هناك شاحنتا بناء مركونتَين على كل جانب من السياج الذي كان يستعمل كبديل مؤقت.

قال: "يبدو أنهم يعملون على المكان".

"هم دائماً يعملون على شيء في هذه المدينة".

نظرَ إلى السماء. كانت غيوم رمادية غامقة تحجب الشمس، مولِّدةً ظلالاً سميكة ومُخفِضةً الحرارة.

كانت عاصفة شتوية تستعد للقدوم.

تقع المنطقة المجاورة على بعد عشرة كيلومترات من باريس، ويعبرها كلٌّ من نهر السين والقناة. يبدو أن الضاحية مركز صناعي، وقد عبروا عدة منشآت صناعية.

بدأ ضبابٌ يتشكّل.

قالَت ميغان: "إن الطقس على وشك أن يصبح رديئاً".

أخذ الأشخاص المتواجدون في الساحة المبلّطة يهرولون أمام الكنيسة.

لاحظَت ميغان: "إنها منطقة خاصة بطبقة العمّال. ليست جزءاً يرغب السيّاح في زيارته".

"لذا لا تسمعون الكثير عن سانت دينيس، مع أني أظنّها مثيرةً للاهتمام أكثر من نوتردام".

لم يُبدِ اهتماماً بالتاريخ، إلّا فيما متعلّق ببحث آشبي. كان البروفسور مراد قد باحَ له عن بعض حلول الألغاز - الأمر الذي عرفَه آشبي حتى الآن كذلك، باعتبار أنّ كارول دود هي خبيرة تماماً بقدر مراد.

سرعان ما تحوّل الضباب إلى شتاء.

سألَت ميغان: "ما الذي سنفعله الآن؟ فالبازيليك مغلَقة".

سألَ نفسه لماذا لم يكن مراد قد وصل إلى هناك. كان البروفسور قد اتصل به منذ نحو ساعة وقال إنه متجه في تلك الأثناء.

أخذ هاتفه، ولكن الجهاز رنّ قبل أن يتمكّن من إجراء الاتصال. تفحّص الشاشة، ظنّاً منه أنه ربما يكون مراد. ولكن المتصل كان كوتون مالون.

أجابَ على الهاتف.

"هنريك، عليك أن تسمع ما الذي عليّ أن أقوله".

"ولِمَ ينبغي عليّ ذلك؟"

"أحاول تقديم المساعدة".

"لديك طريقة غريبة في القيام بذلك. لم يكن هناك من مبرّر لإعطاء ستيفاني ذلك الكتاب. كل ما فعلَته هو مساعدة آشبي".

"إنك تعرف كثر من ذلك".

"كلا، ليس صحيحاً".

ارتفعَ صوته، مما أدهش ميغان. فكَّر في نفسه أن عليه البقاء هادئاً. "كل ما أعرف هو أنك أعطيتها الكتاب. ثمّ كنتَ على متن السفينة مع آشبي، تقوم بما تظنّه صواباً أنتَ ورئيسك السابق، دون إشراكي بشيء. لقد أتممتُ ما هو عين الصواب، يا كوتون".

"هنريك، دَعْنا نعالج المسألة".

"ظننتُكَ صديقي يا كوتون. في الواقع، ظننتُكَ صديقي المفضَّل. كنتُ دائماً هناك من أجلك، مهما كان الأمر. لقد كنتُ مديناً لك بذلك". ثمّ اضطرّ أن يقاوم موجةً من الانفعالات. "كنتَ هناك من أجل كاي. ردعْتَ قاتليه. لقد قدّرْتُك واحترَمْتُك. ذهبْتُ إلى أطلنطا منذ عامَين لأشكرك، وإذ بي أجدُ صديقاً".

من جديد، صمتَ برهةً. ثمّ تابع: "ولكنك لم تعامِلْني بالاحترام نفسه. بل خنتني".

"فعلْتُ ما كان عليّ أن أفعله".

لم يشأ سماع التبريرات. "هل من شيء آخر تريدُه؟"

"لن يأتِ مراد".

كانت ازدواجية مالون صادمة بقوة كلياً.

أوضحَ مالون: "مهما يكن موجوداً في سانت دينيس، سوف يكون عليك إيجاده من دونه".

أمْسَكَ انفعالاته. "وداعاً كوتون! لن نتكلم بعد الآن".

أغلقَ الهاتف.



أغمضَ مالون عينَيه.

فالإعلان اللاذع - لن نتكلم بعد الآن - قد مزّق أحشاءه. رجل مثل هنريك ثورفالدسن لم يكن ليدْلي بأقوال مثل هذه باستخفاف.

ها قد خسرَ صديقاً للتوّ.

كانت ستيفاني تتأمل ما يجري من الجانب الآخر من مقعد السيارة الخلفي. كانوا متجهين من نوتردام إلى محطة القطارات الشمالية غار دي نورد، وهي محطة قطار مليئة بالحركة، مطبّقين المجموعة الأولى من سلسلة التعليمات التي أعطاهم إياها لايون بعد اتصاله الأولي.

غمَرَ المطر واقي الريح الزجاجي.

قالَت: "سوف يتخطّى ذلك. يجب علينا عدم الانشغال بمشاعره. تعرِف القواعد. ثمة عمل علينا القيام به".

"إنه صديقي. وعلاوةً على ذلك، أكره القواعد".

"أنت تساعده".

"لا يعتبر الأمر كذلك".

كان الازدحام خانقاً، وقد ضاعَفَ المطر التشويش. تذبذت عيناه متنقلة من الأسيجة إلى الشرفات فالسطوح، والواجهات المذهلة في كل جانب من الشارع، ثم ارتفعَت إلى السماء المائلة إلى الرمادي. لاحظَ العديد من محلات الكتب المستعملة، حيث كان مخزونها معروضاً في نوافذ اللوحات الإعلانية، والمطبوعات القديمة البالية، والمجلّدات التي تحوي ألغازاً.

فكّرَ بشؤونه الخاصة.

فكر بما قد ابتاع من مالك الأرض - ثورفالدسن، صديقه، وبعشاوات أيام الخميس في كوبنهاغن، وبرحلاته العديدة إلى كرستيانغيد، وبمغامراتهما. لقد أمضيا أوقاتاً كثيرةً معاً.

تمتمَ: "سوف يكون سام في غاية الانشغال".

دَلَّ فيض من سيارات الأجرة على اقتراب محطة غار دي نورد. من بين تعليمات لايون، الاتصال عندما يظهرون في محطة القطار.

أمسكَت ستيفاني الهاتف وطلبَت الرقم.



نزلَ سام من محطة المترو وهرول عبر المطر، مستعيناً بالمظلات البارزة من المتاجر المغلقة يتقي بها المطر، حاثاً الخطى نحو ساحة معروفة باسم "ساحة جان جوريس". على يساره، ارتفعت بازيليك سانت دينيس حيث تسبب برج مفقود بصورة غريبة بتشويه تناغمها الجمالي القديم. استفاد من المترو كأسرع طريق للشمال، متفادياً ازدحام العطلة في العصر.

فتّش في الساحة الباردة عن ثورفالدسن. عكَسَ البلاط الرطب، مثل جلد أسود لمّاع، مصابيح الشارع على شكل رماح ذات ضوء أصفر.

أتراه دخلَ إلى الكنيسة؟

استوقف زوجين شابين، كانا يشقان طريقهما نحو المترو وسألهما عن البازيليك. علمَ أنّ المبنى قد أُقفِل منذ الصيف من أجل تصليحات شاملة، والسقالة المُثَبَّتة على الجهة الخارجية خير دليل على ذلك.

ثمّ أبصرَ ثورفالدسن وميغان، قرب إحدى الشاحنات المركونة يساراً، ربما على بعد مئتَي متر.

شق طريقه باتجاههما.



رفع آشبي ياقة معطفه إزاء المطر ونزل إلى الشارع المهجور مع كارولين وبيتر لايون. وكانت السماء متلبّدة بالغيوم وكانت ستارها على العالم. استقلوا القارب ومضَوا غرباً في نهر السين إلى أن بدأ النهر التفافه شمالاً خارج باريس. أخيراً، غيَّروا اتجاههم في قناة، متوقّفين عند مرسى من الباطون قُرْب ممر علوي، على بعد أمتار في جنوب بازيليك سانت دينيس.

عَبَروا مبنى مُعَمَّد معروف باسم متحف الفن والتاريخ، وقادهما لايون إلى أسفل الرواق المُعَمَّد.

رنَّ الهاتف.

ردّ لايون، واستمعَ لبرهة ثمّ قال: "خذوا بولفار دو ماجنتا شمالاً وتوجهوا إلى بولفار دو روشيشوار. اتصلوا بي عندما تجدون ساحة كليشي".

أنهى لايون الاتصال.

كانت كارولين لا تزال مرتعبةً. تساءلَ آشبي عما إذا كانت ستصاب بذعر وتحاول أن تهرب. سوف يكون ذلك غباءً! إن رجلاً كلايون قد يقتلها في وهلة، سواء مع كنز أم من دونه. فاللعبة الذكية، اللعبة الوحيدة، كانت الأمل بحدوث خطأ. في حال عدم حدوث أي خطأ، ربما يستطيع أن يقدّم لهذا الوحش شيئاً قد يكون مفيداً، مثل مصرف يمكن من خلاله تبييض أموال حيث ما من أحد يطرح أسئلة.

سوف يحلّ المسألة بهذه الطريقة إذا اقتضت الضرورة.

في الوقت الحالي، كان كلّ أمله أن تعرف كارولين أجوبة عن أسئلة لايون التالية.

68

اجتاز ثورفالدسن وميغان بصعوبة طريقاً مفروشة بالحصى مجاورة للجانب الشمالي من البازيليك، بعيداً عن الساحة.

قالَت له ميغان: "يوجد دَيرٌ قديم في الجهة الجنوبية. ليس قديماً بقدر البازيليك. إنه يعود إلى القرن التاسع عشر، مع أنّ بعض أجزائه تعود إلى زمن أقدم. الآن، أصبحَ كلّيةً أو شيئاً من هذا القبيل. يحتل الدَّير مركز الصدارة في قلب الأسطورة المتعلقة بهذا المكان. بعدما قُطِع رأسه في مونتمارتر، راح أسقف باريس الأول، وهو المبشّر المسيحي لسانت دينيس، حسبما يُظَن، يمشي حاملاً رأسه. ودفنته امرأةٌ تقية حيث سقط. تأسس دَير في هذه البقعة، وقد أصبح في نهاية الأمر..."- أشارت إلى الكنيسة قائلةً - "بهذه الشناعة".

كان يحاول تحديد كيفية الدخول إلى المكان. كانت الواجهة الشمالية مؤلفةً من ثلاثة مداخل، جميعها محصّنة بقضبان حديدية من الخارج. في الأمام، حدَّدَ ما كان بالتأكيد مخصصاً للمشي، نصف دائرة من الحجر مثقوبة بنوافذ ذات زجاج ملوّن.

ظلّ المطر ينهمر.

كانوا بحاجة لإيجاد ملجأ.

قالَ: "هيا بنا ندور حول الزاوية في الأمام ونجرّب الجهة الجنوبية".



نظَرَ آشبي بإعجاب إلى البازيليك. واضح أنها معجزة من المهارة والحِرَفية. كانوا متجهين إلى طريق مفروش بالحصى في الجانب الجنوبي من المبنى، بعدما بلغوا مدخل الكنيسة عبر فتحة في حاجز بناء مؤقت.

كان شعره ووجهه مبلّلين، وكانت أذناه تحترقان من البرد. حَمَدَ ربّه لأنه كان قد لبس معطفاً سميكاً، وقفّازات سميكة من الجلد، وملابس داخلية طويلة. وكذلك كارولين كانت قد ارتدَت ثياباً ملائمة للشتاء، ولكن شعرها الأشقر كان مجدولاً على رأسها. كانت كدسات من حجر البناء، وعمارات من الصخر

الرسوبي وشظايا رخامية ممتدّةً على الطريق، بين البازيليك وجدار حجري يفصل الكنيسة عن بعض المباني المجاورة. وقفَت شاحنة بناء في الأمام عند العمارات الخرسانية، وقد ارتقَت خلفها السقالة إلى الجدران المفصولة. في الجانب الأقصى من الشاحنة، فوق اثنتي عشرة درجة من الحجر، تعلو بوابة قوطية، تضيق من الأمام إلى الخلف عبر سماكة الجدران باتجاه بابَين مزدوجَين مُثَبَّتَين بإحكام بواسطة صفائح من الحديد الأزرق.

صعِدَ الأدراج وجرَّبَ مزلاج الباب.

كان موصداً.

قال لايون مشيراً إلى الحطام: "أترى تلك القطعة من الأنبوب الحديدي؟ إننا نحتاج إليها".

أراد أن يعرف. "هل ستشق طريقك إلى الداخل؟"

طأطأ لايون رأسه وقال: "لِمَ لا؟"



شاهَدَ مالون ستيفاني وهي تطلب رقم آشبي مرَةً أخرى. وكانوا قد وصلوا إلى ساحة كليشي، وهي ملتقى طرق مليء بالحركة.

أعطى لايون التعليمات التالية عبر مكبر الصوت في الهاتف: " جنوباً في شارع أمستردام، وراء محطة سانت لازار. تقع الكنيسة التي تبحثون عنها بمحاذاة محطة القطار. سوف أعجّل. سوف تتم العملية خلال ثلاثين دقيقة. لا تعاودوا الاتصال. لن أجيب".

سمعَ السائق اسم المَوْقع وتوجّه نحوه. على ما يبدو، يلزمهم أقل من ثلاثين دقيقة للوصول إلى محطة سانت لازار.

توجد كنيستان مواجهتان للمحطة المليئة بالحركة، جنباً إلى جنب.

تمتَمَت ستيفاني: "أيٌّ منهما؟"



مرَّ سام حول الجانب الشمالي من البازيليك، تابعاً هنريك وميغان تحت المطر. كانا قد انعطف عند الزاوية متقدّمين مئة قدم. كان هذا الجانب الأقصى من

البازيليك مستديراً، مليئاً بالمنعطفات، ومختلفاً عن الحافات المستقيمة في جانب الساحة.

تقدَّمَ بحَذَر إذ لم يشأ إنذار ثورفالدسن بحضوره.

تَبِعَ نصف دائرة الكنيسة وتأرجَحَ حول الجانب الجنوبي من المبنى.

لمَحَ على الفور ثورفالدسن وميغان، محتشدَين تحت فرع محميّ ناتئ من البازيليك ومتصل ببناء مجاور. سمِعَ رنيناً من بعيد، وراء المكان حيث كان ثورفالدسن واقفاً.

وتلته أصوات إضافية.



أقحمَ آشبي أنبوب المعدن الثقيل في المزلاج. وفي الضربة الرابعة، مهَّد المقبض السبيل.

وبضربة أخرى أسقطَت رافعة الحديد الأسود الأدراجَ الحجرية.

حرَّك لايون الباب المفتوح بلطف. "كان الأمر سهلاً".

رمى آشبي الأنبوب.

أمسكَ لايون مسدسه، لئلا يحاولوا ارتكاب أية حماقة، ثئم صوّبه باتجاه كارولين.

"حان الوقت لنتأكد من صحّة شكوكها"



اتخذَ مالون قراراً. "لم تفكّر أن لايون سوف يسهل الأمر، صحيح؟ ذهبت يميناً إلى الكنيسة. سوف أذهب يساراً".

توقّفت السيارة وترجّل كلاهما تحت المطر.



سُرَّ آشبي بدخوله إلى البازيليك. كان التصميم الداخلي دافئاً وجافاً في آنٍ واحد. كانت حفنة من تجهيزات الإضاءة العلوية مُشتعلةً، إلا أنها كانت كافيةً لتمكينه من تقدير فخامة صحن الكنيسة الشاهق: عواميد شامخة محزَّزة،

ربما يبلغ ارتفاعها ثلاثين متراً، وأقواس جميلة، ناهيك عن قنطرة مستدقّة الطرف تبعث حسّاً مهيباً. كما توجد نوافذ ذات زجاج معشّق لا يُحصى عددها، قاتمة في النهار الكئيب، لا تعكس شيئاً من القوة الحسّية التي تبعثها تأثيرات الإنارة. غير أن غياب أي ملامح منظورة تحمل شيئاً طويلاً جداً ومنتصباً كان يعطي انطباعاً بأن الجدران معدومة الوزن. لا شكّ أنه كان يعرف أن الدعائم الخارجية كانت على شكل دعائم معدة للحركة السريعة. حَمَلَ نفسه على التركيز على التفاصيل كطريقة للتخفيف من روعه. كان عليه أن يفكّر ليستعدّ للتصرّف عندما يحين الوقت.

قالَ لايون: "آنسة دود. ماذا الآن؟"

قالت كارولين: "لا أستطيع التفكير وهذا المسدّس مسدَّد نحوي. مستحيل! لا أحب الأسلحة. ولا أحبك. ولا أحب أن أكون هنا".

ضاقَت عينا لايون القاسيتان: "إذا كان ذلك يساعدك، فسأضعه هنا".

وَضَعَ السلاح تحت معطفه، ورفع يدَين فارغتين مغطّاتين بقفّازات. "هكذا أفضل؟"

كافَحَت كارولين من أجل استعادة هدوئها ورباطة جأشها. "سوف تقتلنا في جميع الأحوال. لماذا عليّ إذاً أن أقول لك شيئاً؟"

تلاشَت كلّ ملامح الودّ عن وجه لايون. "ما إن نجد شيئاً ينبغي إيجاده، حتى يحدث تغيير في قلبي. بالإضافة إلى ذلك، يراقب لورد آشبي هناك كل خطواتي، وينتظرني على أقل هفوة وغلطة. سوف تكون هذه إذاً فرصةً لنا لنعرف إذا كان رجلاً بالفعل".

تمسّكَ آشبي بآخر ما بقي له من شجاعة. "ربما سأحصل على هذه الفرصة".

ارتسمَت تكشيرة على شفتي لايون. "آمل ذلك. والآن يا آنسة دود إلى أين نذهب؟"

أنصت ثورفالدسن وراء الباب نصف المفتوح الذي كان آشبي قد ضربه بقوة. كان وميغان قد زحفا وراء آشبي. تسلّلت كارولين دود والرجل صاحب المعطف الأخضر إلى الداخل. كان واثقاً نوعاً ما بأن المشترك الثالث كان

الرجل الثاني الذي قفز من سفينة نقل السياح مع آشبي.

همَسَت ميغان في أذنه: "ما الذي نفعله؟"

كان عليه وضع حدّ لهذه الشراكة. أومأ لها بالتراجع.

خرجا من البوابة، واذا بهما من جديد تحت المطر. عادا إلى مكانهما السابق تحت ممشى مغطًّى. لاحظَ غرف استراحة ومكتباً إدارياً وافترضَ أن الناس يبتاعون التذاكر من هنا لزيارة البازيليك.

أمسكَ ميغان بذراعها. "أريدكِ أن تخرجي من هنا فوراً".

"لستَ بتلك الدرجة من القسوة، أيها العجوز. يمكنني أن أتولّى أمري بنفسي".

"لستِ بحاجة للتورّط في المسألة".

"سوف تقتل المرأة والرجل الآخر أيضاً؟"

"إذا لزم الأمر".

هَّزت رأسها. "لقد أضَعْتَ الفرصة".

"هذا صحيح. بالفعل أضعْتُها. هيا غادري إذاً".

ظلّ المطر ينهمر بغزارة، متدفقاً على السطوح، ويطرطش على الرصيف الذي يعلو الفسحة التي كانا فيها. بدا أن كل شيء يحصل في حركة بطيئة تنويمية. إن حياة كاملة من العقلانية كانت على وشك أن يمحوها شجن لا حدود له. لطالما حاول إيجاد بدائل للفرح منذ وفاة كاي! العمل؟ السياسة؟ الإحسان؟ الأرواح الضائعة؟ مثل كوتون، وسام. إلا أن شيئاً لم يشبع تلك الهستيريا التي بدت تحتدّ في نفسه باستمرار. تلك كانت مهمته. يجب عدم توريط أشخاص آخرين.

قالَت له ميغان أخيراً: " لا أريد أن أُقتل".

حملَت كلماتها شيئاً من الازدراء.

"غادري إذاً!"

قذف لها هاتفه الجوّال. "لستُ بحاجة إليه".

واستدار.

قالَت: "أيها العجوز!"
توقّفَ ولكنه لم ينظر في وجهها.
"اعتنِ بنفسك!" قالَت له ذلك بصوت خافت وناعم، يدل على قلق حقيقي.
أجابها: "أنتِ أيضاً!"
ثمّ خطا خارجاً تحت المطر.

69

شقَّ مالون طريقه عبر سلسلة ثقيلة من الأبواب المصنوعة من خشب البلوط في كنيسة سانت أندراوس. إنها نموذج عن كنائس باريس، بقناطرها الهرمية، المكلَّلة بمعرض فني، جدار عالٍ محيط بالممشى المسقوف. كانت دعائم صلبة متحرّكة تدعم الجدران من الخارج. إنها روعة قوطية بَحْتة!

ملأ الناس المقصورات واحتشدوا في أجنحة الكنيسة على كل جانب من صحن الكنيسة الطويل الضيق. ورغم التدفئة، إلا أن الهواء حملَ ما يكفي من البرد لدرجة أن كثيرين كانوا يرتدون معاطف. كان عددٌ كبير من المؤمنين يحملون أكياس تسوّق، وحقائب ظهر، وحقائب يد كبيرة. كل هذا يعني أن مهمته في العثور على قنبلة أو أي سلاح قد أمْسَت مليون مرّة أصعب.

تنقّل عَرَضاً وسط الحشود. كان التصميم الداخلي عبارةً عن إطار أعشاش وظلال. لم تكن الأعمدة الشامخة تساند السطح فحسب، بل كانت أيضاً تزوّد المهاجم بحماية.

كان مُسلَّحاً ومستعدّاً.

إنما لأي هدف؟

ارتَجّ هاتفه. تراجَعَ ووقف خلف أحد الأعمدة، في جناح جانبي خالٍ من الناس. ردَّ على الهاتف بهدوء.

قالَت ستيفاني: " انتهَت خدمة الصلوات هنا. ها هم الناس يغادرون".

انتابه إحساس ما، ذاك الذي اعتراه لحظة دخوله.

همَسَ: "تعالي إلى هنا".



سارَ آشبي نحو هيكل الكنيسة الرئيسي. كانوا قد دخلوا إلى البازيليك عبر مدخل جانبي، قربَ سلالم داخلية تُؤدي إلى مذبح وأخرى تقود إلى سرداب. امتدت صفوف من الكراسي الخشبية، صفّاً تلو الآخر، من المذبح الرئيسي نحو الجناح الشمالي والمداخل الرئيسية، حيث يوجد جدار شمالي مثقوب

بنافذة هائلة الحجم باللون الوردي، داكن في النهار المتلاشي. كانت القبور منتشرة هنا وهناك بين الكراسي وفي الأجنحة، وكان معظمها مزيّناً برخام مُرصَّع. كانت النّصب التاريخية ممتدَّةً من طرف صحن الكنيسة إلى الطرف الآخر، ربما على بعد مئة مترٍ من المساحة المغلقة.

قالَت كارولين وهي تلفظ كلماتها بخوف: "أرادَ نابوليون أن يملك ابنه الكنز. أخفى ثروته بحذر، في مكان لا يستطيع أحد الوصول إليه، باستثناء الذين أرادهم أن يجدوه".

قالَ لايون: "مثلما ينبغي على كل شخص ذي نفوذ أن يفعل".

ظلّ المطر ينهمر، وكان صوته وهو يرتطم بالسقف النحاسي يبعث صدى عبر الصحن.

"بعد خمسة أعوام من النفي، أدرَكَ أنه لن يرجع أبداً إلى فرنسا. كما عرف أنه يقترب من الموت. فحاول نقل بيانات الموقع إلى ابنه".

قالَ لايون لآشبي: "هل للكتاب الذي أعطاك إياه الأمريكيون علاقة بالأمر؟"

أومأ رأسه.

قالَت كارولين: "أظن أنك قلتَ لي إن لاروك قد أعطَتْكَ الكتاب".

أوضَحَ لايون: " لقد كَذَبَ. ولكن ذلك لا يهم الآن! ما أهمية ذلك الكتاب؟"

أجابَت كارولين: "يحمل رسالة".

كانت تقدِّم قدراً هائلاً من المعلومات إنما بسرعة فائقة. إلا أن آشبي لم يجد طريقةً ليطلب منها التباطؤ.

قالَت: " أعتقدُ أنني ربما استطعتُ حلّ لغز رسالة نابوليون الأخيرة".

قال لايون: "أخبريني!"



راح سام يراقب ثورفالدسن فيما ترك هذا الأخير ميغان التي عادت لتغمرها الأمطار، مهرولةً حيث وقفَ مختبئاً ليحتمي تحت نتوءات الجدار الخارجي. أسندَ ظهره على الصخر الرطب البارد، بانتظار أن تنعطف عند الزاوية. لا شكّ أن البرد كان ينخر عظامه، إلا أن أعصابه كانت في منتهى التشنّج، حتى أنه

تخدَّر وفقد حواسه. فالطقس كان آخر همّ عنده.

ظَهرَت ميغان.

سألها بهدوء: "إلى أين تذهبين؟"

توقَّفَت فجأةً واستدارَت. كانت دهشتها واضحةً. "اللعنة يا سام، لقد أرْعَبْتَني!"

"ما الذي يجري؟"

"إن صديقك على وشك ارتكاب حماقة".

افترَضَ ذلك. "ما كانت تلك الشائعة التي سمعتها؟"

"اقْتَحَمَ آشبي وشخصان آخران الكنيسة".

أرادَ أن يعرف من كان مع آشبي فسألها. وصفَت له المرأة فرأى أنه لا يعرفها، غير أن مواصفات الرجل الآخر تطابقَت مع مواصفات ذاك الرجل الذي كان في سفينة نقل السياح: بيتر لايون. كان عليه الاتصال بستيفاني. وضعَ يده في جيب معطفه وتحسّس هاتفه.

قالَت ميغان مشيرةً إلى الجهاز: "ثمة أجهزة تتبّع. على الأغلب أنهم يعلمون بمكانك".

ليس بالضرورة. كان مالون وستيفاني منهمكَين في معالجة كل تهديد صادر عن لايون. غير أنه أُرْسِلَ ليقوم بالعناية بثورفالدسن، وليس لمواجهة إرهابي مطلوب.

ناهيك عن مشكلة أخرى.

استغرَقَت الرحلة عشرين دقيقةً في المترو. أمامه طريق طويل من وسط باريس، في ضاحية شبه مهجورة بلّلَتها العاصفة.

هذا يعني أن تلك كانت مشكلته.

لا تنسَ أبداً يا سام. إن الغباء سوف يقتلك. كان نورستروم- باركه الله- على حقّ، إنما كان هنريك بحاجة إليه.

استبدلَ الهاتف في جيبه.

سألَت ميغان، وقد بدا أنها قرأت أفكاره: "لن تأتِ إلى هناك، أليس كذلك؟"

حتّى قبل أن يقول ذلك، أدركَ كم بدا ذلك غباءً. ولكن تلك كانت الحقيقة. "يجب عليّ ذلك".

"كما في أعلى برج إيفل؟ متى يمكنك أن تُقتَل مع باقي الفريق؟"

"شيء من هذا القبيل".

"سام، يريد ذاك العجوز أن يقتل آشبي. لن يردعه شيء".

"أنا سأردعه".

هزَّت رأسها. "سام أحبك. حقّاً أحبك. ولكنك مجنون تماماً. هذا كثير!"

وقفَت تحت المطر. كان وجهها متشنّجاً من شدّة الانفعال. فكَّرَ في قبلتهما في الليلة الماضية، تحت الأرض. كان يوجد شيء بينهما. رابط ما. انجذاب. مع ذلك، رأى هذا في عينيها.

قالَت بصوت متصدع: "لا أستطيع".

التفَتَت وانصرَفَت.



اختارَ ثورفالدسن توقيتَه بعناية. توارى آشبي ورفيقَيه عن الأنظار في صحن الكنيسة المظلم. كانت العتمة في الخارج متناغمة تقريباً مع التصميم الداخلي المظلم، فتمكّن إذاً من التسلل إلى الداخل من دون أن يلحظه أحد، فكان الريح والمطر يحجبانه.

فُتِحَ المدخل في وسط الجانب الجنوبي الطويل من الكنيسة. انحرف فوراً إلى اليسار وانحنى خلف نصب تذكاري جنائزي متطوّر يحمل قوس نصر يترضّع تحته تمثالان منحوتان برخام قديم. كان كلاهما تجسيداً ضعيفاً، بما أنه كان بإمكانهما الظهور كجثة أكثر منها ككائنٍ حيّ. كانت هناك صفيحة من النحاس الأصفر تحدّد تماثيل تجسّد شخصياتٍ تعود إلى القرن السادس عشر مثل فرانسوا الأول وملكته.

سمعَ صخباً من الأصوات الرفيعة، خلف الأعمدة الناتئة نحو الأعلى في عرض قوطي متصاعد. ظهرَ مزيد من القبور في الضوء الخافت، إلى جانب الكراسي الخالية المرتَّبة في صفوف واضحة. جاء صوت في نفحات قصيرة.

لم يكن سمَعُه جيداً كما في الماضي، وما زاد الأمر سوءاً أن المطر كان يرتطم بالسقف.

كان عليه أن يقترب أكثر.

غادرَ مخبأه وركَضَ إلى النّصب التالي الذي كان عبارة عن منحوتة أنثوية دقيقة، أصغر من الأولى. اندفع الهواء الدافئ من نافذة مشبكة قرب الأرضية. تقطَّرَ الماء من معطفه على الأرض المصنوعة من حجر الكلس. فكَّ أزراره بحذر وألقى عنه اللباس المبلل، ولكنه سحب المسدس أولاً من إحدى جيوبه.

زحَفَ إلى عمود على بعد بضعة أمتار تفصل ما بين جناح الكنيسة وصحنها. حرص ألّا يُحدث أي ضجة.

صوتٌ واحد وتتبدد فرصته.



استمع آشبي إلى كارولين وهي تصارع خوفها وتفشي لبيتر لايون ما أراد أن يعرفه، ساحبةً من جيبها قطعة ورق.

قالَت: إن هذه الأرقام الرومانية هي رسالة. اسمها عقدة المغربي. تعلّم الكورسيكيون التقنية من القراصنة العرب الذين خرَّبوا شاطئهم. إنها شيفرة".

قبض لايون على الورقة.

CXXXV II CXLII LII LXIII XVII

II VIII IV VIII IX II

أوضحَت: "يشيرون عادةً إلى صفحة، وسطر، وكلمة من نص معيّن. يحمل المرسل والمتلقّي النص نفسه. وبما أنهما وحدهما يعرفان فقط أي نص قد استُخدِم، فإن حلّ الشيفرة من قِبَل شخص آخر شبه مستحيل".

"كيف تمكنتِ من ذلك إذاً؟"

"أرسلَ نابوليون هذه الأرقام إلى ابنه سنة 1821. آنذاك، لم يكن الصبي يبلغ من العمر سوى عشرة أعوام. في وصيته، تركَ نابوليون للصبي 400 كتاب وقد أسمى واحداً على وجه الخصوص. إلا أن الصبي لم يكن قادراً على تلقي الكتب قبل عيد ميلاده السادس عشر. إن هذه الشيفرة غريبة بحيث إنها عبارة عن مجموعتي أرقام، تحددان على الأرجح الصفحة والسطر فقط. ولكي

يتمكّن الابن أو أمه من فكّ الشيفرة، لا بد من معرفة النص الذي استخدمه نابوليون. لا يمكن أن يكون ذاك الذي في الوصية، بما أنهما لم يعلما بالوصية عندما أرسل هذه الشيفرة. على أي حال، كان نابوليون لا يزال حينذاك على قيد الحياة ".

كانت تتحدّث بشكل مفكَّك من شدة خوفها، ولكن آشبي سمح لها بالمتابعة.

"لذا افترضتُ أن يكون نابوليون قد استخدم نصّاً عالمياً، نصّاً صالحاً في كل زمان ومكان، يسهل إيجاده. عندئذٍ، أدركتُ أنه تركَ دليلاً عن أين يجب علينا أن نبحث".

في الواقع، بدا لايون متأثّراً. "أنتِ مُحَقِّقة ماهرة!"

لم تخفّف هذه المجاملة من توترها.

لم يسمع آشبي شيئاً من هذا وبدا فضولياً بقدر لايون.

قالَت كارولين: "الكتاب المقدس. استعملَ نابوليون الكتاب المقدس".

70

تفرّس مالون في وجوه الحشد واحداً تلو الآخر. انحرف بصره نحو الأبواب الموكبية في المدخل الرئيسي حيث اندفع مزيد من الناس في الداخل. توقّف كثيرون عند حوض التعميد التزييني ليبلّلوا إصبعهم ويرسموا إشارة الصليب على وجوههم. كان على وشك الابتعاد لمّا مرّ رجلٌ بسرعة متجاهلاً جرن المعمودية. كان رجلاً قصير القامة، له بشرة بيضاء وشعر أسود وأنف طويل معقوف. كان يرتدي معطفاً أسود طويلاً يصل إلى الركبة، وقفّازاتٍ جلدية. كان وجهه جامداً يوحي بجدّية مضجرة بعض الشيء. كان يعلّق حقيبة ظهر ضخمة على كتفه.

ظهر كاهن وقندلفتان أمام المذبح العالي.

اعتلت محاضِرة المنبر وطلبَت من المؤمنين الانتباه. لعلَعَ الصوت الأنثوي عبر جهاز النداء.

صمَتَت الجماهير.

تقدّمَ مالون نحو المذبح، يشق طريقه عبر الأشخاص الذين كانوا واقفين وراء المقاعد الخشبية في الجناح مستمعين إلى الصلوات. من حسن الحظ أنّ أياً من الأجنحة لم يكن مزدحماً. لقى نظرة خاطفة إلى صاحب الأنف الطويل الذي يشق طريقه إلى الأمام وسط الحشد، في الجناح المقابل، وكانت الصورة تومض وتنطفئ بين الأعمدة.

ثمة هدف آخر أثار فضوله. في الجناح المقابل أيضاً: رجل ذو بشرة باللون الزيتوني، وشعر قصير، يرتدي معطفاً كبر من مقاسه من دون قفازات. لعنَ مالون نفسه للسماح بحدوث أي من هذه الأمور. ما من تحضير وما من فكرة، وقد تلاعب به قاتلٌ جماعي. إن مطاردة الأشباح قد يتبين أنها شيء وهمي. فتلك ليست الطريقة لقيادة أي عملية.

ركّزَ من جديد على صاحب البشرة الزيتونية.

بقيَت يد الرجل اليمنى في جيب معطفه، في حين كانت اليد اليسرى على جنبه. لم ترق لمالون تلك العينان القلقتان، بيد أنه سأل نفسه عمّا إذا كان

يقفز إلى استنتاجات غير منطقيّة.

عكَّرَ صوتٌ عالٍ جوّ الجديّة الذي كان سائداً.

كانت هناك امرأة في منتصف الثلاثينيات، ذات شعر داكن اللون ووجه قاسٍ واقفةً أمام أحد مقاعد الكنيسة، تتكلم مع الرجل الذي بجانبها. التقطَ بعضَ الكلمات الفرنسية.

كان شجاراً.

صرخت قائلة شيئاً آخر، ثمّ هرَعَت خارجة من المقعد.



دَخَلَ سام إلى سانت دينيس، وجلسَ خافضاً رأسه على أمل ألّا يلمحه أحد. كان كل شيء هادئاً في الداخل. ما من علامات تدلُّ على أيٍّ من ثورفالدسن، أو آشبي أو بيتر لايون.

لم يكن مسلّحاً، إلا أنه لم يكن بإمكانه السماح لصديقه بمواجهة الخطر لوحده. لقد آن الأوان ليردّ الجميل الذي قدّمه له الدانماركي.

قلّما استطاع التمييز في ذاك النور الضئيل، ناهيك أن الريح والمطر في الخارج قد صعّبا عليه سماع الأصوات. نظرَ إلى اليسار واختلس النظر إلى شكل ثورفالدسن المألوف المحني، الذي كان يقف على بعد خمسين قدماً، قرب أحد الأعمدة الضخمة.

سمعَ أصواتاً من وسط الكنيسة.

كانت الكلمات تأتي متقطّعةً.

تحرّكت ثلاثة أشكال في النور.

لم يجازف بالتوجّه نحو ثورفالدسن، فبقي خافضاً رأسه وتقدّم بضعة أقدام.



انتظرَ آشبي كارولين لتشرحَ ما فعله نابوليون.

قالَت: "للتحديد أكثر، استخدم المزامير".

أشارَت إلى المجموعة الأولى من الأرقام الرومانية.

CXXXV
II

قالت: "المزمور 135، الآية 2، لقد دوّنتُ السطر".

فتّشَت في جيب معطفها ووجدَت ورقةً أخرى.

"الواقفين في بيت الرب في ديار بيت إلهنا".

ابتسمَ لايون وقال: "ذكية! تابِعي!"

"يشير الرقمان الرومانيان التاليان إلى المزمور 142، الآية 4: "انظر إلى اليمين".

"كيف تعرفين..." - ما إن بدأ لايون جملته حتى سُمِعَ صوتٌ قربَ المذبح الرئيسي والباب حيث دخلوا، استرعى انتباه آسرهم.

عثَرَت يد لايون اليمنى على المسدس واستدار لمواجهة التحدّي.

صرخَت كارولين: "النجدة! النجدة! ثمة رجل هنا يحمل مسدساً".

صوّبَ لايون السلاح مباشرةً نحو كارولين.

كان على آشبي أن يتصرّف.

زَحَفَت كارولين إلى الخلف، وكأن بإمكانها تفادي الخطر بالتراجع. وكانت عيناها مشتعلتَين بخوف غير عادي.

حاول آشبي أن يدافع عنها: "إن إطلاق النار عليها قد يكون حماقةً. هي الوحيدة التي تعرف الموقع".

أمَرَ لايون، مبقياً المسدس مصوّباً نحو كارولين: "قُلْ لها أن تهدأ وأن تخرس".

أبقى آشبي عينيه مثبّتَتَين على عشيقته. رفعَ يده ليردعها عن الكلام.

"أرجوكِ كارولين، يكفي!"

بدا وأنها أحسّت بالضرورة الملحّة للطلبُ فجَمدت في مكانها.

قال لايون: "مع كنز أو بدونه، إذا صدر صوت واحد منها، اعتبرْها ميتةً".



شاهَدَ ثورفالدسن كارولين دود وهي تجرِّب تحديد مصيرها. كان قد سمع الصوت هو أيضاً من البوابة التي دخل منها. كان على بعد نحو خمسة عشر متراً، وراء حاجز من القبور.

ثمّة من دخَلَ وأعلنَ حضوره.



التفَتَ سام إلى الضجة الآتية من المدخل. لمحَ شكلاً أسود قرب الجدار الخارجي، يقترب من مجموعة سلالم تؤدي إلى طابق آخر وراء المذبح الرئيسي.

إن حجم وشكل الطيف قد أكّدا هويّته: كانت ميغان.



لاحَظَ آشبي أنّ اندفاع الرياح والأمطار من الخارج قد ازداد، وكأن الأبواب التي اقتحموها قد فُتِحَت بشكل أوسع.

قالَ للايون: "تهبّ عاصفة هناك في الخارج".

"أسكُتْ أنت!"

أخيراً، انفعَلَ لايون. أرادَ أن يبتسمَ لكنه كان يعرف أكثر.

كانت عيناً لايون الكهرمانيّتان بمثابة إنذار، مثل كلب دوبرمان، يطوف في الكهف المظلم المحيط بهم، مصوّباً مسدسه فيما يتحرّك ببطء.

رأى آشبي ذلك في نفس الوقت مع لايون.

هناك حركة على بعد ثلاثين متراً على السلالم إلى يمين المذبح، تلك التي تُؤدي إلى مذبح الكنيسة والممشى المسقوف.

ثمّة شخص هناك.

أطلقَ لايون النار. مرّتَين. تردّدَ صدى صوتٌ، مثل فرقعة بالونَين، بفضل كاتم الصوت، عبر صحن الكنيسة.

ثمّ تطاير كرسيّ عبر الهواء وارتطم بلايون.

وتلاه كرسيّ آخر.

71

أبقى مالون تركيزه على المرأة التي غادرت المقعد. كذلك غادرَ الرجل الذي كانت تتشاجر معه المقعدَ هو أيضاً ومشى خلفها، وقد ابتعدَ كلاهما عن المذبح، متّجهين نحو الأبواب الرئيسية. كان يلبس معطفاً رقيقاً من النايلون، مفتوحاً من الأمام. لم يَلْحَظْ مالون ما يثير الريبة.

نظرَ من جديد إلى الحشود.

لمحَ صاحب الأنف الطويل، ذاك الذي يحمل حقيبة ظهر، يتجه إلى مقعد نصف ممتلئ نحو الأمام، يصلّب يده على وجهه ويركع ليصلّي.

لمَحَ صاحب الوجه الزيتوني وسط الظلمة قرب المذبح. كان لا يزال في الجناح المقابل. دفع الرجل آخر المتفرّجين وتوقّف عند حبال مخملية تعيق أي منفذ إضافي إلى الأمام.

لم يحب مالون ما رآه.

زجَّ يده تحت السترة وتحسّس المسدس.



أبصرَ سام لايون يطلق النار باتجاه المسار الذي كانت ميغان قد سلكته. سمعَ الرصاص يئزّ على الحجر وأمل أن تكون الطلقات قد أخطأت هدفها.

قعقعَت ضجّة جديدة في الكنيسة.

وتلتها ضجّة أخرى.

رأى آشبي الكرسيّين المطويين يرتطمان بلايون الذي لم يكن متهيئاً للهجوم، ممّا أثَّر على توازنه وهو يتمايل. كانت كارولين قد قذفت بهما بينما كان لايون يبحث عن الشخص الذي كان قد دخل الكنيسة.

ثمّ هربَت مختفية في الظلام.



استرجَعَ لايون حيويته وأدركَ أن كارولين قد ذهبَت.

صوَّبَ المسدس باتجاه آشبي.

قال لايون: "كما ذكرتَ، هي الوحيدة التي تعرف الموقع. أما أنتَ فلا أحتاج إليك".

هذه نقطة يبدو أن كارولين لم تأخذها بعين الاعتبار.

"أرجِعْها إلى هنا!"

نادى: "كارولين، يجب أن تعودي".

لم يسبق أن صُوِّب مسدسٌ نحوه. كان إحساساً مروّعاً حقّاً.

إحساسٌ لم يَرُقْ له بتاتاً.

"الآن أرجوك!"



رأى ثورفالدسن كارولين دود تقذف بالكرسيَّين باتجاه لايون، ثمّ تختفي وسط ظلمة الجناح الغربي. كان عليها أن تشقّ طريقها محتميةً بالقبور والأعمدة والعتمة. لم يكن هناك سبيل آخر، بما أن الجناح البعيد كان قريباً جداً من بيتر لايون وأكثر إنارةً.

كانت عيناه معتادتَين على الظلمة، فظلّ مُصرّاً على موقفه، مبقياً عيناً على لايون وآشبي وأخرى على الهدوء الذي على يساره.

ثمّ رآها. تحرّك خلسةً، وعلى الأغلب أنه توجّه إلى أبواب المدخل الجنوبي المفتوحة، حيث ظلَّ الهواء والمطر يعلنان حضورهما.

نحو المخرج الوحيد.

كان جوّ من الاضطراب يسود المكان. سوف يعرف لايون بالأمر هو أيضاً.



التفَّت أنامل مالون حول البيريتّا. مع أنه لا يرغب في ذلك، ولكنه قد يطلق النار على صاحب البشرة الزيتونية مباشرةً هنا، إن اضطرّ لذلك.

كان هدفه واقفاً على بعد ثلاثين قدماً وانتظر أن يقوم الرجل بخطوة. دَنَت امرأة من صاحب البشرة الزيتونية وتشابكت يداها مع يدَيه. قبَّلَتْه بلطف على

خَدِّه. بدا متفاجئاً في البداية، ولكنه سرعان ما تعرّف عليها إذا بدآ يتحدّثان.

عادا نحو المدخل الرئيسي.

أرخَى مالون قبضته عن المسدس.

إنذار خاطئ!

نظرَ من جديد إلى صحن الكنيسة فيما بدأت الحشود تتهافت. لمحَ صاحب الأنف الطويل وهو يخرج من المقعد متجها نحو الممر المركزي.

ظلَّ مالون يبحث عن المشاكل. عليه إصدار أمر بإخلاء المكان. ولكن هذه المرّة أيضاً ربما لا يوجد شيء.

وقفَت امرأة عند المقعد الذي كان صاحب الأنف الطويل قد غادره، حاملةً حقيبة الظهر. أشارت إلى الرجل، مومئةً بأنه قد نسيَ غرضاً. لوّح لها صاحب الأنف الطويل مودّعاً وظل ماشياً. خرجَت المرأة ودخلَت إلى الممرّ المركزي وسارعت الخطو وراءه.

بقيَ مالون في جناح الكنيسة.

التفَتَ صاحب الأنف الطويل ورأى المرأة تأتي إليه حاملة حقيبة الظهر في يدها. اندفعَ نحوها وانتزع الرزمة البلاستيكية السوداء من قبضتها، وقذف بها إلى الأمام. انزلقَت الرزمة عبر الأرض الرخامية، وتوقفت عند قاعدة منبسطي درج قصيرين يُصعدان إلى المذبح.

التفَتَ صاحب الأنف الطويل وركض إلى المخرج.

تدفّقَت أفكار مدينة مكسيكو في ذهن مالون.

هكذا كانت!

افعَلْ شيئاً!

72

انتظرَ ثورفالدسن أن تقترب كارولين. كانت تستخدم بمهارة زوايا الحائط، حاجبةً تقدّمها نحو بوابة البازيليك الجنوبية. انحنى وجلس في موضع مناسب بانتظار مرورها. كانت إحدى يديه متمسّكةً بالمسدس، في حين أن الأخرى كانت مستعدّةً لالتقاط الهدف. لم يكن بإمكانه السماح لها بالرحيل. خلال العام الماضي، كان قد استمع إلى تسجيل تلو الآخر، لكل منها ومن آشبي المتآمِرَين. لعلّها تجهل كل ما فعله آشبي، ولكنها لم تكن بريئةً.

عانَقَ الجانب القصير من ناووس رخامي متوَّج بمنحوتة مُتْقَنة تعود إلى عصر النهضة. شقَّت دود طريقها تحت الجانب الطويل من القبر، النّصب التذكاري بذاته، وأحد الأعمدة الضخمة التي تحجب النظر إليهم. انتظرَ أن تحاول التحرّك نحو النّصب التالي، ثمّ لفّ ذراعه حول عنقها، سادّاً فمها براحة يده.

وضعَ المسدس في عنقها شادّاً عليها بعنف وهمسَ لها: "الزمي الهدوء وإلا سوف أدع الرجل الذي هناك يعرف من تكونين. أريدك أن تطأطئي برأسك إذا فهمْتِ".

وهذا ما فعلته. عندئذٍ، أرخى قبضته عنها.

رجعَت إلى الوراء.

قالت له همساً: "يا للجحيم! من أنت؟"

أحسَّ في سؤالها أملاً بأنه قد يكون صديقاً. قرّرَ استغلال ذلك لمصلحته. "أنا الشخص الذي يستطيع إنقاذ حياتك".



شدَّدَ آشبي على كلامه وحدَّقَ بالمسدس، متسائلاً عما إذا كانت هذه هي نهاية حياته.

لم يكن لدى لايون مبرّر لإبقائه على قيد الحياة.

نادى آشبي: "كارولين! يجب عليك أن تعودي. أتوسّل إليك. إن هذا الرجل

سوف يقتلني إن لم تعودي!"



لم يكن ثورفالدسن ليسمح لبيتر لايون بأن يفعل ما في رأسه.

فهمسَ: "قُولي للايون أن يأتي ويجدكِ".

هزَّت كارولين دود رأسها نفياً.

كانت بحاجة ماسّة إلى طمأنة. "سوف لن يأتِ. ولكن ذلك سوف يُكسبُ آشبي وقتاً".

"كيف تعرف من نكون؟"

لم يكن عنده وقت للتوضيحات والشروحات، لذا صوّبَ مسدسه نحوها. "افعلي ما أطلبه منكِ وإلا سوف أطلق النار عليكِ!"



قرّرَ سام القيام بخطوة. كان عليه أن يعرف ما إذا كانت ميغان بخير. لم يرَ أية حركة من أعلى السلالم، وراء المذبح. بدا لايون أكثر قلقاً وانشغالاً بشأن كارولين دود، مرغماً آشبي على إقناعها بالعودة إلى حيث كانا واقفَين، في الطرف الغربي البعيد من صحن الكنيسة.

بما أن لايون كان شارد الذهن، فلعلّ هذا هو الوقت المناسب للتصرّف.

نادَت ميغان وسط الظلمة: "أيها المُنحَط، لقد فوَّتَّ الفرصة".

ما الذي يجري في العالم؟



سألَ لايون في العتمة: "ومن أنتِ؟"

أراد آشبي أن يعرف الجواب هو أيضاً.

"ألا ترغب في أن تعرف؟"

إن الصدى الخارج من الجدران الحجرية قد جعل من غير الممكن لهم تحديد موقع المرأة، غير أن آشبي افترضَ أنها كانت المرأة نفسها التي كانوا قد شاهدوها تصعد السلالم في الممشى المسقوف.

قال لايون: "سوف أقتلك".

"عليك أن تجدني أولاً وهذا يعني أنه عليك أن تطلق النار على لورد آشبي، الرجل الصالح، هناك".

كانت تعرف اسمه. من كان هذا؟

"تعرفين من كون أنا، أيضاً؟"

"بيتر لايون، الإرهابي الخالق".

سأل لايون: "هل أنت مع الأمريكيين؟"

"أنا مع نفسي".

نظرَ آشبي إلى لايون. من الواضح أن الرجل كان مشوّشاً. ظلَّ المسدّس مصوَّباً مباشرةً نحوه، إلا أن تركيز لايون كان على الصوت.

سأل لايون: "ما الذي تريده؟"

"ما تخبئه".

ضحكَ لايون ضحكةً خافتةً. "يتوق كثيرون إلى تلك الجائزة".

"هذا ما أسمعه. ولكنني أنا الذي سأحصل عليها".



استمَعَ ثورفالدسن إلى الحوار بين ميغان ولايون. أدركَ أن ما كانت تفعله يسبّب تشويشاً وربما يُرغِم لايون على ارتكاب خطأ، بتأثير تصرفها الطائش. ولكن ربما كانت ميغان قد قدّرت الوضع بدقّة. بات تركيز لايون الآن موزّعاً بين ثلاثة تهديدات محتملة: آشبي، وكارولين، والصوت المجهول. عليه اتّخاذ قرار.

ظلّ مسدس ثورفالدسن مصوّباً على كارولين دود. ما كان ليسمح لميغان باستغلال الفرصة التي افترضتها بوضوح. أومأ بسلاحه وهمسَ قائلاً: "قولي له إنك سوف تكشفين عن نفسك".

هزّت رأسها.

"لن تفعلي ذلك تماماً. كل ما في الأمر هو أنني أريده أن يأتي إلى هنا

فأتمكن من إطلاق النار عليه".

بدا وأنها أخذت تفكّر بالعرض. على أي حال، كان يحمل مسدساً حقاً. "حسناً، لايون".

أخيراً نادت دود: "أنا عائدة".



اتجه مالون إلى أقرب مقعد ممتلئ بالمؤمنين الجالسين. لاحظَ أنه كانت لديه دقيقة أو دقيقتان على الأقل. الظاهر أنّ صاحب الأنف الطويل قد خطّطَ لمقاومة الاعتداء، مما يعني أنه قد منح نفسه الوقت الكافي لمغادرة الكنيسة. إلا أن المرأة السامرية الصالحة التي حاولت أن تُرجع إليه حقيبة الظهر التي تركها، كانت قد عرّضت نفسها للخطر.

وجَدَ الممر المركزي واتجه إلى المذبح.

فتحَ فمه ليصرخ مطلقاً إنذاراً، غير أن صوتاً واحداً لم يصدر. إن أي إنذار قد يكون سخيفاً. ففرصته الوحيدة كانت إبعاد القنبلة.

تفحّص الحشود، وتفحّص معالم المكان. إلى جانب المذبح الرئيسي، كانت توجد سلالم تُؤدي إلى ما بدا أنه سرداب. كانت كل واحدة من هذه الكنائس القديمة مزوَّدة بسرداب.

رأى الكاهن يأخذ عِلْماً بالشَّغَب ويوقف الخدمة.

وصلَ إلى حقيبة الظهر.

لا وقت ليعرف إن كان على حق أو على خطأ.

انتزع الرزمة الثقيلة من الأرض واندفع إلى اليسار، قاذفاً إياها تحت الأدراج حيث كانت بوابة حديدية، على انخفاض عشرة أقدام، مفتوحةً في فسحة مضاءة بنور ضئيل.

كان يرجو من الله ألاّ يكون أحد موجوداً هناك.

صرخَ باللغة الفرنسية: "جميعكم. انبطحوا! إنها قنبلة. انبطحوا على الأرض، وراء المقاعد".

توارى كثيرون عن الأنظار، فيما لبثَ آخرون مدهوشين.

"انبطحوا!"
وانفجَرَت القنبلة.

73

تنفّسَ آشبي الصعداء من جديد فيما سمعَ لايون كارولين وأنزَلَ سلاحه.

أمَرَها لايون: "اجلسي على الكرسي ولا تنهضي!"

بما أن ذلك كان مخرج البازيليك الوحيد ولم يدنو من محاولة الهرب، ارتأى أن اللعبة الأكثر أماناً هي الطاعة.

نادى صوت أنثوي وسط الظلمة: "إيهٍ، أنت لا تعتقد حقاً أنها سوف تظهر، أليس كذلك؟"

لم يردّ لايون، بل مشى نحو المذبح.



لم يصدّق سام أن ميغان قد تقود لايون إلى طريقها. ما الذي حلّ بال- "لا أقدر" التي قالتها في الخارج تحت المطر؟ شاهَدَ لايون يسير إلى الممر المركزي، بين صفوف الكراسي الخالية، والمسدس مصوّب إلى جانبه.

"قال نورستروم: إذا قفز جميع أصدقائي من الجسر، سوف أقفز معهم. سوف أكون في الأسفل على أمل التقاطهم".

حاول أن يفهم ما سمعه.

"الأصدقاء الحقيقيون يقفون ويسقطون معاً"

فسأل: "هل نحن صديقان حقيقيان؟"

"طبعاً!"

"ولكنك تقول لي دائماً إنه سيجيء وقت وأضطرُّ للرحيل".

"أجَل. ربما يحصل ذلك. ولكنّ الأصدقاء الحقيقيين بعيدون عن بعضهم البعض في المسافة وليس في القلب. تذكّر يا سام، كلُّ صديق جيد كان غريباً يوماً ما".

قَبْل يومَين، كانت ميغان موريسون غريبةً هي الأخرى. الآن أقحَمَت نفسها ودخلَت على الخط. من أجله؟ من أجل ثورفالدسن؟ لا يهم!

سوف يقفون معاً أو يسقطون معاً.

قرّرَ استخدام السلاح الوحيد المتوفِّر، السلاح الوحيد الذي اختارته كارولين. ألْقى معطفه المُبتَلّ، وأمسك إحدى الكراسي الخشبية ورمى به نحو بيتر لايون.



رأى ثورفالدسن قوس الكرسي عبر صحن الكنيسة باتجاه لايون. من غيره كان هنا؟ كانت ميغانٍ وراء المذبح، في الممشى المسقوف العلوي. كانت دود على بعد مترٍ، مرتعبةً، وكان آشبي قريباً من الجناح الغربي.

لمَحَ لايون الكرسي وتمكَّن من المناورة قبل أن يرتطم الكرسي بالأرض. ثمّ صوّبَ مسدسه وأطلق رصاصةً باتجاه الجوقة والعرش الأسقفي.



غادرَ سام مخبأه بينما تفادى لايون الكرسي. اندفَعَ إلى اليسار بين الأعمدة والقبور، وقد أبقى رأسه مُنخْفِضاً، واتجه نحو مكان جلوس آشبي.

دوَت طلقة رصاص أخرى.

اخترقَت الرصاصة الحجر على بعد إنشات من كتفه الأيمن، مما يعني أنه تمّ تحديد موقعه.

فرقعة أخرى.

ارتدّت القذيفة على حجرة أخرى وأحسّ بشيء يعلق بكتفه الأيسر. اخترقَ ألم حاد ذراعه وفقدَ توازنه، وانحرف إلى الأرض. تدحرج وقدَّر الضرر. كان كمّ قميصه الأيسر ممزّقاً.

تفتّح برعم وردة دم. تصاعد أَلَمٌ حادٌّ من خلف عينيه. تفقّد الجرْح وأدرك أنه لم يُصَب، بل خُدِشَ فقط بما يكفي ليحسّ بوَجَعٍ جهنّمي.

ثبَّتَ يده اليمنى على النزيف ووقَفَ على قَدَمَيه.



حاوَلَ ثورفالدسن أن يرى على من كان لايون يطلق النار. كان أحدهم قد رمى

كرسياً آخر. ثمّ لمَحَ شكلاً أسود يندفع إلى الجانب الآخر من النّصب الذي شكّلَ مخبأه.

رأته دود هي الأخرى، فأصابها هلع، وركضَت تاركةً سلسلة من القبور بينها وبين صحن الكنيسة.

اختلس ثورفالدسن النظر إلى وجه ذاك الشكل وهو يندفع.

سام.

سمعَ طلقتَين إضافيتين، ثمّ ضربة مكتومة ناجمة عن ارتطام اللحم والعظم بالحجر.

لا أرجوك! يا إلهي! يكفي!

صوّبَ على بيتر لايون وأطلق النار.



بحَثَ آشبي عن حماية. كان صحن الكنيسة قد انفجر في مزيج من طلقات النار من كافة الاتجاهات. رأى لايون يتسطّح على الأرض ويحتمي بالكرسي.

أين كانت كارولين؟

لماذا لم ترجع؟



لم يكن ثورفالدسن ليسمح بحدوث شيء لسام. للأسف، لقد تورّطَت ميغان. كانت كارولين دود قد اختَفَت، بلاً شك باتجاه البوابة المفتوحة حيث ظلّت الرياح والأمطار تزمجر. لن يحتاج لايون سوى لبرهة ليستعيد حيويته ويتصرّف، فركضَ وتوجّه حيث ذهب سام.



حمى مالون رأسه بذراعيه فيما دوى الانفجار عبر صحن الكنيسة، محدثاً اهتزازاً في الجدران والنوافذ. بيد أن قذفه للحقيبة في السرداب كان حقيقياً وقوة الانفجار قد بقيت منخفضةً، لم يصدر عنه سوى دخان وغبار من السلالم.

نظَرَ من حوله.

بدا الجميع بخير.

عندئذٍ، ساد الذعر واندفع الناس إلى المخرج. غادرَ الكاهن ورجلاً المذبح اللذَان اختفياً وسط الجوقة.

وقفَ أمام المذبح الرئيسي وشاهَدَ الفوضى، متنبِّهاً لاحتمال هروب رامي القنبلة. فيما قلَّ عدد الحشود، وقفَت ستيفاني في مؤخرة الممرّ المركزي، وقد دسّت مسدسها في ضلوع صاحب الأنف الطويل.

ظهَرَ ثلاثة رجال شرطة باريسيون عبر الأبواب الرئيسية. أبْصَرَ أحدهم السلاح الأوتوماتيّ الذي في قبضة ستيفاني فشهَرَ سلاحه على الفور.

فعل الرجلان الآخران مثله.

صرخَ أحد الضبّاط لستيفاني: "أنْزِلني سلاحكِ، فوراً".

ظهَرَ ضابط آخر لم يكن يلبس البدلة ودعا الضباط إلى إنهاء حالة التأهب. فأنزلوا سلاحهم، وهرعوا لوضع الأصفاد في يدَي صاحب الأنف الطويل.

سارَت ستيفاني إلى الممر المركزي.

قال لها: "مسكة جيدة".

"رمية جيدة حتى!"

سأل: "ما الذي نفعله الآن؟ لا شك أننا سمعنا آخر الأخبار من لايون".

"أوافقك الرأي".

وضعَ يده في جيبه وتحسّس هاتفه الجوّال. "ربما حان الوقت للجدال مع هنريك. لا بد أن يكون سام معه".

كان قد حوّلَ جهازه إلى وضعية "صامت" خلال رحلته إلى الكنيسة في سيارة الأجرة. وإذ به الآن يجد أنّ ثمة من اتصل به قبل عشرين دقيقة.

ثورفالدسن.

أذعن بعدما تحدّثا.

رأى مؤشِّر بريد صوتي واستمع إلى الرسالة.

"أنا ميغان موريسون. كنتُ اليوم مع سام في برج إيفل حين أتَيْتَ. أعطاني هنريك هاتفه، لذا فإنني أطلبُ الرقم نفسه الذي اتصلتَ به عليه. آمل أن يكون كوتون مالون. لقد دخل هذا العجوز المجنون إلى سانت دينيس وراء آشبي. هناك رجل وامرأة آخران. قال لي سام إن الرجل هو بيتر لايون. دخل آشبي إلى هناك هو أيضاً. يحتاجون إلى مساعدة. فكَّرتُ أنني أستطيع ترك سام يفعل هذا لوحده. ولكن.... لا أقدر. سوف يتأذّى. إنني أتدخّل. فكّرتُ بأنه يفترض بكَ أن تعرف".

قال: "علينا الذهاب إلى هناك".

"لا يبعد المكان سوى ثمانية أميال، ولكن الازدحام خانق. لقد أعلَمْتُ شرطة باريس وهم الآن يرسلون رجالاً. ثمة طائرة مروحية آتية إلينا. يُفترَض أن تكون في الخارج. تمّ إخلاء الشارع كي تتمكن من أن تحطّ ".

كانت قد فكَّرَت بكل شيء.

قالَت: "لا يمكنني إرسال الشرطة إلى هناك وسط دوي صفارات الإنذار. أريد لايون. قد يكون هذا ضربتنا الوحيدة. إنهم متجهون إلى هناك بهدوء".

عرفَ أنها لعبة ذكية.

إنما ليس للأشخاص المتواجدين في الداخل.

قالَت: "علينا هزمهم هناك".

"فلنضمَن ذلك".

74

قَبَضَ سام بيده على ذراعه وظلّ يتقدّم نحو طرف الكنيسة الذي يقع، على حدّ افتراضه، بمواجهة الساحة في الخارج. تمكّنَ من صرف انتباه بيتر لايون عن ميغان، ولكنه تمكّنَ من أن يتأذّى أيضاً. كل أمله كان إلهاء لايون بما يكفي قبل وصول فريق النجدة.

يبدو أن ثورفالدسن قد جاء لإنقاذه، مطلقاً النار على لايون ومانحاً إياه فرصةً للهروب.

ولكن أين الدانماركي الآن؟

وجدَ آخر عمود في الصفّ الذي يدعم القنطرة. لاحَت في الوراء مساحة مفتوحة. أحنى ظهره واختلس النظر إلى صحن الكنيسة.

كان لايون يركض نحو سلالم، عند يسار المذبح، تُؤدي إلى مخبأ ميغان.

صرخَ سام: "لا!"



لم يصدّق آشبي ما سمعه. كان لايون متجهاً نحو الطرف الآخر من الكنيسة، مبتعداً بما يكفي ليتمكن من الهروب إلى الأبواب. كان ينتظر بصبرٍ، مشاهداً كيف أن الشيطان قد تفادى فطيق النار عليه من الجناح الجنوبي. لم يعرفْ من كان، إنما كان مسروراً بوجودهم هنا.

وإذا بشخص يصرخ على يمينه، لكأنه يقول للايون: "ليس هناك، هنا".

أطلقَ ثورفالدسن طلقةً ناريةً أخرى، منزعجاً من كون سام يسترعي الانتباه لنفسه.

بحثَ لايون عن ملجأ وراء أحد القبور المجاورة للمذبح الرئيسي. فاندفعَ وعاد إلى الجناح الجنوبي، بعيداً عن آشبي وسام، باتجاه لايون.



نهضَ آشبي من الكرسي والتجأ إلى الظلال. كان لايون على بعد ثلاثين متراً،

وقد ازداد عدد الأعداء من حوله. لم تظهر كارولين إطلاقاً، وافترَضَ بأنها قد رحلَت. عليه إذاً أن يقتفي أثرها. لم يعد الكنز مهماً، على الأقل في الوقت الراهن.

أمْسى الهرب همّه الوحيد.

فانحنى وزحَفَ إلى الأمام، تحت الجناح الجنوبي، متجهاً إلى الأبواب المفتوحة.



رَبَطَ مالون الحزام فيما ارتفعَت الطائرة المروحية من الشارع. كان نور النهار قد بدأ يتلاشى، وتمكّنَت بضعة خطوط ضوئية مائلة من اختراق غيوم المطر.

جلَسَت ستيفاني إلى جانبه.

بدا كلاهما في منتهى القلق.

إن أباً لدوداً وغاضباً منكباً على الثأر وعميلاً شاباً مبتدئاً لم يكونا الثنائي الذي يُفترَض به مواجهة رجل مثل بيتر لايون. أحدهما لم يكن يفكّر، في حين أن الآخر لم يتعلّم كيف يفكّر بَعْد. مع كل ما حصل، لم يتَسَنَّ لمالون التفكير في الانشقاق الذي بينه وبين ثورفالدسن. لقد فعَلَ ما ظنّه صواباً، غير أن ذاك القرار قد جَرَح صديقاً. لم يسبق أن تبادل وثورفالدسن كلاماً عرضياً. بعض الانزعاج، استياء عابر، دون أن يكون هناك غضب حقيقي على الإطلاق.

كان في حاجة للتكلم إلى هنريك وحلّ المشكلة.

اختلسَ النظر إلى ستيفاني وعرفَ أنها كانت تلوم نفسها بصمت على إرسالها سام. لقد كانت تلك هي الخطوة المناسبة آنذاك.

الآن، ربما يتبّين أن ذلك كان أمراً محتوماً.



سُرَّ سام لأن لايون قد تردّد، ولم يشدّد كالعادة على أفضليته ويندفع إلى السلالم التي تؤدي إلى الممشى المسقوف. كانت ذراعه اليسرى تؤلمه كثيراً، في حين أنّ يده اليمنى كانت مثبّتةً على الجرح الذي كان ينزف.

فكّر.

اتّخَذَ قراراً آخر.

نادى: "هنريك. إن ذاك الرجل صاحب المسدّس إرهابيّ مطلوب. دَعْه مثبتاً إلى الأرض إلى أن تأتي النجدة".

سُرَّ ثورفالدسن حين سمع أن سام بخير.

نادَت ميغان: "اسمه بيتر لايون".

قالَ لايون: "ممتاز أن الجميع يعرفني".

قال سام: "لا يمكنك أن تقتلنا جميعنا".

"ولكني أقدر على قتل واحد أو اثنَين منكم".

عرَفَ ثورفالدسن أن التقييم صحيح، لا سيما وأنه قد بدا أنه المسلَّح الوحيد إلى جانب لايون.

استرعَت الحركة انتباهه. ليس عند لايون. إنما على يمينه، قرب الأبواب التي تقود إلى الخارج. شكل فرد، يتوخه مباشرة إلى المخرج. ظن أوّلاً انها كارولين دود، ولكنه أدركَ فيما بعد أنه رجل.

آشبي.

يبدو أنه استغلّ الارتباك الحاصل وزحَفَ بحَذَر من الطرف الآخر من صحن الكنيسة. أشاح ثورفالدسن نظره عن لايون وركَضَ نحو الأبواب. بما أنه أقرب من آشبي، كان أوّل من وصَلَ. أحاطَ نصب فرانسوا بذراعيه من جديد ليحتمي به، وانتظر اقتراب البريطاني عبر الظلمة.

كانت الأرضية الرخامية مبتلّةً بالمطر.

أحسَّ بالبرد إذ أن معطفه لم يكن معه.

سمعَ آشبي في الجانب المقابل من النّصب، وأوقفَ تقدّمه.

على الأغلب أنه أراد التأكّد من أنّ بإمكانه أن يعدو الأمتار العشرة الأخيرة من دلهن أن يلحظه أحد.

نَظَرَ ثورفالدسن حول الحافة.

بدأ آشبي يتقدم إلى الأمام.

تأَرجحَ ثورفالدسن حول الجانب القصير من القبر ورفَعَ مسدسه في وجه

آشبي.

"لن تغادرْ!"

من الواضح أن آشبي قد أُصيبَ بدهشة، وفقدَ توازنه على الأرضية الرطبة وتدحرج ليواجه التهديد.

75

كان آشبي مُرتبكاً مشدوهاً. "ثورفالدسن؟"

"قِفْ!" هكذا أمَرَه الدانماركي.

هبَّ واقفاً على قدميه. ظلَّ المسدّس مصوّباً نحوه.

سأل: "هل أنتَ من أطلق النار على لايون؟"

"ما كنت سأسمح له بأن يفعل ما جئتُ لأفعله".

"وما ذاك؟"

"أن أقتلك".



استطاع سام سماع الأصوات الآتية من على بعد مئة قدم، قرب المخرج. بيد أنّ صدى العاصفة وصحن الكنيسة كان يجعل تمييز ما قِيْلَ متعذّراً. كان ثورفالدسن هناك، هذا ما كان يعرفه. وآشبي قد هرب، فافترضَ أنّ هنريك قد منع البريطاني من الرحيل، مواجهاً أخيراً خصمه الذي سينتقم منه.

غير أنّ لايون كان لا يزال هناك.

ربما كان لايون قد ظن أنّ واحداً فقط من الثلاثة كان مسلّحاً، لأن أياً من مجابهيه الآخرين لم يطلق النار نحوه.

رأى سام لايون يهرب من مخبئه ويتقدّم عبر صحن الكنيسة من خلال المذبح وما يحيط به من نصب ليحتمي بها، متجهاً مباشرةً إلى مكان الأصوات.

سلك ذاك الطريق أيضاً.



نظرَ مالون إلى ساعته. عصفَ هواء عنيف بالطائرة المروحية، وهطلَت الأمطار بغزارة تحت النوافذ. كان ذهنه مأخوذاً بتوتّر بزعيق الحركات. مرّت باريس تحتهم فيما كانوا عائدين شمالاً نحو ضاحية سانت دينيس.

لم يسبق له أن أحسّ بعجز مماثل منذ زمن بعيد.

تفقَّدَتْ ستيفاني ساعتها ورفعَت أربع أصابع.

أقل من خمس دقائق.



عرفَ ثورفالدسن أنه عليه أن يتصرّف بسرعة، غير أنه أراد ذلك النذل أن يعرف لماذا كان على وشك أن يموت.

قال: "قَبْل عامَين في مدينة مكسيكو، كان ابني من بين الأشخاص السبعة الذين ذُبِحوا يومذاك، جرّاء عملية إطلاق نار أنتَ أمرْتَ بها، والتي نفَّذها أماندو كابرال. لقد قمتُ بقتله وها قد جاء دورك الآن".

"يا سيد ثورفالدسن، أنت على خطأ تماماً".

قالَ رافعاً صوته: "إياك أن تحاول. لا أسمح لك بأن تهينني أو تهين ذكرى ابني الوحيد، بأكاذيب. أعرف كل شاردة وواردة عمّا حصل. لقد طاردتك طوال عامَين. وها أنتَ أمامي".

"لم كن أعلم إطلاقاً بما سيفعله كابرال. يجب عليك تصديق ذلك. بكل بساطة، أردتُ أن أعوّق أولئك المدّعين العامّين".

رجعَ إلى الخلف، مقترباً أكثر من قبر القديس فرانسواً، محتمياً بأعمدته وأقواسه المُتْقَنة من لايون الذي كان متربّصاً له على الأرجح من الخلف.

قال لنفسه: أنهِ هذا!

الآن!



أبقى سام يده مثبّتةً على ذراعه المجروحة فيما يتقدّم في طريقه. غابَ لايون عن حقل بصره. آخر مرّةً رآه فيها كانت عند عبوره المذبح الرئيسي، ربما على بعد خمسين قدماً من ثورفالدسن وآشبي.

يجب أن ينذر صديقه، لذلك انتهزَ الفرصة.

"هنريك، لايون متّجه إليك".



كان آشبي في حالة ذعر. كان عليه مغادرة مكانه المنعزل.

كان هناك رجلان مسلّحان يريدان قتله، وقد صرخ أحدهما أن لايون يقترب.

"ثورفالدسن، اسمعني! لم أقتل ابنك".

دوت طلقةً نارية عبر الكنيسة وصلت أذنه. فقفزَ وأدركَ أن ثورفالدسن كان قد أطلق النار على الأرض، قرب قدمه اليسرى. إن أزيز المعدن على الحجر قد قادَه إلى ممرّ المخرج. ولكنه عرف بأن عليه ألا يحاول الهروب.

فسوف يُقتَل قبل أن يتّخذ خطوةً واحدة.



سمعَ سام صوت طلقةٍ.

صرخَ ثورفالدسن وسط الرياح والأمطار: "إبقَ مكانك".

"انت حقير. أتعرف ماذا فعلتَ؟ كان أفضل ابنٍ وهبه الله لأبٍ، وقد أطلقتَ النار عليه، كما لو كان نكرة".

توقّفَ سام وفكَّر في نفسه أن عليه تقييم الوَضْع، والتصرّف بحذق، والقيام بما كان ليفعل نورستروم. لطالما تمتّعَ بذكاء حاذق.

زحَفَ إلى أحد الأعمدة واختلس نظرةً إلى صحن الكنيسة.

كان لايون واقفاً على يمين المذبح، قرب عمود آخر، يتأمّل ويستمع.



قالَ ثورفالدسن: "قلتُ لك ألاّ تتحرّك . فالرصاصة التالّية لن ترتطم بالأرض".

كان قد فكّرَ بهذه اللحظة لوقت طويل، متسائلاً كيف ستكون أخيراً مواجهة قاتل كاي. لكنه سمع أيضاً إنذار سام، الذي خشيَ أن يكون لايون قريباً منهم.

قالَ آشبي: "ثورفالدسن. عليك أن تفهم وتميّز الصواب هنا. سوف يقتلنا لايون كلَينا".

أمَلُه الوحيد أن يكون سام وميغان خلفه، مع أنه لا يُفترض بأي منهما أن يكون هنا. أمرٌ مضحك! لقد كان مليارديراً لزمن طويل، ورغم ذلك، لا يمكن

لأي فلس من أمواله أن يساعده الآن. فقد عبَرَ مكاناً يحكمه الثأر وحده. في وسط الظلمة، رأى صوراً لكاي وهو طفل، ثمّ وهو مراهق. إنه مدين لليزيت بإيجاد الرجل. فخلال أربعة قرون، عاشَ آل ثورفالدسن في الدانمارك. بذَل النازيون قصارى جهدهم لإبادتهم، بيد أن آل ثورفالدسن قاوموا الهجوم. عندما وُلِدَ كاي، أحسّ بغبطة كبيرة. لم يبالي سواء صبياً كان أم بنتاً.

المهم أنه طفل بصحة جيدة، وهذا ما قد صلّى لأجله.

بابا انتبه إلى نفسك. سوف أراك بعد بضعة أسابيع.

تلك كانت الكلمات الأخيرة التي قالها له كاي خلال مكالمتهما الهاتفية الأخيرة.

وبالفعل، لقد رأى كاي بعد أسابيع قليلة.

كان مستلقياً في نعش.

وكلّ هذا بسبب المخلوق التافه الذي يقف على بعد بضعة أمتار.

سأل آشبي: "هل فكّرتَ للحظة بأنني سأسمح بأن تمرّ وفاته مرور الكرام؟ أظننتَ نفسك بمنتهى الذكاء؟ بمنتهى الأهمية؟ اعتقدْتَ بأنك تستطيع أن تقتل الناس من دون أن تكون لأفعالك عواقب؟"

لم يقل آشبي شيئاً.

صرخ: "أجبني!"



وصلَ آشبي إلى حدوده.

بدا هذا العجوز مضطرباً يفيض كرها وحقداً. ارتأى أنّ الطريقة المثلى للتعاطي مع الخطر هي مواجهته، لا سيما باعتبار أنه قد لمحَ بيتر لايون في الجانب البعيد من أحد الأعمدة، يراقب اللقاء ببرودة. من الواضح أنّ ثورفالدسن كان على علم بوجود لايون.

أمّا الآخرون المتواجدون في الداخل، فيبدو أنهم حلفاء الدانماركي.

قال آشبي: "قمْتُ بما عليّ فعله".

"هذا صحيح تماماً وإنّ ابني قد مات".

"عليك أن تعرف أنّني لم أنوِ قط حدوث ذلك. كلّ ما كان يهمّني هو المدّعي. لقد غالى كابرال. لم يكن هناك داعٍ لقتل كل هؤلاء الناس ". سأل ثورفالدسن: "هل عندك أولاد؟"

هزّ رأسه.

"يستحيل إذاً أن تفهم".

كان عليّه أن يكسب مزيداً من الوقت. كان على لايون أيضاً أن يتحرّك. لم يفعل سوى الجلوس خلف العمود. وأين كان الآخران؟

قال ثورفالدسن: "لقد أمضَيتُ سنتَين أراقبك. أنتَ فاشل في كل ما تفعله. إن مشاريعك المالية جميعها خاسرة. مصرفك في ورطة، وأصوله شبه مستنفدة. لقد استمتعتُ بمراقبتك وخليلتك وأنتما تحاولان العثور على ثروة نابوليون. وإذا بك هنا تواصل بحثك".

كان هذا الأحمق يقدم كمّاً هائلاً من المعلومات لبيتر لايون.

ومن جديد:

"أنتَ على خطأ. لديّ ثروة من الأصول. حيث لا يمكنك اكتشافها. قبل بضعة أيام فقط، كسبْتُ مئة مليون يورو من الذهب".

أراد للايون أن يعرف أن أسباباً عديدةً تحول دون إطلاق النار عليه.

قال ثورفالدسن بغضب: "لا أريد مالك".

قال لايون وهو يبرز من الظلال ويطلق النار على هنريك ثورفالدسن: "ولكنني أريد ذلك".



توقَّفَ سام عند دويّ ما يفترض به أن يكون سلاحاً مكتوم الصوت. لم يتمكّن من سماع ما قيل بما أنه كان على بعد خمسين قدماً من الحديث.

اختلس النظر إلى صحن الكنيسة.

كان بيتر لايون قد ذهب.



لم يحسّ ثورفالدسن بالرصاصة تخترق صدره، بيد أن خروجها قد أشْعرَه بألم حاد. عندئذٍ، سقط كل تنسيق بين الدماغ، والأعصاب، والعضلات. انهارَت ساقاه فيما تدفق ألم مبرح إلى دماغه.

أترى هذا ما أحسّه كاي؟ هل شعرَ ابنه بهذه المرارة والحدّة؟ إنه لشيء مروّع.

انقلبَت عيناه إلى فوق.

ارتخى جسمه.

أفلتت يدُه اليمنى المسدسَ وسقطَ مرتجفاً، وارتطمَ جانب رأسه بحجارة الأرضية.

تمزَّق كل نَفَس في رئتَيه.

حاولَ السيطرة على الوخزات في صدره.

كتُمَ الصوت.

سقطَ المكان.

ثمّ تلاشَت كل الألوان من العالم.

76

استرقَ مالون النظر عبر المطر إلى بازيليك سانت دينيس التي كانت أمامه بنحو ميل. لم تكنٍ هناك في الخارج أي سيارة شرطة، كما بدت الساحة أمام الكنيسة مهجورةً. خيّم الظلام والهدوء على الكنيسة، وكأنها ابتُلِيَت بالطاعون.

وجَدَ البيريتّا ومجلّتَين فائضتين.

كان مستعدّاً.

أنزِل هذه الطائرة المروحية اللعينة على الأرض.



كان آشبي مرتاحاً. "بشأن الوقت الذي وفّرته لي من ذلك".

كان ثورفالدسن مستلقياً على الأرض، والدم يتدفَّق من جرح صدره. ما كان آشبي مهتمّاً بالغبي. كان لايون كلّ ما يهمّه.

سأل لايون: "مئة مليون يورو من ذهب؟"

"إنّه كنز روميل الضائع منذ الحرب. لقد وجدتُه".

"وتظنّ بأن ذلك سوف يشتري حياتك؟"

"ولِمَ لا؟"

وإذا بصوت جديد يقتحم أزيز العاصفة الرتيب: طب، طب، طب.

وأخذ يعلو أكثر فأكثر.

لاحظَ لايون ذلك أيضاً.

إنه صوت طائرة مروحية.



اقتربَ سام زحفاً من مكان وقوف آشبي ولايون ورأى المسدس في يد الأخير. ثمّ لمحَ ثورفالدسن الممدّد على الأرض والدم يتدفّق بغزارة منه.

يا إلهي!

لا!



سألَ لايون آشبي: " أين هذا الذهب؟"

"في قبو. هذا كل ما يمكنني قوله".

قد يساعده هذا على إرجاء حكم الموت.

قال لايون: "لم أحبّك قط. فقد كنتَ تتحكّم بالوضع بأكمله منذ البداية".

"وما همّك أنت؟ لقد تمّ توظيفك، ودفعْتُ لك. ما همّك ما كنتُ أنوي فعله؟"

قال لايون: "لم أنْجُ بالتصرّف بغباء. لقد تفاوضْتَ مع الأمريكيين، وأدخلتَهم في ترتيباتنا. لم يحبّوك هم أيضاً، ولكنهم قد يفعلوا أي شيء لاعتقالي".

ازداد صوت المحركات في الطوافة، لكأنها تحلّق مباشرةً في العلا.

قال آشبي: "علينا أن نغادر، تعرف من كان هذا".

لمعَ بريق شرير في العينَين الكهرمانيّتَين. "أنت على حق. عليّ أن أغادر".

أطلق لايون النار.



فتَحَ ثورفالدسن عينَيه.

تلاشت البقع السوداء، ومع ذلك، بدا العالم من حوله غارقاً في ضباب. سمعَ أصواتاً ورأى آشبي واقفاً بجانب رجلي آخر يحمل مسدساً.

بيتر لايون.

رأى ذلك النّذل المجرم يطلق النارَ على آشبي.

اللعنة عليه!

حاول أن يتحرّك ليجد مسدسه، إلا أنّ عضلةً واحدةً من جسمه لم تستجب. تدفق الدم من صدره. تضاءلَت قوّته. سمعَ الرياح، والمطر، وصوتاً عميقاً عبر الهواء.

ثمّ سمعَ فرقعة أخرى.

فركَّزَ. انكمشَ آشبي وكأنه أحسّ بألم.

وإذا بفرقعتَين أخريَين.

تقطّرَ سائل أحمر موحل من فتحتين في جبين الرجل الذي قتل ابنه.

كان بيتر لايون قد أنهى ما بدأه ثورفالدسن.

وبينما انهار آشبي على الأرض، سمحَ ثورفالدسن للانسياب الهادئ المذهل بالمرور عبر أعصابه وأن ينال منه.



التقطَ سام أنفاسَه ووقفَ. كانت ساقاه متجمّدتين. هل كان خائفاً؟ نعم، لا أكثر. كان خوف شديد قد استولى على عضلاته، قابضاً على ذهنه بالذعر.

كان لايون قد أطلق النار على آشبي أربع مرّات.

هكذا بكل بساطة!

بام، بام، بام، بام.

لا شكّ أن آشبي قد فارق الحياة. ولكن ماذا عن ثورفالدسن؟ ظنَّ سام أنّ الدانماركي قد تحرّك قبل أن يموت آشبي. اضطرّ للوصول إلى صديقه. تدفق الدم على الأرضية الرخامية بغزارة رهيبة.

ولكنّ ساقَيه لم تتحرّكا.

دوى صراخ في الكنيسة.

خرَجَت ميغان من وسط الظلمة وهاجمَت بيتر لايون.



"بابا بابا".

سمعَ ثورفالدسن صوت كاي، كما حدثَ منذ سنوات في المكالمة الهاتفية الأخيرة.

"أنا هنا، بابا".

"أين بُنَيّ؟"

"في كل مكان، تعالَ إليّ".

"لقد فشلْتُ يا ابني!"

"إن ثأرك ليس بضروري، يا بابا. لي يعد ضرورياً. لقد مات. فكأنك قتلته بنفسك".

"لقد اشتقتُ إليك بُنَيّ".

"هنريك".

سمح صوتاً نسائياً، صوتاً لم يسمعه منذ زمن بعيد.

ليزيت!

قال: "عزيزتي أهذه أنتِ؟"

"أنا هنا أيضاً يا هنريك، مع كاي. كنا بانتظارك".

"أين أجدُكما؟"

"عليك أن تُسَلِّم بالأمر".

فكَّرَ بما كانا يقولانه، بما عنى كلامهما. إلا أنّ أبعاد طلبهما قد أرعبته. أراد أن يعرف "كيف هي الحياة هناك".

قالت ليزيت: "هادئة".

أضاف كاي: "رائعة. لن تشعر بالوحدة بعد الآن".

عجزَ عن تذّكر لحظة واحدة لم تلتهمه فيها الوحدة. ولكن كان هناك سام وميغان أيضاً. فقد بقيا في الكنيسة، مع لايون.

وإذا بصراخ يعكّر صفو السلام الذي كان فيه.

صارعَ ليرى ما الذي يحصل.

كانت ميغان قد هاجمت لايون.

كانا يتعاركان على الأرض.

مع ذلك، لم يتمكّن من التحرّك. مدَّ ذراعَيه على كل جانب من صدره الذي كان ينزف. لم يعد يحسّ بساقَيه. كانت يداه وأصابعه متجمّدةً. لم يكن أي شيء على ما يرام. تصاعد ألم حاد خلف عينَيه.

"هنريك".

"لا يمكنك أن تساعد".

"عليّ أن أساعدهم".



شاهَدَ سام ميغان ولايون يتدحرجان عبر الأرض متصارعَين.

سمعَ ميغان تصرخ: "أنتَ أيها الحقير".

أحسّ بحاجة للانضمام إلى النزاع، ومساعدتها. أحسّ بحاجة لفعل شيء، غير أن الخوف أبقاه متجمّداً. أحسّ بأنه ضعيف، متذمِّر، جبان. لقد كان خائفاً. ثمّ نهضَ من أفكاره المتضاربة وأجبَرَ ساقيه على التحرّك.

أبعَد لايون ميغان عنه. ارتطمت بقوة على القاعدة السميكة عند أحد القبور.

بحثَ سام في الظلمة وحدد مكان مسدس ثورفالدسن. كان على بعد عشرة أقدام من صديقه، الذي لم يتحرّك بَعْد.

اندفَعَ إلى الأمام وأمسكَ السلاح.



فكَّ مالون حزام المقعد، فيما لامسَت عجلات الطوافة الرصيف. قامَت ستيفاني بالمِثْل. وصلَ إلى مسكة الباب ولوى لوح الباب ليفتحه.

قفزَ إلى الخارج والبيريتّا في يده.

لسع المطر البارد وجنتَيه.



رفَعَ سام السلاح، وتحسّس بإصبعه النازف زنادَ المسدس. كان غارقاً في العتمة، بعيداً عن هنريك وآشبي. التفّتَ فلمح لايون يوجه لكمة إلى وجه ميغان، ضارباً رأسها بقاعدة أحد القبور، في حين أن جسمها استقرّ على زاوية ملتوية على الأرض.

بحثَ لايون عن مسدسه.

كان صوت المحركات قد هدأ، مما يعني أنّ الطوافة قد وصلت إلى ساحة

البلازا. على الأغلب أن لايون قد أدركَ تلك الحقيقة أيضاً، فأمسكَ مسدسه وانطلق خارجاً نحو الحرية.

قاومَ سام الألم الذي أصاب كتفه الأيسر، وخرجَ من العتمة ورفعَ سلاحه: "هذا هو".

توقّفَ لايون فجأةً ولم يتلفت من حوله. "الصوت الثالث".

"لا تتحرّك". أبقى مسدسه مصوّباً على رأس لايون.

سأل لايون: "أفترض أنك سوف تضغط على زناد المسدس إذا ارتعشْتُ؟"

تأثَّر حين رأى كيف تحسس لايون السلاح بوضوح.

"وجدتَ سلاح العجوز".

"إن رأسك هذا يشكّل هدفاً رائعاً".

"تبدو شاباً. هل أنت عميل أمريكي؟"

أوضحَ: "إخرَسْ!"

"ماذا لو أنزلتُ سلاحي؟"

ظلَّ المسدس في يد الرجل اليمنى، وماسورة السلاح مصوّبة نحو الأرض. "فلتسقُطْه!"

أرخى لايون قبضته عن المسدس وأبعَدَه.

سأل لايون وهو لا يزال يدير له ظهره: "هكذا أفضل؟"

بالفعل هكذا كان أفضل!

سأل لايون: "لم يسبق لك أن أطلقت النار على رَجُلٍ، صحيح؟"

قال سام: "اللعنة، اخرَسْ!"

"هكذا اعتقدْتُ. فلنز إن كنتُ محقاً. سوف أغادر. لن تطلق النار على رجل غير مسلَّح، وهو يدير لك ظهره".

كان قد سئم من مزاحه.

"هيا التفت"

تجاهل لايون الأمر وخطا خطوةً إلى الأمام.

أطلقَ سام النار على الأرض أمامه. "إن الرصاصة التالية سوف تكون على رأسك".

"لا أظنّ ذلك. لقد رأيتك قبل أن أطلق النار على آشبي. اكتفيتَ بالمشاهدة. فقد وقفتَ هناك ولم تحرّك ساكناً".

خطا لايون خطوةً أخرى.

أطلقَ سام النار من جديد.



سمعَ مالون طلقَتَين من داخل الكنيسة.

انطلقَ وستيفاني نحو فتحة في الحاجز المصنوع من خشب رقائقي، الذي يلفّ الجهة الخارجية من الكنيسة، تلك المقابلة للجهة الجنوبية. كان عليهما إيجاد الأبواب التي اعتادَ الجميع أن يدخلوا عبرها.

كانت المواقع الثلاثة مغلقةً بإحكام.

ظلّت الأمطار ترتطم على جبينه.



ارتدت الرصاصة الثانية إثر اصطدامها بالأرض.

صرخَ سام: "طلبتُ منك أن تتوقّف".

كان لايون على حقّ. لم يسبق له أن أطلق النار على أحد. لقد تدرّبَ على آلية إطلاق النار، بيد أنه لم يتحضّر نفسياً لشيء مروّع كهذا. رتّبَ أفكاره على درجات منضبطة.

وحضَّرَ نفسه.

تحرّك لايون من جديد.

تقدَّمَ سام خطوتَين وصوّب نحو هدفه. "أقسم لك بأنني سوف أطلق النار عليك". أبقى صوته هادئاً، مع أنّ قلبه أخذ يدقُّ بسرعة.

زحفَ لايون إلى الأمام: "لا يمكنك إطلاق النار عليّ".

"أنتَ لا تعرفني".

"ربما. ولكنني أعرف أنك خائف".

"من قال إنني خائف؟"

"سمعتُ ذلك".

تحركت ميغان متأوِّهة من الألم.

"ثمة أشخاص بيننا يستطيعون إنهاء حياة كائن بشري من دون أي تفكير، وثمة أشخاص من أمثالك يعجزون عن ذلك، إلا إذا استفزّهم أحد. وأنا لستُ أستفزّك".

"لقد أطلقتَ النار على هنريك".

توقفَ لايون وقال: "آه! هذا اسمه هنريك. أجَل، لقد فعلتُ. هو صديق؟"

"لا تتحرك!"

لم تَرُقْ له مظاهر الالتماس التي غلّفَت كلماته.

كانت عشرة أقدام تفصل لايون عن الأبواب المفتوحة.

تقدَّمَ خصمُه خطوةً أخرى إلى الأمام، كانت تحرّكاته مدروسةً مثل صوته.

قال لايون: "لا تقلق. لن أخبر أحداً بأنك لم تطلق النار".

الآن، كانت خمسة أقدام تفصله عن عتبة الباب.



نادى كاي عبر شعاع أزرق مرتجف: "بابا، تعالَ إلينا".

كانت أفكار غريبة ومذهلة قد استولت على ذهنه. غير أن ثورفالدسن عجزَ عن التحدث إلى زوجته وابنه. كان الحديث سيكون مفكّكاً يعبّر عن ذهن مصدوم.

نادى: "إن سام بحاجة إليّ".

أوضحَت ليزيت: "لا تستطيع أن تساعده، يا عزيزي".

نزلَ ستار أبيض بصمت. فتلاشى آخر ما بقي له من قوّة.

صارعَ ليتنفّس.

"حان الوقت يا بابا، حان الوقت لنكون معاً".



كان سام يواجه خصماً يتحدَّى فكره.

في الواقع، كان ذكاءً من جانب لايون. أن يستحثّ ردة فعله، مع العلم أن فعل ذلك قد يمنع حدوث أي شيء. لقد بدا لايون تلميذاً مميَّزاً، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أنه على حقّ. علاوةً على ذلك، كان سام قد قضى على مستقبله المهني بتحدّيه السلطات.

ظلّ لايون يقترب من الباب.

ثلاثة أقدام.

قدمان.

تباً لك لايون!

فأطلقَ الزناد.

رأى مالون شخصاً يعدو إلى الأمام في محاولة للخروج عبر باب مزدوج مفتوح، ويخبط على الرصيف الرطب محدثاً رشاش ماء.

أسرعَ وستيفاني إلى الأدراج الحجرية الملساء. قلبَت ستيفاني الجسم. هذا هو وجه الرجل الذي كان في السفينة، ذاك الذي خطَفَ آشبي. إنه بيتر لايون.

لُوحِظ ثقبٌ في رأسه.

نظرَ مالون إلى فوق.

ظهرَ سام في الممرّ، حاملاً مسدساً. كان أحد كتفيه ينزف.

سأل مالون: "هل أنت بخير؟"

طأطأ الشاب رأسه، إلا أن تعبيراً فاجعاً قد سحق الأمل من قلب مالون.

رجعَ سام إلى الخلف. اندفعَ وستيفاني إلى الداخل. كانت ميغان تترنّح وهي واقفة، فجاءَت ستيفاني لمساعدتها. ركَّزَ مالون عينَيه على جسم آشبي، ثمّ على جسم آخر.

ثورفالدسن.

نادى: "نحتاج لسيارة إسعاف".

قالَ سام بهدوء: "لقد مات".

سرت قشعريرة غبر كتفي مالون ووصلَت إلى رقبته. ترنَّحَت ساقاه متعثِّرتَين. قالت له عيناه إنّ سام كان محقاً.

اقتربَ وركع بجانب صديقه.

كان الدم يغمر جسده وثيابه. عبثاً حاول إيجاد محفظة يد له.

هزَّ رأسه بحزن شديد.

قال من جديد: "علينا على الأقل أن نحاول نقله إلى مستشفى".

قال سام: "لن يغيّر ذلك شيئاً".

جاء تصريحه مُحمّلاً بنبرة خوف. كان مالون يعرف أن كلامه صحيح، غير أنه كان لا يزال عاجزاً عن قبوله. ساعدَت ستيفاني ميغان بينما كانوا يقتربون.

كانت عينا ثورفالدسن مفتوحتَين في جمود.

قالت ميغان: "حاولْتُ أن أساعد. ذاك الأحمق العجوز المجنون... كان مصمِّماً على قتل آشبي. حاولتُ... الوصول إلى هناك-".

نبضَت حنجرتها بشهقات خانقة. ثمّ سالَت الدموع على وجنتَيها.

كان ثورفالدسن قد أقحمَ نفسه في حياة مالون عندما كان بحاجة ماسة لصديق. فظهرَ له في أطلنطا قبل عامَين، عارضاً عليه بداية جديدة في الدانمارك. وقد قبل باقتراحه ولم يندَم يوماً. فقد تشاطرا معاً الأشهر الأربعة والعشرين الماضية، بيد أن الساعات الأربع والعشرين الأخيرة كانت مختلفةً جداً.

لن نتحدث معاً بعد الآن.

تلك كانت الكلمات الأخيرة التي تبادلاها.

قبضَ بيده اليمنى على حنجرته، وكأنه يحاول الوصول منها إلى قلبه.

أحسّ بيأس شديد.

همس: "هذا صحيح، يا صديقي القديم، لن نتحدث معاً بعد الآن".

77

باريس
الأحد، 30 أيلول (سبتمبر)
الساعة 2:40 بعد الظهر

دخل مالون إلى بازيليك القديس دينيس. كانت الكنيسة قد أُبقيت مغلقة للعامة ولطاقم عمال البناء منذ عيد الميلاد، وتمّ التعامل مع المكان وكأنه مشهدٌ للجريمة.

لقد مات ثلاثة رجال هنا.

مقتل أول رجلين لم يؤثّر فيه.

وأما موت الثالث فقد آلمه أكثر مما كان يتخيّل.

لقد قضى والدُه منذ ثمانية وثلاثين سنة. كان في العاشرة من عمره آنذاك، والشعور بالعزلة كان أصعب من الألم. ولكن موت ثورفالدسن كان مختلفاً. اعتصر الألم فؤاده بحزن عميق مضنٍ.

لقد دفنوا هنريك إلى جوار زوجته وابنه بخدمة جنّاز خاصة في كرستيانغيد. كانت هناك قصاصةٌ مكتوبةٌ بخط يده مرفقة بوصيته الأخيرة تقول بشكلٍ واضح إنه لم يكن يريد جنازةً على الملأ. ومع ذلك، فقد انتشر خبر موته في كل أرجاء العالم، والكثيرون عبّروا عن تعاطفهم مع الحدث. وصلت آلافٌ من البطاقات والرسائل من موظّفيه في مختلف شركاته، تحمل تعابير متّقدةٍ تدل على ما كانوا يشعرون به نحو مستخدِمهم. كانت كاسيوبيا فيت قد جاءت، وميغان موريسون أيضاً، وكانت لا تزال هناك آثار كدمةٍ على وجهها. وراحت مع مالون وكاسيوبيا وستيفاني وسام وجسبر يردمون حفرة القبر بالتراب حيث تابوت ثورفالدسن المصنوع من شجر الصنوبر دون أن ينطقوا بأية كلمة.

خلال الأيام الماضية القليلة أخفى ذاته في عزلته متذكّراً آخر سنتين. اعتملت العواطف في نفسه، متردداً ما بين الحلم والواقع. كان وجه

ثورفالدسن محفوراً في فكره بشكلٍ يتعذر محوه، وسيتذكر إلى الأبد كل تفصيلٍ فيه - العينان الداكنتان تحت الحاجبين الكثيفين، والأنف المستقيم، والمنخرين الواسعين والفك القوي والذقن الذي يدل على عزمٍ وتصميم. ولا ننسى الظهر المحني. لم يكن هذا بشيء. فذاك الرجل كان دائماً يقف بشكلٍ منتصبٍ ويبدو طويل القامة.

نظر حوله إلى صحن الكنيسة السامق. وجود صور وتماثيل وتصاميم أضفى جواً من السكينة، واتقدت الكنيسة بالنور المشرق المتدفق إلى الداخل من خلال نوافذ مزخرفة بالزجاج. لقد أُعجب بتماثيل القديسين المتنوعة، التي أُكسيت ثياباً بلون أزرق ضارب إلى الخضرة، يمتزج معها لون التركواز - وقد برزت من التماثيل الأيدي والرؤوس المتقنة الصنع تتألق تحت ألوان ظليلية تتراوح بين الأخضر الزيتوني والزهري إلى الأبيض. ولكن فارقته الأفكار عن الله وجمال الطبيعة سريعاً.

كان ذلك بينما فارقت الحياة هنريك.

ولكن فكّر في نفسه بضرورة أن يركّز على المهمة التي عليه القيام بها.

وجدَ الورقة في جيبه ففضّها.

CXXXV II CXLII LII LXIII XVII

II VIII IV VIII IX II

كان البروفسور مراد قد أخبره بالضبط عما يبحث - مفاتيح اخترعها نابليون لحل الألغاز، ثم تركها لابنه. بدأ بالمزمور 135، الآية 2: "الواقفين في بيت الرب في ديار بيت إلهنا".

ثم المزمور 2، الآية 8: "أعطيك الأممَ ميراثاً لك".

وهذ يليق بفخامة نابليون.

وبعد ذلك تأتي الآية 4 من المزمور 142: "انظر إلى اليمين وأبصر".

نقطة البدء الدقيقة - من حيث يجب أن ينظر ويبصر - كان يصعب تحديدها. كانت كنيسة سانت دينيس كالبحر العميق الغور، كملعب كرة قدم طوله يعادل ضعف عرضه. ولكن الآية التالية حلَّتْ المعضلة. المزمور 52، الآية 8: "أما أنا فمثل زيتونة خضراء في بيت الله".

إيضاحات مراد السريعة على المزمور جعلت مالون يفكر بمزمور آخر كان ينطبق أكثر في الوصف على ما حدث في الأسبوع الماضي. المزمور 144، الآية 4: "الإنسان أشبه نفخة. أيامه مثل ظلّ عابر". لقد كان يرجو أن يكون هنريك قد وجد السلام.

"أما أنا فمثل زيتونة خضراء في بيت الله".

نظر إلى اليمين فرأى ضريحاً. كان مصمَّماً على النمط التقليدي القوطي، وتبزغ عناصر من معبد عتيق الطراز من التمثال، والمنصة العلوية مزخرفة بأشخاصٍ تصلي. وكان هناك تمثالان حجريان لشخصين يجسدان اللحظات الأخيرة من حياتهما، موضوعة بشكل مسطح في الأعلى. كانت قاعدته منقوشة بمنحوتات من وحي الفن الإيطالي.

اقترب منتعلاً حذاءَه المطاطي فكان ثابت الخطا ولم يصدر عنه صوت. وفي الحال رأى إلى يمين الضريح، في الأرضية الحجرية، لوحاً رخامياً عليه نقش شجرة زيتون وحيدة على ذلك الشاهد. وكانت هناك ملاحظة توضح أن القبر كان يعود إلى القرن الخامس عشر. كان مراد قد أخبره أن من يشغل الضريح كان افتراضياً هو غليوم دو شاستيل. لقد أحب تشارلز السابع خادمه لدرجة أنه منحه شرف أن يُدفن في كنيسة سانت دينيس.

وأما ما جاء تالياً فقد كان الآية 9 من المزمور 63: "أما الذين هم للتهلكة يطلبون نفسي فيدخلون في أسافل الأرض. يدفعون إلى يدي السيف. يكونون نصيباً لبنات آوى".

كان قد أخذ لتوه إذناً من الحكومة الفرنسية بأن يفعل كل ما يشاء بغاية حل الأحجية. وإن كان هذا يعني تدمير شيء داخل الكنيسة، فليكن ذلك عندئذٍ. فمعظم ما كان هناك هو إصلاحات وترميمات تعود إلى القرنين التاسع عشر والعشرين. كان قد طلب بضعة أدوات ومعدات لتبقى في الداخل، متوقعاً مسبقاً ما يمكن أن يتطلبه الأمر، ورآها قرب الجدار الغربي.

سار عبر صحن الكنيسة وأمسك بمطرقة ثقيلة.

عندما روى له البروفسور مراد ما يتعلق بالمفاتيح، ظهر الاحتمال بأن ما كانوا يتوقعون أن يكون متموضعاً تحت الكنيسة يمكن أن يكون حقيقياً أيضاً. وتكد من ذلك عندما قرأ الآيات.

سار عائداً إلى الخلف نحو شجرة الزيتون المحفورة في الأرضية.

المفتاح الأخير، رسالة نابليون الأخيرة لابنه. المزمور 17، الآية 2: "من قدامك يخرج قضائي. عيناك تنظران المستقيمات".

أعمل مطرقته.

لم ينكسر الرخام، ولكن مخاوفه تأكدت. صوت الخواء العميق الأجوف أنبأه بأنه لا توجد صخرة صماء مصمتة في الأسفل هناك. ومع ثلاث ضربات أخرى تصدَّعت الصخرة. وبضربتين أخيرتين تهشَّم الرخام مبدياً مستطيلاً أسود مفتوحاً إلى أسفل الكنيسة.

اندفع تيارٌ باردٌ نحو الأعلى.

كان مراد قد أخبره كيف أن نابليون، عام 1806، قد أوقف انتهاك قدسية كنيسة سانت دينيس وأعلنه مكاناً لدفن الأباطرة. ورمَّم أيضاً الدير المجاور، وأسَّس رهبانية لتشرف على تجديد البازيليك، وفوَّض مهندسين بإصلاح الأضرار. لقد كان أمراً سهلاً بالنسبة له أن يكيِّف الموقع بحسب المواصفات الشخصية التي كان يريدها. إنه لأمرٌ مذهل بقاء ذلك التجويف في الأرضية السرية، ولكن لعل الفوضى التي عمَّت في فرنساً في الفترة التي تلت نابليون هي خير تفسير، إذ ما من شيء وما من أحدٍ بقي ثابتاً بعد أن حُجب الإمبراطور أسيراً في جزيرة القديسة هيلانة.

ألقى المطرقة والتقط لفّة حبالٍ ومشعلاً كهربائياً. أضاء النور في الفراغ ولاحظ أنه كانت هناك قناة أخرى، أبعادها ثلاثة إلى أربعة أقدام، امتدت مباشرة إلى الأسفل حوالي عشرين قدماً. وكانت هناك بقية من سلّم خشبي ملقاة بشكل مبعثر على الأرضية الحجرية. كان قد درس تضاريس البازيليك وعرف أن سرداباً كان يمتد يوماً ما تحت الكنيسة - أجزاءٌ منه كانت لا تزال هناك، معروضة للشعب - ولكن ما من شيء كان يمتد إلى ذلك الحد نحو الواجهة الغربية. ربما كان الأمر كذلك منذ زمن سحيق، ولعل نابليون اكتشف هذا الأمر الغريب.

على الأقل هذا ما ظنه مراد.

عقد أنشوطة بالحبل حول قاعدة أحد الأعمدة على بعد بضعة أقدام وراز

قوته. قذف ببقية الحبل إلى القناة، وتلاها بالمطرقة، التي قد يُحتاج إليها. شبك المصباح بحزامه. وباستخدام نعله المطاطي والحبل، نزل بهدوء في القناة، إلى داخل الأرض السوداء.

في الأسفل صوّب الضوء على ظل الخشب الطافي. انتشر طيف شعاع الضوء البارد على مدى اتساع حزمة الضوء. كان يعرف أن باريس تنتشر فيها الأنفاق. ممراتٌ تحت الأرض بطول أميال كانت محفورةً في الحجر الكلسي ومشدودة كتلة كتلة إلى السطح، بحيث إنه يمكن القول حرفياً إن المدينة كانت مبنية من الأرض باتجاه الأعلى.

تلمَّس طريقه على أحد الأطراف، والشقوق، والكِسر الناتئة، وتبع الممر الملتوي الذي كان يمتد لحوالي مئتي قدم، اشتم رائحة مشابهة للخوخ الساخن، تذكّر بها طفولته في جورجيا، ما جعله يشعر بالغثيان. كان الصخر الرملي ينسحق تحت قدميه. كان البرد وحده يملأ ذلك العراء، ويسهل أن يضيع في الصمت.

شعر أن تلك القناة كانت تحت البازيليكا، شرق المبنى نفسه، ولعلها تحت ذلك الامتداد من الأشجار والعشب الذي كان يمتد إلى ما وراء الدير المجاور، نحو السين.

وإلى الأمام رأى تجويفاً خفيفاً في الجدار الذي على يمينه. كان الدبش يملأ الممر حيث شق أحدهم الطريق عبر الحجر الكلسي.

توقف وألقى نظرة على المكان مستخدماً ضوء المشعل الكهربائي. رأى رمزاً محفوراً في السطح القاسي لقطعة صخرية كبيرة، رمزاً ميَّز فيه الكتابة التي تركها نابليون على كتاب الممالك الميروفنجية، كجزء من خربشة مؤلفة من أربعة عشر سطراً.



كان أحدهم قد أسند الحجرَ في أعلى الكومة كمَعْلم، ظلَّ في حالَة انتظار تحت الأرض لأكثر من مئتي سنة. في الامتداد المكشوَف رأى باباً معدنياً، تُرك

نصف مفتوح. وكان يبرز منه كبلٌ كهربائيّ ممتد بشكل ملتوٍ وصولاً إلى المدخل، منعطفاً بدرجة تسعين، ثم يختفي في النفق أمامه.

كان مسروراً لمعرفته بأنه كان على صواب.

مفاتيح نابليون لحل اللغز قادته إلى الوصول إلى ذلك المكان في الأسفل. وذلك الرمز المحفور أظهر بشكل دقيق أين تقبع تلك الأشياء.

أضاء بمشعله إلى الداخل، فوجد علبة كهربائية، ونقر المفتاح.

كانت هناك أشياء مثبتة متوهجة صفراء اللون منتشرة على الأرضية كشفت عن وجود حجرة مساحتها خمسين قدماً طولاً وأربعين قدماً عرضاً، وذات سقف يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام. عدَّ على الأقل ثلاث دزينات من الصناديق الخشبية ورأى أن العديد منها كان مفتوحاً.

وفي الداخل، رأى مجموعةً أنيقةً من السبائك الذهبية والفضية. كانت كل واحدة منها مختومة بحرف (N) يعلو تاجاً امبراطورياً، وكان هذا الرمز الرسمي للإمبراطور نابليون. وكان صندوق آخر يحوي عملات ذهبية. وصندوقان آخران يحويان أطباقاً فضية. وكانت ثلاثة صناديق ممتلئة حتى الحافة بما بدا أنه أحجار كريمة. من الواضح أن الإمبراطور قد اختار كنزه المخبأ بعناية شديدة، فانتقى المعادن الصلبة والمجوهرات.

مسح بنظره الغرفة وتفحّص بعينيه الممتلكات القديمة والمهجورة لإمبراطورية منسحقة.

لقد كان ذاك كنز نابليون المخبأ.

سمِع صوتاً نسائياً يقول: "لا بد أنك كوتون مالون".

استدار وقال: "وأنت لا بد أنك إليزا لاروك".

المرأة التي وقفت في المدخل كانت طويلة القامة ووقورة، ذات جرأة واضحة دون حاجة لإخفاء أي شيء. كانت ترتدي معطفاً صوفياً حتى الركبة، من طراز عالٍ وراقٍ. وإلى جانبها وقف شخص مشوّه ولكن ذو نشاط وقوة كبيرين. كان كلاً الوجهين خالياً من أي تعبير.

قال مالون: "وصديقك هو باولو أمبروسي، إنه شخص ممتع. كاهن مرسوم خدم كسكرتير بابوي لبطرس الثاني، ولكن اختفى بعد انتهاء تلك البابوية

بشكل مفاجئ. وهناك شائعات كثيرة عن....."، توقف مالون عن الكلام لوهلة ثم استأنف: "....أخلاقيته. وها هو ذا هنا الآن".

يبدو أن كلامه ترك انطباعاً جيداً عند لاروك: "يبدو أنك غير مندهش لرؤيتنا هنا".

"لقد كنت أتوقع حضوركما

"حقاً؟ لقد قيل لي إنك عميل أمني".

"لفترة ما".

"بلى، إن باولو ينجز مهمات محددة أطلبها منه من وقت لآخر". قالت لاروك وأردفت: "لقد فكرت أنه من الأفضل أن يبقى قربي بعد كل ما حدث في الأسبوع المنصرم".

فقال مالون: "لقد مات هنريك ثورفالدسن بسببك".

"أيعقل هذا؟ أنا لم أعرف الرجل إلى أن أقحم نفسه في شؤوني. لقد غادرني في برج إيفل ولم أره بعد ذلك أبداً"، ثم أردفت قائلةً: " لم تقل لي. أنَّى لك أن تعلم أني سكون هناً اليوم؟"

"هناك أناس أذكى منك في هذا العالم".

رأى أنها لم تتذوَّق الإهانة.

قال: "لقد كنت أراقب. لقد وجدتِ كارولين دود أسرع مما ظننت. كم من الوقت استغرقتِ لتعرفي عن هذا المكان؟"

"الآنسة دود كانت مستعدة للمساعدة تماماً. لقد فشَّرَت مفاتيح حل اللغز، ولكني قررت أن أجد طريقة أخرى تحت البازيليكا. وافترضت وجود ممرات أخرى دخولاً وخروجاً، وقد كنت على صواب. لقد وجدنا النفق الصحيح قبل بضعة أيام، وأزلنا الختم عن الحجرة، وقمناً بأخذ فرع من شريط كهربائي من مكان قريب من هنا".

"وماذا عن دود؟"

هزّت لاروك رأسها. "ذكَّرتني كثيراً بخيانة اللورد آشبي، ولذلك عالج باولو أمرها".

ظهر مسدس في يد أمبروسي اليمنى.

قالت لاروك: "لم تجب على سؤالي بعد".

قال مالون: "عندما غادرتِ مكان إقامتك، افترضت أنك آتية إلى هنا. إنه أوان إعلان حصولك على المكافأة، أليس كذلك؟ لقد كنت تعملين على عقدٍ يساعد في نقل هذه الثروة خارج هذا المكان".

قالت: "والذي كان أمراً صعباً. لحسن الحظ، هناك أناسٌ في هذا العالم مستعدون للقيام بأي شيء لأجل المال. سنضطر لكسر كل هذه وضعها في أقفاص أصغر وتكون مختومة، ثم نحملها باليد خارجاً من هنا".

"ألا تخشين أن يتكلموا؟"

"الأقفاص ستختم قبل أن يصلوا".

أومأ برأسه موافقاً ومقراً بحكمة بصيرتها.

فسألت: "كيف نزلت إلى هنا؟"

أشار إلى الأعلى: "من خلال الباب الأمامي".

سألته: "ألا تزال تعمل لصالح الأمريكيين؟ لقد أخبرني ثورفالدسن عنك".

"أعمل لوحدي فقط. وأشار حوله. "لقد جئت من أجل هذا".

"لا أفاجأ إذا اعتبرتك كمثل أي صائد كنوز".

جلس على أحد الصناديق وأراح أعصابه التي تبلَّدت من الأرق وما يرافق الأرق من كآبةٍ وجزع مزعجين. "هنا أنت مخطئة. أنا أحب الكنوز. ومن لا يحبها؟ واني أستمتع بشكل خاص بحرمان شخص تافه مثلكِ منها".

ضحكت من لمسة الدراما لديه. "أعتقد أنك أنت من سيُحرم منها".

هز رأسه. "انتهت لعبتك. ليس هناك من نادٍ باريسيٍّ بعد. وما من تلاعبٍ ماليٍّ بعد. وليس من كنوز بعد".

"لاً أستطيع أن أتخيَّل أن الحال هي هكذا".

تجاهلها. "لسوء الحظ ليس من شهود بقوا على قيد الحياة، وما من دليلٍ واضح، يجعلك عرضة للاتهام بجريمة. ولذلك أنصحك بأن تفكري في هذا الكلام وأن تجنِّبي نفسك السجن".

ابتسمت لاروك من سخريته. "هل أنت دائماً متعلَق بالجماعة في مواجهة موتك؟"

ضحِك ضحكة خفيفة. "أنا من ذلك النوع من الناس الخالي من الهمّ".

"أتؤمن بالقدر يا سيد مالون؟" سألته.

هز كتفيه وقال: "في الواقع لا".

"أما أنا فأومن به. وفي الواقع القدر يُحتمّ كل ما يجري في حياتي. توكلت عائلتي على هذا الإيمان لقرون. عندما علمت أن آشبي مات، استشرت عرّافاً لدي، وسألت سؤالاً بسيطاً: هل سيُخلَّد اسمي وهل ستُطري عليه ذرِّيَّتي؟ أتود أن تسمع الجواب الذي حصلت عليه؟"

قال في مسايرة لها: "بالتأكيد".

"رفيقٌ ذو مزاج رقيق سيكون كنزاً، ستبتهج عيناك بالنظر إليه". توقفت عن الكلام ثم قالت: "وفي اليوم التالي وجدت هذا".

وأشارت إلى الكهف المنار.

كان قد ضحك بما فيه الكفاية.

رفع ذراعه اليمنى، وأشار بسبابته إلى الأسفل، وأدار ذراعه، مشيراً إلى لاروك لتستدير.

فهمت مقصده ولقت نظرة من فوق كتفها الأيمن. خلفها كانت تقف ستيفاني نيل وسام كولنز.

وكان كلٌّ منهما يحمل مسدساً.

قال مالون: "هل ذكرتُ لكِ أني لم آتِ لوحدي؟ لقد انتظرا ريثما تأتي كي ينزلا".

واجهته لاروك. والغضب في عينيها أكّد ما عرفه لتوّه. ولذلك فقد عبّر بلسانه عما تفكر به من كل ريب. "تمتعي بإلقاء نظرة إليه يا سيدتي، فهذا كل ما ستحصلين عليه".

اختطف سام المسدس من يد أمبروسي. وهذا لم يُبْدِ أية مقاومة.

وقال مالون لأمبروسي: "وسأبقي الأمر على هذا النحو. لقد أُصيب سام

بطلقة هناك. وهي تؤلم جداً. ولكنه على ما يرام. هو من أردى بيتر لايون قتيلاً. وهذا هو أول شخص يقتله. وقلتُ له إن الثاني سيكون أسهل بكثير".

لم يقل أمبروسي شيئاً.

"لقد شاهد هنريك ثورفالدسن أيضاً يموت. إنه لا يزال في مزاج سيّئ. وأنا أيضاً، وكذلك ستيفاني. كنا لنود نحن الثلاثة أن نقتلكما كليكما رمياً بالرصاص. لحسن حظكما أننا لسنا قتلة. ولكنكما أنتما كذلك".

قالت لاروك: "لم أقتل أحداً".

"بلى، أنت فقط شجعتِ الآخرين على فعل ذلك وكان هذا لمصلحتك". ثم وقف وقال: "والآن، اخرجا من هنا".

ظلت لاروك ثابتة في مكانها وقالت: "وما مصير هذا؟"

تمالك انفعالاته، وقال: "القرار لا يعود لي أو لك في هذا الشأن".

"أنت تعلم أن هذا حقٌّ عائد لعائلتي. إن سلفي كان يعمل جاهداً على تدمير نابليون. وظل يبحث عن هذا الكنز حتى يوم مماته".

"قلت لك أن تخرجي من هنا".

راقه أن يفكر أن ثورفالدسن كان سيسلك على نفس المنوال في هذه المسألة، وأشعرته هذه الفكرة ببعض العزاء.

بدا على لاروك قبولها لهذا التوبيخ لمعرفتها أن قدرتها على المناورة والمساومة ضعيفة هنا. ولذا أشارت على أمبروسي ليتقدّمها. خطت ستيفاني جانباً لتفسح لهما المجال للمرور والخروج من المكان.

عند الباب ترددت لاروك، ثم استدارت نحو مالون وقالت: "لعل طرقنا ستتقاطع يوماً ما من جديد".

"سيكون هذا طريفاً".

"ولكن اعلم أن المواجهة عندئذ ستكون مختلفة عنها اليوم".

وغادرت المكان.

قالت ستيفاني: "يا لها من مزعجة".

"أفترض أن هناك أناساً معك في الخارج، أليس كذلك؟"

أومأت ستيفاني برأسها إيجاباً، وقالت: "سترافقهما الشرطة الفرنسية إلى أن يخرجا من النفق ثم يختمونه".

أدرك أن الأمر انتهى. أخيراً. لقد كانت آخر ثلاثة أسابيع مروّعة أكثر من أي وقت مضى في حياته.

إنه في حاجة إلى راحة.

قال لسام: "عرفت أنه صار لديك مهنة جديدة".

أومأ الشاب برأسه. "أعمل الآن رسمياً في مشروع ماجيلان بيليت، كموظف في الوكالة. وإني مدينٌ لك لأجل ذلك".

"لك أن تشكر نفسَك وحسب. كان هنريك ليفخر بك".

"آمل ذلك". وأشار سام إلى الصناديق: "ما الذي سيحدث لكل هذا الكنز؟"

قالت ستيفاني: "الفرنسيون سيأخذونه. لا يمكن أبداً معرفة مصدره. فها هو هنا، على تراب وطنهم، وبالتالي فهو لهم. إضافة إلى ذلك، فإنهم يقولون إنه تعويض عن كل الأضرار في الممتلكات التي أحدثها كوتون".

لم يكن مالون يصغي. بل كان تركيزه منصبّاً على المدخل. لقد وجّهت إليه لاروك لدى انصرافها تهديداً في عباءة من التهذيب - إعلان هادئ أنه إن تقاطعت طرقهما في المستقبل فستكون الأمور مختلفة. ولكنه كان قد تلقّى تهديداً من قبل. وإضافةً إلى ذلك، فقد كانت لاروك مسؤولة جزئياً عن مقتل هنريك وعن الإحساس بالذنب الذي كان يخشى أن يعتمل في نفسه إلى الأبد. لقد كان مديناً لها، وكان دائماً يفي ديونه.

سأل سام: "كل شيء على ما يرام بخصوص لايون؟"

أومأ الشاب برأسه: "لا أزال أرى رأسه وهو ينفجر، ولكن أستطيع أن أتعايش مع الأمر".

"لا تستسهل الأمور دائماً. القتل أمرٌ خطير، حتى وان كانوا يستحقون ذلك".

"إنك تذكّرني بشخص أعرفه".

"وهو ذكي أيضاً؟"

"أكثر مما كنت أتصور، حتى وقت متأخر".

قال: "لقد كنتَ على صواب يا سام. النادي الباريسي. تلك المؤامرات. على الأقل بعضٌ منها كان حقيقياً".

"على ما أذكر، كنتَ تخالني مخبولاً".

ابتسم وقال: "نصف الناس الذين ألتقيهم يعتقدون أني كذلك أيضاً".

قالت ستيفاني: "لقد أكّدت لي ميغان موريسون أنها كانت على صواب. إنها خير معين لنا".

سأل مالون سام من جديد: "هل ستراها ثانيةً؟"

"من قال إني أهتم لذلك؟"

"لقد لاحظتُ ذلك من خلال صوتها عندما تركت رسالة على هاتفي. سترجع إلى هناك من أجلك. ورأيتُ كيف كنتَ تنظر إليها بعد جنازة هنريك. إنك مهتمٌّ بها".

"لا أعلم. ربما. هل تنصحني بهذا الشأن؟"

رفع يديه في مزاح بحركة استسلام. "النساء هنَّ نقطة ضعفي".

أضافت ستيفاني: "يمكنك أن تكرر ذلك. أنت ترمي الزوجات السابقات من الطائرة".

فابتسم.

قالت ستيفاني: "علينا أن نذهب. فالفرنسيون يريدون وضع يدهم على هذا وإنهاء المسألة".

وتوجهوا نحو المخرج.

قال مالون لسام: "هناك أمر لا يريحني. قالت لي ستيفاني أنكَ ترعرعتَ في نيوزيلندة، ولكنك لا تتكلّم مثل طائر الكيوي. فما تعليل ذلك؟"

ابتسم سام وقال: "إنها قصة طويلة".

كان هذا ما قاله تماماً البارحة عندما سأله سام عن اسمه كوتون. وكان هذا رده على هنريك عندما كان صديقه يسأله عن ذلك، ويعده دائماً بأن يشرح له الأمر لاحقاً.

ولكن للأسف ما عاد هناك من لاحقاً.

لقد أحبّ سام كولنز. لقد كان يشبهه كثيراً قبل خمس عشرة سنة، تقريباً عندما بدأ العمل على مشروع ماجيلان بيليت. والآن صار سام موظفاً للوكالة لم ينبت ريشه بعد - وعلى وشك أن يواجه الكثير من المخاطر والمجازفات التي تتسم بها طبيعة عمله الخطير.

كل يوم قد يكون اليوم الأخير في حياته.

قال سام: "ما رأيك في ذلك؟ سأخبرُك إن أخبرْتَني".

"اتفقنا".

1 الكوابيل: جمع الكابول (Cantilever): دعامة ناتئة مثبتة من طرف واحد [المترجم].